وقت للخيانة

الحياة المزدوجة المذهلة لعميل لوكالة المخابرات المركزية داخل الحرس الثوري الإيراني

بقلم

رضا كاهليلي

نقله إلى العربية

هشام صالح عبدالله

العبيكان
Obeikan

obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية

وادي wadi

للحصول على كتبنا الصوتية

Kitab Sawti
www.kitabsawti.com

دار ضاد للنشر الإلكتروني
WWW.DHAD.SA

للحصول على كتبنا الإلكترونية

أجهزة amazon kindle

Google Play

Original Title

A Time to Betray

The Astonishing Double Life of a CIA Agent

Inside the Revolutionary Guards of Iran

Author:

Reza Kahlili

Copyright © 2010 by Reza Kahlili

ISBN_10: 143918903X **ISBN_13**: 978_1439189030

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

Published by Threshold Editions, A Division of Simon & Schuster, Inc.,

1230 Avenue of the Americas, New York, NY 10020, USA

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع ثرشيد إديشنز، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية.

© العبيكان 2016 ــ 1437

ح **شركة العبيكان للتعليم، 1438 هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كاهليلي، رضا

وقت للخيانة: الحياة المزدوجة المذهلة لعميل لوكالة المخابرات المركزية داخل الحرس الثوري الإيراني/ رضا كاهليلي؛ هشام صالح عبدالله - الرياض 1438 هـ

352 ص؛ 16.5×24 سم ردمك: 978-603-509-106-0

1- الجاسوسية. أ. عبدالله، هشام (مترجم)

ب. العنوان

ديوي: 327,12 رقم الإيداع: 10491 / 1438

الطبعة العربية الأولى 1439هـ - 2018م

نشر وتوزيع العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض -

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: 4808654 966+ فاكس: 4808095 966+

ص.ب: 67622 الرياض 11517

www.obeikanpublishing.com

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكيــة، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

المحتويات

تنصل من المسؤولية 5

الفصل 1: حقائق أم أكاذيب 7

الفصل 2: ثلاثة أصدقاء 15

الفصل 3: الحضور إلى أميركا 35

الفصل 4: الشاه راح، الثورة 49

الفصل 5: الإمام الذي لا يقهر 63

الفصل 6: جنازة وعرس 73

الفصل 7: سجن إيفين 85

الفصل 8: تعهدات 95

الفصل 9: الدعاء 103

الفصل 10: الاسم الحركي (ولي) 117

الفصل 11: حيل المهنة 127

الفصل 12: تدريب على التجسس 143

الفصل 13: جاسوس يعود إلى الوطن 151

الفصل 14: أخوة السلاح 159

الفصل 15: آمال وأخطار 169

الفصل 16: حجاب 181

الفصل 17: تم تمرير الشعلة 191
الفصل 18: المتطرف 203
الفصل 19: شبهات 211
الفصل 20: شهيد آخر 223
الفصل 21: قريب جدًّا من البيت 235
الفصل 22: بعيدًا عن الوطن 249
الفصل 23: بيت الله 257
الفصل 24: أخ، أخي 267
الفصل 25: مغادرة الوطن 283
الفصل 26: عودة إلى البرد 293
الفصل 27: العين بالعين 303
الفصل 28: عميل مزدوج 309
الفصل 29: أخيرًا تحررت؟ 323
الفصل 30: وطن 333
الفصل 31: أميد، الأمل 343

تنصل من المسؤولية

هذه قصة حقيقية عن حياتي كعميل لوكالة الاستخبارات المركزية داخل الحرس الثوري الإيراني، إلا أنني بذلت كل ما في وسعي لإخفاء هويتي (رضا كاهليلي) ليس اسمي الحقيقي، وحماية أسرتي وشركائي، وللقيام بذلك كان من الضروري تغيير جميع الأسماء (باستثناء أسماء المسؤولين في جمهورية إيران الإسلامية)، وتغيير بعض الأحداث، والتسلسل الزمني، والظروف، والأماكن لتجنب الانتقام الذي يفرضه حكام إيران الإسلاميين ضد كل من يتحدى سلطتهم.

الفصل
1

حقائق أم أكاذيب

قلت: «هناك من يتعقبني»، اعتدل ستيف كلارك -عميل المخابرات المركزية- في جلسته، مال إلى الأمام وقد تجهمت تعابير وجهه، وقال: «يتعقبك»؟

حاولت ألا أجعل صوتي يعكس ما أشعر به من توتر: «نعم، اعتقدت أنني أتخيل ذلك، لكن الأمر تطلب مني تغيير خط سيري عدة مرات وكان من يلاحقني ما زال هناك، استغرقني الأمر ساعة للتخلص منه».

حملق العميل كلارك بعينيه الزرقاوين في وجهي قائلًا: «ولي، أريدك أن تكون واعيًا تمامًا للعواقب إذا ما سارت الأمور على نحو خاطئ، ستنكر حكومة الولايات المتحدة أي صلة بك، ولن يأت أسطول من البحرية لإنقاذك، آسف لأني أتكلم معك بفظاظة، لكن ينبغي عليك أن تفهم هذا، هل أوضحت ذلك»؟

ابتلعت ريقي بصعوبة وقلت: «نعم، فهمت»، كان من الصعب أن يغيب عني معنى رسالة العميل كلارك: وهي أنه في الإمكان التخلي عني بسهولة.

كان ذلك في العام 1891م، وكان قد مضى على تولي حكومة الثورة الإسلامية للسلطة في إيران ما يزيد على عامين، في ذلك الحين، كانت قد أحكمت قبضتها الوحشية على بلدي وشعبي؛ رأيت أصدقاء لي يُعدمون بدم بارد، نظرتهم الأخيرة حُفرت في ذاكرتي إلى الأبد؛ أما الآن، فأنا بعيد عن تلك الحكومة بقدر ما كنت بعيدًا منذ الثورة، وأعيش هنا في ملاذ آمن في مكان مرتفع في ماليبو، كاليفورنيا، مع حلقة اتصالي بوكالة المخابرات المركزية نعد الخطط لعودتي إلى وطني كجاسوس.

أعطاني أكبر جهاز مخابرات في العالم الاسم الرمزي (ولي)، وتعني بالعامية (شخص سخيف وغير كفء)، لم أفكر قط أن أسألهم عن سبب اختيارهم لهذا الاسم، كان

من الصعب على أن أصدق أنني أبدو (كولي) في أعينهم، لكن ربما كان ذلك سبب إطلاقهم هذا الاسم علي، المهمة التي طلبوا مني القيام بها قد تشكل خطرًا على أي إيراني؛ لكني لم أكن مجرد أي إيراني؛ كنت عضوًا في (السباه باسدران) المخيف، الحرس الثوري لآية الله الخميني.

الآن وبعد أن عرف العميل كلارك بأني قد فهمت بأنني سأكون في نهاية الأمر وحدي، تحرك قدمًا، قال: «لقد رتبنا لك كي تتدرب في أوروبا، وقد اخترنا لندن لأنك ذكرت بأن لك أنسباء يعيشون هناك، هذا لن يثير أي شبهة، في لندن، ستقابل الناس الذين سيكونون حلقة الوصل معنا هنا، وهم أناس طيبون، ولي».

ناولني قصاصة ورق عليها رقم هاتف للاتصال مع حلقة الاتصال الجديدة في لندن، وهي امرأة اسمها كارول؛ «لا تحاول أن تتصل بها من هاتف خاص مهما كانت الظروف؛ أجر اتصالاتك دائمًا من هاتف عمومي»، حملقت في الرقم مدة طويلة، محاولًا السيطرة على انفعالاتي؛ كنت مرعوبًا حين مرت بخاطري فكرة إلى أين ستقودني عودتي إلى إيران، الحرس الثوري يبحث في كل مكان عن الجواسيس، ليس هناك من هو فوق مستوى الشبهات، وسيكونون على الأغلب حذرين مني بشكل خاص حين أعود، فأنا لم أغادر البلد وحسب؛ بل ذهبت إلى الولايات المتحدة، العدو اللدود، هم يعرفون أني ذهبت إلى الجامعة في أميركا وأعطيتهم سببًا وجيهًا لوجودي هناك الآن، لكن من المؤكد أنهم سوف يستجوبونني حين أعود، فكيف سأصمد أمام تدقيقهم؟!

إذا قبضوا عليَّ، أنا أعرف ما سيحدث؛ لقد شاهدت ما يفعلونه بالجواسيس ومعارضي الحكومة، يقوم الحرس الثوري بجرهم، ويغتصبون نساءهم وأولادهم أمامهم، ويقتلعون حبات عيونهم، كل ذلك لحملهم على الكلام، فكرت في زوجتي سمية، وارتعشت، كما يفعلون كل يوم، جاءتني تلك التصورات مما شهدته في سجن إيفين سيئ الصيت الذي تحتجز فيه الحكومة السجناء السياسيين، كانوا يستعرضون الفتيات المراهقات أمامي وهم يقودونهن إلى حتفهن؛ فتيات بالكاد تجاوزن سن الطفولة، بالكاد بلغن من العمر ما يمكنهن من التفكير لأنفسهن، فكيف يمكنهن أن يفكروا في شيء ضد الدولة ولا يعرفن شيئًا عن مكائد السياسة؛ إنهن بريئات بكل ما في الكلمة من معنى، ومن المؤكد أنهن بريئات أيضًا من التهم

الملفقة التي قادت إلى اعتقالهن، ومع ذلك فإنهن يواجهن مصائر قاسية حتى بالنسبة لعتاة المجرمين، لن تعرف أي واحدة من هؤلاء الفتيات مباهج الحب الرومانسي، ولن تحمل أي واحدة منهن طفلها بين ذراعيها، اللحظات القليلة الباقية من حياتهن ملئت بمستويات من سوء المعاملة قلة من الناس تستطيع تصورها.

«ولي»؟ أيقظني العميل كلارك من أفكاري، وأدركت أنه كان يراقبني بينما كنت أحملق في الفضاء، «نعم»؟ «ثمة أمر آخر، ولا أريدك أن تأخذه على محمل شخصي، إنه مجرد جزء من الإجراءات التي ينبغي علينا المرور بها»، جلا حنجرته ثم أضاف: «يجب أن تخضع لاختبار كشف الكذب».

لم أعترض، وهو أمر منطقي بالطبع، فقد يكون العميل كلارك مرتاحًا من جهتي وواثق من دوافعي، لكني لو كنت جاسوسًا محترفًا لحساب الحرس الثوري، لدربوني على التصرف مثل تصرفي بحضور وكالة المخابرات المركزية بالضبط، كان اختبار الكذب بمثابة ضمان.

رتب العميل كلارك من أجل القيام بالاختبار في فندق هاسيندا في مدينة إل سيكويندو، إلى الجنوب من مطار لوس أنجلوس الدولي، دخلت عبر المطعم، حسب التعليمات، ومشيت نحو القاعة الخلفية، التي تقود إلى صف من المصاعد، من هناك توجهت إلى الغرفة 704، مستخدمًا درجات السلم بدلًا من المصعد للتأكد من أن أحدًا لا يتبعني.

في الغرفة، استخدمت المفتاح الذي أعطاه لي العميل كلارك، دخلت لأجد أنه قد سبقني.

وصل العميل الذي سيُجري الاختبار بعد ذلك بوقت قصير، كان يحمل حقيبة كبيرة، لم يعرِّف عن اسمه، واكتفى بإيماءة، لاحظت أن عقدة ربطة عنقه الرفيعة مشدودة للغاية.

وبالرغم من أنني لم أكن أخفي أي شيء عن وكالة المخابرات المركزية، فقد بدأت أشعر بشيء من الخوف، لا بد أن العميل لاحظ ذلك؛ لأنه ابتسم وطلب مني أن أهدأ، الأمر الذي لم يكن سهلًا بالنسبة لي، فما إن أفرغ العميل معداته، حتى بدأ قلبي يخفق بشدة، نظرت إلى العميل كلارك فحدجني بنظرة مطمئنة، لكنها لم تفعل الكثير لتهدئتي.

شرح العميل الآخر العملية لي، أخبرني عن دور كل واحد من الأسلاك العديدة الخارجة من الماكينة، كان العميل يقرأ جهازي العصبي، الذي أعددت نفسي للسيطرة عليه، بالرغم من أنني لم أفلح تمامًا في القيام بذلك، نظرت إلى الباب، لوهلة فكرت في أن أهرع إليه، فقد أجد مكانًا آمنًا لا تجدني فيه لا المخابرات المركزية الأميركية ولا الحرس الثوري، ثم تذكرت الإعدامات، الشنق، والتعذيب، وأصدقائي، فعاد إليَّ تصميمي بل أكثر من أي وقت مضى.

طلب من العميل الجلوس ورفع أكمام قميصي، ربط الأسلاك من الماكينة إلى ذراعي، ورسغي، وأصابعي، وصدري، وبدأ العرق يتشكل على جبهتي، «يمكنك أن تهدأ، ولي»، قال العميل، «فهذا لن يؤلمك».

انتقل العميل كلارك إلى الغرفة الثانية من الجناح، مغلقًا الباب خلفه، طلب العميل الآخر مني أن أنظر أمامي مباشرة، جلس إلى يميني، وعدل جلسته مرتين، وقال إنه سيسألني بعض الأسئلة؛ وكل ما عليَّ فعله هي الإجابة بنعم أو لا، مال إلى الأمام، مركزًا باهتمام لدى خروج لفافة من الورق من الماكينة، وقلمه جاهز لتسجيل الملاحظات.

«هل اسمك رضا كاهليلي»؟

«نعم».

«هل عمرك سبعة وعشرون عامًا»؟

«نعم».

«هل ولدت في إيران»؟

«نعم».

«هل أنت متزوج»؟

«نعم».

«هل تعمل مع الحرس الثوري»؟

«نعم».

«هل طلبوا منك الحضور إلى هنا»؟

«لا».

«هل ساعدوك في خطة سفرك»؟

«نعم».

«هل طلبوا منك الاتصال بنا»؟

«لا».

«هل اتصلت بالحرس خلال وجودك هنا»؟

«نعم».

«هل أخبرتهم عن هذا الاجتماع»؟

«لا».

لاحظت أن العديد من الأسئلة تبدو متكررة، وبفارق طفيف عن بعضها، تساءلت إن كان العميل يحاول أن يخطئني.

«هل تعلم زوجتك أنك هنا»؟

«تعلم أنني في أميركا لكنها لا تعرف أنني معكم».

«واصل الإجابة بنعم أو لا، رجاء، هل يعرف أحد عن اتصالك بالمخابرات المركزية الأميركية»؟

«لا... حسنًا، نعم... لا أحد سوى عملاء المخابرات المركزية».

لم يدعني أكمل، «فقط نعم أو لا، ولي».

كنـت أتصبـب عرقًا عند هذه المرحلة، مـا جعل الأماكن التي وضع فيها العميل أقطابه الكهربائية تحكني، راقب العميل تعديلي لجلسـتي ثم سـجل ملاحظة، تسـاءلت في سري عن مدى السوء الذي ألحقته عصبيتي بفرصي.

قلب العميل صفحتين من دفتر ملاحظاته، وبدا كانه يريد القفز إلى الأمام، «هل كنت داخل سجن إيفين»؟

«نعم».

«هل اغتصب المحققون عذراوات قبل إعدامهن»؟

«أنا... أنا لم أدرك أن العميل كلارك سيخبرك».

«نعم أو لا، رجاء، ولي».

بلعت ريقي بينما تدافعت الذكريات الواحدة تلو الأخرى، نظرة بارفانا الأخيرة نحوي، ورسـالة رويا، «نعم، كانوا يغتصبون العذراوات قبل إعدامهن؛ لأنهم يعتقدون بأن العذراوات يذهبن مباشرة إلى الجنة».

«ولي، رجاء، أجب بنعم أو لا فقط، هل شاهدت ذلك»؟

«لا».

«هل شهدت عمليات تعذيب وإعدام في سجن إيفين»؟

بالرغـم من صوت مكيف الهواء، كان بوسـعي سـماع ناصر ينـادي رضا، فأطلقت زفرة بطيئة، وقلت، «نعم».

أعاد العميل صفحتين من دفتر ملاحظاته إلى حيث كانتا.

«هل عملت مع الحرس الثوري كرئيس لمهندسي الحاسوب»؟

«نعم».

«هل حصلت على هذا المنصب بواسطة كاظم العبادي»؟

«نعم».

«هل كان كاظم العبادي صديق طفولة»؟

«نعم».

«هل كان ناصر هوشمند صديق طفولة أيضًا»؟

«نعم».

«حسب علمك، هل كاظم مؤيد لأهداف الحرس الثوري»؟

«نعم».

«حسب علمك، هل كاظم متنبه إلى أنك لا تشاطره معتقداته»؟

«لا».

«حسب علمك، هل يعتبرك كاظم مؤيدًا لأهداف ومُثل الحرس الثوري»؟

«نعم».

«هل أقسمت على البقاء مؤيدًا للحرس الثوري، بما في ذلك عهدًا بأن تصبح شهيدًا في سبيل آية الله الخميني»؟

«نعم».

«هل يعي كاظم أنك أخذت على نفسك هذا القسم»؟

«نعم».

«هل تعتبر أن من غير الأخلاقي أن تنتهك عهدًا اتخذته على نفسك لصديق»؟

أحسست بغصة في حلقي مع ضيق في صدري، أغرورقت عيناي بالدموع، غادرت منزلي وأنا عضو محترم في الحرس الثوري المميز، وسوف أعود جاسوسًا، خائنًا لوطني،

كنت أعلم أنه لو كان والدي حيًّا وعرف ما الذي أفعله، فسوف يتخلى عني، وأعرف أن جدتي التي ربتني على أن أكون مسلمًا ملتزمًا وأن أكون صادقًا وجديرًا بالثقة، ستشعر بالعار مني.

من خلال هدير الدم في أذني، سمعت العميل يسأل: «هل تود أن أعيد عليك السؤال»؟

كيف يمكنني أن أكون جاسوسًا إن كنت لا أستطيع إخفاء مشاعري وإعطاء إجابات سريعة على أسئلة مستفزة؟ لقد التحقت بالحرس الثوري بنيَّة صافية، آمنت في بداية الثورة بأن الحركة الإسلامية منصفة وعادلة، تحمل وعدًا بإنقاذ الأمة، لكني بدلًا من ذلك شهدت الوحشية، والقتل، والأكاذيب التي كانت تقترف باسم الله، شهدت دمار أمة، لهذا السبب، كنت على وشك الشروع في حياة من الخيانة، سوف أكذب على زوجتي، وعلى أهلي الذين أحبهم أكثر من أي شيء آخر، وسوف أعرض حياتهم للخطر دون إعطائهم فرصة لحماية أنفسهم.

«ولي»؟

رأت فيَّ المخابرات المركزية الأميركية هدية من السماء، ورصيدًا كانوا بحاجة إليه يوم كانوا يكافحون لفهم التهديد الذي أصبحته إيران بالنسبة لهم، فإذا قُدِّر لي أن أساعدهم، فإن عليهم أن يعرفوا ما الذي استفزني، إلا أنني حتى ذلك الحين لم أكن متأكدًا من قدرتي على التعبير عما في نفسي لهم، كيف أجعلهم يفهمون سبب مخاطرتي بأسرتي وخيانة أصدقائي لأنقذ بلدي إن كنت أنا نفسي غير متأكد؟

لأول مرة منذ أن بدأت هذه الرحلة تفجرت الدموع من عيني وسالت على وجنتي.

«ولي»، قال العميل بصوت رقيق: «هل تعتبر أن من غير الأخلاقي أن تنقض عهدًا لصديق»؟

شطر السؤال روحي إلى نصفين.

«ولي»؟

لأنه كان للشخصين في داخلي جوابين متعارضين، الله لن يرسل نصفي إلى الجحيم.

«رضا»؟

الفصل

2

ثلاثة أصدقاء

1966م

«رضا!»

فركت عيناي وفتحتهما متثاقلًا، كانت جدتي، خانم بوزورج، تزيح الستائر جانبًا،

«انهض يا بني توشك الساعة أن تصبح الثامنة».

«الوقت مبكر جدًّا يا جدتي، اتركيني أنام مزيدًا من الوقت».

«جاء ناصر إلى الباب مرتين، ألا تريد أن ترى أصدقاءك؟ انهض الآن، الضيوف على وشك الوصول»، «لن يكونوا هنا قبل المساء».

لم يكن لاحتجاجاتي أي وزن معها، لكزتني جدتي في وجهي ونزعت الغطاء عني قبل أن تغادر الغرفة.

اليوم هو عاشوراء، وهو اليوم الذي يندب فيه المسلمون الشيعة الإمام الحسين، الإمام الثالث للشيعة، وحفيد النبي محمد بالقصص والاحتفالات العظيمة، كانت جدتي تقيم احتفال (روضة خوني)، وهو مناسبة لرثاء الحسين، استيقظت على صوت جلبة حول المنزل، كانت جدتي قد بدأت الإعداد للمناسبة قبل أيام، وهي تواصل تحضيراتها الآن بنشاط محموم، وقامت، بمساعدة من أفراد الأسرة والجيران، بإخراج الأثاث من صالة المعيشة؛ لأنها كانت ستستضيف عددًا كبيرًا من الناس، ووضعت على السجاد الفارسي وسائد ملونة باللونين البني والعنابي مع مساند كبيرة تحاكيها في اللون، أسندت إلى الجدار لمزيد من الراحة، في هذا المساحة التي فتحت حديثًا، كان في الإمكان استيعاب أكثر من مئة ضيف.

ذهبت إلى المطبخ حيث أعدت جدتي طعام الإفطار لي، صنعت لي كوبًا من الشاي الساخن وقطعة من الخبز الرقيق على شكل لفافة حشتها بالزبدة ومربي الكرز، وهو المفضل لدي، كان المطبخ في حالة فوضى تامة، أوعية ضخمة من النحاس ممتلئة بالطعام مصفوفة على الأرض، أعدت جدتي وهي طباخة ماهرة ومضيفة رائعة وليمة لذلك اليوم، حتى إنها استخدمت خادمات عدة إضافة إلى المساعدين المعتادين كي يشعر جميع ضيوفها بالراحة.

ملأت رائحة الطعام الذي أعدته أرجاء المنزل، وربما أرجاء الحي أيضًا، طهت وصفة (قيمة بلو)، وهي عبارة عن أرز وبسلة مقطعة ولحم؛ و(بقالي بلو) وتتكون من الفول الحب والأرز، وقطع من لحم العجل بالعظم؛ و(فسنجون)، حساء الجوز مع الرز الأبيض، وأعدت ما يكفي لإطعام جميع الضيوف لأيام عدة.

بالرغم من أن منزل والداي لم يكن يبعد أكثر من بضعة مبان في آخر الشارع نفسه، إلا أنني كنت أقضي معظم وقتي خلال تلك المرحلة من حياتي في منزل جداي لأبي، حتى إنهما خصصا لي غرفة هناك، كان والدي ووالدتي يعملان، حتى ساعة متأخرة من الليل في بعض الأحيان، وحيث إنني الابن الوحيد، وفي الثانية عشرة من عمري، فقد كنت لا أزال صغيرًا، وبحاجة لمن يرعاني، كنت أحب قضاء الوقت مع جدي وجدتي، فقد كانت خانم بوزورج تعد لي طعامي المفضل، وتروي لي القصص، وتطلب من خادماتها تنظيف غرفتي وغسل ملابسي، لم يكن عليَّ فعل أي شيء في هذا المنزل ما لم تعاقبني لخطأ ارتكبته.

آغا جون (جدي) كان بمثابة أب ثان بالنسبة لي، كانت عبارته المفضلة: «اكبر في السن أيها الفتى»، في ذلك الحين، كنت أتساءل عن سبب تمنيه لشاب صغير أن يكبر في السن، لكن جاء يوم وفهمت ما كان يعنيه بعبارته هذه، وفي حين كانت جدتي حازمة، كان جدي يجد الوسيلة لتخليصي من قبضتها حين أقع في مأز.

أحد أسباب حبي البقاء في بيت جدي هو سكن ناصر في المنزل المجاور، تعود صداقتي له لأبعد مما أستطيع أن أتذكر، فقد نشأنا معًا، ولعبنا معًا، وذهبنا إلى المدرسة نفسها معًا، وتسكعنا بعد المدرسة معًا، في كل يوم تقريبًا، جدي وداود، والد ناصر، كانا صديقين

بالرغم من الفارق الكبير بين عمريهما، كانا يستمتعان بالعمل في الحديقة ومراقبة الطيور معًا، كان لديهما في المنزل طيور كناري يستطيعان تقليد أصواتها بصفير غير عادي.

أحب داود أطفاله الثلاثة، وكان يتفاخر دائمًا بعلامات ناصر المدرسية، وجهود سهيل الابن الأصغر الفنية، ويقول دائمًا بأن سهيلًا سيصبح مشهورًا ذات يوم مثل دافنشي، بولادة ابنته الوحيدة (بارفانا) وتعني بالفارسية الفراشة، احتفل داود بالحياة مجددًا، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنها جلبت الجمال والألوان إلى حياته، وكان دائمًا يحمل الطفلة معه حين كان يزور جدي، أما والدة ناصر، فكانت امرأة منزوية، نادرًا ما كانت تشارك في تجمعات جدتي.

بعد تناولي طعام الإفطار، خرجت راكضًا إلى منزل ناصر، كنا قد خططنا لمقابلة صديقنا كاظم، كنا أنا وناصر في الثانية عشرة من العمر، وكاظم يصغرنا بسنة واحدة؛ تجمع المراهقين هذا أعطانا فرصة لإثارة المشاكل وتوقعنا أن نقوم ببعض منها اليوم.

حين وصلت إلى منزل ناصر، كان في ساحة الدار يطارد الضفادع، وضعت رأسي بين قضبان السياج الحديدية وناديت عليه باسمه:

«هيا؛ دعنا نلحق بكاظم».

«انتظر، أكاد أمسك بهذا الضفدع»؟

كان يدور ذات اليمين وذات الشمال ويقفز هنا وهناك مطاردًا الضفدع، تمكن في النهاية من الإمساك به، وما إن فعل حتى هرع راكضًا نحوي، التمعت عيناه البنيتان الكبيرتان في ضوء شمس الصيف، ابتسم ابتسامة عريضة وهو يمد ذراعه ليريني صيده.

قلت له حانقًا: «ناصر، أنت تضيع الوقت في مطاردة الضفادع! سيبدأ الضيوف في الوصول قريبًا».

وضع ناصر صيده البرمائي في جيبه هازًّا كتفه: «حسنًا رضا، هيًّا بنا».

أخذ يصفر بمرح في أثناء سيرنا، نسمة منعشة من الجبال حركت الأشجار العالية المصطفة في شوارعنا، وتدفقت مياه من ذوبان الثلوج عبر جدول شق طريقه متعرجًا عبر أحراش التوت والعليق البري خلف منزل جدي، ليخلق غديرًا شاعريًّا كان في وسعي أنا وناصر أن نلهو فيه.

كنَّا نسكن في حيٍّ راق غزير النباتات إلى الشمال من طهران، عاصمة إيران، وكان منزل جدَّاي في نهاية شارع طويل ضيق تصطف على جانبية عقارات ذات بوابات، لم يكن في وسع المرء رؤية بعض المنازل الكبيرة من الشارع، حيث إن جدران عالية من الطوب أو الأشجار كانت تخفيها، وفي أثناء سيرنا في تلك المنطقة، كنَّا دائمًا نسترق النظر من خلال البوابات للتعرف على مساحات من المناظر الخلابة، والبرك، والشلالات، وبرك السباحة، كنت أشعر بالفخر لأني أسكن في مكان جميل كهذا.

تلك المنطقة قريبة من سفوح سلسلة جبال ألبرز، ويقع قربها قصر سعد آباد، الذي بُني خلال حقبة حكم سلالة القاجار في القرن التاسع عشر، سكن فيه رضا شاه في عشرينيات القرن العشرين، وانتقل إليه ابنه محمد رضا شاه بهلوي، الشاهنشاه، وملك الملوك، في سبعينيات القرن.

لم يكن منزل ناصر يبعد أكثر من مسيرة 30 دقيقة عن منزلنا، لكنه من جوانب عدة كان يبدو من عالم آخر، في ضاحيته، كانت الحفر تملأ الشوارع الإسفلتية، وبوابات خشبية محطمة تميز مداخل الجدران الطينية المحيطة بالمنازل الصغيرة، وعدد قليل من الأشجار الصغيرة تنتصب على طول ممرات المشاة، الغدير نفسه الذي يجري بمحاذاة منزل جدي كان يمر في هذه الضاحية أيضًا.

حتى في سنِّنا ذاك، كان من الصعب ألا نلاحظ الفارق في مستوى المعيشة، صبية جياع يجلسون في الشارع بملابس قذرة، ممزقة، والذباب يحوم حول قشور جافة من القذارة فوق أنوفهم وأعينهم، وكانت أمهاتهم يحملن الغسيل على رؤوسهن في أوعية كبيرة من الألمنيوم، وكنا نرى نساء يبادلن الخبز الجاف وقروش قليلة ببعض من ملح البحر الذي يحمله التجار الجوالون في أكياس فوق سروج حميرهم، كان التجار يستخدمون الخبز

لإطعام الحمير، أما القروش فهي المصدر الوحيد لدخلهم، وفي حين كان الرجال يتجادلون حول مسألة شراء سيارات أميركية أو ألمانية الصنع، كان الرجال في ضاحية كاظم يمتلكون دراجات قديمة، أو كما هو الحال بالنسبة لوالد كاظم، شاحنة صغيرة ذات ثلاث عجلات.

لم تكن الفوارق اقتصادية وحسب، النساء هنا يتلفعن بالشادور، بخلاف النساء في أسرنا والأسر العديدة في إيران، اللواتي يرتدين ملابس فاخرة غربية الطراز، ويغطين شعورهن بشال فضفاض في مناسبات خاصة، مثل مجالس العزاء والجنازات.

لدى اقترابنا من منزل كاظم، شاهدناه مع أمه يرافقان الملا عزيز خارج المنزل، انحنت والدة كاظم وهمست بكلمات في أذنه، فتقدم في اتجاه الملا، وأمسك يده، ثم أنحنى وقبلها، كانت تلك طريقته في شكر الملا عزيز على تدريسه القرآن، وحين شاهدنا لم يبد عليه أي خجل، لم يشعر بأي إحراج لرؤيتنا له وهو يقبل يد الملا، كما كان سيحدث لو رآنا أنا وناصر نفعل ذلك، الواقع أنه ابتسم بفخر.

تعرفنا على كاظم قبل عام من ذلك التاريخ خلال أمسية صيف حارة، وهو ابن القصاب المحلي، وبالرغم من أنه مجرد صبي في العاشرة، فقد كان يعمل لحساب والده بعد المدرسة وخلال العطلات الصيفية، كنا أنا وناصر نلعب الكرة خارج منزل جدي مع عدد من الصبية من أبناء حيِّنا حين قام كاظم بإيصال طلبية من اللحم لجدتي، جلس بعدها على الرصيف يتفرج على لعبنا، كان قصيرًا ونحيلًا وقد بالغ في تقصير شعره لدرجة بدا رأسه المستدير وكأنه أصلع، عيناه الداكنتان الحزينتان كانتا تتابعان الكرة وفي كل مرة يقوم أحدنا بلعبة سيئة كان يقهقه ضاحكًا.

بعد أن تكرر ذلك مرات عدة، رمى ناصر الكرة إليه وطلب منه أن يرينا بعضًا من حركاته، قفز كاظم بحماس عن الرصيف وراح يتلاعب بالكرة بقدمه عشر، وعشرين مرة دون أن يسقطها أرضًا، ثم بحركة رشيقة ركل الكرة فوق رأسه ليعيدها بضربة برأسه إلى ناصر.

تبادلت وناصر النظرات مندهشين، في تلك اللحظة، طلبنا منه الانضمام إلى فريقنا الكروي، وافق كاظم فرحًا، شرطه الوحيد كان أنه لا يستطيع اللعب معنا خلال شهر رمضان؛

لأن والدته تصر عليه كي يصوم، وجدت صعوبة في تصديق أن يضع أي صبي التزامه الديني فوق لعب كرة القدم، لكن لم يكن أمامنا من خيار إلا أن نقبل.

«أيها الملا، هل تسمح لي بأن أقبل يدك». قال ناصر مداعبًا كاظم، ونحن نغذ الخطى عائدين إلى بيت جدي؛ بلفتة مهيبة مد كاظم يده لناصر قائلًا: «ليسامحك الله على فظاظتك، يا ولدي، عليك أن تنحني وتقبل يدي الآن». ثم ضحك.

مد ناصر يده إلى جيبه بسرعة ووضع الضفدع في يد كاظم الممدودة، صرخ كاظم مبتعدًا، وقفز الضفدع على الأرض وفرَّ هاربًا، اضطر ناصر للضغط على معدته من شدة الضحك.

«ماذا دهاك»؟ قلت مع صفعة خفيفة على ظهر ناصر، «لماذا فعلت ذلك»؟ أنا أيضًا لم أكن أحب لمس الضفادع؛ لذلك تعاطفت مع كاظم على الفور.

«كفاك يا رضا، أنت جبان، أنتما الاثنين جبناء، إنه مجرد ضفدع»، لف ناصر ذراعيه حولنا، واحتضننا بقوة.

في أثناء ذلك سمعنا وقع حوافر حمار، التفتنا لنرى الملا عزيز يمر بنا، كانت ساقاه القصيرتان معلقتان على جانبي الحيوان وصندله يتلقلق في قدمه، أشار ناصر إلى الثقب في جورب الملا وضحكنا ثلاثتنا، كنت أعرف بأن الملا في طريقة إلى بيت جداي، للقيام بمراسم (روضة خوني)، تعدُّ هذه الاحتفالات فرصة عمل بالنسبة إلى ملالي الحي الذين يعيشون بوضع أقرب إلى الفقر؛ لذلك فإن الإكرامية التي يتلقونها مقابل هذه المناسبة (والتي تعادل دولارًا أو اثنين) كانت تعني الكثير بالنسبة لهم.

بعض المسلمين -من أمثال أسرة كاظم- كانوا ينظرون إلى الملالي باحترام كبير ويتبعون تعاليمهم بدقة، إلا أن معظم الناس- من أمثال أسرتي وأسرة ناصر- لم يكونوا يعدُّون هؤلاء الملالي أكثر من دعاة متدني المستوى يساعدونهم على ممارسة معتقدهم وتلبية واجباتهم الأخلاقية، لم يكن جدي يحبهم، وسمعته ذات مرة يقول: «راكبو الحمير هؤلاء يجب نقلهم جميعًا إلى مدينة قم؛ ليعلِّموا كل هذا الكلام الفارغ، يجب وضعهم في

مجمع وألا يسمح لهم بالوعظ إلا هناك»، ثم في لحظات من توقع غد مقبل رهيب، كان يضيف: «أرجو ألا يقدِّر الله، وأن يصلوا إلى سلطة الحكم قط».

ما إن تجاوزنا الملا عزيز حتى قابلتنا «دستة»، وهو استعراض للندب من رجال يرتدون ملابس سوداء، يسيرون عبر الزقاق حاملين الرايات وينشدون آغان تتفجع على استشهاد الإمام الحسين، جلسنا على الرصيف وشاهدناهم يمرون، على جوانب الزقاق وقف بعض النسوة يحملن أباريق كبيرة من شربات الكرز كن يقدمنها للرجال الذين كانوا يتصببون عرقًا بسبب الحر، كان بعض الرجال يلطمون صدورهم بأيديهم، وبعضهم يضربون ظهورهم التي أُدميت بسلاسل صنعت خصيصًا لهذه المناسبة، كجزء من مراسم الاحتفال.

«ما الذي حدث، رضا»؟ قال كاظم حين رأى رد فعلي على هذا، «لماذا تغيرت تعابير وجهك»؟ كنت أشعر بالغثيان، آغاني الجنازة ومنظر الكثير من الظهور المغطاة بالدماء جعلتني أسكت، كنت أحاول دائمًا تجنب «الدستة»، وأحاول البقاء داخل المنزل إذا جاءت إلى حينا، بالرغم من أنها من الأمور المعتادة في مناطق مثل حي كاظم.

تجنبت الرد على سؤال كاظم لأني أعرف أن رده على مثل هذه المشاهد مختلف جدًّا عن رأيي، «ينبغي علينا الذهاب الآن»، قلت وأنا أجذب قميص ناصر، «إذا انتظرنا هنا حتى تمر (الدستة)، فلن نصل المنزل في الوقت المناسب، ثم انظر الملا عزيز ينطلق».

كان الملا على الجانب الآخر من الطريق، جالسًا على حماره، يراقب الحشد ويداعب حبات سبحته، نهض ناصر، ونظر في اتجاه الملا، وسحب كاظم من ذراعه.

«هيا بنا»، قال مشيرًا إلى طريق ضيق وهو يبتسم بخبث: «دعونا نصل إلى المنزل قبل الملا عزيز، أعرف طريقًا مختصرًا، من هنا، رضا! كاظم!».

تبعنا ناصر، ونحن نركض لاهثين، وتمكنا من الوصول إلى منزل جدي قبل الملا.

داخل المنزل، وجدنا أن الضيوف وصلوا بالفعل، النساء في صالة المعيشة والرجال في غرفة مجاورة، بعض الصبية كانوا يلعبون في ساحة المنزل والأطفال الصغار في الداخل مع أمهاتهم. «تعالوا يا شباب»، قال ناصر حين لاحظ وصول الملا: «لقد وصل».

ترجل الملا عن حماره وربطه إلى شجرة عند نهاية الطريق المعبَّد قرب سيارة جدي وهي كاديلاك ديفيل بيضاء موديل 1955م، كان جدي يحب تلك السيارة ويوصي السائق بأن يحافظ عليها وكأنها جديدة، رؤية حمار الملا يضرب بحوافره ويرفس الغبار على السيارة كانت ستصيبه بالفزع.

شق الملا عزيز طريقه عبر ممر اصطفت على جوانبه قوارير مزروعة بنبتة إبرة الراعي، يقود إلى درجات السلم ومنها إلى مدخل الشرفة، وبينما كان الجميع ينتظرون بدء الموعظة الدينية داخل المنزل، كنا نحن الثلاثة نحتمي خلف الكاديلاك، لم أكن أعلم حتى تلك اللحظة ما الذي يدور في ذهن ناصر، لكنه بدا مستعدًّا لأن يتفجر إثارة.

فتح جدي الباب ذا الدرفتين للترحيب بالملا عزيز، دخل الملا واتخذ مكانه بسرعة أمام رف موقد غرفة المعيشة تحت صورة الإمام علي، إمام الشيعة الأول، وكانت جدتي قد وضعت وسادة خاصة له هناك.

«حسنًا أيها الشباب»، همس ناصر: «كاظم، ابق أنت هنا أمام سيارة آغا جون وتأكد أن لا أحد يرانا، إذا رأيت شخصًا قادمًا صفِّر مرتين، رضا، أنت تعال معي»، وافق كاظم أن يشاركنا على مضض، وبدا عليه عدم الارتياح من القيام بأي شيء يكون الملا عزيز ضحية له، وكما هو الحال دائمًا مع كاظم، لم يكن يتطوع للبدء بأعمال شقية، إلا أنه لم يكن يتراجع أيضًا.

زحفت أنا وناصر في اتجاه الحمار، قبضت على الرسن في حين فك ناصر اللجام، لم يتحرك الحيوان، رفسه ناصر في ساقه؛ لكنه لم يتحرك، شددت ذنبه، فأدار الحمار رأسه ونهق في وجهي.

«لن يذهب إلى أي مكان»، قال كاظم ضاحكًا، التقط ناصر عصا صغيرة من الأرض وضرب الحمار على قفاه، وهذا ما جعل الدابة تتحرك أخيرًا، ومع تحرر الحمار من قيوده وانطلاقه راكضًا، بدأ ثلاثتنا في مطارده هذا الحيوان المنكود عبر الشارع، ونحن نقهقه ضاحكين.

«ها هو حمار الملا عزيز طراز 1965م، ينطلق نازلًا من التل من دون كوابح»، قال ناصر.

بعد أن اختفى الحمار، ركضنا عائدين إلى الداخل، منتشين بنجاحنا، وقررنا أن نبدو بريئين قدر الإمكان.

في تلك الأثناء، كان الملا عزيز قد باشر عمله، وبعد أن عدل عمامته بضع مرات، أغلق عينيه، ورفع ذراعيه البدينتين نحو السماء، وبدأ المراسم بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم، ثم بدأ في رواية قصص حزينة عن استشهاد الإمام، كان ذلك مبهرًا بالنسبة للنساء، وفي غضون دقائق، جعلهم الملا عزيز يجهشون بالبكاء بأدائه الحزين، في تلك الأثناء، وفي القاعة الأخرى، كان جدي يسخر منه ومن أدائه، ويهمس في أذن والدي، «ابن (...) يروي قصة الإمام الحسين وكأنه شهد استشهاده بنفسه!»

بينما النساء في حالة من الهيام الروحي، اختلس الملا عزيز النظر إليهن، مسح لحيته فاحمة السواد بأصابعه، ونقل بصره في أرجاء الغرفة إلى أن وقعت عيناه على اثنتين من قريباتي، هالة ومنى، عرفت أنهن قد أحدثن جلبة حين دخلن قاعة النساء لأنهن كن يرتدين ملابس مكشوفة للغاية، كانت منى ترتدي ثوبًا قصيرًا، ضيقًا، بلون أخضر فاتح، وهالة ترتدي بلوزة من الدانتيل الأسود وتنورة قصيرة، الفتاتان كلتاهما كن يضعن أحمر الشفاه، وظل أخضر اللون للعيون، وبودرة خدود وردية اللون، وكنوع من التنازل لحرمة المناسبة، وضعن حجابًا شفافًا رقيقًا فوق شعرهن المرفوع إلى أعلى، وحين اقترب الملا عزيز من نهاية موعظته، نظر إلى قريباتي مجددًا وغمز بعينه، نظرت هالة إلى منى مصدومة وأخذتا تقهقهان.

شاهد ناصر ما حدث فقطب وجهه، كان ناصر شديد الإعجاب بهالة بالرغم من حقيقة أنها تكبره بثماني سنوات، «ملا غبي، همس قائلًا» «آمل ألا يجد ذلك الحمار قط».

بعد أداء الملا، قدم الخدم أطباق الطعام على سفرة، هي عبارة عن غطاء طاولة من القماش نشر على أرض القاعة، ملأنا أطباقنا وأكلنا في ساحة المنزل، بقي الملا في الداخل يستمتع بأكبر طبق من الطعام أعدته جدتي خصيصًا له.

بعد الانتهاء من الطعام، تمددنا على المقعد الطويل قرب بركة أسماك جدي وتحدثنا عن مباراة الكرة القادمة التي سنخوضها، انتشر الضيوف في أرجاء ساحة الدار، وبدأ

بعضهـم في الاسـتعداد للمغادرة، وتجمـع آخرون في مجموعات صغيـرة يتجاذبون الحديث، وتطوعـت مجموعة للمسـاعدة فـي التنظيف، وكنت قد نسـيت تقريبًا ما فعلنـاه بحمار الملا عزيز حين سمعت صوت جدتي يرعد.

«رضا...! رضا...».

جـاءت إلينا تعض شـفتها، ويداها حـول خصرها، وتخبط الأرض بقدمها، نظرت إلى ناصر ثم إلى كاظم، «كيف عرفت أننا من فعلها»؟ قلت هامسًا، عرفت أنني سأواجه مشكلة، لكننـي مـا كنت لأخون صديقيَّ، فقد أقسـمنا على البقاء أصدقاء إلى الأبد، وألا يشـي أحدنا بالآخـر، هربـت إلى داخل المنزل واختبأت خلف جدي، بالرغم من شـعوري بأنه حتى هو لن يستطيع إنقاذي هذه المرة.

«رضـا! سـألقنك درسًـا جيدًا هذا المسـاء»، قالت جدتي بهـدوء ينذر بسـوء، «أما الآن اذهب أنت وأصدقاؤك واعثروا على الحمار».

بالرغـم مـن أنني لم أخن أصدقائـي، لكنها عرفت أننا نحن الثلاثـة متورطين، وكانت هـي الوحيـدة التـي تمتلك سـلطة معاقبتي، مع أننـي قادر على تحمل أسـوأ أشـكاله، خرجنا للبحث عن الدابة ووجدناها في مكان قريب قرب قناة لتصريف المياه، لا بد أن الحمار كان محتـارًا للغاية يتسـاءل عما حل بصاحبـه، أعدنا الحمار إلى البيت حيث كانت جدتي تعتذر بشـدة للمـلا عزيـز عـن تصرفنا، ويبـدو أن هـذا كان كافيًـا لتهدئته، خاصة حيـن قدمت له جدتي سلة كبيرة من الطعام والفاكهة ليأخذها إلى بيته.

كان يمكـن لجدتـي أن تضربنـي لعملـي الطائش، ولـم أكـن في الواقـع أمتلـك أي عذر مشروع، لكن العقاب الذي اختارته كان مهينًا أكثر بكثير من الضرب، جعلتني أساعد النساء في المطبخ تلك الليلة، وفرضت عليَّ تنظيف الحديقة في اليوم التالي.

«ستحبس أيضًا في غرفتك لبضعة أيام، لا كرة قدم أو لعب في الخارج»، قالت جدتي.

«خانم بوزورج، هذا ليس عدلًا!» «ما فعلته بذلك الملا المسكين لم يكن لطيفًا». «لكن... لكن هناك مباراة مهمة ستجري الخميس المقبل، أرجوك، جدتي، أنا أحبك، فعلًا»، برطمت

وأطبقت أجفاني مسترحمًا، لكنها غادرت الغرفة تاركة طلبي للعفو دون إجابة، لكني لم أذهب -يوم الخميس الذي تلا- إلى اللعب الكرة وحسب، بل ذهبت لمشاهدة فيلم سينمائي أيضًا مع ناصر وكاظم بعد مباراتنا، أصر كاظم على مشاهدة فيلم (من أجل حفنة من الدولارات) بطولة كلينت إيستوود، بالرغم من أننا شاهدناه مرات عدة، كنا نحب الأفلام الأميركية خاصة الويسترن منها، وكان لكل واحد منَّا ممثله المفضل، ممثل كاظم المفضل كان كلينت إيستوود، وناصر جون وين، أما أنا فكان ستيف ماكوين، حتى إننا كنا ننادي بعضنا بأسمائهم، كنا نحب الذهاب إلى السينما، وتناول البوب كورن، وشرب الصودا بنكهة البرتقال.

شيء واحد لم نكن نحبه، وهو الوقوف احترامًا قبل بدء أي فيلم أمام صورة محمد رضا بهلوي، التي تظهر على الشاشة مع عزف النشيد الوطني، ومع أننا ذهبنا إلى دار السينما متأخرين بعض الشيء، فقد كان جميع الحضور واقفين على أقدامهم تكريمًا لصورة الشاه، وضع ناصر إصبعين على جبهته ليحييني، وفعلت الحركة ذاتها لكاظم، وانحنى كاظم لنا محييًا؛ فانفجرنا كلنا ضاحكين، في طريقنا إلى البيت بعد الفيلم جعل كاظم كفه على شكل مسدس وأطلق النار عليَّ وعلى ناصر، تصرفنا وكأنه أطلق النار علينا فعلًا وتمايلنا إلى الخلف والأمام بحركة بطيئة، «كلينت، رجاء لا تقتلنا»، صرخنا قبل أن نسقط.

حيث إن اليوم التالي كان يوم جمعة، فهذا معناه أنه موعد لتجمع أسبوعي آخر لجدي، بعض المسلمين يواصلون الحداد على استشهاد الإمام الحسين طيلة شهر محرم، يرتدون الملابس السوداء ويتجنبون الاحتفالات والموسيقى، لكن بالنسبة لبعض الإيرانيين، مثل أسرتي، تعود الحياة إلى طبيعتها بعد يوم عاشوراء.

ما إن وصل الجميع في يوم الجمعة ذاك، حتى دعا والدي الفتيان، وصفنا في ثلاثة صفوف من الأكبر سنًا إلى الأصغر لنؤدي النشيد الوطني.

عاش ملكنا ملك الملوك

وأن يجعل مجده بلادنا خالدة

لأن أسرة بهلوي حسَّنت إيران

مئة مرة أكثر مما كانت عليه

مع أنها عانت ذات مرة من غضب الأعداء

الآن لديها السلام وهو يحفظه لنا

نحن شعب إيران نبتهج في كل الأعمار

حماه الله الآن وإلى الأبد

وقف ناصر وكاظم وأنا في الصف الأوسط، ناصر يحمل شقيقته الصغيرة بارفانا، التي لم يكن عمرها يزيد عن سنتين، وهي أصغر من أن تغني النشيد الوطني، لكنها كانت تحرك فمها ببعض الكلمات وكأنها تعرف النشيد كله وتحرك رأسها بقوة بحيث جعلت جديلتها الطويلة تضرب وجهها، وكانت حين كنا نسخر منها، تبرم شفتيها، وتميل برأسها إلى الأسفل وتعبس، أما ناصر المهتم كثيرًا بحماية أشقائه، فكان يتابعنا بعينيه، بينما راح والدي يحرك ذراعيه كمايسترو عالمي مشهور، يشير إلينا ويهز رأسه وعيناه مغلقتان، وكان واضحًا للجميع مدى حبه للقيام بذلك.

«آغا جون، دع الأطفال المساكين يذهبون إلى اللعب»، قال والد ناصر بعد مدة، «اكتفينا من الشاهنشاه».

ساعد داود والدي على إيقاد النار لشوي التشيلو كباب، وهو عبارة عن لحم عجل مفروم وقطع من أسياخ اللحم مع الأرز، في حين تقوم جدتي عادة بإعداد الطعام للولائم الكبيرة، فإن غداء يوم الجمعة يتولاه جدي، ووالدي، وداود، وقد يتبلوا اللحم وينقعوه بالخل في الليلة السابقة، ثم يمزجوا لحم العجل المفروم بالبصل، وفي حين يقوم أحدهم بإبقاء النار مستعرة بتحريك الهواء عليها باستمرار، يقوم آخرون بشك اللحم في أسياخ معدنية كبيرة.

بعد الغداء، تجمعنا حول بركة الأسماك الذهبية في وسط الساحة، وجلسنا على مقاعد كبيرة وضعها جدي هناك تحت أشجار التوت، وغطاها بسجاد إيراني، أعدت جدتي الشاي في وعاء خاص، وقامت خادمتها بتقديمه مع الفطائر للجميع.

استخدم جدي الفحم الذي كان لا يزال مشتعلًا في الموقد لإشعال أرجيلته ودعا داود إلى مشاركته في تدخينها، وما إن أخذ داود النفس الأول حتى بدأ في الغناء، وسرعان ما

انضم إليه الآخرون بالتصفيق مع لحن الأغنية، في حين بدأت الفتيات في الرقص، تسلقنا أنا وكاظم وناصر شجرة جوز في زاوية الساحة، من هناك، تابع ناصر كل حركة تقوم بها هالة، شعر بنت عمي الناعم فاحم السواد أخذ يداعب كتفيها وهي ترقص.

«رضا، إنها جميلة جدًّا»، قال ناصر متنهدًا، «سأتزوجها في يوم من الأيام». رد كاظم متذمرًا: «ها قد عدنا مجددًا؛ قصة حب ناصر».

عبس ناصر في وجه كاظم، قائلًا: «ماذا عنك يا كاظم؟ هل ترى منى جيدًا من هنا؟ إنها ترتدي تنورتك المفضلة، التنورة الأقصر، انظر»، قال مشيرًا في اتجاهها، «إنها تلوح لك»، كانت منى تتحدث إلى أحد الضيوف في الجانب الآخر من الساحة.

حين أدار كاظم رأسه ليرى، قذفه ناصر بحبة توت بري قائلًا: «واصل أحلامك، أيها الرجل».

بدا كاظم محرجًا بعض الشيء، إلا أنه سرعان ما تمالك نفسه، «على الأقل أنا لي فرصة معها، لكن أنفك الكبير كفيل بجعل ساحرة قبيحة تفر مبتعدة عنك».

في بعض الأحيان، ونحن على ظهر الشجرة، كنا نهز الأغصان ونراقب حبات الجوز وهي تتساقط على الأرض، وكنا نضحك كلما سقطت حبة على سهيل، أو أي من الأطفال الآخرين الذين هم أصغر من أن يستطيعوا تسلق الشجرة، وحين تكون هناك كمية كافية للجميع من الجوز على الأرض كنا ننزل ونجمعها، ونجلس على المقاعد قرب والدي وداود، نستمع إلى قصصهم ونحن نقشر الجوز، كنا نعرف أن تقشير كمية كبيرة من الجوز يترك بقعًا سوداء على أيدينا، لكن نظرًا لأن الوقت صيف، لم نكن نهتم، وكنا دائمًا نترك حبات الجوز الكبيرة لجدي.

كل جمعة -في مثل هذا الوقت- كان جدي وداود يبدؤون نقاشهم، كانت ذكريات جدي عن الحرب العالمية الثانية غالبًا ما تقود إلى حدة في الحوار عن الشاه والحاجة إلى الحرية السياسية في إيران.

قد يقول جدي: «لقد فعل الشاه أشياء مدهشة لبلدنا، انظر إلى كل هذه الحداثة، المباني العالية، والجامعات، النساء في إيران يتمتعن بالحرية الآن، هذا هو التقدم»؛ فيرد عليه داود: «أنت محق في هذا، آغا جون، لكننا نفتقر إلى حرية الكلمة، نحن بحاجة إلى الديمقراطية، الشاه يحكم بقبضة حديدية، كان الله في عون من يعارضونه».

«هذا سيتغير سيد داود، إنه يقوم بالتغيير في المجالات كافة، نحن نحيا حياة طيبة، أوضاعنا مزدهرة بفضل برامجه»، «ماذا تقول؟ لدينا سجناء سياسيين في سجوننا أكثر من أي وقت مضى، كل تقدمنا لا معنى له إذا أُنكرت علينا حقوقنا الأساسية».

كانت جدتي تجد دائمًا أن هذا الحديث مزعج، وقد تهز رأسها قائلة: «رباه، لقد بدؤوا هذا مجددًا! ثمة أطفال هنا، قد يخبروا شخصًا في المدرسة بأننا نتحدث بالسوء عن الشاه في المنزل»، ثم تلتفت إلى والدي وتقول متهكمة: «أعتقد أن داود يبحث عن المشاكل».

هذا بدوره كان يدفع والدي إلى وضع ذراعه حول جدتي قائلًا: «لا تقلقي يا أمي، إنهم يتحدثون عن التاريخ والديمقراطية، وهذا جيد بالنسبة إلى الأطفال، فسوف يعلمهم أن يكونوا ذوي عقول منفتحة»؛ فترد والدتي معترضة: «أمك على حق، يمكن لبعض الأطفال أن يفسروا ذلك على أنه قلة احترام للشاه». ثم تقفز جدتي عند هذه النقطة لتعزز وجهة نظرها: «عليهم أن يعلِّموا هؤلاء الأطفال التقوى بدلًا من ذلك، بهذه الطريقة يتعلموا أن يصبحوا أناسًا طيبين، من خلال طاعة الله والدين نستطيع تعليم هؤلاء الأطفال المشوشين أن يكونوا صادقين وجديرين بالثقة».

لم يكن والداي من المتدينين أو المهتمين بالسياسة، كانوا يؤمنون بالله، لكنهم كانوا يعتقدون أن الدين (في إيران) منع الناس من اكتشاف العلوم وسبب الوجود، في إحدى المرات قالت لي أمي: «الدين يحدد ما عليك فعله وكيف تفعله، إنه يوقف طريقتك في التفكير واكتشاف خياراتك في الحياة»، وكان تفكيرها على الدوام تقدميًا، وفي حين اختار العديد من النساء الإيرانيات أن يكن ربات منازل، فقد قضت معظم وقتها تعمل في مستشفى للأطفال كممرضة.

فـي حيـن كان لوالدي ووالدتـي وجهات نظر متماثلة بالنسـبة للعالم، كان جدي وجدتي يفكران بطريقة مختلفة تمامًا عن بعضهما، جدي يعتقد بأن الإنسان هو خلفيته وجذوره، وقد يقـول: «نحـن أمة ملكيَّة، لنا تاريخ غني من الممالك»، ويتحدث بفخر عن حكم أباطرة إيران على مدى القرون، وعن ثقافتنا الغنية في مجالات الفنون والحرف اليدوية، بدأت قصة حبه لأسـرة بهلـوي حيـن تولى رضا شـاه الكبيـر حكم البلاد بانقلاب عسـكري في العـام، 1921م وواجه السـوفييت الذين كانوا يأملون في السـيطرة على إيران بمسـاعدة المليشـيات الثائرة في شـمال البلاد، قام رضا شـاه بخلع أحمد شـاه، آخر ملوك سـلالة القاجار، عن العرش، واختار اسم بهلوي لنفسه، ليصبح أول ملك من هذه السلالة، كان جدي يؤمن بمراسيم رضا شاه، مثل أمره بإجبار النساء اللواتي يرتدين الشادور على خلع النقاب، وقد شكل هذا إهانة مباشـرة للملالي، وأصبح رضا شـاه العدو المباشـر لرجال الدين، لكنه لم يتراجع، وواصل تغريب إيران، وشق الطرق، وإقامة الجسور، والسكك الحديدية، والجامعات.

إلا أن حكـم رضـا شـاه الملكـي انتهى نهاية سيئة، حين شـعر الحلفاء -خـلال الحرب العالمية الثانية- بأن الشاه متعاطف مع الألمان، وبسبب الاحتياطي النفطي الضخم، هاجموا بلدنـا؛ الروس من الشـمال الغربي والبريطانيـون من الغرب والجنوب، احتلـوا إيران وخلعوا رضـا شـاه، ونفى البريطانيون الشـاه إلى إفريقيا لما تبقى من حياتـه، وعينوا ابنه البالغ من العمر 22 عامًا، محمد رضا شـاه، ملكًا جديدًا على إيران، واصل الشـاه الجديد اتباع الكثير من سياسات والده، لكنه كان أكثر اعتدالًا، سمح للناس بممارسة شعائرهم الدينية بحرية.

وافقـت جدتـي على نهج الشـاه تجاه الديـن، وكان هذا يثير غضب جـدي، «خانم، نحن فرس، ولسـنا عربًا، الإسلام ليس لنا، نحن شعب زرادشـت، البريطانيون كثيرًا ما ساعدوا الملالـي علـى بقائنا مرتبطين بالإسـلام وإبقائنا منشـغلين بالله وعقابه بينما هم يسـتغلون نفطنا».

«آغا، يستحسن أن تسكت، إيماننا بالله حق، لا علاقة لهذا الأمر بالبريطانيين، أنت لم تتعلم شيئًا عن الإسلام، كيف قضيت كل هذه السنوات مع رجل جاهل»؟

ما أعرفه عن الدين تعلمته من جدتي، بينت لي أن الإسلام دين الصدق، والمحبة، والاحترام، والشجاعة، والعدل، وكانت تروي لي حكايات ملهمة عن النبي محمد وعن الإمام علي، إحدى القصص المفضلة لي كانت عن علي، وكيف كان يخرج متخفيًا في الليل لمساعدة الفقراء، بالرغم من أنه قائد يحظى بأكبر قدر من الاحترام بين شعبه، عاش حياة من التقشف والحرمان، مزدريًا الثراء المادي والراحة.

ما زال صدى صوت جدتي يتردد في رأسي: «في أحد الأيام اقترب شقيق علي، وهو شخص ضرير، منه قائلًا: «علي، أنت قيِّم على رأس المال، فلم لا تعط أخيك الفقير بعضا منه»؟

طلب منه علي المجيء إلى بيت المال وأخذ كل ما يريد، ثم وضع شمعة بطريقة جعلت شقيقه يلامس لهيبها بدلًا من النقود، صرخ شقيقه بألم، طالبًا معرفة السبب الذي دفع علي لفعل ذلك.

«هل تعلم لماذا فعل ذلك، يا رضا؟ لأن علي كان الحاكم والرجل الصادق المؤتمن في نظر قومه، أراد أن يبين لشقيقه أن السرقة خطيئة، وأنه يجب ألا يأخذ نقودًا لا يستحقها، وإذا كان غير قادر على تحمل ألم حرق صغير في إصبعه، فكيف سيتحمل نار جهنم»؟ وكانت دائمًا تنهي هذه القصة قائلة: «عليك دائمًا أن تختار الصواب بدل الخطأ».

أحببت جدي وجدتي كليهما، لكنني في سري كنت أحب جدي بقدر أكثر بقليل، من خلال ولعه بحديقته تعلمت كم هي الحياة غالية، كان جدي يقضي معظم وقت فراغه في الحديقة معتنيًا بأشجار الفاكهة، والورد الأحمر، والياسمين الأبيض، والعديد من قوارير الزهور الصغيرة، في كل مساء كان يملأ وعاء سقاية النباتات بالماء، ساحبًا إلى الخلف ثوبه الطويل، لينحني ويسقي بعناية وروده الغالية، متحدثًا إليها بشغف.

«آغا جون، لماذا تتحدث إلى زهورك»؟ سألته ذات مرة وهو يفعل ذلك.

التفت جدي نحوي قائلًا: «رضا، يا بني، هناك حياة في الزهور، إنها مثل البشر، لديها مشاعر، إنها من خلق الله، إذا دللتها تزدهر، وإذا أهملتها تموت».

بقيت أتعلم من جدي والسنوات تمر، حتى حين أصبح العالم الخارجي يشكل جزءًا أكبر فأكبر من حياتي، أشهر الصيف مرت باهتة، سرعان ما كنا أنا وناصر، وقد بلغنا السابعة عشرة الآن، نعد نفسينا للسنة النهائية في مدرسة البنين الثانوية: حُمِّلنا فيها أحمالًا ثقيلة: دروس من ساعتين لدراسة الجبر، والكيمياء، والفيزياء، والتاريخ، واللغة الإنجليزية، وغير ذلك، التحق كاظم بمدرسة مختلفة وبقي محتفظًا بعمله في إيصال طلبات اللحوم لحساب والده، وكان يتلقى بعض المضايقات من بعض فتيان الحي، معظم الفتيان في طهران لا يعملون، الفقراء فقط كانوا يسمحون لأبنائهم بالحصول على عمل، لم يكن كاظم خجلًا من عمله وتجاهل سخرية الآخرين.

في تلك الأثناء، كنت أنا وناصر نعيش حياتنا، الآن وقد أصبحت أكبر سنًّا، كنت أقضي معظم وقتي في منزل والديَّ، وخلال وجودهما في العمل، كنت أجلس أنا وناصر ندخن السجائر ونحتسي مشروبًا هناك، وكان كاظم ينضم إلينا بين الحين والآخر حين ينتهي من إيصال طلبيات اللحوم.

في إحدى الأمسيات وكنا نجلس ثلاثتنا في غرفتي، وضع ناصر سيجارته ونهض قائلًا: «أنا عطشان، ألا يوجد شيء نشربه»؟ «لا بد من وجود بعض السفن أب أو الكولا في الثلاجة»، قلت له: «هل تريدني أن أحضرها لك»؟ «كلا، أنا أعرف طريقي في أرجاء منزلك، هل أحضر لكما شيئًا أيضًا»؟ أومأنا برأسينا أن نعم، حين دخل ناصر، سحب كاظم كتاب الكيمياء من حقيبته، قائلًا إنه يأمل في أن يساعده ناصر في التحضير لامتحان اليوم التالي، كان ناصر بحاجة لذلك كي يتمكن من اجتياز الامتحان. قلت: «ليس لديه ما يفعله، أنا متأكد من أنه سوف يساعدك، يا إلهي كم أكره الكيمياء».

عاد ناصر حاملًا ثلاثة أكواب على صينية، قال: «رضا، أطفئ النور هذا سيمنع البعوض من مهاجمتنا». أطفأت النور وناول ناصر كل واحد منا كوبًا، وما إن أخذت رشفة منه حتى عرفت أنه يدبر مقلبًا، تحت الضوء الباهت المنبعث من شباك غرفتي، نظرت إليه، رفع حاجبه وأشار لي بأن أبقى هادئًا.

قـال ناصـر: «كاظم خذ مشـروبك»، وأضـاف: «إنه بارد ولذيذ»؟ تنـاول كاظم ورقة من حقيبته ثم تناول كوبه، قائلًا: «شكرًا لك».

راقـب ناصـر كاظم مبتهجًا وهو يحاول إمسـاك نفسـه عن الضحك، أخذ كاظم رشـفة مـن الكـوب ثـم، مثل قطة رشـتـها بالمـاء، قفز عـن مقعده وبصق المشـروب فـي كل مكان وعلـى ناصـر أيضًـا، ما جعل الأخير يقفز أيضًا، أشـعلت النور وانفجـرت ضاحكًا، «أنت غبي فعلًا»، قال كاظم، وهو يسعل لإخراج الكحول من حلقه، «ماذا كان هذا بحق الجحيم»؟ «نحن ندعوها شمس، جعة شمس، من إنتاج أرض أجدادنا».

مـا إن سـمع كاظـم كلمـة (جعة)، حتـى ركض داخلًا، لحقنـا به وشـاهدناه وهو يحاول غسـل فمـه تحت حنفية المطبخ، (ثلاث مرات!) قـال ناصر وهو ما زال يضحك: «يجب على المسـلمين غسل أنفسـهم من الكحول ثلاث مرات، وإلا سوف يذهبوا إلى جهنم»، كان كاظم كمـن أصيب بصدمة: «اخرس ناصر، لماذا فعلت هذا»؟ «تمتـع قليلًا يا رجل، لن تذهب إلى الجحيم إذا تمتعت قليلًا في حياتك، إنها مجرد جعة».

«الشـرب حرام، ألا تعرف شيئًا عن دينك؟ يجب عليك أن تكون جادًّا بعض الشـيء في حياتك، كل ما تريد فعله هو التدخين، والشرب، ومطاردة الفتيات جارًّا رضا معك».

عندهـا توقـف ناصر عن الضحك، «مـاذا تحاول أن تقول؟ إن الحصول على شـيء من المتعة يعني أنني لست جادًّا في الحياة؟ هل تعتقد أن الشيء الوحيد الذي يمكن للإنسان فعله هو اتباع التعاليم الدينية؟ كما أن رضا يستطيع الحديث عن نفسه، فله شخصيته المستقلة».

«توقفـا عـن ذلـك أنتما الاثنـان»، قلت محـاولًا نزع فتيـل التوتر، «كانت مجـرد مزحة»، حدجني كاظم بعينيه قائلًا: «مزحة سـمجة، الآن عليك أن تبدأ عمل واجب الكيمياء قبل أن يتأخر الوقت».

لـم أشـأ أن يتسـبب مقلـب ناصر في حدوث مشـاكل بيننـا نحن الثلاثة، وكنـت أكره أن أنحـاز لأي طـرف، اعتـذر ناصـر، لكـن كاظم بقـي غاضبًا مدة مـن الوقت، مسـاعدة ناصر لكاظم على التحضير لامتحانه مكنتنا في النهاية أن نرتاح، إلا أن تلك الليلة بينت لنا جميعًا

أنه في حين يمكننا التمتع بلعب الكرة، أو مشاهدة الأفلام، أو الذهاب إلى تجمعات جدي كثلاثي، لم يكن في وسع كاظم أن يكون جزءًا من كل ما نفعله.

هذا بالطبع، لم يمنعني أنا وناصر من فعل الأشياء الأخرى، في كل يوم بعد المدرسة، كنا نذهب إلى مدرسة البنات القريبة لمشاهدة الطالبات وهن يخرجن إلى الشارع بعد انتهاء حصصهن، بعضهن كن يضحكن لنا ويمازحننا، وقد نسجل أرقام هواتفنا على قطعة من الورق لإعطائها لهن، ناصر كان قد أصبح شابًّا قويًّا طوله ستة أقدام، مع شعر غزير أسود يغطي رأسه، يحاول دائمًا تسريحه بعناية بقصة مثل البيتلز، تمتع البيتلز بشعبية واسعة لدى الشبان الإيرانيين في ذلك الحين، وكانت الفتيات معجبات جدًّا بناصر الذي كان يتظارف معهن ويغمز لهن، وبالرغم من أنني كنت أقصر قليلًا من ناصر، وأفتح بشرة منه، فقد اعتقد معظمهن أننا شقيقان، لنا قصة الشعر نفسها ونرتدي بناطيل الجينز والقمصان السوداء نفسها.

بين الحين والآخر، كان ناصر يسرق سيارة والده وهي من طراز شيفروليه إمبالا حمراء مكشوفة ويرفع صوت الموسيقى في أثناء انتظارنا خارج مدرسة البنات الثانوية، وللتأثير على الفتيات، كنا دائمًا نحمل علبة سجائر ونستون ونشغِّل المذياع على آغان للبي جيز، أو بوب ديلون، أو البيتلز، وصرنا نواعد بعضًا من هؤلاء الفتيات ونصطحبهن إلى المراقص المنتشرة في أنحاء طهران، ونقوم بمداعبتهن سرًّا، لم نقلق قط في أن نتورط في مشاكل، بالرغم من أن داود كان سيغضب منا بشدة لو علم أننا اعتدنا سرقة سيارته، مصدر أسفي الوحيد كان عدم تمكن كاظم من مرافقتنا في هذه الأنشطة، وكان تعليق ناصر على قولي هذا: «سيفهم بالتدريج أن الحياة ليست مجرد صلاة وتدين».

خلال استعدادي لامتحانات الدراسة الثانوية تحدث معي والدي -وهو مهندس مدني درس في أميركا- عن أهمية التعليم، قال بأن عليَّ أن أواصل التركيز على دراستي، وأن تكون أحلامي كبيرة، وأقنعني بأن عليَّ الذهاب إلى أميركا لدراسة علم الحاسوب؛ لأنه يؤمن بأن الحاسوب هو المستقبل، وأن الجامعات الأميركية سوف تدربني لهذا المستقبل أفضل من أي مكان آخر في العالم.

في ربيع العام 1972م، وبمساعدة من عمتي التي كانت تعيش في لوس أنجلوس، التحقت بجامعة جنوبي كاليفورنيا، وبالرغم من أن الذهاب إلى أميركا كان بمثابة حلم لأي شاب إيراني، فقد كنت أفضِّل الذهاب إلى الجامعة في طهران مع ناصر، لكن حجة والدي كانت قوية ولم أستطع مجادلته.

قبل أن أغادر، أقامت أسرتي وأصدقائي المقربين حفل وداع لي، في تلك الأمسية، جلست على المقعد المحاذي لبركة الأسماك مراقبًا الحشد بحزن، هؤلاء الناس جزء أساسي مني، نظرت إلى زهور جدي، كان من الصعب علي أن أودعها أيضًا.

حضر ناصر وكاظم وجلسا قربي على المقعد، أردت أن أعانقهم وأخبرهم كم يصعب عليَّ أن أبتعد عنهم كل هذه المسافة، لكنني لم أجد الكلمات، وددت في تلك اللحظة لو توقف الزمن، فجلسنا هناك صامتين مدة من الزمن.

أخيرًا، صفعني ناصر على ظهري، قائلًا: «أنت، لا تنسانا، اكتب وخبرنا كيف هي الحياة في أميركا». لففت ذراعي حوله وجذبت كاظم بالذراع الآخر، «سأكتب لكم كل يوم»؛ ربت كاظم على كتفي قائلًا: «هل تتذكر أول مرة قطعنا فيها عهدًا؟ كان هنا، على هذا المقعد»؛ «أصدقاء إلى الأبد»، قال ناصر.

أومأت برأسي موافقًا، «أقسمنا بحياتنا أن نبقى أصدقاء»؛ «حتى الموت»، قال كاظم، محاولًا حبس دموعه بصعوبة.

الفصل
3

الحضور إلى أميركا

لم أشاهد عمتي جيتي منذ آخر زيارة لها إلى إيران يوم كان عمري 12 سنة، لكني عرفتها على الفور لدى مغادرتي البوابة في مطار لوس أنجلوس الدولي، كانت تلوح بلافتة صغيرة تحمل اسمي ورأيت الدموع في عينيها لدى اقترابي.

«آه رضا جون، انظر إلى حالك»، قالت وهي تعانقني: «لقد أصبحت رجلًا! أنا سعيدة لوجود أحد أفراد أسرتي معي الآن»، كانت عمتي تعيش وحيدة، انتقلت إلى أميركا قبل سنوات عديدة يوم كان عمرها قرابة العشرين عامًا، لمتابعة دراستها، بعد مدة، انضم إليها والدي للذهاب إلى الجامعة قبل أن يعود إلى الوطن، تابعت عمتي جيتي دراستها وأصبحت كيميائية، ولم تعد إلى إيران سوى بضع مرات للزيارة.

قبَّلت وجنتيها، آملا أن أتجنب أي فورة عاطفية لم أكن مستعدًا لها بعد الوداع المؤثر في الوطن، فتحت حقيبتي المحمولة لأعطيها الفطائر الفارسية التي خبزتها جدتي، «خانم بوزورج أعدت هذه خصيصًا لك، وقالت إنك يجب أن تأكليها على الفور وهي ما تزال طازجة».

استقلينا سيارة أجرة إلى منزلها، جلست عمتي إلى جواري ومدت ذراعها حول كتفي، وهي تنظر إلي باهتمام، وخلال تجاذبنا لأطراف الحديث، كنت بين الحين والآخر أنظر من خلال النافذة لاكتشاف المدينة الجديدة التي قد تصبح وطني، لم يكن لدينا شيء مثل نظام لوس أنجلوس للطرق السريعة في طهران، لكن من جوانب عدة، بدا لي المشهد مألوفًا، حتى الطقس المشمس بدا لي مماثلًا لما أعرفه، وكان هذا شيئًا مريحًا بالنسبة لي، نظرًا لأني كنت لا أزال قلقًا لسفري كل هذه المسافة للذهاب إلى الجامعة.

بالرغـم من برنامج عملها المزدحم، تكفلت عمتـي بجميع المعاملات الورقية لدخولي جامعـة جنوبـي كاليفورنيـا، كما أعدت غرفة الضيـوف في منزلها في تارزانـا خصيصًا لي، وكـي أتمكـن من تعلم الإنجليزية بسـرعة، اقترحت ألا نتحادث إلا بالإنجليزية، كما سـجلتني لحضور دورة مكثفة باللغة الإنجليزية في مدرسة بيرلتز المحلية، ومع أنني درست الإنجليزية فـي المدرسـة الثانوية، فلـم أعرفها بطلاقة، وأعرف بأن الأميركيين كانوا سـيجدون صعوبة فـي فهمـي إن لـم أحسـن لغتي بسـرعة؛ لذلك قضيت سـاعات طويلة في الغـرف الصفية مع طـلاب حضـروا بموجب برامـج التبادل الطلابـي من اليابان والمكسـيك لديهـم صعوبة في التعبير وكثير من الحنين إلى الوطن مثلي تمامًا.

افتقدت كل شـيء يتعلق بوطني، افتقدت ناصر وكاظم، وافتقدت تجمعات يوم الجمعة، وافتقـدت حـوارات جدي السياسـية مع داود، وللتعويض عن بعض من ذلك، تابعت السياسـة الإيرانية على التلفزيون، متخيلًا ما قد يقوله جدي عن أحداث السـاعة.

حيـن بـدأ الفصـل الأول فـي جامعـة جنوبـي كاليفورنيا، وجدت نفسـي محاطًا بشـبان ينطقـون بسـرعة بكلمـات كنت لا أزال أتعلمهـا، في بعض الأحيـان كان يصيبني الصداع من التركيز بشدة لفهم الناس، لكنني أحببت هذا الانغماس الكلي، قابلت طالبًا اسمه جوني في إحـدى حصص الرياضيات وسـرعان مـا أصبحنا أصدقاء، دعاني إلى منزله وسـألت عمتي جيتي إن كان في وسعي قضاء الليلة هناك.

«لسـت بحاجة إلى طلب الإذن رضا جون» قالت لي، «أنت شـاب كبير ويكفي أن تعلمني، أنا أثق بأنك سـتفعل الشـيء الصحيح»، كانت تلك أول تجربة لي أكتشـف فيها اختلافًا مهمًّا عـن الفـرق بين أميـركا وإيران، هنا النـاس لم يكونـوا متخوفين حذرين، فهـم يعتقدون هنا أنـك إذا كنـت كبيرًا بمـا يكفي للذهاب إلـى الجامعة، فإنك كبير بما يكفـي لاتخاذ قراراتك الخاصة.

كان جونـي يقيـم فـي منـزل صغير من ثـلاث غرف نوم غربي لوس أنجلوس مع اثنين مـن رفـاق السـكن، أحدهمـا صديقه المقرب أليكس، وكان الآخـر ينوي الانتقال للسـكن مع صديقته، حين وصلت فوجئت بحفل صاخب، لم يكن تشبه أي حفل عرفته في حياتي، مختلف

تمامًا عن غناء داود ورقص منى وهالة بملابسهما القصيرة مع آباء وأمهات يراقبون جميع حركاتنا.

سرعان ما ملأ طلاب وطالبات الجامعة منزل جوني، جلبوا معهم زجاجات الفودكا، والتكيلا، والجعة، وغمامة كثيفة من دخان السجائر، كان بعضهم يدخن الماريجوانا في شرفة صغيرة قبالة صالة المعيشة، وهي المرة الأولى التي أقترب فيها إلى هذا الحد من هذا النوع من المخدرات، في إيران، بعض الشبان يدخنون الحشيش، لكننا أنا وناصر لم نقترب قط من أي شخص يدخنها.

قبل أن أدرك ما يدور حولي، كنت ألاطف فتاتين لا أعرف حتى أسماءهن، بعد قليل، نادت إحداهن على فتاة أخرى كي تنضم إلينا. «مولي، تعالي قابلي رضا، إنه لطيف جدًّا، لديه هذه اللكنة اللطيفة، رضا، قل «something»»

كانت مولي فتاة طويلة شقراء، ترتدي أقصر بنطلون جينز مقصوص الساقين رأيته في حياتي، وكانت بلوزتها أعلى بكثير من سرتها، نظرت في عيني، وأمسكت يدي، وطلبت مني مرافقتها إلى الشرفة، الفتاتان الأخريان انزعجتا؛ لأن مولي أخذتني منهن، لكنهن سرعان ما وجدتا رفاقًا من المحتفلين.

مشيت خارجًا مع الشقراء الحسناء، حين وصلنا ملأت ورقة سجائر بأوراق خضراء وأشعلتها، سحبت نفسًا من السيجارة، ثم مررتها لي، بدأ صدري يخفق بشدة، لم أكن أريدها أن تعرف بأنها المرة الأولى لي، لكني أيضًا لا أعرف ما ينتظرني، (ماري - جوانا)؟ قلت منتزعًا القطعة بإبهامي وسبابتي.

انفجرت ضاحكة، «إنهن محقات؛ أنت لطيف»، ثم مررت أصابعها في شعري، «نحن ندعوه (بوت)، يا حبيبي»، قالت ذلك وهي تقبل شفتاي.

لا أذكر الكثير مما حدث بعد ذلك، استيقظت على الأرضية القريبة من المطبخ في الساعة الرابعة مساء اليوم التالي مع صداع رهيب في رأسي، ومعدة مضطربة، ورغبة في الذهاب إلى حفلة أخرى في أسرع وقت ممكن، أحببت هذه الحياة الجديدة كثيرًا.

بعـد ذلـك، جعلنـي جوني وأليكـس جـزءًا مـن مجموعتهم، ما عجَّـل في تعلمـي للثقافة واللغة بقدر يتجاوز بكثير كل ما يمكن لدروس بيرلتز أن تعلمه لي، كنا نتسكع بعد الحصص، ونتحـدث لسـاعات عن معنى الحيـاة، بينما كنا ننتقد فرقتي (بينـك فلويد) و(جيثرو تول)، وسـرعان مـا صرت أشـارك في محادثات دون الحاجـة لأن أفكر قبل أن أتكلـم، وبدأت أفهم النكات الإنجليزية ثم إطلاقها بهذه اللغة.

لاسـتكمال حياتي الجامعية في لوس أنجلوس كنت بحاجة إلى سيارة، يعدُّ من لا يمتلك سـيارة فـي هـذه المدينـة مواطنًا من الدرجـة الثانية، ولم أكـن أريد أن أكون جـزءًا من هذه الطبقـة، ضغطـت على والدي من أجل الحصول على واحـدة، وتعللت بأن المدينة كبيرة جدًّا ومترامية الأطـراف، وأن لا جدوى من سـيارات التاكسـي، فكيف يمكننـي حضور الحصص الدراسـية، وأنـا أسـكن بعيدًا عن الحرم الجامعي؟ سـاندتني عمتي جيتي فـي هذا المطلب، ووافق والدي على إرسـال النقود، اقترح عليَّ جوني شـراء سـيارة موستانج حمراء مع دولايب عجـلات مـن الألمونيـوم، كمـا سـاعدني فـي الحصول علـى رخصة قيـادة، وما إن اشـتريت سـيارتي (المخصصـة للدراسـة) حتى بدأت أواعد فتيات لوس أنجلوس وتجربـة ما يمكن لهذه المدينة أن تقدمه.

فـي البدايـة، كنت أكتـب بانتظام إلى ناصر وكاظـم عن الحياة في الولايـات المتحدة، أخبرتهم عن الحياة الجامعية، وسيارتي الموستانج الحمراء، وعن أصدقائي الجدد، وفتيات لوس أنجلوس (هذا الجزء لناصر فقط)، وعن مدى اختلاف أميركا سياسيًّا، أخبرتهم كيف أن الطلبة المحتجين يسـتطيعون حرق العلم الأميركي ويشـوهوا صورة الرئيس نيكسون أمام الشـرطة، دون أن تفعل شـيئًا، في إيران، إذا أهنت الشـاه أو العائلة المالكة علنًا، فإن شرطة الشاه (السافاك) سيعتقلونك ويقذفون بك في سجن إيفين، وسوف يبرحونك ضربًا لمعرفة من هم أصدقاؤك.

في إحدى الرسـائل التي بعثتها إلى ناصر، وضعت صورة لي وأنا ارتكز على غطاء محرك الموستانج وذراعي يلف خصر مولي، وكتبت على ظهر الصورة: «تأمل هذين الوسيمين!»

وبالرغم من أنني أرفقت صورة لكاظم في الرسالة التي أرسلتها له في الوقت نفسه، فقد كانت صورة لجوني وأليكس وهما يقفان إلى جانبي، وكتبت على ظهرها: «لديَّ الآن كلينت وجون الحقيقيان يقفان إلى جانبي، نحن نخفي مسدساتنا في صندوق السيارة! ها ها ها! ووقعتها»، صديقك ستيف ماكوين.

وجد ناصر وكاظم أن الحياة في أميركا رائعة، كانت رسائلهم مليئة بالأسئلة، خاصة عن السياسة، فاجأتني رغبتهم في معرفة الكثير عن هذا الأمر، كانت أخبار فيتنام ووترجيت تسيطر على الأخبار في ذلك الوقت؛ لذلك أصبحا الموضوعان الرئيسان في رسائلي، كتبت أيضًا عن المسيرات الطلابية المحتجة على الحرب والتي كانت أشبه بتجمعات اجتماعية، وعن تقسيم الجسم الطلابي إلى جماعة متعاطي المخدرات، والبلطجية، واليونانيين (وأخويات رجالية وأخرى نسائية)، وبقية الطلاب.

اهتم ناصر وكاظم كثيرًا بطريقة احتجاج الأميركيين علنًا على سياسات قادتهم، وجد ناصر أن المقاومة الأميركية بشكل خاص مثيرة للاهتمام، في حين تساءل كاظم حول ما إذا كانت المبادئ الدينية تحرك الأميركيين، فعلت كل ما في وسعي لشرح الفوارق الدقيقة، وأنا موقن أنهما كلاهما يريدان دليلًا على أن مجتمعًا يحترم حرية الكلمة والاحتجاج يمكن أن ينجح.

في تلك الأثناء، انتقل زميل جوني وأليكس من السكن وأخذا يبحثان عن شخص يحل مكانه، بدأت أضغط على والداي كي يسمحا لي بالانتقال والسكن معهما، شارحًا لهما أهمية أن أكون قريبًا من زملاء الدراسة لتحسين لغتي ومهاراتي الدراسية، فكيف لي أن أحصل على شهادتي من دون ملاذ دراسي قريب من الحرم الجامعي يشاطرني فيه زملائي الدارسين؟

انتاب والداي الشك في البداية، أليكس وجوني؟ من هؤلاء الناس؟ أي نوع من الأسر جاءا منها؟ وبعد أن شرحت لهما أن جميع الملتحقين بجامعة جنوبي كاليفورنيا جاؤوا من أسر طيبة، وإقناع والدي ووالدتي أنهما النسخة الأميركية عن ناصر وكاظم، وافقا.

عدت مجددًا فردًا من ثلاثي، إلا أن ثلاثتنا هذه المرة كانوا ممن يحضرون الحفلات ويواعدون الفتيات، ملأت غرفتي الجديدة بملصقات عن فرق الروك المفضلة لدي، ونساء

نصف عاريات، لم يكن لدي خادمة مثل خادمة جدتي تأتي مبكرًا صبيحة كل يوم لتنظيف غرفتي وترتيب سريري، أو أن تنظف خلفي، وكما تبين، لم يكن لدينا أي قواعد على الإطلاق.

قضيت السنوات الثلاث المقبلة، بلعب الكرة الطائرة على الشاطئ، وكرة القدم في المتنزه، وحفلات الشواء، والسفر برًّا إلى فيجاس، ومشاهدة مباريات الكرة، وفي بعض الأحيان أتصفح كتابًا على عجل قبل الذهاب إلى الحفل التالي، إيران وأصدقائي أصبحوا ذكرى باهتة، وتباطأت رسائلي إلى أسرتي وشحت، اعتقدت أنني موجود في المكان الذي أريد أن أكون فيه في هذا العالم.

ثم، في إحدى أمسيات سنة التخرج، كنت أشاهد التلفزيون حين رن جرس الهاتف، رد أليكس على الهاتف: «إنها والدتك، وتبدو منزعجة».

وضعت الهاتف على أذني، وسمعت والدتي تبكي، «أمي، ماذا حدث»؟

«إنه والدك»، قالت ذلك وشعرت بقلبي يهوي إلى القاع، بينت لي وهي تنشج باكية بأن الأطباء قد شخصوا إصابة والدي -وهو مدخن عتيق- بسرطان الرئة، وأنه في حالة حرجة، كان في الخمسين من عمره فقط.

«رضا، إنه كل شيء بالنسبة لي»، قالت بصوت مرتجف، «إذا حدث أي شيء له، فلا أعلم ماذا سأفعل».

حجزت على أول طائرة مسافرة إلى الوطن، وصلت إلى طهران لأول مرة خلال أربع سنوات، خططت لأن أستأجر سيارة تاكسي توصلني إلى البيت، لكني فوجئت بانتظار ناصر وكاظم لي في المطار، حين رأيت أنهما كلاهما يتشحان بالسواد، انتابتني حالة عصبية، لكني لم أجرؤ على سؤالهم عن سبب ارتداء ذلك اللون، محاولًا إقناع نفسي بأن لديهما سببًا لذلك لا علاقة له بوالدي.

ظهر ناصر بقصة شعر قصيرة يسرحها إلى الخلف، وكان شعر كاظم أطول قليلًا من قصة شعره القصيرة السابقة، لكنه كان أنيقًا ونظيفًا، كما كان دائمًا، كانت ملابسهما تتعارض تمامًا مع صندلي، وقميصي الضيق، وبنطلوني الجينز الفضفاض، وشعري

المنكوش، في تلك اللحظة، أدركت كم فرَّقنا الزمن، وأحدث هذا غصة في قلبي، جذبتهما كلاهما بذراعي وشرعت أبكي مثل طفل صغير.

«كيف عرفت»؟ سأل ناصر: «من أخبرك»؟ كان يعتقد أنني أبكي لخسارتي والدي، دون أن يدرك أنه بعبارته تلك أكد لي موته، «كيف حال والدتي»؟ سألت محاولًا ألا أنخرط في البكاء أكثر.

ربت كاظم على كتفي قائلًا: «إنها في حالة سيئة للغاية، لكن هذا هو الحال في مثل هذه الأوضاع، رضا، سوف تتجاوز الأزمة، جيد أنك هنا، فسوف يعني هذا الكثير بالنسبة لها»، «أنا آسف جدًّا، رضا»، قال ناصر، «رحم الله روح والدك».

حنا ناصر رأسه، وتأكد لي أنه حين فعل ذلك لاحظ إبهامًا قدمي العاريين، شعرت بالإحراج من مظهري، فقلت: «أعتقد أنه يتعين عليَّ إخراج ملابس لائقة من حقيبتي وأن أغير ملابسي في السيارة».

في الطريق إلى المنزل تحدثنا مدة وجيزة عن والدي، كانت ملايين الأفكار تتزاحم في رأسي بشأنه، فهو من شجعني على عيش حياتي كاملة، وهو من علمني لعب الكرة والسباحة، وساعدني في دروسي، وروى لي الحكايات عن الحياة المأساوية للصبيان الذين لا ينجزون واجباتهم الدراسية، والأمجاد التي ينالها من ينجزونها، وجعلني أعد بألا أهدر حياتي أو وقتي.

نظرت خارج النافذة، متسائلًا إن كنت قد وفيت بوعدي له، مفكرًا في الطريقة التي أمضي فيها معظم أيامي في جامعة جنوبي كاليفورنيا، لكن سرعان ما شتت تفكيري مقدار التغيير الذي طرأ على طهران منذ مغادرتي، كانت رافعات المباني تملأ الأفق، مباني الشقق السكنية ترتفع لثلاثين طابقًا، شارع بهلوي، أصبح مركزًا عالميًّا مع متاجر راقية ومطاعم تصطف على جوانبه، يبدو وكأنه شارع في مدينة كبرى أوروبية أو أميركية، خلال أربع سنوات، بدت طهران وكأنها تقدمت 15 سنة.

بدأ ناصر يخبرني كيف تطورت الأمور منذ أن غادرت، احتجاجات الطلاب في الجامعات تصاعدت بقدر يوازي الزيادة في اعتقالات السافاك، قال كاظم: إن السافاك اعتقل أفرادًا من رجال الدين في المدرسة الدينية في قم؛ لأنهم جهروا بالحديث ضد الشاه.

أسس الشاه جهاز السافاك، وهو منظمة أمنية واستخباراتية، في العام 1957م بمساعدة من الجيش الأميركي بعد أن ساعدته وكالة الاستخبارات المركزية على إسقاط محمد مصدق رئيس الوزراء المنتخب ديمقراطيًّا؛ لتأميمه نفط إيران، غضب الإيرانين لهذا الأمر بقي متقدًا، وأبقت مساعدة نيكسون للشاه هذا الجرح ينزف، الشاه كان صديقًا لنيكسون، المنتجات الأميركية ملأت رفوف المتاجر الإيرانية، وكان جيشنا أميركي التدريب والتسليح، كما شارك الطيارون الإيرانيون في حرب فيتنام، وساعد الشاه الملكيين في الحرب الأهلية اليمنية التي انتهت في العام 1970م، وفي العام 1971م، ساعد سلطان عُمان على إخماد ثورة بدعوة من الولايات المتحدة، ومقابل ذلك زار نيكسون إيران في العام 1972م، وسمح للشاه بشراء كل ما يريد من أسلحة، رأت الولايات المتحدة ميزة في وجود ملك أوتوقراطي حليفًا يمكنه القيام بالأعمال الوسخة في الشرق الأوسط نيابة عن الولايات المتحدة، كان صدام حسين رجل الاتحاد السوفيتي في المنطقة، والشاه رجل أميركا.

في حين التحق ناصر بكلية الهندسة (بعد حصوله على معدل عال دون أن يبذل مجهودًا كبيرًا)، دون أن ينقطع عن التحدث عن السياسة والظلم، بقي كاظم يكافح في دراسته، وعلى حاله بالنسبة لحماسه وإيمانه بالإسلام، يتفق مع معظم انتقادات ناصر لسياسات الشاه، لكنه يعترض على التغريب الزاحف على البلد؛ لأنه يرى أن ذلك هو السبب الرئيس في تنامي الانحلال في صفوف الشبان الإيرانيين (ارتداء الفتيات للتنانير القصيرة، والسكارى في الشوارع، وكثرة الملاهي الليلية والبارات) كاظم والفقراء الآخرون من طبقته الاجتماعية تضرروا ماليًّا؛ والأرباح الهائلة من النفط لم تصل إليهم، التحديث الذي أدخله الشاه أبقى أمثال كاظم في الخلف، وفي الوقت نفسه، انقضَّ على مبادئهم الأخلاقية.

مع اقتراب ناصر من ممر منزلنا، ازداد قلقي، شعرت بقلبي مثقلًا؛ لأن والدي لن يكون موجودًا ولن أحييه مرة أخرى، حين شاهدت والدتي، عانقتها بقوة وهي تبكي بشكل هستيري، حاولت تهدئتها لكن ما من شيء يمكن أن يوقف بكاءها، جدي وجدتي كانا موجودين، وبدا

أنهما يعانيان بشكل رهيب لفقدان ولدهما، لكن بينما كنت أجلس ملتصقًا بأمي، قال لها آغا جون هامسًا، «ابنك هنا، كوني سعيدة».

كاظم وناصر بقيا معي في تلك الليلة، تحدثنا كثيرًا عن والدي، وعن بعض أهم ذكريات طفولتنا، لكن لم يمض وقت طويل حتى عاد حوارنا إلى السياسة، وسرعان ما تحول الاثنان إلى ذلك الموضوع. «هذا الطغيان يجب أن ينتهي»، قال ناصر، «الشعب يعاني، نحن نعيش في القرن العشرين وما زلنا نعيش تحت حكم ديكتاتوري، من دون حرية صحافة».

هز كاظم رأسه موافقًا: «الكثيرون ما زالوا يعيشون في فقر بينما أسرة الشاه والمحيطون به أثرياء بشكل فاحش، ويسرقون ما هو ملك للشعب، علينا أن نجلب العدالة إلى مجتمعنا، لقد أصبحنا دولة من الفساد والعفن، علينا أن نغير قدرنا، الإسلام وحده يستطيع إنقاذنا وإنقاذ بلدنا».

«لكن من خلال وجهة نظر الدكتور شريعتي الدينية والاجتماعية وحدها يمكننا تحقيق أنفسنا على الأصعدة الإنسانية كافة، وأن نحارب الطغيان والتردي الأخلاقي»، أضاف ناصر، لم أكن أعرف أي شيء عن علي شريعتي، بيَّن لي ناصر أنه عالم دين إسلامي، وعالم اجتماع، ينتقد الشاه والملالي، كان شريعتي يحظى بشعبية واسعة لدرجة أن المواطنين الذين لم يكونوا طلابًا لديه كانوا يملؤون قاعات محاضراته لسماعه يتكلم.

في ذلك الحين، لم أكن أشاطر ناصرًا اهتمامه الكبير بالسياسة أو ولاء كاظم للإسلام، حواراتهم المستنيرة أثارت اهتمامي، لكن لم يكن لدي شيء أسهم به، لم أفهم حتى تلك اللحظة مدى شدة الغضب الأخلاقي ضد الشاه، وهو يجعل الغضب الأميركي ضد نيكسون يبدو مثل سخط خفيف، ربما كان هذا هو الوصف المناسب؛ ففي حين أن لدى نيكسون قائمة بالأعداء، فإن لدى الشاه قائمة إعدامات.

علمت في تلك الليلة أيضًا عن أشهر قضايا الاعتقال والإعدام، وهي قضية خسرو كلسرخي، تشي جيفارا الإيراني، وهو شاعر ماركسي لينيني وصحفي اعتُقل بتهمة تدبير مؤامرة لخطف ابن الشاه، «الحقيقة، أنه فكر مع يساريين آخرين في ذلك كوسيلة لتحرير سجناء سياسيين»، كما أخبرني ناصر، وقال أيضًا: حيث إن الشاه كان يغازل الغرب ومتنبه

لإعلان لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان عن قضايا مختلفة، بما في ذلك معاملة السجناء السياسيين، فقد سمح بأن يبث التلفزيون قضية كان يعتقد أنها قضية عابرة، سمحت المحكمة لكلسرخي بأن يتحدث، على ما يبدو ليسرد جرائمه، لكنه بدلًا من ذلك تحدث ببلاغة مثيرة نيابة عن الفلاحين العاملين في ظل نظام الإصلاح الزراعي الذي فرضه الشاه، مقارنًا كفاحهم بكفاح الشهيد العظيم الإمام الحسين نفسه، ومفصلًا جرائم الشاه ضد الإنسانية، رفض كلسرخي الدفاع عن نفسه؛ لم يشأ إلا أن يدافع عن الشعب، وحين سُئل إن كان سيواصل نشاطاته الإرهابية ضد الشاه قال بثقة تامة إنه سيفعل.

«هل تعلم ما فعل كلسرخي حين أخذوه لتنفيذ حكم الإعدام؟ رفض وضع عصابة على عينيه، ونظر إلى جلاديه في وجوههم حين أطلقوا النار عليه، لقد كان بطلًا، يا رضا»، هز ناصر رأسه قائلًا: «يجب ألا يعيش أي إنسان مضطهدًا، عليك أن تنهض مدافعًا عن حقوقك»، روى ناصر بعدها قصيدة لكلسرخي:

تغطي صدرك
ندبة عميقة من عدوك
لكنك، تقف كشجرة سرو لا تسقط
إنها طريقتك في الموت

جلس ناصر وكاظم إلى جانبي إلى أن غلبني النعاس، ووجدتهما إلى جانبي حين استيقظت، كنت ممتنًا جدًّا لوجودهما؛ لأن النوم جعلني أنسى مؤقتًا موت أبي، وحين استيقظت وتذكرت غمرني الحزن مجددًا، لا أعرف كيف كنت سأتصرف لو لم يكن صديقاي العزيزان إلى جانبي.

ناصر وكاظم بقيا إلى جانبي خلال جنازة والدي، حين كانت جميع جوانب الضعف لديَّ ظاهرة جلية، كنت ابن أمي الوحيد وشعرت بمسؤولية عظيمة تجاهها، لكني كنت أعرف أنها لن تسمح لي بقطع دراستي كي أرعاها؛ خاصة أن أبي كان يرغب بشدة في حصولي على شهادة جامعية من أميركا، كانت والدتي مؤمِّنة من الناحية المادية، لكني لم أكن واثقًا من قدرتها على الصمود عاطفيًّا من دون أبي، أكد لي كاظم وناصر أنهما وأسرتيهما سيرعيانها ويسألوا عنها دائمًا، فعلوا هذا لأنهم يحبونها ويحبونني، كانا يعرفان بأن لدي فرصة عظيمة

في أميركا؛ وهي فرصة لا يستطيعان الحصول عليها، وكانا يريدانني أن أستغلها إلى أقصى حد، هذا الدعم المتدفق أنار طريقي في تلك الأيام السوداء، لم أصدق كيف سمحت لنفسي بأن أهمل أفضل صديقين لي كما فعلت في السنوات القليلة الماضية.

عدت إلى كاليفورنيا مصممًا على أن أكرس نفسي للدراسة، وأن أفعل ما يجعلني فخر أبي، الوطن لم يغادر ذهني هذه المرة، وأصبح للرسائل التي تصلني من هناك معنى جديدًا الآن، كتب ناصر عن تصاعد المعارضة للشاه، وكان بإرساله هذه الرسائل يخاطر بأن يعتقله جهاز السافاك، حيث إنهم كانوا يراقبون الاتصالات الداخلة والخارجة، أعجبت بشجاعة ناصر والتزامه بقضية الشعب الإيراني، وصلتني إحدى رسائل ناصر ومعها نسخ من كتب شريعتي، قراءة تلك الكتب غيرت حياتي إلى الأبد.

أعاد شريعتي تفسير الإسلام من خلال منظور اجتماعي، يحيي المبادئ الأصلية للمسؤولية الاجتماعية، انتقد رجعية الملالي، الذين استبدلوا العلم بالرياء، والرأسمالية، التي تشجع الإنسان على أن يصبح مجرد مستهلك، «حيوان اقتصادي وظيفته الوحيدة هي الرعي»، تنبأ شريعتي بنوع جديد من القادة الدينيين يتبعون نهج محمد، زعماء لا يكتسبون دورهم القيادي بالطغيان والتحكم بالناس، بل باستلهام أفضل ما فيهم؛ لذلك كي يعرف القائد الله جيدًا، عليه أن ينظر إلى أعمق رغبات الناس، هذا التفسير الديمقراطي الجذري لتعاليم النبي كان يمنحني القوة.

يقول شريعتي: إن أي مسلم معاصر يقبل الظلم هو شخص يعيش حياة ذل، وآمن أنه لو عاش كل مسلم وفق نموذج الحسين، فإن الظلم على هذه الأرض سينتهي.

عمل شريعتي حسب ما كان يدعو له؛ الأمر الذي قاد إلى طرده من كلياته، وحظر كتبه، واعتقاله، ونفيه، فعل نظام الشاه كل ما في وسعه لمنعه من الكلام؛ إلا أنه لم يتراجع، كان صدى كلماته يتردد عميقًا بحيث إن الإيرانيين من أمثال ناصر كانوا يرسلون كتبه وأشرطته المسجلة إلى مختلف أنحاء العالم إلى أمثالي الذين يعيشون في الخارج، لقد قرأت عشرًا من كتب شريعتي، وكثيرًا ما كنت أنهار باكيًا لقوة كلماته.

«يا إلهي، امنحني حياة لا أبغضها لتفاهتها وأنا على فراش الموت، وامنحني ميتة لا أحزن على عدم جدواها، دعني أختار ذلك، لكن بالطريقة التي ترضيك أكثر، يا إلهي علمتني كيف أحيا؛ وينبغي عليَّ أن أتعلم كيف أموت».

علمني شريعتي أنني سمحت للملالي المضحكين وقادة رجال الدين المنافقين بأن يضللوني عن روحانية الإسلام ونهجه القويم في شبابي، وهو ما كانت جدتي تحاول تعليمي إياه، وفي حين يمكن للقادة الفاسدين أن يحرفوا الدين خدمة لأغراضهم، فإن مبادئ الله موجودة على الدوام في قلوب الناس الطيبين، لم أسمح لنفسي اعتناق الإسلام لأني تركت الفئة الخطأ من الناس تلون آرائي، أجبرني شريعتي الآن أن أكرس حياتي للسعي من أجل الخير.

لأول مرة منذ أن كنت صبيًّا، بدأت أؤدي صلواتي بانتظام، وضعت سجادة صلاة في غرفة نومي في شقة لوس أنجلوس، وفي حين لم يفهم جوني وأليكس الأمر تمامًا إلا أنهم احترموا احتياجاتي، وضوح فكر شريعتي ذكرني بأفضل ما في قلب الإنسان: العدالة، والتعاطف، والرحمة، والشجاعة في وجه الظلم، وبدأت أعتقد بأن شريعتي نفسه يمثل القائد الذي كان يدعو إليه في كتاباته.

ثم في تموز/ يوليو 1977م، تلقيت رسالة أخرى من ناصر:

السلام عليك يا رضا...

لا أعلم إن كنت سمعت الأخبار عن الدكتور شريعتي، بعد خروجه من السجن، بقي تحت الرقابة المستمرة ثم غادر البلد إلى لندن الشهر الماضي، رضا، لقد سمعت للتو أنه اغتيل في مكان إقامته، اللعنة على هذا الظلم، هذه جريمة قتل أخرى في ظل ديكتاتورية نظامنا الملكي، لكن صدقني موته ليس سوى البداية وحسب، لقد حرك الكثيرين، وملحمته ستجلب التغيير على حياتنا.

سأبقى على اتصال!

ناصر

يا إلهي، فكرت، والدموع تنهمر من عيني، روَّج شريعتي لمبادئه طيلة الطريق إلى موته، مثله مثل الإمام الحسين، عرفت بعدها بأن المجرمين قتلوا الدكتور شريعتي في

منـزل ابنته، هذا القدر من القسـوة ينم عن خسـة فظيعة، عاهدت نفسـي بـألا تموت كلماته في قلبي، وانضممت على الفور إلى جمعية الطلاب المسـلمين في لوس أنجلوس، بدأ تزايد الاضطرابـات والتغييـرات التـي تجتاح بلدي يسـتحوذ علـى اهتمامي، بدأ صديقـاي فارزين وماني من جمعية الطلاب المسلمين يعقدان اجتماعات في منزلهما، كنا نعرف عن تصاعد التوتر السياسـي في إيران، وأن النـاس أخذوا ينتقدون الشـاه علنًا، وهو ما دفع السافاك إلى تحويل إيران إلى شـيء أشـبه بدولة بوليسية، وهذا بدوره جلب غضب المجتمع الدولي، حين تولـى جيمي كارتر الرئاسـة حجب المسـاعدة الأميركيـة عن إيران احتجاجًـا على انتهاكات الشـاه لحقوق الإنسـان، وتبعًا لذلك، وفي مسـعى من الشاه لإظهار أنه يحرز تقدمًا في مجال تحرير سياساته، أطلق سراح عدد قليل من السجناء السياسيين، كما أنه افترض خطأ، بأن تلك المبادرات الرمزية ستوقف الاحتجاجات، لكن التحرك ضده كان جاريًا.

شعر الإيرانيون بأنهم جاهزون للتضحية، كنا بحاجة إلى قائد.

الفصل 4

الشاه راح، الثورة

حين اتصل صديقي ماني من جمعية الطلاب المسلمين ليطلب مني حضور اجتماع في خريف العام 1978م، كان في صوته رنة انفعال لم يستطع السيطرة عليها، أثار ذلك اهتمامي، أهملت حصتي المسائية وقفزت إلى سيارتي مسرعًا إلى منزله، حين وصلت إلى هناك، وجدت مجموعة من الطلاب الإيرانيين يستمعون باهتمام إلى صوت رجل على شريط كاسيت، سألت أحدهم عمن نستمع إليه، طلب مني الهدوء قبل أن يعود للتركيز على الخطاب، وحين أدركت أنه لا بد أن يكون هذا ما أثار انفعال ماني، شاركت في الاستماع أنا أيضًا، «إن أمة لا تملك الحرية هي أمة بلا حضارة، الأمة المتحضرة هي الأمة الحرة»؛ تمتم أحد الحاضرين قائلًا، «نعم»، «يجب أن تكون هناك حرية للصحافة، وأن يمتلك الناس الحق في إبداء رأيهم».

ازداد انفعال الأشخاص الموجودين في الغرفة وأنا أتساءل عن الشخص المتحدث في الشريط، لم أميز صوته، هل أصبح شخصية مهمة في إيران وأنا بعيد عنها؟ هل يعرف كاظم وناصر عنه؟

«هذا الشاه، هذا اليزيد، هذا الخادم لأميركا، هذا العميل لإسرائيل يجب إسقاطه وطرده خارج إيران».

هتف الكثيرون بعبارات التأييد، وتزايد انفعالي أنا أيضًا؛ أحببت ما كنت أسمعه، كان المتحدث جريئًا بشكل لا يصدق، حتى حين شبه الشاه بيزيد، الحاكم الغاشم الذي أمر بموت الإمام الحسين، الإيرانيون يعتبرون يزيد واحدًا من أكثر المخلوقات البشرية ضعة في الأزمنة كافة.

«نحـن بحاجـة إلـى حكومة إسـلامية، مسـتقلة عن القـوى العظمـى، يتمتع فيهـا جميع الإيرانييـن بالثـروة وليس قلـة محـدودة من النـاس، نحـن لا نريد تحسـين حياتكـم المادية وحسب، بل أيضًا حياتكم الروحية، لقد أخذوا منا روحانيتنا، نحن بحاجة لروحانيتنا».

كان يتحـدث لنـا جميعًا، لجماعـة كاظم، ولأسـرة ناصر المثالية، ولجدتـي الروحانية، «في حكومتنا، لن يحكم رجال الدين بل سوف يساعدونكم في شؤونكم الروحية، في حكومتنا ستكون المرأة حرة، ويمكن انتقاد المسؤولين علنًا».

كانـت تلـك كلمـات آية الله روح الله الخميني، الرجل الذي سـيغير إيران بطرق لم يكن فـي وسـعنا إلا أن نتخيلهـا فـي ذلـك الحيـن، كان متحدثًا محرضًـا، بالرغم من أنـه لم يكن خطيبًـا عظيمًـا، كان يتكلـم بوضـوح ويكرر مـا يقولـه أحيانًا، مـع أن صوته يعكـس ثباتًا على الهدف، ولم تكن مناشـداته فكرية، كانت بدائية، خلال الدقائق القليلة التالية، اكتشـفت أنه ألهم حركة في إيران، حركة مررت أشرطته عبر السوق السوداء في جميع أنحاء العالم وكأنه نجـم مـن نجوم فرق الروك آند رول، كانت لدي الكثير من التسـاؤلات حوله، بحثت عن مانـي وفارزين، اللذين كانا يتحدثان معًا في زاوية مطبخهم، «أنا سعيد لأنك تمكنت من الحضور، رضا»، قال مانـي، بينما ابتسم فارزين مبتهجًا، «ما رأيك في آية الله الخميني»؟

هـززت رأسـي متعجبًـا: «لا أصـدق مـا أسـمع، إنه زعيـم حقيقي، رسـالته عـن الحرية السياسية والمساواة مذهلة، لكن أين كان»؟

أخبرني ماني أن الشاه سجن آية الله، بداية في أوائل الستينيات، بسبب انتقاداته القوية للحكومـة قبـل نفيه إلـى النجف، في العراق، وهو يدعو إلى إسـقاط الشـاه منذ ذلك الحين، ويعيش الآن في فرنسـا بعد 14 عامًا قضاها في النجف، وقد بدأ يتحدث إلى الصحفيين من مختلف أنحاء العالم.

في الأيام التي تلت، عرفت الكثير عنه، وجدت مقابلة أجراها مع رويتر قال فيها: «أسـاس حكومتنا الإسـلامية يقوم على حرية الحوار، وسـوف نقاتل ضد أي نوع من أنواع الرقابة، في إيـران الإسـلامية رجال الدين لن يحكموا بل سـوف يراقبوا ويدعمـوا قادة الحكومة، حكومة البلد ستخضع -وعلى المستويات كافة- للرقابة، والتقييم، والانتقاد العلني».

وقال لصحفي ألماني: «مجتمعنا المستقبلي سيكون حرًّا، وسوف ندمر جميع عناصر القمع، والقسوة، والإكراه، المرأة في الجمهورية الإسلامية ستكون حرة في نشاطها، ومستقبلها، ولباسها»، وقال لصحيفة الغارديان: «لا أريد أن تكون السلطة أو الحكومة في يدي، أنا غير مهتم بالسلطة الشخصية».

جذبت خطبه ومقابلاته الاهتمام، وسرعان ما بدا وكأن كل من له ارتباط بإيران كان يتحدث عنه، بدأت أكتب لكاظم وناصر عنه، لكن قبل أن أنهيها، وصلتني رسالة من كاظم، وكما هي عادته دائمًا، بدأ الرسالة بعبارة: «بسم الله الرحمن الرحيم».

سلام رضا جون...

أرجو أن تصلك رسالتي وأنت في خير الصحة والسعادة، أنا متأكد أن قوة زعيمنا الروحي قد وصلت إلى ذلك الطرف من العالم أيضًا، لقد حدث الكثير هنا، نحن نقترب من إقامة مجتمع إسلامي حر، آلاف الناس يتظاهرون في أنحاء إيران كافة، يحرقون أعلام وصور الشاه في الشوارع.

رضا، تمنيت لو كنت هنا معنا، أنا وناصر انضممنا للانتفاضة ضد الشاه،آية الله الخميني هو القائد الذي نحتاجه، لقد تلقينا بياناته والناس في جميع أنحاء بلدنا، أغنياء أو فقراء، متدينين أو ملحدين، رجال ونساء، شيبًا وشبانًا على صوت واحد، لقد حان الوقت لأن يتنحى الشاه، سأبقى على اتصال معك، وفي الأثناء، لا تبقى جالسًا هناك، يا رجل، تعال والتحق بهذه الحركة المباركة.

كاظم

بالرغم من أن الإيرانيين تمتعوا بدرجات مختلفة من النجاح في عهد الشاه، كان لرسالة الخميني صدى لدى شعب قلق من القمع ومتلهف للحصول على خيار سياسي شعر بأن الشاه أنكره عليه، اعتقدوا بأن الخميني لن يجعلهم مزدهرين وحسب، بل أحرارًا أيضًا، سمعت المزيد من كاظم وناصر، بدا أنهما سعداء بما يجري في بلدنا وكنت أتطلع قدمًا للعودة إلى الوطن في أسرع وقت ممكن.

خمد المد المتصاعد في 16 كانون الثاني 1979م حين غادر الشاه البلاد مع زوجته وأطفاله، وسائل الإعلام المحلية التي تسيطر عليها الدولة قالت إنه غادر للعلاج من مرض

السـرطان فـي مصـر، لكـن الحقيقـة هـي أن جيشـه كان في حالة تمـرد، ومواطنيـه يقومون بأعمال شغب، إيران لم تعد مكانا آمنًا له أو لأسرته.

تجمعنـا في منزل فارزين وماني لمشـاهدة الأخبار على التلفزيـون، تابعنا بفرح جامح طائرة الشـاه وهي تقلع مغادرة، محمد رضا شـاه بهلوي، زعيم إيران منذ العام 1941م غادر البلـد الـذي ورثة من ألفين وخمس مئة سـنة من الملكية الفارسـية، عرض التلفزيون علينا مشـاهد لمئـات آلاف الإيرانييـن يتدفقـون إلى الشـوارع حاملين صور آيـة الله الخميني وهم يهتفون: «الشـاه ’رافت‘!» الشـاه راح! وتجولت السيارات في شـوارع إيران مصابيحها مضاءة وأبواقها تصدح، في لوس أنجلوس، رددنا صدى هذه المشـاعر بصوت عال، لم أشـهد في حياتي مثل هذا الاحتفال الحماسي وتمنيت لو أنني كنت هناك مع مواطني بلدي.

بعـد أسـبوعين مـن مغـادرة الشـاه، ركـب آيـة الله الخميني طائرة فرنسـية عائـدًا إلى إيـران، تصـورت -وأنـا أشـاهد من أميركا- كيف سـيكون الأمر بالنسـبة لهـذا الرجل البالغ ثمانيـة وسـبعون عامًا مـن العمر حين تطأ قدمه أرض بلده منتصـرًا بعد 14 عامًا في المنفى الإجباري، ملايين النـاس احتشـدوا في مطار مهراباد في طهران للترحيب به وإبداء حبهم ودعمهم.

بعد الدوران حول المطار مدة تزيد على عشرين دقيقة لأسباب أمنية، هبطت طائرة آية الله، شـاهدت الخميني يقترب من الميكروفـون بعد عاصفة من آغاني الترحيب والخطابات الافتتاحية.

«علينـا أن نشـكر جميع طبقات شـعب هذه الأمة؛ لأن النصر الذي تحقق حتى الآن كان بفضـل وحـدة الصوت، وحدة صـوت جميع المسـلمين، وحدة جميع الأقليـات الدينية، وحدة الطـلاب والعلمـاء، وحـدة رجـال الديـن وجميـع الفصائل السياسـية، يجـب علينـا أن نفهم هذا السـر: وهو أن وحدة الصوت هي سـر النجاح، وعلينا ألا نضيع هذا السـر، أو أن نسـمح للشـيطان بشـق صفوفكم، لا سـمح الله، أشـكركم جميعًا وأدعو من أجل صحتكم ومجدكم، وأسـأل الله أن يقطـع أيدي الأجانب وأعوانهم». بعد ذلك، تـرك الميكروفون لتحية الملايين الذين جاؤوا لتأييده.

وعد الخميني الأمة بأنه لن يكون على أي شخص أن يدفع ثمن منافع عامة مثل الكهرباء، والماء، والهاتف، والخدمات الأخرى، وعد بالحرية السياسية، وأن يعمل رجال الدين فقط على تحسين الحياة الروحية للشعب، وألا يتدخلوا قط في الحكم، وقال أيضًا: إن حصة الناس من مال النفط ستصلهم عند أبواب بيوتهم، وفي أول خطاب رئيس له أمام حشد ضخم في طهران، انتقد الشاه على القمع الذي يمارسه، ودعا الإيرانيين إلى اللحاق بركب الثورة، ووعد بحكومة تدار من قبل الشعب ومن أجل الشعب.

كيف يمكننا أن نصدق بأنه في وسع أي رجل أن يسقط الشاه، ملك الملوك؟! رجل الدين المغمور هذا أسقط الملكية الفارسية بمجرد الحديث إلى الشعب، كما فعل النبي محمد، وعد بطرد الولايات المتحدة من إيران، واصفًا إياها «بالشيطان الأكبر»، الرجل لم يكن خائفًا من أي شيء، آمن كثيرون فعلًا بأن الله إلى جانبه، ويبدو أنه إلى جانبه.

بينما كنا نواصل دعمنا للثورة في جمعية الطلاب المسلمين، تجمع بعض الإيرانيين الذين ما زالوا موالين للشاه في شوارع لوس أنجلوس والمدن الأميركية الرئيسة الأخرى للاعتراض على ظهور الخميني والمطالبة بعودة الشاه، ولمواجهة ذلك، سرنا في شوارع المدينة حاملين صور الخميني هاتفين، بقبضات مرفوعة: «الله أكبر! الخميني قائدنا!».

كان لا بد للقوتين أن تلتقيا، خلال إحدى مظاهراتنا اصطدمنا بحشد من مؤيدي الشاه الذين انتابهم الغضب لتأييدنا آية الله، «نحن فُرس لدينا الكثير من العزة والكرامة»، قالت امرأة في منتصف العمر تحمل علمًا إيرانيًّا في يد وصورة محمد رضا بهلوي في اليد الأخرى، «لسنا بحاجة إلى ملا ليحكم البلد، سوف يدمر مملكتنا وسلالتها الحاكمة، هل سمعت ماذا قال الخميني حين سأله صحفي أميركي عن شعوره لعودته إلى الوطن؟ قال إنه لا يشعر بشيء»، قالت وهي تهز رأسها، «كيف يمكنك أن تكون بلا شعور تجاه وطنك»؟ ثم أدارت ظهرها للحشد ولوحت بعلمها، وهي تهتف «يعيش الشاهنشاه، يسقط الخميني».

داخل إيران، كانت الحركة الشعبية التي تشكلت خلف الخميني قوية للغاية بحيث أعلن الموالون للشاه الأحكام العرفية، آلاف الإيرانيين الذين حفزتهم عودة الخميني تظاهروا بالرغم من ذلك، وفتح الجنود النار عليهم، لجأ المواطنون إلى السلاح، واجتاحوا القواعد

العسكرية، واقتحموا مستودعات الأسلحة وسلموا الناس أسلحة حربية، بعد أسبوع من وصول الخميني إلى إيران، اتصل بي ناصر وكاظم معًا، كانت المرة الأولى التي يفعلان فيها ذلك.

«كنا عند حامية عشرت آباد اليوم»، قال كاظم: «لقد أجبرناهم على الاستسلام»، تدخل ناصر قائلًا: «رضا، حصل كل واحد منا على بندقية رشاشة طراز جي3».

كانا يصرخان، ويضحكان، ويتحدثان معًا بانفعال قوي بحيث إنني بالكاد كنت قادرًا على فهمهما، «انتظرا، انتظرا يا شباب، ما الذي يحدث؟ ليكلمني كل واحد على حدة».

بيَّن لي كاظم أنهما كانا من ضمن المتظاهرين الذين هاجموا الحاميات المحيطة بمدينة طهران، وأجبروا جنود الشاه على الخروج إلى الشارع وجردوهم من أسلحتهم، بينما دخل آخرون إلى المرافق واستولوا على أسلحة الجنود. «النصر وشيك يا رضا»، قال كاظم.

كانت تلك عملية خطرة، لكنهما انتصرا، لم أصدق أن صديقاي كانا من ضمن الناس المستعدين للتضحية بحياتهم من أجل حرية إيران، كنت فخورًا بهما كليهما، ناصر المثقف العلماني، وكاظم الملتزم دينيًّا، كانا يعملان كشقيقين في معركة مشتركة، كانا يمثلان إيران كلها في تلك اللحظة القصيرة المضيئة، يعملان بتوافق تام كأنهما شخص واحد، كل فصيل وإيديولوجيا- دينية، أو ليبرالية، أو علمانية، أو ماركسية، أو شيوعية- تجمعت تحت راية الخميني، وفي غضون شهرين أجرت الحكومة المؤقتة استفتاء وطنيًّا، كان السؤال: «جمهورية إسلامية، نعم أم لا؟» عدم وجود خيار آخر جعل بعضهم يتشككون، لكن بعد العودة المثيرة للخميني، 98 بالمئة صوتوا بنعم.

يوم 1 نيسان، أعلن آية الله الخميني جمهورية إسلامية هي انعكاس لقيم إسلامية تقليدية قوية، وكنوع من التنازل للقوى الليبرالية في البلد، عين الخميني مهدي بازركان أول رئيس وزراء لجمهورية إيران الإسلامية؛ ليظهر للناس أن متمسك بوعده بإبقاء رجال الدين بعيدين عن مناصب القوة السياسية، كان مهدي بازركان يرأس الحركة الليبرالية الإيرانية، وعلي شريعتي أحد مؤسسيها، كرس الحزب جهوده من أجل حصول الأمة الإيرانية على الحرية، والاستقلال، والديمقراطية، بناء على تفسيرات معاصرة للمبادئ الإسلامية، وكان نظام الشاه قد اعتقل بازركان مرات عدة، لكنه تمسك هو وحزبه بمبادئ العصيان المدني

والحداثة، والواقع فإن بازركان عارض تسمية إيران (جمهورية إسلامية) وأراد تسميتها (الجمهورية الإسلامية الديمقراطية)، ولدينا كل الأسباب للاعتقاد بأنه كان سيحكم بعدل وإنصاف.

لم أستطع الانتظار للعودة إلى الوطن، وفي حزيران من ذلك العام، عدت، في سن الخامسة والعشرين، كنت قد حصلت على شهادة الماجستير في هندسة النظم، وأتوق لوضع خبرتي في خدمة الثورة، انتقلت والدتي -التي كانت لا تزال في حالة حداد على وفاة والدي قبل ثلاث سنوات- للسكن في شقة في إحدى العمارات العالية، واخترت الإقامة معها هناك.

في اليوم التالي لعودتي، اصطحبني ناصر في سيارة الشيفروليه الحمراء المكشوفة التي كان يستخدمها دون علم والده، وحيث إن ناصر كان يستخدمها طوال الوقت، قرر داود إعطاءها له، جلس شقيقه سهيل وشقيقته بارفانا في المقعد الخلفي، «سنذهب لاصطحاب كاظم ثم نذهب لتناول المثلجات والكريم كاراميل لبرفانا، حيث إنه المفضل لديها، نحن نحتفل».

«ما الذي تحتفلون به، يا ناصر؟ سألت بارفانا، كانت في الخامسة عشرة من عمرها، لكنها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لسنها، وتبدو وكأن سنها لا يزيد عن أحد عشر عامًا، شعرها لا يزال مجعدًا، مع أن جدائلها كانت أطول مما أتذكر، وتوحي تصرفاتها بأنها أصغر من سنها، بتلويحها ذراعها من خلال النافذة إلى الأمام والخلف دون اهتمام بأي شيء في العالم، محاولة إمساك الريح بيدها.

«صديقي المفضل عاد من أميركا»، قال ناصر مبتسمًا ومشيرًا بعينيه نحوي، «هذا سبب جيد، كما أن بلدنا حر؛ وهذا سبب أفضل». «إذا كان حرا لماذا لا أستطيع الذهاب إلى الجامعة؟» قال سهيل بحدة، «أريد الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، في جامعة طهران، وثمة إشاعة الآن بأنهم سيغلقون جميع الجامعات».

أشار ناصر إلى شقيقه أن يهدأ، «لن يكون الأمر على هذا النحو، يا دافنشي، إذا أغلقوا الجامعات، فسيكون ذلك لمدة وجيزة»، لم نعرف في حينها أن ناصر كان مبالغًا في تفاؤله،

في الربيع التالي، أغلقت الحكومة الجامعات سنوات عدة، فيما وصفوه بالثورة الثقافية لاجتثاث التأثير الغربي على الجامعات وجعلها تتماشى مع الإسلام الشيعي.

بعد أن اصطحبنا كاظم، تجولنا في أنحاء طهران، بدا كل شيء مختلفًا بالنسبة لي، نعم هناك مبان شاهقة وطرق سريعة جديدة، لكن ما فاجأني هو الروح الحماسية للناس، بعضهم كان يقدم الزهور والحلوى، عند إشارات المرور، كانوا يرفعون أصابعهم بعلامات النصر ويهنئون بعضهم، في الأيام التالية كنت أرى أناسًا من مختلف المجموعات السياسية متجمعين في الجامعات أو في زوايا حول المدينة يناقشون السياسة والدين علنًا وبسلام، شعرت وكأنها بداية لنهضة فارسية، كنت على قناعة أنه سيكون في وسعنا قريبًا أن نظهر للعالم كيف يمكننا دمج المثل الدينية بالقيم الحديثة، حسبما تصور شريعتي، تصورت مستقبلًا من الإبداع والتجديد يقاد بالمبادئ الدينية.

كان رائعًا أن أعود للاجتماع بناصر وكاظم، كنا نلتقي في مكان إقامتي أو مقهى (فارس) الصغير في الطابق الأرضي من العمارة التي تسكنها والدتي، في تلك الأيام لم نكن نتحدث عن شيء سوى الثورة، وكان كلاهما يساهمان فيها بالفعل، تخرج ناصر مهندسًا مدنيًّا وحصل على وظيفة جيدة في شركة خاصة، في حين أذهل كاظم الكثيرين في جمعية الطلاب المسلمين بإخلاصه وتوظيف الحرس الثوري له وترقيته بسرعة بتعيينه في وحدة الاستخبارات السرية.

أطلق كاظم لحيته مع شارب مقصوص بعناية فوق شفتيه مثل الكثيرين من الشبان المتدينين الداعمين للثورة، بين الإيديولوجيين، كان الإيمان الراسخ قويًّا، ذلك النوع من اليقين، وليس العلم، أو الخبرة، أو المؤهلات، هو ما جعل الخميني قائدًا لنا.

«رضا، هذا هو المكان الذي يجب أن تكون فيه»، قال كاظم متحدثًا عن الحرس الثوري، «خبرتك بأجهزة الحاسوب وإيمانك بالثورة أشياء ثمينة، هل تريدني أن أكلم قائدي وأرى إن كان هناك مكان لك»؟

رأيت أنها فكرة جيدة، حيث إنني بحاجة لأن أستقر في عمل وأريد أن أساهم، سرعان ما رتب لي لقاء مع قائده. «إنهم بحاجة إليك رضا، الحرس الثوري بصدد تركيب نظام حاسوب في قواعده في مختلف أنحاء البلد ويوظف أناسًا الآن، أخبرتهم أنك الرجل المناسب لهم».

في اليوم التالي، ذهبت إلى قاعدة الحرس في جنوب طهران، كان مكتب رحيم، قائد كاظم، يقع في نهاية ممر طويل ضيق في الدور الأول من مبنى من أربعة طوابق يشكل القاعدة، وهو رجل قصير القامة، بدين، مثل كاظم، بلحية كثة وشارب مشذب.

«سلام، أيها الأخ، تشرفت بمقابلتك»، قال حين دخلت مكتبه.

جلبت معي أوراقًا توثق دراستي في أميركا، بما في ذلك شهادة الماجستير، حسبما أرشدني كاظم، لم يشأ رحيم النظر في أي منها واكتفى ببضعة أسئلة عن معارفي ومهاراتي، وبدلًا من ذلك، ركز في أسئلته على أنشطتي في أميركا ومدى تمسكي بالإسلام وبقائدنا، أراد أن يعرف مع من كنت أقيم وأرافق في أميركا، أخبرته عن مشاركتي في جمعية الطلاب المسلمين، وكيف أصبحت مؤيدًا لآية الله الخميني، ومدى تأثري بحبه لإيران وللإسلام، أخبرته عن والداي وعن جداي، ولأترك لديه أفضل انطباع ممكن، أخبرته كيف علمتني جدتي أن أكون مسلمًا متدينًا، قلت في النهاية، «أنا أتطلع قدمًا للمساهمة بالكامل في الثورة».

«نحن فخورون بالإخوة أمثالك الذين يعودون من الخارج لخدمة البلد، نحن بحاجة ماسة لخبرتك في الحرس، يمكنك البدء على الفور، وإن شاء الله ستبذل كل ما في وسعك من أجل الثورة».

بدأت العمل على الفور، بعد أن أطلعني كاظم على وظيفتي، كنا سعداء لعملنا في المكان نفسه، كان كاظم يحظى باحترام جميع العاملين، ويساندني في كل خطوة، علاوة على ثقته بي، وكنت فخورًا باحترامه لي، شعرت في ذلك الحين وكأن الحظ قد ابتسم لي.

لكن سرعان ما أرخى علينا ظل قاتم، في صبيحة الرابع من تشرين الثاني، 1979م، وبعد شهرين من استخدامي في الحرس، جاء كاظم إلى مكتبي قائلًا: «تعال، سنذهب إلى السفارة الأميركية، هناك مظاهرة تحتج على سماح الأميركيين للشاه بدخول بلدهم»، نهضت عن مكتبي على الفور، كنا جميعًا غاضبين؛ لأن الرئيس كارتر منح الشاه ملاذًا في

الولايات المتحدة بحجة توفير أفضل علاج للسرطان له، طلبنا إعادة الطاغية إلى هنا لمحاكمته، يسعدني أن أشارك في هذه المظاهرة.

قدنا السيارة مدة عشرين دقيقة في اتجاه الشمال الشرقي نحو السفارة الأميركية، وجدنا أن المئات من المتظاهرين قد تجمعوا أمامها يرددون الشعارات ويحملون اللافتات، كان معظمهم من التلاميذ، وكان في استطاعتي رؤية بعض النساء الأكبر سنًّا يرتدين الشادور، كانت هناك الصحافة، بالطبع، ورجال بمكبرات صوت ضخمة يحرضون الجموع، تصاعدت الانفعالات لدرجة أن جميع المتظاهرين بدؤوا في الهتاف «الموت لأميركا!» انضم كاظم إليهم، رافعًا قبضته في الهواء وهاتفًا «الموت لأميركا».

هذا جعلني أشعر بعدم الارتياح، السنوات التي قضيتها في أميركا كانت، ذات يوم، طيبة، وقد أصبحت محبًّا جدًّا للشعب الأميركي، أنا هنا للاعتراض على سياسة، وليس للدعوة للموت، في الوقت نفسه، شعرت بضرورة أن أبدي تضامني؛ لذلك بدأت أهتف معهم، هتافات القريبين مني كانت تتعالى كلما توجهت كاميرات الأخبار ناحيتنا.

«رضا، انظر!» قال كاظم مشيرًا بإصبعه، توقفت عن الهتاف حين رأيت أناسًا يتسلقون أسوار السفارة وبوابتها الأمامية ويقفزون داخلها، حارس السفارة الوحيد الذي تمكنت من مشاهدته لم تطاوعه نفسه أن يطلق النار، فاختار الهرب إلى الداخل، تمكن أحدهم من كسر السلسلة التي على البوابة، فاندفعت حشود المحتجين داخل ما يعدُّ رسميًّا أملاكًا أميركية، علمت فيما بعد أن امرأة خبأت قاطع سلاسل تحت شادورها، انتشر المقتحمون في مختلف الاتجاهات، كما لو كانوا يعرفون أين ينبغي عليهم أن يذهبوا.

وقفت بجانب كاظم فاغرًا فمي، لم يكن ذلك شغبًا، ولم يكن عملًا انفعاليًّا، بدا أمرًا مدبرًا بعناية، بدا أن الأشخاص الذين اندفعوا إلى الداخل يعرفون بعضهم ويعرفون ما ينبغي عليهم أن يفعلوه، وصل أفراد عسكريون من الحرس الثوري بسرعة، تساءلت كيف عرفوا عن الاقتحام بهذه السرعة، ثم جاء رجال (ألكميته) (الشرطة الدينية الإيرانية) الذين منحهم الخميني مكانة رسمية مؤخرًا، ووعدوا بالحفاظ على النظام، لكن الشيء الوحيد الذي حافظوا عليه بانتظام هو احتلال السفارة، بعد ذلك وصلت حافلات محملة

بالناس الذين انضموا إلى المظاهرة، وتلك علامة أخرى على أن التجمع لم يكن عفويًّا، وفي غضون دقائق احتل المحتجون المبنى.

لم أكن مرتاحًا لتصوير الكاميرا، أليس هذا ضد القانون الدولي؟ أعرف أن وسائل الإعلام ستبث هذا في مختلف أنحاء العالم، ماذا إذا انتهى وجهي معروضًا على شاشات التلفزيون؟ ما الفكرة التي سيحملها جوني وأليكس؟

خرج المحتجون من السفارة يهتفون وقد رفعوا أصابعهم بعلامات النصر وجلبوا معهم أميركيًّا معصوب العينين وموثق اليدين، شعرت باضطراب في معدتي، تذكرت زيارتي لهذه السفارة للحصول على تأشيرة دخول إلى أميركا للدراسة هناك، القنصل العام استقبلني جيدًا في ذلك اليوم، حتى إنه مازحني، مشجعًا لي بأن أتابع دروسي وأن أتمتع أيضًا، في ذلك الحين، وفي وقت ليس ببعيد كان هناك نوع من الإعجاب المتبادل بين الأميركيين والإيرانيين، وحين كنت هناك عاملني الأميركيون وكأنني واحد منهم.

الآن، وفي كل مكان حولي، لا أرى سوى الكراهية تصدر من أفواه الثوريين الذين كنت أظن أنهم إخوتي وأخواتي في قضية عادلة، صدمني ذلك حتى أعمق أعماقي، لا نستطيع الرد على الطغيان بطغيان مضاد على الأميركيين، نحن نمثل التحرر وليس الخطف.

لم يكن ذاك أول عمل متطرف أشهده، فقد فجر متطرفون ضريح الشاه الأب وأقاموا مكانه مرحاضًا عموميًّا، ووضع آية الله خلخالي، رئيس المحكمة العليا للمحاكم الثورية التي تأسست حديثًا، مئات المواطنين أمام فرق الإعدام ردًّا على الانتفاضة الكردية، دون منحهم فرصة الدفاع عن أنفسهم، وقرأت عن إعدام ضباط الشاه العسكريين، حتى من استسلم بشرف دون أن يطلق رصاصة واحدة على مواطنيه، ومع ذلك، كنت ما زلت قادرًا على إقناع نفسي بأن ما يجري فوضى مؤقتة بعد الثورة.

لكن مشاهدة عملية الاستيلاء على السفارة كان بمثابة صفعة على الوجه، هنا قلة متعصبة تفرض إرادتها على أغلبية عقلانية؛ لذلك كان علي أن أوطن نفسي على اعتبار أن الفوضى المؤقتة قد لا تكون مؤقتة على الإطلاق، يبدو أن التطرف آخذ في السيطرة، في تلك اللحظة، بدأت أتساءل ما إذا كانت رؤيتي للمستقبل ليست سوى أوهام.

بقينا خارج السفارة حتى حلول الليل، كنا نمرر الشموع فيما بيننا، أخبرني كاظم مبتسمًا وشمعته تلقي بوهج حماسي على وجهه، بأن عملية السيطرة كلها قد تم التخطيط لها مسبقًا بموافقة سرية من الخميني، حتى إن قادة الانقلاب وصفوا السفارة لوسائل الإعلام بأنها (وكر الجواسيس).

لم أعرف كيف أخبر كاظم عن شعوري تجاه الأعمال المتطرفة التي شهدناها للتو، لم أفهم السبب في أن حب إيران يجب أن يفرض عليَّ كراهية أميركا، لحسن الحظ أنه لم يسألني أبدًا، ظني أنه كان يعتقد بأنني مؤمن حقيقي مثله هو، ما كان في وسع شخص نقي السريرة -مثل كاظم- أن يتصور كيف يمكن لزميل ثوري أن يشعر بشيء سوى الفرح في هذه اللحظة، «هذه هي قوة الإسلام»، قال لي في تلك الليلة، حتى القوى العظمى يجب أن تركع أمامها.

ظلت شمعتي تنطفئ مع هبات النسيم، وواصل كاظم إشعالها من شمعته، أقسمت أن أحاول التمسك بإيماني بالثورة بالرغم من أن ما يحدث لم يكن تصور شريعتي لأمتنا، أقنعت نفسي بأن رئيس الوزراء بازركان لن يقف ساكتًا ويسمح بحدوث ذلك.

بعد بضعة أيام، استقالت حكومة بازركان بشكل جماعي احتجاجًا على احتجاز الرهائن، أمر رئيس الوزراء بإطلاق سراح الرهائن، لكن الحكومة كانت عاجزة عن فرض قراراتها على المتطرفين الذين لا ينصاعون إلا للخميني؛ بل إنهم وصفوا الحادث بأنه (الثورة الثانية)، لم يكن أمام بارزكان من خيار إلا أن يستقيل، مهانًا.

باستقالته، ماتت جميع الآمال بقيام ديمقراطية ليبرالية، فقد أصبحت إيران الآن بلد الخميني.

لم يحدث قط أن اتخذ زعيم شرق أوسطي قرارًا مهمًّا دون أن يأخذ في الاعتبار رد فعل القوى العظمى المحتمل، هنا أظهر الخميني أولى علامات عبقريته بجعل الدول العظمى تلعب ضد بعضها، أخبرني المطلعون داخل الحرس الثوري أن جيمي كارتر أصدر أوامره إلى الجنرال الأميركي روبرت هويسر يمنعه من إصدار أوامر إلى الجنرالات الإيرانيين للقيام بانقلاب لإعادة الشاه إلى الحكم، كان فريق السياسة الخارجية للرئيس كارتر قلقًا

من سيطرة السوفيت على أفغانستان، وبرروا ذلك بأن لا شيء يمكن أن يقف في وجه دولة شيوعية في أفغانستان سوى دولة إسلامية في إيران المجاورة، أفهمني أفراد من الحرس الثوري بأن الخميني كان مدركًا لكل هذا، لكنه أراد إخراج الرأسماليين والشيوعيين؛ لذلك تلاعب بمخاوفهم وآمالهم، وأصبح محرك دمى يتلاعب بالقوتين العظميين، في لعبة شطرنج الحرب الباردة هذه، تلاعب حجر الشطرنج باللاعبين بواسطة صرخة تحريض: «نحن لسنا رأسماليين ولا شيوعيين، نحن إسلاميون»، رجل الدين هذا كان يسقط الملوك، ويختطف السيطرة من القوى العظمى، ويشعل الثورة في إيران بالكلام فقط، الجنون الذي أوحى به لمواطني بلدي جمَّد الدم في عروقي.

القوة الثورية الوحيدة التي رفضت تسليم سلاحها حين طالبها الخميني بذلك كانت المجاهدين، أي جماعة مجاهدي الشعب الإيرانية، وهي مجموعة دينية اشتراكية تأسست في العام 1965م لمعارضة الشاه، اعتمد المجاهدون في الكثير من معتقداتهم على كتابات علي شريعتي، ومن ضمنها التأكيد على أن النبي محمدًا سعى من أجل إقامة أمة بلا طبقات، تعاطف ناصر معهم كرد فعل ضد الملالي، وبدأ يقضي وقتًا مع طلاب موالين للمنظمة، حول المجاهدون، وهم مقاتلون أشداء، مناهضون للغرب، والشاه، والملالي، عنفهم ووجهوه ضد الخميني، وواجهوا تعصبه بتعصب مضاد، خلال فترة حكم الشاه، ذهبوا إلى حد اغتيال مدنيين وعسكريين أميركيين يعملون في إيران، وهم الآن يطالبون بحصة من السلطة، حيث إنهم يرون أنهم ساهموا في إسقاط الشاه، إلا أن الخميني منع مسعود رجوي -زعيم المجاهدين- من الترشح للانتخابات الرئاسية الأولى، ركز الموالون للخميني هجماتهم على المنظمة، ومن هنا بدأت الأمور تزداد بشاعة، نظم المجاهدون تظاهرات تحولت إلى صدامات مع قوات الحكومة الجديدة.

الخلاف الإيديولوجي بين رجال الدين والاشتراكيين غرس إسفينا بين ناصر وكاظم، وحوَّل ما كان ذات يوم لقاءات صداقة إلى مبحث صعب في تجنب النزاعات، لم يواجها بعضهما مدة طويلة، لكن حين اجتمعنا لعامنا الجديد في آذار 1980م لم يعد في وسع كاظم البقاء صامتًا، قال بأن عنف المجاهدين ومظاهراتهم تدنس الثورة، رد ناصر بأن يد الحكم الثقيلة لرجال دين الخميني خيانة للثورة، واستمر الحوار يتصاعد.

قال ناصر: «يجب تقاسم الحرية السياسية والسلطة بين مختلف الأحزاب السياسية، ذلك الاستفتاء الغبي الذي جعل من إيران جمهورية إسلامية كان شيئًا مخزيا، لم يتيحوا للشعب أي خيار على الإطلاق، أي خيار لديك في التصويت إما مع أو ضد؟ ما زال الملالي يحكمون البلد».

«الإمام الخميني يقود هذا البلد نحو الازدهار وحفظ حقوق الإيرانيين ضد تدخلات القوى الأجنبية»، رد كاظم -الذي أصبح وأمثاله من أتباع الخميني يطلقون على الأخير لقب إمام، زعيم مقدس-: «الإسلام هو السبيل الوحيد نحو النقاء، وسوف تفقد روحك إن لم تنتبه، ناصر، القيم الإسلامية يجب غرسها في الناس، والانحلال الذي أدخله الشاه إلى البلد يجب القضاء عليه».

«القيم الإسلامية!» رد ناصر محتجًا: «ماذا حدث للوعد بحرية الحوار؟ هل اعتقال المعارضين وزجهم في السجون لأنهم يحملون رأيًا مختلفًا جزء من القيم الإسلامية؟ أنا متأكد أنك تعرف عن رجل الخميني خلخالي، الذي أعدم جميع ضباط الجيش الذين خدموا تحت حكم الشاه، هل تسمي ذلك قيمًا؟ قتل الناس من دون محاكمة؟». «دم الشعب يلطخ أياديهم»، رد كاظم غاضبًا.

حاولت التدخل، قائلًا: إن لدى كل واحد منهم نقاط جيدة، وإن الثورة بحاجة إلى وقت. لكن أيٌّ منهما لم يستمع، «هذه بداية الفاشية وأنت أحمق لأنك لا ترى»، قال ناصر بحدة، «أنت أعمى، كاظم، وأمثالك سوف يتسببون في المزيد من المعاناة لهذه الأمة».

وقف صديقي العزيز واتجه نحو الباب الأمامي، غير قادر على تحمل وجود صديقي العزيز الآخر لحظة أخرى، قبل المغادرة، استدار ناصر لقول شيء، لكن بدلًا من ذلك، لوح بيده بخيبة وهمس قائلًا: «انس الموضوع». ثم صفق الباب خلفه وغادر.

الفصل
5

الإمام الذي لا يقهر

واصلنـا أنـا وكاظم عملنا في قاعدة الحرس الثوري في طهران، لكن القلق بدأ ينتابني حيـن لـم يحدثنـي عن ذلك الجدل مع ناصر، لم أرهما يتشـاجران على هـذا النحو من قبل، ولم ير أحدهما الآخر طيلة شـهر كامل، وأردت جمعهما في غرفة واحدة كي أشـرح لهما بأن المثُل الأساسية للثورة تتجاوز خلافاتنا، وأننا بحاجة لإعطاء الثورة بعض الوقت كي توحدنا في التزامنا المشترك بمجتمع عادل.

لكني لم أعد متأكدًا من هذا الأمر كما كنت في السابق، حين سافرت عبر البلد، ورأيت الصـدع الـذي أواجهـه في حياتي الشـخصية معكوسًـا فـي الآخريـن، كثير من الناس كانوا غاضبين من أقرب الناس إليهم بسـبب المعتقدات السياسية، فكيف لي أن أعرف حينها أن تلك المشاعر المرَّة لم تكن سوى إشارة واهية على الأهوال المقبلة!؟

قـررت أن أذهـب إلى مكتب كاظم للتحدث إليه وجمعـه بناصر، كان الوقت مبكرًا ذاك الصبـاح، ولـم يكـن قـد وصل بعد؛ لذلـك تركت له ملاحظة بـأن يتصل بي، بعد سـاعة دخل مسـرعًا إلـى مكتبـي قائلًا: «رضا، رضا، هل سـمعت بما حـدث»؟ التقط أنفاسـه ثم أضاف: «الأميركيون غزونا!»

قال هذا بنوع من الفرح لدرجة أني تسـاءلت في نفسـي إن كنت أسـمعه جيدًا، وما سـر سـعادته بغزو أميركي؟ أخبرني بعدها بما حدث: «لقد تم سـحقهم! أرسل الله عاصفة رملية لهزيمتهم! لقد سحقوا في الصحراء!»

«ما الذي تتحدث عنه يا كاظم؟ من الذي سحق في الصحراء»؟

«مروحيات، وطائرات، كل شيء، لقد تم نشر الأخوة هناك لتأمين المنطقة».

أدار كرسيًّا بشكل معاكس وجلس مواجهًا لي: «جاؤوا إلى هنا في مهمة لإنقاذ جواسيس السفارة، هبت عاصفة رملية»، التقط نفسًا عميقًا آخر، اعتقدت أنه يبالغ في حماسه: «أسطول الغزو كله تحطم في الصحراء».

«يا أللّه»، قلت غير مصدق. لم يسمعها كاظم على هذا النحو، بالطبع، فسَّر صرختي على أنها تمجيد لله، «الله أكبر، لقد ضُربوا وأُسقطوا عند اقترابهم من طهران».

لم أستطع إخباره بأني أتفق مع معظم الإيرانيين الذين يريدون تحرير الرهائن، وكما أصبح الحال في معظم الأحيان، وجدت نفسي أزن تعليقاتي في حضوره، لم أفعل هذا سابقًا قبل التحاقنا بالحرس، أدركت أن التطرق للمصالحة بينه وبين ناصر لن يكون مجديًا في ذلك الحين، فكل ما يمكنه التفكير به الآن هو (المعجزة) التي حدثت في الصحراء.

حين عدت إلى المنزل في تلك الليلة، وجدت والدتي ملتصقة بالتلفزيون، مذهولة من محاولة الرئيس كارتر إرسال قوات دربت خصيصًا لهذه المهمة إلى طهران تحت ستار الليل، عرفت أن العملية عالية التقنية بدأت في طريق سري مهجور وسط صحراء تاباس، على بعد قرابة 500 ميل إلى الشرق من طهران، اكتشفتهم -على الفور- حافلة تنقل بعض الأسر الفقيرة، الذين توجهوا إلى المكان لمشاهدة المروحيات وجنود الكوماندوس المزودين بمناظير رؤية ليلية، انتهت عملية التسلل إلى طهران، أخذ هؤلاء المنقذين المحتملين ركاب الحافلة الثلاثة وأربعين رهائن، وفتشوا مقتنياتهم القليلة بحثًا عن أي إشارة على تهديد.

ثم جاءت العاصفة الرملية، لم تتمكن ثلاث مروحيات من الإقلاع بسببها، ما أجبر الجنود على إلغاء العملية، وفي أثناء إعادة التزود بالوقود للهرب، تحطمت مروحية فوق طائرة نقل عملاقة، مشعلة الذخائر والوقود في عرض للألعاب النارية يمطر رصاصًا، قتل ثمانية من جنود الكوماندوس، وجرح آخرون، وأصيبت جميع المركبات بأضرار مختلفة، وبينما كان الإيرانيون نائمون في أسرتهم، هزم الطقس أكبر آله عسكرية في العالم، ولم يعرف الحرس الثوري بأن البلد قد تعرض للغزو إلا بعد فشل العملية.

نهضت والدتي وخفضت صوت التلفزيون: «لا أعرف ما أشعر به الآن، هذا عمل غادر يقوم به الأميركيون، لكن لم يترك لهم الملالي أي خيار آخر، أخذوا أناسًا أبرياء كرهائن

دون أي سبب سوى الألاعيب السياسية القذرة، كان الله في عوننا إذا بقي هؤلاء الملالي محظوظين على هذا النحو»، لم تنتظر لتسمع أفكاري، استدارت متجهة إلى الفراش.

في الليلة التالية، ادعى آية الله الخميني بأن الله بعث العاصفة الرملية لهزيمة الشيطان الأكبر، ودعا الناس إلى الخروج إلى أسطح منازلهم هاتفين للسماء بعبارة: «الله أكبر». وسرعان ما ارتفعت الأصوات فرحة في كل زاوية من المدينة.

لم تكن والدتي في المنزل تلك الليلة؛ لذلك قررت الصعود إلى السطح لرؤية ما يجري، كان مشهدًا غريبًا، شاهدت بعض الجيران وقد أطفؤوا أنوار منازلهم، متظاهرين أنهم ليسوا في البيت، بينما كان أتباع الخميني يصرخون (الله أكبر) في الليل، ومنازلهم تشع بالضوء.

كانت مشاعر من صعدوا إلى السطح واضحة للغاية، إلا أنني تساءلت عن مشاعر من انكمشوا مرتعدين في الظلام، هل تساءلوا كيف تمكن هذا الذي يسمي نفسه آية الله من إنجاز المستحيل بمثل هذا الثبات؟ قبل أقل من عامين، أزاح ملكًا عن عرشه، ثم جعل الرئيس كارتر يهرول إلى استرضائه، والآن ها هو يدعو العواصف الرملية إلى هزيمة أعدائنا وحماية مدننا، أي دليل آخر يريدون بأن الله إلى جانبنا؟

في تلك الأثناء، كان كاظم وناصر على عهدهما لا يكلمان بعضهما، وأصبحت فرص الحل تتضاءل أكثر من أي وقت مضى، في الأشهر التي تلت، تصاعدت الاشتباكات ما بين الموالين للخميني والمجاهدين، وبلغت حدًّا مرعبًا، حزب الله هاجم أماكن اجتماع المجاهدين وأماكن عملهم، مثيرًا نوع العنف الذي يريده الحرس الثوري بالضبط كي يتدخل بعنف ويهدئ الوضع. في العمل، كنت أسمع عبارات التهنئة بين الإخوان على جمعهم أعضاء جماعة المجاهدين وسوقهم إلى سجن إيفين الرهيب، حيث كانت شرطة الشاه (السافاك) تستضيف جلسات التعذيب ذات يوم.

في أحد أيام حزيران، توقفت عند مكتب كاظم للتحدث معه عن قضية تتعلق بالعمل، ولم أكد أجلس حتى بادرني قائلًا: «أعتقد أنه يستحسن أن تتحدث إلى ناصر»؟

«ناصر!»؟ قلت، متأملًا أن يطلب مني التوسط لجمعنا معًا، «أخبره أن يتوقف عن التسكع حول أناس لهم صلة بالمجاهدين، فسوف ينتهي في سجن إيفين».

بلعت ريقي، كاظم يعمل في وحدة مخابرات، لا بد أنه سمع شيئًا ما، هل ورد اسم ناصر خلال التحقيقات؟

«يا رضا، أنت تعرف مدى عناده»، قال كاظم مخترقًا أفكاري المشوشة، «عليك أن تجعله يتعقل»، «كاظم، إنه مجرد متعاطف، فهو لا يشارك في أي مظاهرات أو أعمال عنف»، «أنا وأنت نعرف أن السلطات لن تميز، إذا اعتقل في اجتماع للمجاهدين، فإن الإخوان في وحدة الاستخبارات سيعاملونه مثل أي خائن».

«لكن ألا تستطيع أنت أن تشهد له»؟

حين أشاح كاظم بنظره عني، شعرت بقلق في صوته: «سوف يستمع إليك، رضا».

عدت مسرعًا إلى البيت شاكرًا الله أن كاظم ما زال يحتفظ بصداقته لناصر بما يكفي لإبلاغي هذا التحذير، أقسمت أن أفعل كل ما في وسعي لحمل ناصر على إعادة التفكير في أعماله، بمجرد وصولي إلى المنزل، اتصلت بناصر وأخبرته أنني بحاجة لمقابلته.

وصل إلى شقة أمي بعد مدة قصيرة، حين دخل رأى النظرة التي على وجهي، عرف على الفور لماذا طلبت منه الحضور، قال كاظم لك شيئًا، أليس كذلك؟

«أشرت له أن يجلس وجلست مقابلًا له، ملت إلى الأمام كما أفعل دائمًا»، أخبرني كاظم أنه ما زال يعتبرك صديقًا، وطلب مني التحدث إليك، أنت تتبع مسارًا خطرًا مع هؤلاء الأشخاص، أنا أحترم ما تؤمن به، وأقر بأن بعض المسؤولين في الحكومة يسيئون استخدام سلطتهم، لكن المجاهدين ليسوا الجواب أيضًا، إنهم يقاتلون من أجل السلطة أيضًا.

توقدت عينا ناصر غضبا: «رضا، هل نسيت ما علمنا إياه شريعتي؟ علينا أن نناصر الحق، حتى لو ضحينا بحياتنا، إن لم تقل رأيك في هذا المجنون، فأنت متواطئ مع الشر».

أمسـكت يـده، محـاولًا الدخول إلـى قرارة نفسـه: «انظر، الأمـر لا يتعلق بمجـرد إنقاذ صداقة، كاظم يعمل في وحدة استخبارات، ولا بد أنه سمع شيئًا محددًا بشأنك».

نهض ناصر وتجول حول غرفة معيشـة أمي، «انظر حولك -رضا- كل شـيء يتغير، منع أحـزاب المعارضـة، وإغلاق الجامعـات، ومهاجمة كل من يخالفهم، إنهم يسـلبوننا حقوقنا، إنهم يعتقلون أناسًا أبرياء لمجرد قراءة نشرة».

حاولـت أن أهدئـه، والسـيطرة علـى أعصابـي المضطربة في الوقت نفسـه: «نحن نمر بفترة تحول، والتغيير دائمًا صعب، ربما ينبغي عليك أن تكون أشـد حذرًا، ستتحسـن الأمور، سـترى». تمهـل ناصر قليـلًا قبل أن يعاود الكلام، وحين فعل، كان فـي صوته رنة ألم: «أتمنى لو كنت أحس كما تحس -رضا،-لكن إن لم يتكلم الناس الآن، فسوف تزداد الأمور سوءًا».

لم نقل الكثير لبعضنا بعد ذلك، كان واضحًا أنني لن أستطيع تغيير رأيه، وإذا كان هذا هو الحال، فليس في وسـعي تمضية الوقت معه وكأن لا شـيء يحدث، عادت إلى ذهني صورة عن المزاح الخالي من الهم الذي كنا نمارسه ونحن صبية فشعرت بقلبي يتمزق.

قبل أن يغادر في تلك الليلة، ابتسـم ناصر لي وقال: «انس الموضوع»، كان يخبرني بأن أدع الأمـر كمـا هو، شـجاعة ناصر، التي كانت موضع إعجابي ذات يـوم، بدت لي الآن تهورًا، كتابة الرسائل في تحد لرقابة الشاه شيء، وأن تشاهد مع ثوار مستهدفين بالتعذيب من قبل الحكومة شيء آخر.

بقيـت والدتـي في المطبخ طيلة مدة وجود ناصر في الشـقة، لم تشـأ أن تكون عقبة في طريقنـا، خرجـت الآن إلى غرفة المعيشـة تحمل كوب شـاي في يدها، وابتسـامة مريرة على وجههـا وكانت تهز رأسـها: «ستتحسـن الأمور». قالت بنبرة تسـخر من الرسـالة التصالحية التي كنت أحاول إيصالها لناصر، «ستتحسـن لمن؟ للملالي»؟ لم أقل شـيئًا، مناقشـة ناصر تركتنـي منهـوك القـوى، «يجـب أن أذهب إلـى آغا جون، أرجـوك خذني إليه». هززت رأسـي بالإيجـاب، واسـتعدينا للذهـاب، قبـل الخـروج من الشـقة، تناولـت والدتي وشـاحًا غطت به شـعرها، ثـم قالـت بحزن: «حياة كاملة مـن الحرية، والآن عليَّ إما أن أغطي نفسـي أو أواجه بلطجية حزب الله».

في المصعد، صادفنا واحدا من جيران والدتي، وهو مدرس متقاعد كان يدعم الخميني ذات يوم، نظر إليّ باشمئزاز؛ لأنه يعرف أنني أعمل لحساب الحرس، لكنه ابتسم لوالدتي: «سلام سيدة كاهليلي»، نظر إلى الوشاح الذي يغطي شعر والدتي قائلًا، «أتمنى على الله أن يطرد هؤلاء الملالي من بلدنا قريبًا وأن نتحرر جميعًا».

نظرت أمي إلى أعلى وهمست: «الأمل في الله».

مرت سنة وأربعة أشهر منذ أن استقبل قرابة المليون من الأنصار المتحمسين الخميني في المطار، وبات الآن العديد من الإيرانيين يأملون في سقوط نظامه، وقد حاول العميد آيات موهاجيجي، القائد في سلاح الجو والحاصل على أعلى الأوسمة تحويل ذلك الأمل إلى عمل؛ لكنه بدلا من ذلك كان مثالًا آخر على القدرة المطلقة للإمام.

سمعت عن الحادث في البداية بالطريقة ذاتها التي أسمع فيها عن معظم الأمور: من كاظم، وكان الناس يعلمون بها في اليوم التالي، دخلت القاعة لأرى جنود الحرس الثوري يندفعون بانفعال ويركضون ناحية كاظم: «ما الذي يحدث»؟ سألت.

لمعت عينا كاظم: «حاول طيارو سلاح الجو القيام بانقلاب، لكن الإمام الخميني اكتشفه وسحقه! الله أكبر -رضا- وقد تحرك الإخوة لاعتقال هؤلاء الخونة، سأبقيك على اطلاع»، اندفع لمواصلة عمله الاستخباري، وتركني مذهولًا.

جمعت أطراف القصة كلها من شذرات وفتات أخبار وأحاديث الإخوة في الحرس، أفضل طياري المقاتلات الإيرانيين والمظليين خططوا، بقيادة العميد موهاجيجي، للانطلاق بطائرات تومكات إف-14 من قاعدة شاهروخي في همدان لقصف أهداف عسكرية إستراتيجية، كما خططوا لإسقاط سبعمئة وخمسين رطلًا من القنابل العنقودية على منزل آية الله الخميني في جماران، الذي لم يكن يبعد أكثر من ست دقائق طيران عن القاعدة الجوية، فريق آخر من الضباط أوكلت له مهمة السيطرة على مبنى الإذاعة والتلفزيون في طهران والإعلان عن أن ديمقراطية جديدة على النمط الغربي باتت تسيطر.

ليلة الانقلاب اجتاح الحرس الثوري معسكرات المتآمرين، تعرض جميع الضباط الذين اعتقلوا للتعذيب؛ لكنهم رفضوا البوح بأي شيء عن الأشخاص الذين لم يقبض عليهم.

مـرة أخـرى كان الخمينـي موجـودًا لإنقـاذ الثـورة، بعـد مـدة، أعلنـت محطـة الإذاعة الحكوميـة أن والـدة أحـد الضبـاط هي التـي أبلغت عنهم، كانـت في غاية الـولاء للجمهورية الإسلامية.

اقتصـر التجمـع فـي منزل جـدي خلال ذلك الأسـبوع على مشـاهدة محاكمـات هؤلاء الضبـاط، ناصـر وداود كانـا هنـاك أيضًـا، عـلاوة على والدتي والعديد مـن العمات والخالات والأعمام، كان أقاربي يشدون شعرهم بسبب الإحباط وما كان يمكن أن يحدث، «كيف يمكن لهذا أن يحدث»؟ تساءل جدي: «كيف يسمح طيار محترف من سلاح الجو وجنرال حائز على أعلى الأوسمة لهؤلاء الملالي أن يكونوا أكثر دهاء منه»؟

جلـب المحققـون موهاجيجـي أمام الكاميـرا، وآثار الضرب لا تزال حديثـة عليه، وقام حجـة الإسـلام ريشـهري -وهـو رجل ديـن ورئيـس محكمة الثـورة العسـكرية- باسـتجوابه، بالرغـم مـن وجه الجنـرال غير الحليق ومظهره المرهق، ومواجهتـه التعذيب في اليوم الذي سـبق وشـبح الإعدام في اليوم التالي، فقد بدا واثقًا من نفسـه، ووسـيمًا مثل نجم سينمائي، وجلس مرتديًا قميصًا صيفيًّا قصير الأكمام، ومن دون أي خجل، شرح الأسباب التي أجبرته على القيام بالانقلاب.

بـأي حـق يتصـرف هذا المـلا الأبله وكأن مسـتواه الأخلاقـي أعلى من الجنرال؟ سـأل آغـا جـون، هذا المنحرف تزوج ابنة آية الله علي مشـكيني وهي في التاسـعة! أراد ريشـهري من الضباط الاعتراف بأنهم مجرد دمى في مؤامرة تحركها إسـرائيل أو الولايات المتحدة، لكنهم جميعًا قالوا بأنهم تصرفوا بمبادرة خاصة منهم، وليس برشوة من عملاء أجانب، بل بدافع من قسم مقدس بحماية الشعب الإيراني. «قراري المشاركة في الانقلاب نبع من خيبة الأمل مما يحدث لأسرتي وبلدي»، قال موهاجيجي بلا تردد.

تلـك الكلمات كان لها صدى في نفسـي أكثر من أي شـيء سـمعته مـن الخميني أو حتى شـريعتي، موهاجيجـي لـم يخطـط للقيام بانقـلاب للفـوز بالجنة، ولـم يفعلها ليقلـد الإمام الحسين، فعلها بدافع من حبه لشعبه.

«تصوروا»، قال داود كاسرًا صمتنا الكئيب، «لو أننا أفقنا ذلك الصباح لنسمع بأن هؤلاء الرجال قد استعادوا بلدنا»، «وقتلوا الملالي!» علقت والدتي.

وحين استدارت الكاميرا لتظهر جميع وجوه الضباط غير الحليقة، قال داود بصوت يقطر اشمئزازًا: «أود أن أعرف أمُّ أي واحد من هؤلاء هي التي سلمتهم»؟

لوح جدي بيده غاضبًا نحو التلفزيون، «إنها نوع جديد من الدعاية، هؤلاء الكلاب ينشرون الأكاذيب، يهنئون الأمهات اللواتي يسلمن أبناءهن، والأولاد الذين يسلمون آباءهم، كل من يضع الخميني في مقام فوق أسرته يشيدون به وكأنه بطل»، «وهم مستعدون أيضًا لإعدام أبنائهم إذا ارتبطوا بالمجاهدين»، أضاف داود.

ألقيت نظرة على ناصر،الذي كان مستندًا إلى مقعده وذراعاه مطويتان بعدم اكتراث. «هذا كلام فارغ»، دمدم آغا جون: «لا يمكن لوالدة طيار إف-14 أن تسلمه لأنها موالية للخميني، لا بد أن البريطانيين هم من أبلغوا الملالي». «ها نحن نعود إلى البريطانيين مجددًا»، قال داود.

كان لداود وآغا جون تاريخ طويل من القراءة بين سطور نشرات الأخبار التي تديرها الدولة بحثًا عن القصة الحقيقية، وكثيرًا ما استمتعنا أنا وناصر وكاظم بالإنصات إلى نقاشهم.

«من مصلحة البريطانيين إبقاء الملالي في السلطة»، قال آغا جون، «ليعود البلد مئات السنين إلى الوراء، بينما يستغلون هم احتياطنا النفطي، وإبقاء الناس مخدرين بالدين، وغرس الخوف، هل تعتقد أن الملالي أسقطوا الشاه بأنفسهم»؟

هز داود رأسه، «ليس دائمًا البريطانيين، لدينا قوى عظمى جديدة الآن، أعتقد أنهم الروس، فهم يريدون دائمًا التأثير على إيران، وهم أحد الأسباب الرئيسة لسقوط الشاه، لكنهم الآن يحاولون حماية نظامهم الجديد».

تحرك ناصر إلى الأمام بكرسيه، «لماذا قد يريد الغرب -أو حتى الشرق بالنسبة لهذه المسألة- لإيران أن تتقدم بينما يستطيعون استغلال نفطنا بوجود أغبياء يحكمون البلد؟ نحن من يجب أن نحمي حقوقنا والسيطرة على مستقبلنا».

«الخطوة الأولى»، قالت والدتي، «هي التخلص من الملالي».

لم يكن أحد يخاطب الفيل الجالس في الغرفة: أي شخصي أنا، كنت جالسًا على أريكة، ينتابني الحزن على الضباط، مطلقًا لحيتي لإظهار التزامي بالقيم الدينية التقليدية، وأذهب إلى لعمل في كل يوم كعضو في الحرس الثوري، في كل مرة كانت والدتي تطلق على من يؤيدون الثورة صفة (الحمير)، و(الثعالب)، و(الخونة)، و(البلهاء)، كانت تضعني مع من يناصرون الثورة سواء كانت تعني ذلك أم لا، كانت والدتي علمانية حد الإلحاد، لم تكن تصلي، ولم تكن معجبة بالشاه، لكنها تكره الملالي، وهنا يجلس ابنها الوحيد، حمار مؤسف رمز للطغيان.

جدتي هي الوحيدة التي رسمت ابتسامة على وجهها، كانت تدخل وتخرج من الغرفة تقدم الطعام والشاي والحلوى، داعية الجميع ألا يزعجوا أنفسهم بسبب السياسة، «هذا أيضًا سينتهي»، قالت، «كما تنتهي كل الأشياء».

كانت خانم بوزورج حامية لي، تتدخل نيابة عني، وأدخلت لطفها بهدوء بين حفيدها وكنتها دون أن تغضب أحدًا، كانت فخورة بتحصيلي العلمي، وحقيقة أني ما زلت أؤدي صلواتي كما علمتني؛ «صلي كي لا يعدم هؤلاء الطيارون»، قالت، واضعة خدي بين يديها المتغضنتين، أذكر أني ابتسمت بحزن في وجهها الرقيق، وأنا أعلم أن هذا النوع من الصلوات لم يعد يستجاب.

لأول مرة أشعر بأني غير مرتاح لارتداء بزتي صبيحة اليوم التالي، رحب بي كاظم في العمل مبتهجًا، تواقًا للمشاركة في الفرحة؛ لأن الله تدخل لإنقاذ الخميني وهزيمة الخونة، تلك الثقة المرتفعة في صفوف إخواني في الحرس كانت واضحة، كانوا جميعًا على يقين أنهم ذاهبون إلى الجنة ويسعدهم أن يموتوا في سبيل الخميني.

جلست وسط الاحتفال تتجاذبني قوتان - الخميني الذي لا يمكن قهره، وإنسانية أسرتي- الأمر الذي كان يشد قلبي في اتجاهين مختلفين، كل من أعرفهم كانوا ملتزمين بشيء ما، أنا الوحيد الذي لم يحسم أمره.

علمت فيما بعد من قريب لي في سلاح الجو بأن معلومات استخبارية زود السوفيت بها وزارة الخارجية الإيرانية حذرت الخميني من محاولة الانقلاب، كان داود على حق، لا شيء يحدث في دولة غنية من دون تدخل القوى العظمى.

حين علم آغا جون من الصحف بإعدام جميع ضباط سلاح الجو رميًا بالرصاص، نهض من مقعده وسار في حديقته متمتمًا، «اليوم أعدم أفضل ما في إيران على يد الجماعة الأسوأ»، ثم انحنى مداعبًا إحدى وروده، وهمس: «عجيب كيف يعتمد التاريخ على أصغر التفاصيل».

الفصل
6

جنازة وعرس

ازداد حزن جدي وبدا منكسرًا بعد رحيل خانم بوزورج في صيف العام 1980م، كانت جدتي الأساس الذي قامت عليه أسرتنا، وفي تلك الأيام المضطربة كانت الشخص الذي يجمعنا، شعرت أني سوف أفتقدها بشدة، وأن أمورًا كثيرة لن تعود كما كانت بعد رحيلها، أكثر من مئة شخص حضروا عزاءها، من ضمنهم أناس لم أرهم مسبقًا، وما كان لهذا الأمر أن يفاجئني، كانت جدتي تحب الناس وتقيم دائمًا صداقات جديدة، كما كانت فخورة جدًّا بمنزلها، وتستضيف على الدوام أناسًا جددًا، حاولت الترحيب بجميع من حضروا العزاء والتفاعل معهم، ومشاطرتهم الذكريات حول هذه المرأة المليئة بالحيوية، إلا أني، في النهاية، اخترت الجلوس وحيدًا قرب بركة الأسماك، محزونًا ومفكرًا فيما كانت تعنيه لي، لم تسمح لي جدتي أن أفلت من أمور كثيرة، لكنها جعلت مني شخصًا أفضل بكثير مما كنت سأكون من دونها، وأعرف أن عليَّ التفكير في تأثيرها على حياتي وكيف سأحمل مُثُلها معي طيلة كل ما تبقى لي من سنين.

بينما كنت أجلس صامتًا، لفتت انتباهي فتاة شابة جميلة، كانت تجلس إلى جانب والدتي، تتحدث معها، جميلة لدرجة أني لم أستطع أن أرفع بصري عنها، بالرغم مما يتملكني من حزن، وحين كانت تتبسم وهي تحادث أمي، كان نبضي يتسارع، ومع تواصل العزاء، واصل الضيوف المجيء نحوي لتقديم التعازي، دون أن أتمكن من تركيز نظري عليهم؛ كنت مشغولًا بالبحث عنها.

آغا جون، الذي كان في الساحة يستقبل المعزين ويشكرهم، جاء إليَّ وجلس بجانبي، كان رجلًا شديد الملاحظة، وخشيت أن يكون قد لاحظ تحديقي بالفتاة، أخجلني ذلك؛ لأني لم أرده أن يعتقد بأني توقفت عن التفكير في جدتي بسبب وجه جميل.

«كان لدى خانم بوزورج حلم لك، رضا»، قال واضعًا ذراعه حول كتفي، «لقد أحبتك أكثر حتى من أبنائها، هل ترى تلك الفتاه بجانب والدتك؟ اسمها سمية»، ابتسم ثم أضاف: «جدتها وخانم بوزورج كانتا صديقتين، جدتك فكرت فيها عروسًا لك، حتى إنها كلمت جدة سمية عنك، أنت تعرف كيف هن النساء، كل ما يردنه هو ربط الشبان ببعض، وهذا أمر جيد، أليس كذلك»؟

لم أعرف بماذا أجيب عن هذا، لحسن الحظ أن جدي لم يكن ينتظر ردًّا، قبَّل رأسي، ولكزني، قائلًا سنتحدث بشأن سمية في الوقت المناسب.

سمية!

في الطريق إلى المنزل، طلبت من والدتي أن تحدثني المزيد عنها، قالت والدتي: إن والد سمية اللبناني كان مواطنًا بريطانيًّا، وإنها وأمها الإيرانية يقسمون وقتهم بين لندن وطهران، حيث تعيش جدتها ومعظم أقاربها الإيرانيين.

وكما في القصص والحكايات، وقعت في حب سمية في اللحظة التي رأيتها فيها، التفكير فيها ملأ رأسي، وخلال الأيام القليلة المقبلة، صرت أردد اسمها في أحلام يقظتي، وكلما أغلقت عيني، رأيت ابتسامتها، وأحسست بمغص لذيذ في معدتي، عرفت أنني بحاجة إليها في حياتي.

لم أتفاجأ حين حضر آغا جون لزيارتنا بعد بضعة أيام وأعلن أنه يريد أن يرتب لقاء مع والدي سمية بينما هما ما زالا في البلد، كان يريد أن يحقق رغبة خانم بوزورج بطلب يد سمية لي من والديها، أدركت فزعًا أنه يخطط للقيام بما ندعوه (خواستكاري)، أي التقدم لها والترتيب للزواج، وهي عادة قديمة ولم أرد أن تعتقد سمية أنني قديم الطراز، أخبرت آغا جون أنني غير مرتاح لهذا التصرف.

«ألا أستطيع أن أطلب رقم هاتفها»؟ التمست منه.

(خواستكاري أولا)، مستخدمًا نبرة كبير العائلة في أسرتنا، «أنا أعرف جدة سمية ووالديها، إنهم تقليديون للغاية، وكي نحترم عاداتهم علينا أن نبين لهم أن نواياك نقية

وأخلاقيـة، أعرف أنك نشـأت معتـادًا على الطريقة الأميركية، لكن هكـذا يتم الأمر في هذا البلـد، علـى الأقل بعض العائلات ما زالت تتبع هـذا النحو، إذا وافق والداها، عندها يمكنك الخـروج معهـا في مواعيد، وتتعرف عليها، وتقوم بالأمـر على طريقتك الأميركية»، ربت على ظهري، ورفع حاجبيه البارزين، وبابتسامة كبيرة، أوضح لي أن ليس هناك من خيار آخر.

وافـق محـب خان، والد سـمية، علـى اللقاء، وأخبر جـدي بأنه والعائلـة يتوقون للتعرف بـي، فـي يـوم (الخواسـتكاري)، صحبني جـدي ووالدتي إلى منـزل جدة سـمية، وكجزء من تقاليد هذه الطريقة فإن العروس لا تحضر المرحلة التمهيدية من التجمع، بينما كنا ننتظر، أمتع جدي أسـرة سـمية بقصص عن قدراتي غير المحدودة، وخططي العظيمة للمسـتقبل، الأمـر الـذي أحرجنـي بشـدة، «رضا رجـل محب للحياة الأسـرية، مثـل والـده بالضبط، ابن صالـح لوالده، وسـوف يكون أبـا صـالحًا لولده، كما تعرفون لقد تخـرج من جامعة ممتازة في كاليفورنيا، جامعة يو إس إس، أليس كذلك يا رضا»؟

«يو إسـ سـي، يا جدي»، قلت محـرجًا، «بالطبع، يو إسـ سـي، رضا لم يبدد حياته وهو ينوي تحقيق حياة طيبة لزوجته المستقبلية، وأن يوفر لها كل ما تريد».

لـم أعـد أتابع مديح جـدي الذي لا ينتهي، كل ما أردته في تلك اللحظة هو رؤية سـمية، سـمعت أن النسـاء يحببن أن يجتـاز رجالهم نوعًا من الاختبار لإثبـات حبهم، من المؤكد أن تحمُّل الإحراج الذي سببه لي تبجح جدي قد أظهر عمق التزامي بها.

في النهاية حين دخلت سـمية صالة المعيشـة تحمل صينية شـاي، هدأت القاعة، برفق وكياسة، قدمت الشاي لكل ضيف، من الأكبر إلى الأصغر سنًّا، لم أستطع رفع بصري عنها، أما هي فلم تكن تنظر إلي مباشرة، كانت ترتدي بلوزة من الحرير الأخضر يضفي جمالًا على لـون عينيهـا الخضراوين الداكنتين، كما توهج شـعرها الأسـود الناعـم الطويل حول عنقها، خجلها وابتسامتها البريئة جعلت قلبي يخفق بشدة.

تقدمت نحوي بالصينية وكوب الشاي الأخير، قدمته دون أن تنظر إليّ، كانت ابتسامتها أشـد سـحرًا عن قرب، وجدتها آسـرة للغاية لدرجة خشيت معها أن أسكب الشاي وأجعل من نفسـي أضحوكـة، حيـن تـرددت، رمقتني بنظـرة، عرفت في تلـك اللحظة بأن الفتـاة الذكية

لاحظت نظرات إعجابي في العزاء، بطريقة ما حتى دون أن تبادلني النظر، الوميض في عينيها جعلني أدرك بأني سأكون أسعد إنسان على وجه الأرض إذا تمكنت من إقناعها بالبقاء إلى جانبي طيلة ما تبقى من حياتي.

اجتمعت أسرتانا مرة أخرى، وبعد أن وثقت أسرة سمية بأني شاب مسؤول، سمحوا لي بمقابلتها، في البداية كانت اللقاءات تتم في صالة معيشة جدتها، لكن في النهاية سمحت لنا الجدة بأن نجلس وحدنا، حدثتني سمية عن حياتها وأصدقائها في إنجلترا، قائلة أنها تتواصل أكثر مع أقاربها من جهة أبيها، وهي تزور لبنان بين الحين والآخر، وأنهت دراستها في لندن، لكنها تحب جدتها وتتوق لقضاء مزيد من الوقت في إيران، حيث إنها فتنت بالحفاوة والثقافة الإيرانية الثرية، أخبرتها أني أحب الناس متعددي الثقافات، ابتسمت وقالي لي: إنها سعيدة لاتباعنا طريقة (الخواستكاري) أولًا، فهي أيضًا تؤمن بالطرق التقليدية، كان الأمر مرض تمامًا لجدي حين أخبرته عن الجزء الأخير.

مع مواصلة قضاء المزيد من الوقت مع سمية، وقعت في حبها بشكل خرج عن سيطرتي، في النهاية، سمحت أسرتها لنا بالخروج معًا، وكنت أصحبها إلى المتنزهات، والمطاعم، ودور السينما، إلى أن وصلت مرحلة، أدركت فيها أنها أحبتني أيضًا وعرفت أني سأنال بزواجي منها كل ما حلمت به.

احتراما لوفاة جدتي وحزن جدي عليها، اتفقت أنا وسمية على الانتظار سنة أخرى قبل الزواج، لكن آغا جون، ولأني أنا وسمية نبدو سعداء معًا، أصر على أن رغبة جدتي كانت أن نتزوج سريعًا، وكنت أعلم أنه يرغب في الشيء ذاته، وأعلم أيضًا، أنه منذ وفاة جدتي، كان جدي يفكر أكثر في احتمال وفاته، وفي حين أنه لم يقل هذا تحديدًا، فقد خامرني اعتقاد بأنه قلق من أن لا يكون موجودًا إذا انتظرنا عامًا كاملًا، ومن شأن هذا أن يدمرني؛ لذلك، وبناء على حثه لنا واستعجاله، تزوجنا أنا وسمية بعد بضعة أشهر من أول لقاء لنا.

أصر جدي على إجراء حفل العرس في منزله، وكان هذا موضع ترحيب مني ومن سمية، أقمنا احتفالًا كبيرًا في حديقة جدي، وبدا كأن حياة جديدة قد ازدهرت في تلك البقعة التي أزهر فيها وأينع الكثير من النباتات، وجدت أن هذا مشجع جدًّا، فبالرغم من

نهاية الملكية الفارسية القديمة، وبالرغم من الأزمة التي تلت الثورة، ما زال في وسع الشعب الإيراني أن يحب ويحتفل.

حضر الجميع، كما كان الوضع حين كنا صبية، حضر ناصر وكاظم، وحرص كل واحد أن يتجنب الآخر، وقد أثر فيَّ إعلانهما الهدنة كي يكونا معي في هذه المناسبة المباركة، وبالرغم من حضور كاظم وحده، حضر ناصر مع والديه وشقيقه وشقيقته، وكان ممسكًا بيد فتاة لم أرها من قبل، وبالرغم من أنه لم يتلفظ بكلمة لي عنها، فلا بد أنه جاد معها لحضورها معه ومع أسرته مناسبة مثل هذه.

اقترب ناصر والفتاة منا، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة: «أخيرًا تزوجت»، قال، وهو يضمني ويقبل يد سمية، «تهانينا لكما، خاصة أنت رضا، أنت رجل محظوظ جدًّا». احمر وجه سمية خجلًا، وقالت: «كلانا محظوظ».

وضع ناصر يده حول كتف ضيفته، «هذه أزاده»، صافحتها مرحبًا، ثم التفت ناحية ناصر، «و...»؟!

«ونحن نتواعد»، نظر ناحية أزاده وعيناه تفيضان وجدًا، أشاع فيَّ الدفء، وحين أثنت أزاده على سمية وفستانها وبدأت تسألها عن تفاصيل العرس، سحبته جانبًا: «ما الذي يحدث؟ هل العلاقة جدية؟ أنا أرى والدك ووالدتك في كل مكان هنا، يبدو لي أن الأمر أكثر من مجرد مواعدة»؟

ضحك ناصر ضحكة عريضة: «أعتقد أن هذا يجعلنا أنا وأنت مربوطين من رقبتنا! إنها فتاة رائعة، رضا، اعتقد أني وقعت في حبها».

ذكرتني أزاده بقريبتي هاله، التي كان ناصر معجب بها حين كنا فتية صغار، لديها تسريحة الشعر نفسها، وابتسامة مماثلة، كان ناصر على الدوام غير جدي في الأمور الرومانسية؛ كان النظر إليه وهو ينظر إلى الفتاة بهذا القدر من الهيام مذهلًا، شعرت بالسعادة لوجود ناصر مع شخص جعله يشعر بهذه الطريقة، وسمحت لنفسي أن أومن بأن الحب قد يهزم الإيديولوجية في نهاية الأمر، وتمنيت في تلك اللحظة لو أن كاظمًا يجد الحب أيضًا.

كان الحفل بهيجًا، وكما في العديد من المناسبات، قام داود والد ناصر بالغناء وقادنا في الرقص، رقص ناصر وأزاده معًا طيلة تلك الليلة، خلال تلك الساعات، كانت الحياة بسيطة وبلا هموم كما كانت حين كنا أطفالًا، لكن العالم الخارجي ما كان ليسمح قط لهذه الراحة والهدوء أن يستمرا، تلاشى آخر أمل للموالين للشاه حين توفي محمد رضا بهلوي بمرض السرطان في مصر في تموز 1980م، تراث إمبراطوري بدأ في العام 500 قبل الميلاد بقورش الكبير، حانت اليوم نهايته. «الله أكبر!» هتف بعض الناس في الشوارع.

استنكر آغا جون احتفال أتباع الخميني قائلًا: «عار على هذه الأمة، أن يموت آخر ملك للملوك فيها في المنفى مثل غجري».

في 22 أيلول، 1980م، بعد أسبوعين من زواجي بسمية، هاجم العراق إيران، وأمطر بالقنابل أهدافًا عدة، من ضمنها مدينتنا، كنت في العمل مع كاظم حين هزت عدة انفجارات جدران المبنى، وخشية أن ينهار السقف فوق رؤوسنا، هرعنا إلى الساحة، مضطربين، بعد ذلك بقليل أخبرنا قادتنا بأن طائرات عراقية هاجمت عدة مطارات إيرانية لتعطيل الطائرات الإيرانية عن الإقلاع، إلا أن الطائرات لم تُحدث سوى أضرار طفيفة.

بعد الهجوم بفترة وجيزة، ظهر الإمام الخميني على شاشة التلفزيون ليعلن أن لا شيء مهمًّا قد حدث، وكل ما في الأمر أن لصًّا قام برشقنا بالحجارة، وتنفست البلد الصعداء، إلا أنه في اليوم التالي أخبرني كاظم بأن صدام اجتاح الحدود بست فرق عسكرية على ثلاث جبهات، وأن تلك الفرق كانت في تلك اللحظة تتحرك بسرعة داخل الأراضي الإيرانية.

جعلني هذا الخبر أشعر بالارتياح، حيث إنني لم أدرك في ذلك الحين بأن ذلك الهجوم كان بداية لحرب استمرت ثماني سنوات، وأن نصف مليون إيراني سيموتون في النزاع قبل أن ينتهي.

التنافس العنيف بين العرب والفرس يعود لقرون، وتعود أسبابه إلى غزو المسلمين لبلاد فارس، حين هزم العرب الإمبراطورية الساسانية، وأنهوا بذلك حكم سلالة ساسان وممارسة الديانة الزرادشتية في بلاد فارس، استغل صدام لحظة ضعفنا لشن هجومه، حكومتنا التي كانت قد أعدمت القادة العسكريين الرئيسين الذي خدموا في ظل الشاه، لم

يكـن لديهـا قادة مدربين، وتسـتخدم بدلًا منهم الثوريين، إضافة إلـى ذلك، لم نقم بإقصاء الشاه وحسب، بل أيضًا القوى العظمى المتحالفة معه، أزمة الرهائن الأميركيين عزلت إيران عـن باقـي العالـم المتمدن، وبدا مجاهدو خلـق مصممين على القذف ببلدنـا في أتون حرب عصابات، وسـط هذا الاضطراب والفوضى وجد صدام أن الفرصة سـانحة كي يصبح القوة المسيطرة على النفط في الشرق الأوسط واحتلال آبار النفط القريبة من حدوده مع بلدنا.

مثل جميع الغزاة، ادعى صدام أنه شن هجومًا دفاعيًّا استباقيًّا، فقد شعر نظام حكمه السني بالقلق من انتشار الثورة الإسلامية كالوباء في صفوف الأغلبية الشيعية المقموعة في بلاده، الواقع أن نموذجًا عراقيًّا من الخميني بدأ يظهر ويشد من عزيمة الشيعة العراقيين، أخذ الملا محمد باقر الصدر في التبشـير بالدين الإسـلامي وفق نموذج الخميني، فأعدمه صـدام بمجـرد أن أصبـح لصوتـه صـدى لـدى الجماهيـر، وحين مـررت الولايـات المتحدة معلومات اسـتخبارية لصدام توحي بأن القوات الإيرانية قد تنهار بسـرعة إذا هوجمت، بادر بالهجوم.

هجـوم 22 أيلـول كان بمثابـة بيرل هاربر الخاص بنا، طلب الخميني من كل ذكر مسـلم يسـتطيع السـير علـى قدميـه أن يتطوع للدفـاع عن (حكومـة الله)، اسـتجاب للدعوة ضباط الجيش، والحرس الثوري، والمواطنون العاديون، والباسيج- الفئة المخيفة أكثر من الجميع- وهـم قوة شـبه عسـكرية تضم صبيانًـا لا تتجاوز أعمارهم الثالثة عشـرة، مائتـا ألف متطوع غيـر مدربين- مليشـيا عددهـا أكبر بكثير من عـدد جنودنا النظاميين- وصلـوا إلى الجبهة فـي غضون أشـهر لمواجهة الغزاة العراقيين، وحيث إن الحرس الثـوري والجنود الإيرانيين يعملون بشـكل منفصل، لم يكن هنـاك تنسـيق في الحركة بين الجنود، لكن سرعان ما علمنا أن الباسـيج -العديـد منهـم مراهقـون مفتونـون بالشـهادة- لا يمكـن هزيمتهـم بالدبابـات والمدافع الرشاشة وحسب.

بعـد فتـرة وجيزة من أول هجوم عراقي، أعلنت وزارة الخارجية إغلاق المطارات ومنع الجميـع مـن السـفر خارج إيـران باسـتثناء المواطنيـن الأجانـب والإيرانيين الدارسـين في الخارج الموجودين في إيران لمدة تقل عن سـتة أشـهر، وقف الأشخاص الذي تنطبق عليهم هـذه المواصفـات فـي صفـوف طويلة من أجـل الحصول علـى إذن مغادرة، والدا سـمية كانا

متلهفين على الخروج من بلد يتعرض للهجوم، فطلبت من كاظم الاتصال بمعارفه في وزارة الخارجية لتسهيل مغادرتهما.

لم تشأ حماتي وحماي أيضًا المغادرة وترك ابنتهما الوحيدة في إيران خلال حرب يشتد سعيرها كل يوم، وقد تعاطفت معهما، وأخبرت سمية بأني سأكون مرتاحًا أكثر إذا ما غادرت معهم، ووعدتها بأن أزورها في لندن كلما سنحت لي الفرصة، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا، قائلة إنها لم تتزوجني لتتركني وقت الشدة، ما زاد من مكانتها لدي، بالرغم من خوفي على سلامتها وقلقي ألا أتمكن من فعل ما هو ضروري لحمايتها.

لم أذهب إلى العمل في اليوم الذي ودعت سمية والديها بعيون دامعة، شعرت أنها بحاجة لوقوفي إلى جانبها في أثناء مواجهتها هذا التغيير المفاجئ في عالمها، كنا قد استأجرنا بيتًا صغيرًا ملحق معه حديقة مهملة، كانت سمية تقضي معظم نهارها في رعايتها وزراعة الأزهار فيها، حين غادر والداها، ذهبت إلى هناك ولحقت بها، راقبت عملها، وتذكرت مدى الشبه بينها وبين جدي وهي تقوم بذلك، قضينا ساعات في الحديقة تلك الأمسية، وحين انتهينا، لمع وجه سمية بابتسامة عريضة: «إنها جميلة جدًّا يا رضا، أحب الزنابق بشكل خاص». كنت سعيدًا لأن الزهور منحتها قدرًا من الطمأنينة.

بعد العشاء، جلست سمية على السرير بهدوء، كنت أعرف أنها تفتقد والديها، جلست إلى جانبها وأخذت يديها بيدي، كانت واحدة من المرات القليلة التي نكون فيها وحدنا، بعد أن سافر والداها، وتبددت الأفواج التي لا تنقطع من الأقارب والأصدقاء الزائرين، كنت بحاجة لأن أكون هناك من أجلها، وبحاجة لأن أضمها معبرًا عن مدى حبي لها، نظرت في عينيها، وأنا ما زلت غير مصدق بأن شخصًا رائعًا مثلها اختار أن يتزوجني، أزحت شعرها عن رقبتها، «أنت جميلة جدًّا»، قلت وأنا أضغط برفق على يديها، ابتسمت لي بحنان، مبرزة غمازة على خدها، قبلت عنقها وضممتها إلى صدري، أغلقت عيناها، أحطت خصرها بذراعي، وأحسست بدفء بشرتها، قلت، «أحبك»، وقبلتها مرة أخرى، بدأت تتجاوب معي حين ملأ أزيز قوي مفاجئ الجو، قفزت سمية من الفراش وكأنها قذفت بمنجنيق، «يا إلهي! هناك هجوم! رضا، أدر الراديو!»

ركضت مشدوها إلى المطبخ لإحضار الراديو وإطفاء الأنوار، في الأخبار طلب مذيع من الجميع النزول إلى الملاجئ؛ لأن القاذفات العراقية دخلت سماء طهران، كنت أعلم أن الطائرات العراقية تستهدف الأهداف العسكرية، لكني أعرف أيضًا أنها ما كانت لتقلق كثيرًا إذا أصابت مدنيين في الوقت نفسه.

في منزلنا قبو صغير لكن سمية لم تكن تشعر بالأمان هناك، وينتابها القلق من أن ندفن أحياء إذا ما تلقى المنزل إصابة مباشرة، فهرعنا خارجًا واحتمينا بجدار، وهو مكان أسوأ من الاحتماء بالقبو، لكن لسبب ما كانت سمية تشعر بالطمأنينة أكثر هناك.

في أثناء بقائنا خارجًا، خيم صمت رهيب، أمسكت بيد سمية، كان كفها مبتلًا وباردًا، دفء جسدها الذي شعرت به قبل لحظات تلاشى، جذبتها إلى جانبي، فتشبثت بي بقوة تحت سماء الليل، وهي ترتجف، ثم بدأت أصوات المدافع الإيرانية المضادة للطائرات ترعد على بعد بضع مبان منا، كان معنى هذا أن الطائرات العراقية تقصف في مكان قريب منا، في ذلك اليوم، وعدت والدا سمية بأن أعتني بها، لكن كيف لي أن أحميها من هذا الجنون؟ نظرت إلى وجهها البريء تنيره الانفجارات ونيران المدافع المضادة للطائرات، بقيت في هذه المحرقة كي تبقى معي، ولولاي، لكانت في مكان آمن مع والديها في إنجلترا الآن، شعرت بصدرها يخفق بقوة إلى جانب صدري، «أنا بخير رضا، أنا لست خائفة»، قالت وقد تغيرت نبرة صوتها، كانت خائفة بالطبع، لكنها لم تكن جبانة، أجبتها: «أعلم ذلك، لكني لست بخير، ضميني بقوة إليك».

صدر عن قولي رد فعل صغير منها، لكزتني مبتسمة وطلبت مني التوقف عن المزاح، صليت لله أن يمر هذا الهجوم على خير دون أن يلحق بها أي أذى.

هز انفجار قوي الجدار الذي أسندنا إليه ظهورنا، ملت إلى الأمام، وسحبت سمية معي، وغطيت جسدها، جلسنا القرفصاء وبقينا في ذلك الوضع أطول دقائق عشتها في حياتي، مع تواصل الانفجارات وإطلاق الصواريخ.

أخيرًا، انطلقت صفارة الأمان معلنة انتهاء الغارة.

انتهى الهجوم، لهذه الفترة.

في تلك الليلة لم يتمكن أي منا من النوم، وبدلًا من ذلك، استمعنا إلى تقارير الإذاعة بترقب متزايد، في اليوم التالي، توسلت سمية أن تغادر إلى لندن، أخبرتها أن الوقت متاحًا لأن يتمكن كاظم من مساعدتها على الخروج، لكنها رفضت أن تستمع.

وسط كل هذا، كانت هناك حرب أخرى مستعرة، صعد مجاهدو خلق هجماتهم، مهاجمين كل من له صلة بالقوى الإسلامية، بما في ذلك الحرس الثوري، والشرطة الثورية، والباسيج، واغتالوا مسؤولي النظام الإسلامي الواحد بعد الآخر، في القاعدة نفسها حيث أعمل، الآن لم يعد الخطر المحدق بنا أنا وكاظم أقل من الخطر المحدق بناصر.

في الوقت نفسه، جابت عصابات حزب الله الإسلامية المتطرفة الشوارع على دراجات نارية، وقد ارتدى أفرادها زيًا موحدًا مع لحى طويلة قذرة وقمصان مزررة، ملوحين بالعصي والسلاسل، ويعلو صوتهم بهتاف: «الله أكبر» «والخميني قائدنا»، ويهاجمون الناس غير الملتزمين بالقواعد الإسلامية التي يتبعونها.

كانت تلك القواعد متطرفة للغاية، وقلة من الإيرانيين كانت توافق عليها جميعها، وتضمنت قواعد لملابس النساء تقضي بعدم وضع أي مساحيق للتجميل، وألا يخرجن إلى الأماكن العامة من دون حجاب يغطي شعورهن وأجسادهن، ولا يسمح للرجل بارتداء بناطيل قصيرة، ولا يسمح لرجل وامرأة بالظهور معًا في الأماكن العامة إلا إذا كانا متزوجين، ومنعت الكحول، ولا يسمح بالحفلات أو الموسيقى، حتى ضمن جدران المنازل، وعدم اتباع هذه القواعد قد يقود إلى الاعتقال والجلد علنًا.

أطلق المتطرفون على معارضي الملالي صفة (المحاربين)، وأصدر الخميني فتوى ضد مجاهدي خلق، وصفهم بالمنافقين وأمر باعتقالهم، وطلب من الناس أن يبلغوا السلطات عن أي شخص يشكُّون في انتمائه لتلك الجماعة، وبدأ الجيران في تسليم بعضهم، وكنت أرتجف من مجرد التفكير في عدم قدرة ناصر على كبح نفسه وإلى أين سيقوده ذلك.

لم يكن التيار الرئيس في المجتمع الإيراني يهتف لا للمجاهدين ولا لحكومة الملالي، وقد علقنا وسط ثلاثة حروب: العراق ضد إيران، والمجاهدين ضد الملالي، وحزب الله

ضد الشعب، كان شبابنا يذبحون في الجبهات، ومواطنونا يجمعون، ويجلدون، ويضربون، ويهانون كعقاب لهم على عدم إطاعة بعض القواعد التعسفية المتعلقة بالحشمة.

كانت سمية دائمة القلق عليَّ، وأنا كنت قلقًا على نفسي وعليها، كانت ترتدي الحجاب دائمًا حين تخرج من المنزل وتلتزم بالشريعة، لكني لم أكن متأكدًا إن كان هذا كافيًا، حيث بدا أن الناس يعتقلون دون أي سبب ظاهر.

بدأ العنف يزحف مقتربًا من منزلنا، في أحد الأيام أنزلتني سيارة أجرة على الرصيف المقابل لمنزلي، رأيت هناك سيارة لاند كروزر تحمل شعار الشرطة الدينية فتوترت على الفور، زحمة السير منعتني من قطع الشارع إلى الجهة الأخرى، ما زاد من قلقي، هل تتعرض سمية لأي خطر؟ وفي أثناء انتظاري مر شخصان على دراجة نارية من جانب اللاند كروزر ورأيت الراكب خلف سائق الدراجة يلقي قنبلة يدوية عبر شباك السيارة، انبطحت أرضًا حين انفجرت السيارة على بعد عشرة أمتار مني قاذفة الحطام والزجاج، نهضت على قدمي والدراجة تفر مسرعة عبر ممر ضيق، وسط الغبار والتفجير، ركضت نحو سيارة الشرطة ونظرت داخلها، كان فيها أربعة رجال، تغطيهم الدماء التي فاضت وملأت المكان، ثلاثة منهم كانوا ممزقين، وتمكن أحدهم، أعتقد أنه السائق من الخروج من السيارة، بدا مذهولًا بشدة، لكن بسبب بعض التأثيرات الشاذة لفيزياء الانفجارات، كانت إصابته الوحيدة يدًا دامية، وحمل في اليد الأخرى بندقية رشاشة.

سمعت سمية الانفجار فهرعت خارجة ومعها العديد من جيراننا، شاهدتني قرب السيارة المدمرة، ووجهي مغطى بغبار الانفجار وبعض نقاط الدم على قميصي، فهرعت إليَّ باكية، «رضا، هل أنت بخير؟ ما الذي حدث لك»؟

تركت الرجل الذي ساعدته عند الرصيف، وناشدت الجيران طلب المساعدة، ثم أخذت سمية إلى داخل منزلنا، وهي ترتجف رعبًا، كنت أعرف أنه يتعين عليَّ تهدئتها وتعريفها بأن الأمور ستكون على ما يرام.؛إلا أنني لا أعرف كيف يمكنني تحقيق ذلك.

الفصل
7

سجن إيفين

يوم 20 كانون الثاني 1981م، وهو اليوم الذي أصبح فيه رونالد ريغان رئيسًا للولايات المتحدة، أمر الإمام الخميني بإطلاق سراح الرهائن الأميركيين. احتفل الأميركيون بذلك ورأوا فيه نهاية لواحد من أكثر الفصول إزعاجًا في تاريخهم. كما احتفل الإيرانيون من مختلف الانتماءات. وابتهج أتباع الخميني للصفعة الأخيرة التي وجهها إلى وجه جيمي كارتر، لمعرفتهم أنه كان لأزمة الرهائن دور كبير في هزيمته، وعقابًا له على دعمه للشاه، ورأوا في الأمر تأكيدًا على نصر الخميني على أكبر قوة عظمى. بالنسبة للإيرانيين الآخرين، ومن ضمنهم أسرتي، سمح لنا إطلاق الرهائن بأن نأمل في تحسن العلاقات بين بلدنا والولايات المتحدة. واعتقدنا أن الخميني بات مستعدًّا الآن للتعامل بطريقة دبلوماسية مع باقي العالم، وأن تتمكن إيران من التخلص من العزلة التي فرضتها على نفسها.

كان عملي اليومي في مكتبي هو تدريب أعضاء الحرس الثوري على استخدام الحاسوب، وهو عمل مرهق ويبقيني مشغولًا، بالرغم من أنني كنت أرى كاظمًا في العمل طيلة الوقت، لكني لم أتواصل مع ناصر منذ مدة ليست قليلة؛ الزواج يستنفد الوقت، والحب يستنفد الانتباه، والحرب تستنفد الاثنين.

كان لدى ناصر صديقته أزاده، لكن لسوء الحظ لم يساعده ذلك على كبح نشاطه السياسي المتزايد، كنت سعيدًا أن أوي بسلام إلى جانب سمية، ولم نجد أنا وناصر فرصة للاجتماع معا. (ميادين المعركة) الثلاث في إيران فرضت التعب والإجهاد علينا جميعًا، لكن بالرغم من ذلك، كنت أستمتع بالوقت الذي أقضيه مع زوجتي؛ فهي ممتلئة بالحيوية، كما أنها رقيقة للغاية، بحيث كان بإمكاني نسيان كل شيء آخر حين أكون معها. بالنسبة لي كانت سمية ترياقي من الحرب.

قالت ذات ظهيرة ونحن نجلس في الحديقة: «أريد أن نرزق بثلاثة أطفال»، «لماذا ثلاثة وليس اثنين أو أربعة»؟ «بهذه الطريقة أستطيع أن أدللهم حد الإفساد كلهم»، ضحكت من قولها، «ولا تستطيعين فعل هذا إلا إذا كانوا ثلاثة»؟

«ثلاثة هو الرقم المثالي، رضا. دعني أخبرك كيف يحدث ذلك»، أسندت ظهرها على مقعدها، ووضعت ساقاها تحتها وكأنها طفل صغير وربطت شعرها خلف رأسها على شكل ذنب حصان، «أنت دائمًا تحب ابنك الأكبر؛ لأنه أول أولادك، والثالث هو المفضل؛ لأنك تعرف أنه آخر العنقود، وبذلك تفسد الاثنين بالدلال. ثم تفسد الأوسط لأنك لا تريده أن يشعر بأنه مهمل».

تبريرها رسم ابتسامة عريضة على وجهي، «فليكن ثلاثة»، قلت مسرورًا؛ لأن هذا سيسعدها.

رن جرس الهاتف ونهضت للرد عليه. «ثلاثة أطفال مدللين»، قلت وأنا أنهض. «آمل أن تتاح لي فرصة كي أدلل زوجتي أيضًا»؛ غمزت لها واتجهت لدخول المنزل.

كانت والدتي على الخط. كان صوتها مهتاجًا للغاية، أبعدني على الفور عن أحلام اليقظة التي كنت أشارك سمية فيها. كانت مضطربة لدرجة لم أستطع فهم ما تريد.

«أمي، ما الذي حدث»؟ قلت بعصبية، «هل أنت بخير»؟ نشجت بالبكاء قبل أن تتمكن من السيطرة على انفعالاتها، «رضا يجب أن تفعل شيئًا. لقد تم اعتقال ناصر، وسهيل، وبارفانا». شعرت بقشعريرة تجتاح أعماق روحي، «اعتقلوا»؟

«لم يسمع عنهم داود منذ حوالي شهرين. ولا يعرف ما يجب أن يفعل، إنهم في سجن إيفين، ولا يستطيع زيارتهم». ارتجفت ركبتاي وشعرت بخدر يجتاح جسدي كله، تملكني خوف شديد، لقد سمعت قصصًا عن سجن إيفين، الجميع سمعوا. وإذا كان ناصر وأشقاؤه هناك فإنهم في محنة رهيبة.

تناولت سترتي للذهاب إلى منزل داود، في اللحظة التي دخلت فيها سمية، شاهدت خوفي، وهرعت نحوي. «سأعود سريعًا»، كان هذا كل ما استطعت قوله قبل أن أتجه نحو الباب خارجًا.

حين وصلت إلى منزلهم، وجدت داود وزوجته ماهين خانم في حالة هستيرية.

«رضا جون، أعلم أنه كان يتعين علي الاتصال بك قبل الآن، لكني لم أعرف ما ينبغي عليَّ قوله إلا الآن. لقد عرفنا للتو أنهم وضعوا ناصر، وسهيل، وبارفانا في إيفين». اهتز كتفاه واعتقدت لوهلة بأنه لن يكون قادرًا على مواصلة الحديث. الكلمات التالية التي تفوه بها كانت متعبة وبطيئة، وكأنه يجد صعوبة في التلفظ بها. «خبَّطوا على بابنا في منتصف الليل وانتزعوا أولادي من فراشهم»، مرر أصبعه في شعره الخفيف، «أنا أبحث عنهم ليل نهار لمعرفة ما حدث لهم».

بقيت ماهين خانم تبكي بينما كان داود يتكلم. وبدأت الآن في العويل، «لعنة الله على هؤلاء الحيوانات الفاسقين. أخذوا بارفانا وأبنائي».

بدا كل شيء غير منطقي بالنسبة لي، «لا أفهم لماذا أخذوهم»، قلت ذلك، مع أن لدي فكرة عن السبب الذي قد يدفعهم لأخذ ناصر. بالنسبة لي لم يكن لأخذ الفتاة والشقيق الأصغر أي معنى. «أخذوهم دون أي سبب»، قال داود، «رضا جون، أرجوك افعل أي شيء، أعد لي أولادي. إنهم أبرياء»، أمسك بذراعي، «إنهم في السجن رضا! في السجن».

«سأفعل كل ما في وسعي، داود جون».

شد على ذراعي أكثر، «قد مضى شهران. شهران طويلان ملعونان! رضا، يجب أن أراهم، أريد أن أعرف كيف حالهم، أريدهم أن يعودوا إلى المنزل».

لم أفهم سبب عدم إخباره لي في وقت أبكر من ذلك، حتى إن لم يكن يعرف أين أخذوا أولاده، كان عليه أن يخبرني أنهم أخذوهم، هل كان لا يثق بي بالرغم من كل تاريخنا معًا لأني أعمل مع الحرس؟ هل ظن أني سأقف إلى جانب الوحوش الذين سرقوا أبناءه وأصدقائي؟

«سأكلم كاظم، داود جون، سنفعل كل ما في وسعنا. أعدك بذلك». «أريد أن أراهم»، قال متفجعًا، «أرجوك».

بكرت في الخروج إلى العمل في اليوم التالي، آملًا أن التقي كاظمًا بمجرد وصوله، حين وصلت إلى مكتبه وجدته جالسًا خلف طاولة المكتب، يقرأ بعض الملفات. أطلعته على الأخبار، فشحب وجهه، لكن عيناه لم تبديا أي إشارة على المفاجأة. وكأنه كان ينتظر سماع ذلك منذ أن بدأ ناصر في تأييد مجاهدي خلق.

بالرغم من ذلك، توقف كاظم عما كان يفعله على الفور، وبدأ في إجراء اتصالات هاتفية، في النهاية خرج عليَّ باسم، الحاج مرادي، للاتصال به داخل السجن.

صبيحة اليوم التالي أخذت داود في سياراتي. وبدا لي أنه يكاد يفقد شعوره بسبب القلق، بالكاد كنت قادرًا على التوفيق بين الرجل الجالس إلى جانبي والرجل الذي قادنا في الغناء والرقص على مدى سنوات عديدة، لم تكن لدي فكرة عما يمر به الرجل من معاناة. لكن بالنظر إلى مقدار ما جلبته لي تلك المناقشة البسيطة مع سمية عن التخطيط لإنجاب أطفال من بهجة، فإن في وسعي تصور مدى الأذى الذي يستشعره داود بسبب الأزمة التي يواجهها.

يقع سجن إيفين على سفح سلسلة جبال ألبرز في الجزء الشمالي من طهران، يحيط به جدار من الطوب الأحمر. وهو مجمع ضخم لا يتميز بأي جمال معماري، ولتصميمه غرض واحد واضح؛ بث الرعب في قلوب من يقتربون منه.

بدأت الأمور تنذر بالشؤم مع اقترابنا وسماع هدير الجماهير؛ عدة مئات من الناس تجمعوا أمام البوابة الحديدية الضخمة، كانوا يصرخون ويهتفون مطالبين برؤية أفراد أسرهم، وبعض النسوة ينتحبن بلوعة، وحين نزلت أنا وداود من السيارة ومحاولتنا شق طريقنا وسط الجماهير، أطلق الحراس رشاشاتهم في الهواء لإسكات الحشود، تسبب ذلك في نشر الفوضى، وأخذ الناس في التفرق، والصياح، والصراخ، والهرب بحثًا عن ساتر يحميهم، جذبت داود ووضعته في مكان أقرب إلى الجدار. انحنينا، ونحن نغطي رؤوسنا.

طلبت من داود البقاء ملتصقًا بالجدار بينما ذهبت أنا إلى الداخل للحصول على تصريح الزيارة.

دخلت مكتبًا صغيرًا واقتربت من الحارس الجالس خلف منضدة، أبرزت له بطاقتي، وبعد أن تحقق من اسمي في قائمة على جدول مواعيد ذلك اليوم، هز رأسه وأومأ لي بالدخول. لاحظت وجود شجرة عالية في الساحة لدى دخولي السجن. من مكان ما في لاوعييي، لمعت صورة لناصر أمامي متدليًا من تلك الشجرة وحبل المشنقة يحيط بعنقه، ازدادت خشيتي مما هو آت ألف مرة.

قابلت الحاج مرادي في جناح المتابعة. عرَّفت عن نفسي وأخبرته بأن كاظمًا يبعث إليه بتحياته، وقفت بهدوء أراقب مرادي يدعو أحد حراس السجن وقال وفي صوته بعض التأثر: «اعتن بالأخ رضا وتابع تلبية طلبة».

ناول الحاج مرادي الحارس ملفًا، افترضت أنه يحتوي على معلومات حول أبناء داود، أخذني هذا الرجل إلى جناح في الجزء الخلفي من السجن، واحد من عدة مبان يوضع فيه السجناء حسب طبيعة تهمتهم، أخبرني أن إخواني من وحدة استخبارات الحرس الثوري يديرون هذا القسم، حيث يعتقل السجناء السياسيين؛ كان مكانًا يصعب وصفه، نظيف، ولا ينتمي إلى المكان. الواقع أني وجدت بعض الراحة في ذلك. خلافًا للجزء الخارجي من سجن إيفين، يبدو أن هذا الجناح لم يصمم للترهيب.

ثم ولجنا المدخل الرئيس، بالرغم من الجهود الكبيرة التي يبذلها الحراس لإبقاء السجن نظيفًا، فإن رائحة الأجساد النتنة ومياه المجاري الرطبة صفعت وجهي وزحفت إلى أنفي. في البداية، لم أسمع أي صوت، ما جعل الروائح طاغية أكثر. ثم مزق الصمت صرخات بعيدة تلتمس الرحمة. تردد صداها عبر المدخل الرئيس من الطابق الذي تحتنا، بعد لحظات، رأيت صفًّا من السجناء معصوبي الأعين يقادون نحو إحدى الغرف. عند هذا الحد، تعرق كفاي، وبدأ قلبي يخفق بشدة.

طلب مني الحارس الانتظار في القاعة لحين ترتيب زيارتي مع أولاد داود. استمرت الأصوات والروائح تحوم حولي وشعرت بالدوار والرعب.

بعد لحظات، حدقت في نهاية ذلك الممر. رأيت مجموعة من الحراس المسلحين تخرج من مدخل. وكان معهم دستة من الفتيات المراهقات يسرن متثاقلات حافيات الأقدام عبر الردهة. شعرت بخدر لدى مرورهن أمامي، تلك المجموعة من الأطفال بدون لي منكسرات عقليًّا وبدنيًّا، وفي وسعي أن أرى أن بعضهن في حالة صدمة، كانت الدموع تتدحرج على وجوه بعضهن المتورمة، وأخريات تجمدت بقع من الدم على بشرتهن. وبدا على الباقيات اليأس والاستسلام، تعبير ما كان ينبغي لأحد أن يراه على وجه شخص فتي صغير السن.

لا أعتقد أن في استطاعتي أن أشعر بتعاسة أكثر مما شعرت في تلك اللحظة، إلى أن أدركت أن أحد الوجوه كان وجه بارفانا؛ وقد أذهلني ذلك لدرجة أني ترنحت وأسندت نفسي إلى الجدار.

ظهر الحارس الذي رافقني إلى هذا المكان فاقتربت منه على الفور، أشرت إلى بارفانا، وقلت راجيًا: «تلك ابنة داود إنه هنا لرؤيتها».

أمسك الرجل بذراعي، وسحبني جانبًا، وهمس: «لقد صدر أمر الإعدام، وهو سار الآن. ولا يمكن فعل شيء». «لكنها بريئة».

لم تعن هذه الكلمات شيئًا بالنسبة إليه، أردت أن أهرع نحوها، وأمسك بها، وأجرها إلى مكان آمن، أردت أن أخترق صفوف الحراس الذين يعتقلونها وأن أخطفها من حفرة الجحيم هذه، لكن قبل أن أتمكن من القيام بأي حركة، طأطأت بارفانا رأسها واستدارت مبتعدة. حتى إنها لم تعرف بوجودي قط. ليس لدي أدنى فكرة إن كانت قد تعرفت عليَّ أو رأت بي جلادًا آخر حين نظرت نحوي.

أغرورقت عيناي بالدموع وتلوت صلاة صامتة، وشعرت أني ملعون بعجزي. وقفت مشلولًا. وخلال بضع دقائق، تردد صدى عشرات الطلقات النارية عبر القاعة من بعيد. وسمعت اندفاعة طيور في الساحة ترفرف صاعدة إلى السماء. وصرخت بصمت.

حين توقفت لعلعة الرصاص، ارتفع صوت الأذان من مكبر الصوت. «الله أكبر، الله أكبر».

الحارس الذين استعرض بارفانا والفتيات الأخريات أمام فرقة الإعدام انضم إلى مجموعته في تمجيدهم لله. «الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن محمدًا رسول الله...حيا على الصلاة... حيا على الفلاح...حيا على خير العمل...».

تحاملت على نفسي لإتمام ترتيبات زيارة داود لولديه الباقيين. انتظرت حسب التعليمات في غرفة جناح المتابعة، محاولًا فهم ما حدث للتو، ومحاولًا الإيمان ببقاء أي أمل، في النهاية قاد أحد الحراس ناصر وسهيل. شعرت بقلبي يهوي لعمق أكبر مما كنت أعتقد ممكنًا. ناصر كان منحنيًا، وذراعاه يشدان على جسده النحيل جدًا، محاولًا الحفاظ على حرارة جسمه. ملابسه اتسعت عليه، وكأنها تسخر منه. وكان وجهه هزيلًا جدًّا بحيث بدت وجنتاه بارزتان بشكل فاحش، كان في السادسة والعشرين من العمر، لكن خطوطًا بيضاء من الشعر وجدت طريقها عبر شعره الفاحم السواد، لم يكن أي من تلك الخطوط موجودًا في آخر مرة رأيته فيها، حاولت أن أجبر نفسي على عدم التفكير في الأمر الذي تسبب بها.

سار سهيل يعرج خلفه، بدا منكسرًا مثل قدمه التي كان يجرها في مشيته. كدمة زرقاء امتدت من أسفل فكه إلى رقبته. مرة أخرى حاولت تجنب التفكير في كيفية أصابته بالكدمة والعرج، لكن صار من المستحيل عدم تخيل التعذيب الذي أصاب أناسًا عرفتهم وأحببتهم طيلة حياتي.

عدلت ياقة بزتي، وسرت متجاوزًا مرافقي على أمل كسب بضع لحظات للانفراد بناصر. رفع الحارس يده لإيقافي. «يا أخ، عليك البقاء هنا».

حدقت في عيني الرجل بحدة، لا بد أنه رأى الحنق الشديد واليأس في عيني؛ لأنه تراجع وسمح لي بالاقتراب من ناصر.

تواصلت عينا صديقي المحمرتان كالدم معي لأول مرة منذ دخوله الغرفة.

«ناصر، أنا هنا مع والدك، سيصل إلى هنا بعد قليل. ما الذي فعلوه بك؟».

كنت متأكدا أن ناصر يدرك أن ليس لديه وقت كثير للتحدث معي. مالعلي وهمس في أذني من خلال دموعه، «رضا، أرجوك أخرج بارفانا وسهيل من هنا. لم يعد في وسعي رؤيتهم

يتعذبون. الوضع هنا جحيم لا يمكن تصوره. هؤلاء الحيوانات المتعطشين للدماء اغتصبوا بارفانا أمامي. وجعلوني أشاهدهم وهم يلون كاحل قدم سهيل في الاتجاه المعاكس. أنا أدعو الله أن يقبض روحي كل ثانية، أستطيع تحمل كل تعذيبهم، لكني لم أعد أستطع تحمل رؤية ما يفعلونه بأخي وأختي البريئين». توقف للحظة، محاولًا استجماع انفعالاته، ثم واصل دون أن يتمكن من وقف دموعه أو ارتعاش صوته: «لا أستطيع مسامحة نفسي لعدم تمكني من حماية أسرتي، لا أعرف كيف سأواجه والدي، رضا، أرجوك أخرج بارفانا وسهيل من هنا».

وضعت يدي حول رأسه وجذبته نحوي، هامسًا في أذنه، «سأخرجهم، ناصر، وسوف أخرجك أنت أيضًا، سأفعل كل ما في وسعي من أجلكم، أعدك».

شاهد الآخرون في الغرفة، ومن ضمنهم بعض زملائي الحرس، تلامس جبهتينا، لكني لم أكترث. كنت بحاجة لأن أزود ناصر بأي قدر من الراحة أستطيع توفيره، حتى إذا كان ذلك مجرد تحرر لحظي من وابل الألم الذي يلحقه سجانوه به. لم يكن في وسعي إخباره أن شقيقته الصغيرة البريئة الطاهرة قد استعرضت أمامي قبل دقائق ثم أرسلت إلى حتفها بينما وقفت عاجزًا عن فعل شيء، ضممت ناصر إلى للحظة أطول، ثم سرت عبر السجن كأني نائم لإحضار داود.

«ناصر وسهيل هناك لرؤيتك» قلت حين نظر إلي.

حين أحضرت داود إلى الغرفة، شاهدت تعبيرا على وجهه سيعيش في ذاكرتي طيلة ما تبقى لي من العمر؛ كان تعبيرًا يقول غنه فقد كل إيمان له بالجنس البشري في لحظة.

«سامحني، بابا جون، سامحني»، قال ناصر وسهيل هذه الكلمات معًا، معتذرين لوالدهم وكأنهما هما المخطئان.

انهار داود باكيًا عند ذلك، كنت أعتقد أني رأيت أشكالًا من الحزن فيما سبق، وفكرت أنني جربته حين مات والدي وجدتي. لكن ما شهدته هنا -حزن أب ملتاع على أبنائه المنكسرين- كان أفظع من أي شيء شهدته أو أحسسته.

احتضـن داود ولديـه بيـن ذراعيه مدة عشـر دقائق، كل مـا كان في وسـعه أن يفعله هو البكاء. لا أسـئلة، ولا كلمات. بكاء فقط وهم متعانقون على شـكل دائرة. وقفت جانبًا منتظرًا مرافقة داود إلى الخارج.

اقترب أحد الحراس مني وأبلغني أن الزيارة انتهت. برفق أمسكت ذراع داود، وأخبرته أن الوقت قد حان للرحيل، عند المغادرة ألقيت نظرة أخيرة من فوق كتفي على ناصر، حاولت إقناع نفسي بأني قد أجد طريقة لمساعدته، لكن تشجيعي بدا فارغًا.

ما إن غادرنا القاعة، حتى جذب داود كمي راجيًا، يجب أن أرى بارفانا الآن. أرجوك خذني إليها».

كنت أقول في قرارة نفسي أنني أترفق بالرجل؛ لذلك لم أخبر داود بأن فراشته الصغيرة قد طارت بعيدًا، قلت كابحًا دموعي، بأن السجن لا يسمح إلا بزيارة واحدة، ثم وضعت ذراعي على كتفه كي أقوده خارجًا، سمح لي بقيادته، كان أضعف من أن يفعل شيئًا بمحض إرادته.

شققنا طريقنا خارج بوابة سجن إيفين الحديدية. المئات من الناس ما زالوا في الخارج، لكن عرض القوة الذي قام به حراس السجن خفض معنوياتهم، وما إن وصلنا إلى السيارة حتى استدار داود لينظر إلى المبنى المحظور.

«هل رأيت ما فعلوا بأولادي، رضا جون»؟ هززت رأسي بصمت، عالمًا بأني رأيت أكثر مما يمكنني التصريح به، وعارفًا بأن ما شاهدته قد غيرني إلى الأبد.

الفصل

8

تعهدات

خلال الأسبوعين اللاحقين، واصلت يوميًّا مناشدة كاظم استخدام صلته مع النافذين في الحرس لإنقاذ ناصر وسهيل. حين أخبرته عما حل ببارفانا، بدا حزينًا بالفعل -أي مخلوق بشري لا يشعر بالحزن على موت شخص قبل أوانه اعتاد مداعبته وتدليله حين كان طفلًا صغيرًا- لكنه واصل لوم مجاهدي خلق لتضليلهم الفتيان وغيرهم ودفعهم إلى مواجهة الإسلام.

أذهلني أنه لا يستطيع فصل حزنه لموت أصدقائنا عن غضبه من الأعداء السياسيين، لماذا لم يعترف ببساطة بأن تعذيب وإعدام بارفانا الصبية ذات الستة عشر عامًا، كان خاطئا وظالمًا؟ ولماذا لا يستطيع استخدام السلطة التي كان يجمعها في الحرس لمنع المعاملة غير المعقولة لشخصين كان يعرفهما ويحبهما طيلة أكثر من عقد.

واصلت التمسك بالأمل أن يتمكن كاظم من تحرير ناصر وسهيل إلى أن كانت صبيحة يوم إثنين حين دخلت مكتبي وطلب مني كاظم الحضور لرؤيته؛ شيء ما في صوته أخبرني بأنه لن يقول لي ما أود سماعه، سرت متثاقلًا لرؤيته في المبنى المجاور، وكأن في وسعي تجنب الأخبار السيئة بتأخير هذا اللقاء.

حين دخلت مكتبه، نظر إليَّ وأشار إلى مقعد أمام مكتبه، طالبًا مني الجلوس. كانت الغرفة معتمة، والستائر مسدلة، وعلى الجدار خلف طاولة مكتبه، صورة للإمام الخميني تحدق مباشرة بي.

جلست متوترًا، وعيناي تجولان في الملفات المكدسة على مكتب كاظم، والأوراق الموضوعة فوقها، وعلم إيران الذي يحتفظ به كاظم دائمًا هناك.

خلال ما بدا لي وكأنه فترة طويلة، لم يقل كاظم أي شيء. قد يتنحنح ليجلو حنجرته، لكن دون أن يقول شيئًا. حاولت يائسًا أن أقنع نفسي بأنه لا يوشك أن يخبرني أسوأ نبأ على الإطلاق. فكرت، ربما يريد أن يخبرني بحدوث تأخير في الجهود التي يبذلها لتحرير ناصر وشقيقه، وبينما واصل كاظم محاولة قول ما عليه قوله، شعرت بتوتر ويأس متزايد.

في النهاية، نهض إلى حيث كنت أجلس، واضعًا يده على كتفي: «رضا، لقد تلقيت للتو مكالمة من الحاج مرادي في سجن إيفين»، تنحنح لمسح حنجرته مجددًا وأضاف: «قبل بضعة أيام، صدر أمر من السلطات العليا و...» أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يواصل: «تم إعدام ناصر وسهيل أمس».

بقدر ما كنت أتوقع منه قول ذلك خلال الدقائق القليلة الماضية، ضربتني كلماته بقوة لا يمكن تصورها؛ شعرت بالغرفة تدور، وبصعوبة في التنفس. التفت إلى صورة الإمام وحدقت في عينيه، ولعنته بصمت، ثم انحنيت إلى الأمام، واضعًا رأسي على المكتب، شبكت ذراعي حول رأسي، منهارًا. على الفور لمعت صورة في عقلي عن آخر مرة رأيت فيها ناصرًا خلال حفل زفافي حين كان يلاطف أزاده. كان يرقص ويضحك وكأن ليس هناك غد.: «رضا، سوف أتزوجها، أنا أحبها. هذا يجعلنا أنا وأنت....».

شعرت بيدي كاظم على كتفيَّ، تشدني بقوة: «رضا، أنا أسف. لقد فعلت كل ما في وسعي. أقسم لك».

نهضت. شعرت بحاجة للخروج من هذا المكتب، كنت بحاجة لأن أتخيل كيف سأواجه المستقبل الشاخص أمامي، لكن، قبل أن أغادر احتضنني كاظم هامسًا: «لعنة الله على المنافقين»، مجاهدي خلق. مسح دمعة وهز رأسه. كنت متأكدًا أن يعتقد بأنه يواسيني، لكني شعرت بأنه تعاطف أجوف، لم لا يشعر كما أشعر لهذه الخسارة؟ هل كل تلك السنوات من لعب الكرة، وتجمعات يوم الجمعة في منزل جدي، ومساعدته في واجباته المدرسية حتى ساعة متأخرة من الليل، لم تكن تعني له شيئًا؟ هل كان قسم الصداقة الذي تعاهدنا عليه مجرد وعد فارغ بالنسبة له؟

«أريد العودة إلى المنزل»، تمتمت، وانطلقت مسرعًا في اتجاه الباب.

عشت في فقاعة من الحيرة خلال الأسابيع القليلة اللاحقة، ما الذي يحدث لبلدي؟ أين هي الثورة التي دعمناها أنا وناصر؟ لم أصدق أن شبانًا مثل ناصر، وسهيل، وبارفانا -مستقبل بلدنا- يعذبون ويعدمون. كيف سيقودنا هذا إلى إيران أفضل؟ كل ما أراده ناصر لبلده هو رؤية العدالة؛ الثورة ألهمته لأنه رأى فيها نهاية لحكم قمعي ديكتاتوري، وآمن بصدق أن الثورة ستجلب لنا الحرية، لكنها بدلًا من ذلك أخمدت أنفاسه.

أنا أيضًا، كانت لي أحلامي العظمية في الثورة، شعرت أن الإسلام -دين الصدق والأمل- سيجلب العدالة والإنصاف للجميع، لكن يد الثورة تلطخت الآن بدم أفضل أصدقائي. وباسم الله.

بدأ شعوري بالذنب لارتدائي بزة الحرس الثوري يثقل عليَّ بشدة، تحاملت على نفسي لمواصلة القيام بعملي، لكني كنت أفعل ذلك بامتعاض، متسائلًا حول ما إذا كنت أدمر مستقبلنا في كل حاسوب أصلحه، وكل عضو في الحرس أدربه، كاظم أبقى على مسافة بيني وبينه؛ لأنه يعلم أن ليس في وسعه مساعدتي في حزني، لأول مرة أفكر في ترك الحرس، لكني لا أعرف إلى أين يمكنني أن أذهب أو ما سأفعل.

حاولت سمية مواساتي، لكنها - على الرغم من تعاطفها الصادق ورغبتها القوية في مساعدتي، لم تستطع حتى البدء بتخفيف ألمي. في إحدى الليالي، كنت جالسًا وحدي إلى مكتبي في خلوتي، جاءت إليَّ، طوقتني بذراعيها، وقبلت جبيني.

«رضا، هناك آخرون تم اعتقالهم دون أي سبب؛ أعرف فتاة اسمها رويا، أُطلق سراحها مؤخرًا من السجن، ولا تريد التحدث عما حدث لها هناك، أخبرتني صديقة مقربة لها أنها لم تشارك في أي مجموعة معارضة، لكنها -بالرغم من ذلك- عذبت بقسوة ولا تزال في حالة صدمة».

أثار هذا اهتمامي. أردت أن أعرف المزيد عما يحدث في السجن، هفا قلبي نحو بارفانا، نظرتها الأخيرة إليَّ، الخجل والانكسار في عينيها، وحيرتها، لا بد أن أكلم رويا، لابد أن أعرف المزيد عما مرت به رويا، على الأقل كي أفهم ما أصبح عليه إخواني.

ترددت سمية في البداية حين طلبت منها أن تحدد لي موعدًا معها، كنت أعرف أن منصبي في الحرس يسبب لها الحرج في بعض الأحيان، في تلك الأيام، كان معظم الناس ينظرون إلى أي رجل ملتح -خاصة من يرتدون البزة العسكرية- على أنه تهديد لحريتهم، وكانت تحاول التخفيف من ذلك بالتباهي بمعارفي ومهاراتي في النواحي التقنية في عملي، لكنني أعرف أن بعض أصدقائها كانوا يستغربون من تحملها العيش مع رجل مثلي.

بالرغم من ترددها، وافقت سمية في النهاية على إيصالي لرويا. استغرق الأمر بعض الوقت؛ لأن الفتاة لم تكن تريد التحدث مع أحد، حين وافقت أن تراني لم أرتد بزتي العسكرية احترامًا لها.

بقيت رويا مطأطئة الرأس، وبصرها لا يشيح عن أصابعها، وهي تقودني داخل منزلها، كانت ترتدي الحجاب الصحيح، لكنها كانت تتفحص على الدوام جبهتها للتأكد من عدم انكشاف شعرها خلال حديثنا، لم تكن تنظر إليَّ، وتواصل تركيز بصرها على نقطة بعيدة في الغرفة.

«رويا خانم، أعرف أنك كنت مترددة في مقابلتي»، قلت بلطف، «أنا أفهم ذلك تمامًا وأحترمه، أؤكد لك بأنني لن أفعل أي شيء قد يجلب لك مزيدًا من الألم أو الحزن، أريد أن أعرف فقط إن كان في وسعي فعل أي شيء للمساعدة في ضبط الوضع».

ساد صمت مقلق بينما كانت تفكر في كلماتي، ثم بدأت تهز رأسها ببطء يمنة ويسرة، ثم قالت بهدوء: «لا أحد يستطيع المساعدة»، توقفت ووضعت يدها على خدها، «هل تعلم ماذا فعلوا بحميد»؟

كانت سمية قد أخبرتني عن حميد -صديق رويا- كان عضوًا في مجاهدي خلق، وقام الحرس بتوقيفه هو ورويا في الوقت نفسه، ثم أطلقوا رويا بعد احتجازها لأكثر من عام، لكنهم عذبوا حميدًا وأعدموه. «كلا، رويا خانم، لا أعلم ما حدث». قلت آملًا أن تحدثني عن الأمر. لم تقل شيئًا لوهلة. ثم تكلمت بهدوء: «غير مهم، آسفة لأني أثرت هذا الموضوع».

كان علي أن أفعل شيئًا لحثها على الكلام؛ «رويا خانم، أنا لست جزءًا من أي من كل يجري. خسرت مؤخرًا أصدقاء أعزاء في ذلك السجن، وأود معرفة المزيد عما يحدث هناك، ما يفعلونه غير إنساني، لكني لا أستطيع فعل شيء من دون معرفة الحقائق».

في العادة ما كنت لأقول أمرًا كهذا لشخص لا أعرفه جيدًا؛ لأن في ذلك خطورة كبيرة، لكني كنت أحوال أن أؤكد لها أنها تستطيع التحدث إليَّ؛ لكنها لم تقل الكثير، غادرت بعد مدة وجيزة، شاعرًا بفراغ رهيب؛ إلا أنني قبل أن أغادر، أخبرتها عن بارفانا، وأنهيت كلامي قائلًا: «أريد أن أعرف ما حدث لها رويا».

كنت آمل أن تساعدني زيارتي لرويا في فهم الإحساس بالغضب واليأس الذي كنت أستشعره، لكنها بدلًا من ذلك جعلتني أكثر تشوشًا وعجزًا، لكني تلقيت رسالة بعد بضعة أيام. وصلت من دون معلومات عن المرسل، وقد كتبت عليها كلمة (سري) بإهمال. هرعت إلى مكتبي وفتحتها.

رضا خان، أنا أعرف ما حدث لصديقتك بارفانا؛ أثناء وجودي في السجن، مرات كثيرة تمنيت أن أكون حرة، أن أخرج وأنسى كل ما حدث هناك. لكني الآن وبعد أن خرجت، أتمنى لو كنت واحدة من هؤلاء الفتيات المحظوظات بالوقوف أمام فرقة الإعدام، لقد أخذوا كل شيء مني في ذلك السجن. ولم يتبق لي شيئًا، قتلوا حميدًا، كانت لدينا خطط للزواج وإنشاء أسرة مع كثير من الأطفال، كان شخصًا طيبًا، يؤمن بالله وبالعدالة، من أجل استرجاع جثته جعلوا والديه يدفعون ثمن الرصاصات التي استخدموها في إعدامه، وكان فاقدًا لإحدى عينيه. فعلوا أشياء رهيبة به، كان في ذراعيه وساقيه عظام مكسورة بعضها بارز للخارج، كل بقعة في جسده عليها حروق من إطفاء السجائر، والدة حميد موجودة في مستشفى للأمراض العقلية الآن، فقدت عقلها بعد رؤية جثته.

حين أطلق سراحي من السجن، هرعت إلى المنزل لرؤية أمي، أصيبت بجلطة بعد بضعة أشهر من اعتقالي، لم أعرف أنني قد أسبب كل هذا الحزن والمعاناة، شعرت كأنني قتلتها، دعوت الله أن أراها مرة واحدة وأنا في السجن، ودعوت الله أن يعيدني إلى المنزل لأريح رأسي على كتفها وأبكي طلبًا للصفح، كانت الوحيدة التي لدي، ليس هناك من يبلغ عما حدث لي، لا أحد أبكي له، لم تكن أمي موجودة لتحتضنني وتقول لي لا بأس إنها ليست غلطتك، رويا أن يلمس جسدك الخاص والطاهر شخص بلا شرف، وهو ما يحرِّم الله النظر إليه. لم تكن هناك لتقول لي ليست غلطتك أن يجلدوك كل يوم، وأن يضربوا

قدميك العاريتين بالكابلات، لم أستطع أن أقول لها بأني كنت أنزف حتى يغمى علي، دون أن أعرف ما فعلوه بجسدي الغائب عن الوعي.

حين وضعوني في الحبس الانفرادي، كان هؤلاء الأشرار القذرون يأتون إلى زنزانتي، في كل مرة نظام مختلف، حراس قذرون مقرفون. حتى الحيوانات لا تفعل ما كانوا يفعلون، اغتصبوني، لكن الأمر كان أكثر من مجرد اغتصاب. كانوا ينعتونني بأكثر الألفاظ إثارة للاشمئزاز. وبعد أن يفرغوا مني، يركلونني في ظهري بأشد ما يستطيعون. ويلقون بي قرب المرحاض، قائلين: «أنت أيها القذرة، أقيمي صلاتك الآن».

رضا خان، أنا مسلمة. أومن بالله، وإيماني هو ما أبقاني حية هناك. كنت أؤدي صلاتي كل يوم، لكن هؤلاء السفلة الوقحين، يعبدون الشيطان، وليس الله.

في اليوم الذي أتيت فيه لرؤيتي، كان من المستحيل أن أخبرك ما كنت تريد معرفته، لكني فكرت في الأمر كثيرًا منذ ذلك الحين، فكرت في صديقتك بارفانا. شعرت أنك صادق، شعرت بالألم في صوتك، اليوم حين استيقظت، شعرت بأني مستعدة لأن أخبرك ما يجري خلف تلك القضبان، ما حدث للكثيرات من الفتيات أمثالي أنا وبارفانا.

رضا خان، هناك الآلاف من الفتيات البريئات من أمثال بارفانا محتجزات هناك، حين خرجت من الحجز الانفرادي، أخذوني إلى زنزانة مصممة لاستيعاب بضعة أشخاص، لكن كان فيها أكثر من ثلاثين فتاة، لم أشتك من حشري وسط هؤلاء الفتيات، رؤية أجسادهن وعقولهن المعذبة أعطتني القوة والشعور بأني لست وحيدة.

كل بضعة أيام كانوا ينادون بعض الأسماء على مكبر الصوت، كنا نعرف معنى ذلك، فنتجمع معًا، ممسكين بأيادي بعضنا، ونصلي ألا ينادوا على أسمائنا، لكن دائمًا كان يتعين على واحدة أو اثنتين على الأقل من زنزانتنا أن تقف أمام فصيل الإعدام، كنا نسمع صوت صراخهم، والتماس العفو، ثم صوت إطلاق الرصاص يملأ الجو.

كانوا يجعلون الباقيات منا يصطففن ويجبرننا على رفع رجل واحدة والبقاء هكذا مدة طويلة، إذا تعبت الواحدة منا، فإنهم يجلدونها على الرجل المتعبة، ويجبرونها على الوقوف ثانية عليها. كنا جميعًا نبكي. وبعضنا كان يغمى عليهن من الألم والنزف، وكانوا يخضعوننا للاستجواب كل يوم، لم أعرف قط ما يريدون، ولا كيف أجيب عن أسئلتهم، مهما كان ما أقوله، كانوا يضربونني. في أحد الأيام للإجابة عن أسئلتهم، أخبرتهم بأني لست عضوة في أي مجموعة معارضة، وليس لدي أي معلومات، قلت أني لا أعرف أحدًا من مجاهدي خلق؛ اشتد غضبهم حين سمعوا كلمة مجاهدين، جرحوا

ذراعي بسكين وقالوا لي إنهم سيقطعون حلقي في المرة القادمة إن لم أعترف، في اليوم التالي أرسلوني إلى غرفة مظلمة أخرى حيث قام حارس آخر باغتصابي. كان هذا هو الروتين.

بالرغم من كل ما كنت أحس به من اشمئزاز وحزن، إلا أنني لم أفقد الأمل قط، كنت أفكر في حميد طيلة الوقت. في كل مرة كنت أتعرض فيها للتعذيب، وكلما سمعت طقطقة أصابعي المكسورة، كنت أفكر في حميد والأيام الجميلة التي قضيناها معًا، والأوقات الجميلة التي كنا سنقضيها معًا في المستقبل. في الليل كنت أفكر في أمي وكم ستكون سعيدة حين أعود إلى البيت، وكيف ستعود حياتنا كما كانت ونترك كل ما حدث لي خلف ظهورنا، في أحد الأيام أطلقوا سراحي، حتى التفكير في هذا يجعلني أرتجف.

الحاج آغا عسكر خوئي، أحد الملالي الذين أوكلت إليهم مهمة هداية السجناء إلى الإسلام، أغرم بي، في اللقاء الثالث معه، أخبرني عن اهتمامه بي وقال إنه قد يرتب لإطلاق سراحي إذا وافقت على أن أصبح زوجته بالمتعة. لا أعتقد أني فكرت في الأمر كثيرًا. تحرري من السجن كان سببًا كافيًا لاتخاذ قرار خاطئ. اتخذت ذلك القرار دون وعي مني بأنه يتعين عليَّ أن أعطي نفسي لمخبول آخر؛ ودون إدراك أني أسلم نفسي لمزيد من التعذيب والمعاناة العقلية بقبولي أن أصبح زوجته بالمتعة، أن أكون متزوجة بشكل مؤقت من رجل متزوج بالفعل من زوجة أو اثنتين.

على مدى بضعة أشهر، لم تكن لدي آلام بدنية، لا ضرب، ولا جلد، ولا عظام مكسورة. لكني قرفت من نفسي، من خيانتي لنفسي، ببيع كبريائي لأحد الملالي مقابل حريتي، فهل كانت حرية بالفعل؟ لم أعرف في حينه. لم أعرف الثمن الباهظ الذي تعين عليَّ دفعه من أجل العودة إلى حياتي العادية، الحياة الوحيدة التي أعرفها.

لا شيء عاد إلى ما كان عليه؛ ولن تعود الأمور إلى ما كانت عليه بالنسبة لأي شخص كان في ذلك السجن الملعون.

اليوم يوم مختلف بالنسبة لي. حلمت في الليلة الماضية أني رأيت أمي، وحميدًا، ووالدي، الذي توفي قبل سنين عديدة. كانوا جميعًا ينتظرونني خلف بوابة سجن إيفين في اليوم الذي تقرر فيه إطلاق سراحي، ركضت باتجاههم؛ لأقول لهم إني أخيرًا قد تحررت، لكن قبل أن أتمكن من الخروج أغلقت البوابة، وعلقت في ذلك السجن الملعون.

رضا خان، لم أعد قادرة على تحمل عبء هذا الذنب، أعرف ما مرت به بارفانا والعديد من الفتيات والشبان داخل سجن إيفين. ليس في وسع أحد أن يساعد؛ ولا أحد يستطيع

أن يغير حياتنا، أتمنى لو أنهم أطلقوا عليَّ النار وقتلوني هناك. لم أعد قادرة على الذهاب إلى ذلك الملا القذر كل أسبوع والتظاهر بأن الخروج من السجن يعني الحرية. لم أعد قادرة على الاستمرار في الحياة على هذا النحو. أنت سجين إلى الأبد. هذا ما يحدث لكل سجين هناك. وهذا ما حدث لبارفانا.

رويا

شنقت رويا نفسها بعد مدة وجيزة من بعث هذه الرسالة.

الفصل
9

الدعاء

فعل رويا الأخير جعلني أشعر بالضياع، موتها وموت أصدقائي، وإعدام العديد من الفتيات والشبان الأبرياء ترك ثغرة في قلبي، لن أنسى قط ما حدث ولن أسامح أبدًا المسؤولين عن ذلك، تذكرت صوت الأذان في السجن مباشرة بعد إعدام بارفانا، كيف يمكن لهؤلاء الوقوف أمام الله وتمجيده بعد الجريمة المريعة التي ارتكبوها للتو؟

أعرف أنه يتعين عليَّ عمل شيء ما، لكني لا أعرف ما الذي يمكنني فعله أو من أستطيع التحدث إليه طلبًا للمساعدة، كل ما كنت أعرفه أن الرغبة في القيام بعمل وشعوري بالعجز كانا يتصارعان في داخلي.

في إحدى الأمسيات الممطرة، كنت أجلس في مكتبي في المنزل، أنظر عبر النافذة، محملقًا في الفضاء، أملًا أن أجد جوابًا، شعرت بأن تساقط حبات المطر هي إشارة من الله تخبرني بأنه غير راض عما يحدث. قطع حبل أفكاري قرع سمية على الباب. دخلت غرفتي ووضعت صينية طعام على مكتبي. أعادت ترتيب بعض الكتب والأوراق لإفساح مجال للصينية، ورفعت الصينية التي تركتها منذ الصباح دون أن ألمسها، وقالت: «رضا يجب أن تأكل شيئًا، أنا قلقة جدًّا عليك».

لم أكن قد تكلمت معها كثيرًا في الأيام التي تلت وفاة رويا، ولم أذهب للعمل أو أغادر غرفتي أيضًا. قبل أن تغادر سمية بالصينية، نظرت إلى الأرض حيث سجادة الصلاة.: «هل تريد أن أطوي سجادتك وأرفعها، أم أنك تريد أداء صلاة المغرب»؟

نظرت حيث سجادتي، وحجري المقدس، وسبحتي ملقاة. لم أكن قد أديت صلاتي منذ أيام، فركت عيناي، ونظرت إلى سمية، وقلت: «لا يا عزيزتي، أنا على وشك القيام للصلاة».

ابتسمت بعذوبة؛ الغمازة الموجودة أسفل جانب خدها الأيسر، أعطت وجهها كامل الاستدارة إشراقة ناعمة. وكشفت التماعة عيناها رضا عن محاولتها إعادتي إلى الحياة، وقبل أن، تغادر قالت: «تقبل الله صلاتك».

تركت الستائر مسدلة وجلست أمام سجادتي، ثم عدلتها قليلًا لتواجه القبلة، نحو مكة، وعدلت أطرافها لتمتد بشكل صحيح على الأرض. ثم وضعت السبحة إلى جانبي وجلست على الأرض أمام الحجر المقدس. ورفعت ذراعي إلى السماء.

«يا ألله، الليلة سأؤدي صلاتي بطريقة مختلفة، لن أتبع القواعد المعتادة للصلاة، وبقدر ما هي تلك الكلمات العربية رحيمة ومواسية، فسوف أتحدث إليك بلغتي. أريد أن أخبرك عن مشاعري الحقيقية؛ أنا أومن بقدرتك، أنت خلقتني وأنا شعرت بوجودك طيلة حياتي، لكن عليَّ الاعتراف بشيء. إذا كان ما يجري في بلدي هو الإسلام، فإنني لم أعد أومن بأن الإسلام هو دين الصدق والتضحية، أشعر بأن ما يجري في بلدي خاطئ، أشعر بأن القتل والجرائم التي ترتكب باسمك ظالمة، كيف يمكنني مشاهدة كل تلك الأعمال الوحشية؟ كيف يمكنني أن أرى أناسًا يُذبحون ولا يكون في وسعي عمل شيء؟ كيف أسامح نفسي لعدم قدرتي على الوفاء بوعدي لناصر، بإنقاذه وأخيه وشقيقته؟ لا أستطيع مشاهدة بارفانا ورويا، والآلاف من الفتيات مثلهن معتقلات خلف القضبان، وقلوبهن تتمزق إربًا، دون أن أفعل شيئًا. كيف يمكنني أن أصدق قصص خانم بوزورج بعد الآن؟ لا أصدق أن الإسلام الذي يبشر به الخميني ورجاله يمثل الحب الحقيقي والسماحة، إنهم يقتلون من أجل بقائهم وحسب، وهم يستخدمونك كستار، كذريعة. كيف يمكنني أن أقف وأراقبهم وهم يهدمون حضارتنا وتاريخنا الشامخ؟ نحن أمة لها حضارة حية وغنية، إنهم يعيدوننا لحقبة المغول الذين لم تخلف أعمالهم البربرية سوى المذابح في مختلف أنحاء البلاد. يا ألله، أنا خائف. لم أعد أطيق البقاء صامتًا وأنا أرى بلدي تختفي وتتحول إلى مستنقع للشر، يا ألله، أعترف لك بعجزي وألتمس هدايتك؛ لأنك تمثل الحب الحقيقي والعدالة، وأنا أومن بك وبقدرتك».

طويت سجادتي ووضعتها جانبًا، ثم عدت إلى مكتبي، فتحت جارور المكتب، وتناولت رسالة رويا المخبأة مع صورة قديمة لنا أنا وناصر ونحن نقف إلى جانب داود وآغا جون، حملقت في الصورة، ثم فتحت رسالة رويا، ووضعت الصورة داخلها، ثم أعدتها إلى الجارور.

ما إن أغلقت الجارور، حتى لمعت فكرة برأسي لم أفكر فيها من قبل. من الواضح أن الله هداني لوضعها هناك ردًا على صلاتي. أدركت بوضوح مفاجئ بأن هناك شيئًا واحدًا يمكنني فعله تكريمًا لأرواح أصدقائي وجميع الضحايا الأبرياء، عليَّ العودة إلى أميركا، إلى المكان الوحيد الآخر الذي لم أدعوه قط وطنًا، كانت أميركا واحدة من قوتين عظميين في العالم، وكنت مقتنعًا بأنهم لا يعرفون حقيقة ما يجري داخل إيران، وإذا عرفوا فسوف يفعلون كل ما في وسعهم لتحريرنا، لا بد أن يخبرهم شخص ما عن الفظائع التي ترتكب هناك.

كنت أنا ذلك الشخص. آمنت بذلك بكل شعرة في وجودي وكان علي أن أعمل على هذا الأمر.

مع إحساسي بالثقة بالنفس وشعوري بأن علي تسوية بعض الأمور مع أناس أحببتهم، قررت القيام بزيارتين كنت قد أجلتهما أكثر مما يجب. الأولى كانت لداود، الذي لم أره منذ أن أوصلته بعد تلك الرحلة المشؤومة إلى سجن إيفين، خلال رحلة العودة بالكاد تكلم، لكن ما إن نزل من السيارة حتى أشاح بوجهه عني ونظر في الأفق البعيد، ثم قال بصوت منكسر: «كيف يمكنك ارتداء بزة هذا النظام القاتل، رضا!»؟ ثم غادر دون أن ينطق بكلمة أخرى.

ذاك السؤال ترك ندبة في قلبي، تلك الندبة كانت تزداد سوادًا بعد أن توصلت لحقيقة أن ليس لديَّ إجابة مقبولة له.

فتحت ماهين خانم، والدة ناصر، الباب لي حين وصلت إلى المنزل، كانت حافية القدمين وترتدي ثيابًا سوداء وتبدو أكبر سنًّا من عمرها، لم تبد أي علامة على أنها عرفتني، بالرغم من أنني حين طلبت منها السماح لي بالدخول لرؤية داود، أخذتني إلى غرفته.

كان داود ممددًا في سريره، كانت خطوط وجهه قد تعمقت، وطالت، وأصبحت أكثر وضوحًا؛ شعره الرمادي استرخى على جبهته من جانب واحد. حين حاول الابتسام تأدبًا،

كان في وسعي أن أرى بأن ذلك تطلب كل ما لديه من جهد تقريبًا، هل نسي كيف يبتسم؟ أم أنه يعتبرني الآن واحدًا من الأعداء؟

ملت عليه وقبلت يده المتغضنة، الدافئة، والأبوية. داود جون، أنا هنا لأطلب منك أن تسامحني... «لم أكن متأكدًا إن كان يستمع لي، شخص ببصره إلى الجدار أمامه، لكن سواء كان يستمع أم لا، شعرت أنني بحاجة لأن أخبره كيف أشعر.»، أنا آسف بشدة، أتمنى لو أستطيع تغيير كل شيء، أتمنى لو أستطيع حمل جميع آلامكم، أتمنى لو أن لدي القوة لإعادة الأمن الذي تستحقه أنت وزوجتك، أتمنى لو أستطيع إعادة أولادك، داود، أنا لست سعيدًا بما أصبحت عليه، أنا لست سعيدًا بما حدث لنا، أنا لست سعيدًا بما حدث لنا. أرجوك سامحني، والدي العزيز، إن كنت قد تسببت بأي ألم لك، أنا أسف سيد داود، أنت بمثابة أب لي وأنا لا أستطيع رؤيتك على هذه الحال».

لم ينظر إليَّ مباشرة حتى تلك اللحظة، لكن حين تحدثت إليه وخاطبته بعبارة، «والدي العزيز»، شيء لن يسمعه مرة أخرى من أبنائه، استدار ببطء ونظر في عيني من خلال دموعه، أصبحت تعابيره أكثر دفئًا؛ وضع يده على يدي، وشد عليها بقوة. وحيث تركزت عيناه البنيتان الناعستان عليَّ، شعرت بمباركته تحت لمسته الأبوية، ثم أغلق عينيه، وبابتسامة رقيقة غط في النوم.

توفي داود بعد يومين من زيارتي له، لم يتحمل قلبه كل هذا الحزن.

تصاعد الغضب داخلي. لم أستطع أن أقول لداود بأنني سأستخدم البزة التي احتقرها للثأر لموت أبنائه الظالم في السجن، لم أستطع أن أقول له بأني بهذه البزة سوف أحرق وأدفن قتلة بارفانا القذرين، كانت وفاته إشارة أخرى من السماء على أن مهمتي ضرورية، عليَّ إنقاذ آباء آخرين من البؤس الذي قتل داود.

بتصميم جديد، اقتربت من كاظم، مصممًا على إشراكه في مساعدتي، بأن أطرح عليه مشكلة، وتركه يحاول إيجاد حل لي. أخبرني آغا جون بأن الأطباء شخصوا إصابة عمتي جيتي بمرض باركنسون، وأنه يتمنى لو قام أحد أفراد العائلة بالسهر عليها خلال هذا

الوقت الصعب، وقد أدركت الآن أن في وسعي استخدام هذا العذر للقيام بالخطوات الخطرة التي ينبغي عليَّ اتخاذها.

«كاظم، لقد تلقيت مكالمة من آغا جون. عمتي جيتي في حالة صحية سيئة وبحاجة لدخول منتجع، يقول جدي: إن الوقت قد حان لسداد ديني، حيث إنها قدمت لي الكثير خلال إقامتي في الولايات المتحدة، ومن واجبي الذهاب إلى هناك لأقدم لها الرعاية التي تحتاجها». هززت رأسي وأضفت: «لقد وضعني جدي في موقف صعب».

فكر كاظم لحظة في الأمر: «أعتقد أنك يجب أن تساعدها رضا؛ أنت مدين لها لكل ما فعلته لك، ينبغي علينا مساعدة أقاربنا».

«لكني لا أعرف كيف أتصرف، لا أستطيع ببساطة ترك العمل، ولا فكرة لدي عن المدة التي قد أحتاجها للبقاء هناك».

«لا تقلق، رضا. سأتكلم مع رحيم وأتولى الأمر».

«أنت صديق حقيقي كاظم، لقد كنت حاضرًا على الدوام حين أحتاجك».

ابتلعت كبريائي كي أتمكن من مواصلة الحديث: «لم تتح لي الفرصة لأشكرك على جهودك لإنقاذ ناصر، أعرف أنك كنت ستفعل لو استطعت، ناصر اتبع مسارًا مختلفًا، كنت على صواب دائمًا بأن المجاهدين تلاعبوا بشبابنا وأن ناصر لم يتبين ذلك».

«إنه لأمر محزن ما حدث لهؤلاء الناس، إنهم يتحولون إلى جماعات المعارضة الغبية، من أجل ماذا؟ لدينا كل ما أراد الله أن نكونه في حكومتنا الإسلامية وما زالوا يبيحون لأنفسهم محاربة أحكامه!»

هز رأسه دون أن يضيف شيئًا، ودون أن يذكر ناصرًا بالاسم، أو الاعتراف بخسارة أصدقائنا أشقاء ناصر الأبرياء، تجاهلت ذلك؛ لأني كنت بحاجة إليه لمساعدتي في خططي للسفر.

اتصلت بجدي لإبلاغه بأني قد أتمكن من السفر إلى أميركا، ثم مضيت إلى رحلتي الثانية التي كان من الضروري القيام بها: رؤية والدتي. كانت العلاقة بيننا قد أصبحت متوترة، وبات من الضروري إصلاحها، آخر مرة تحدثنا فيها كانت حين اتصلت بي لإبلاغي عن اعتقال أبناء داود، بات معتادًا أن يمر كل هذا الوقت ما بين مناقشة وأخرى دون اتصال بعد أن أصبح من المستحيل علينا أن نتكلم دون أن نجرح مشاعر بعضنا.

قراري بالانضمام إلى الحرس زرع إسفينًا بيننا، في آخر مرة كنا فيها معًا في غرفة واحدة، دارت المناقشة حول الرئيس في ذلك الحين، أبو الحسن بني صدر، وتحولت إلى مشادة قبيحة؛ انتخب بني صدر كأول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية في كانون الثاني 1980م بنسبة قاربت 80 بالمئة من الأصوات، كان النقيض الليبرالي للملالي، وهو شخص تساهل الخميني في ظهوره لإيهام الناس بأن الملالي لا يسيطرون تمامًا على البلد، بعد أكثر من عام على انتخاب بني صدر، رأى فيه الناس -من أمثال أمي- الأمل الوحيد لقيام إيران حرة، وبالرغم من موافقة الخميني على تلك الانتخابات كتنازل للقوى الليبرالية في البلد، لجأ بني صدر إلى إلقاء خطب تحريضية حول فضائل الحرية والحكم الذاتي، منتقدًا الملالي بسبب أعمال التعذيب والإعدام التي كانوا يرتكبونها بحق المعارضة، لم يتحد الخميني مباشرة قط، لكن الشعارات الملتهبة التي كانت تهتف بها جماهيره، مثل: «حررونا من الملالي»، كان الخميني يعتبرها أعمالًا ضد الله.

كانت والدتي من ضمن الناس الذين هتفوا من بين الجماهير، شاركت في المسيرات المؤيدة لبني صدر بحماس شديد، كنت فخورًا بها في سري، وأدعم تلك الأرواح الشجاعة التي تتظاهر تأييدًا لبني صدر، لكني لا أريد أن يصيبها شيء.

حاولت ثنيها عن المشاركة في المظاهرات، خاصة بعد قيام حزب الله باستخدام الهراوات في ضرب المتظاهرين وإطلاق الحرس الثوري النار على الحشود، وبعد أن خسر صديقي العزيز وأشقاءه أرواحهم بسبب القيام بما هو أقل من ذلك بكثير، أساءت فهم قلقي عليها واعتبرتني مناهضًا لبني صدر وتراشقنا كلمات مرة.

على أمل أن أتمكن من التصالح مع والدتي، وتمني أن تدرك مشاعر الأمومة لديها صفاء نيتي، قرعت باب بيتها. حين فتحت الباب، نظرت إلى لحيتي ثم تركت الباب مفتوحًا وسارت في اتجاه صالة المعيشة.

«أنا ذاهب إلى لوس أنجلوس لرعاية عمتي جيتي»، قلت وأنا أغلق الباب وأتبعها داخلًا، قامت برفع صوت التلفزيون وجلست على الأريكة.

«إنهم يحاكمون أملنا الوحيد»، قالت وهي تحدق في التلفزيون. كانت النشرة تعرض تقريرًا عن تنامي معارضة رجال الدين لبني صدر.

«أمي، لن تبقى الأمور على ما هي عليه، أعدك بذلك»، كانت لدي قناعة في داخلي أن في وسعي إحداث فرق بخطتي، رمقتني بنظرة، ثم نهضت، وأغلقت التلفزيون.

«رضا! لست أفهم كيف يمكن لشخص مثلك، لم يهتم كثيرًا لهراء الملالي الديني، أن يأتي فجأة من أميركا ويكرس نفسه لشخص مثل الخميني. هل تدرك حتى بأن ما يفعلونه غير إنساني؟ هل ترى ما يحدث حولك؟ هل تكترث حتى بناصر وما حدث له»؟

كل اتهام قالته حمل في طياته لدغة لي، لكن الاتهام الأخير طعنني في القلب. نهضت مغادرًا. «والدك وأنا كنا نعلق عليك آمالًا عظيمة، اعتقدنا أننا ربينا رجلًا».

صفقت الباب وغادرت منزلها، من أجل سلامتها، كان يجب أن أخرس لساني وترك والدتي وهي تشعر بالخجل مني. إخبارها بما أنا مقدم عليه قد يعرضها لخطر أعظم، أما الآن فقد بت أكثر حماسا لمهمتي. سأثبت لك يا أمي. سأثبت لك يا أمي بأنك ربيت رجلًا، وليس شخصًا جبانًا.

انتظرت كاظم عدة أيام ليعود لي حاملًا رد فعل رحيم على خطة سفري، في ذلك الحين، لم تكن الحكومة تسمح للمواطنين العاديين بالسفر بسبب الحرب مع العراق، وكنت بحاجة لموافقته لضمان الحصول على التصاريح اللازمة، حين دعاني كاظم إلى مكتبه، اعتقدت أنه يريد إعطائي جوابًا على طلبي.

«تعـال رضـا»، قـال مشـيرًا لـي أن أجلس. كان يجلس خلف مكتبـه يوقع بعض الأوراق ويراجع بعض الملفـات، بعـد وضـع الملفـات جانبًا، نظـر إليَّ قائـلًا: «الحمـد لله أن الإمام الخميني اسـترد أخيرًا منصب القائد العام من بني صدر، لقد حان الوقت لذلك، لا يمكننا تحمـل رئيس ضعيـف في الحرب، هـذا وقت حرج بالنسـبة لحركتنـا، عدونا، صـدام، يعيث فسـادًا فـي بلادنـا وبني صدر يخطط لهدنة ويتفاوض على شـروط إنهـاء الحرب». قال ذلك وهو يهز رأسه.

عرفـت حينهـا أن بنـي صدر يواجه مشـكلة، لم يكن الملالي ينوون السـماح باسـتمرار تمرده اللفظي، لا شـيء حشـد النـاس خلف الملالي مثل هذه الحرب، ولن يتدخل أحد فيها، حتى ولا الرئيس.

«كاظم، هل تحدثت مع الأخ رحيم»؟ سـألت بتردد. «هل كل شـيء على ما يرام رضا؟ لا تبدو على طبيعتك».

«أنت تعرف كيف هو جدي، إنه لا يتوقف عن الاتصال بي، وهو قلق على ابنته»، حاولت تمالـك نفسـي: «إنه يخشـى أن يفقدهـا هي أيضًا، وقد فقـد ابنه وزوجتـه، والآن العمة جيتي مريضة».

«إنـه بالطبـع وقـت صعب بالنسـبة له، لقد تحدثت مـع رحيم وهو ينظر فـي الأمر، وقد ذكرت له أن الأمر ملح».

شـكرت كاظمًـا وغادرت مكتبه، محبطًا بسـبب الوقت الذي اسـتغرقه هـذا الأمر، وفي الوقـت نفسـه راضٍ لأنـه على الأقل يحاول المسـاعدة. يبـدو أن ثمة أمور أخرى كانت تشـغل رحيـم، فـي الأيام التي تلـت حديثي مع كاظم عزل البرلمان بني صـدر لموقفه المعارض من الملالـي، وصـدر أمر للإخوة في الحرس الجمهوري، ومن ضمنهم رحيـم، باقتحام القصر الرئاسي لاعتقال الرئيس المعزول وقتله. إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك؛ لأن بني صدر اختفى عن الأنظار وتمكن من الهرب إلى فرنسا مع مسعود رجوي، زعيم المجاهدين، لكنهم تمكنوا من اعتقال العديد من أصدقاء وشركاء بني صدر وقاموا بإعدامهم.

أخذ مستوى القلق عندي في الارتفاع، كان معنى خسارة بني صدر -الليبرالي الوحيد الذي يشغل منصبًا- أن البلد يبتعد أكثر فأكثر عن مُثل الثورة، كنت بحاجة لأن أتصرف، لدي خطة الآن، لكني لا أستطيع فعل أي شيء من دون الحصول على إذن بالسفر، لا أستطيع الضغط على كاظم أكثر مما فعلت من دون إثارة شكوكه، وفوق كل هذا كان جدي يضغط عليَّ للسفر لرعاية عمتي.

يوم 27 حزيران -بعد أسبوع من عزل بني صدر- صادفت رحيم في قاعة مبنى مكاتبنا، لوح لي وبعث لي بتحية قصيرة في أثناء مروره بي.

وجدت أن تلك البادرة البسيطة مخيبة للآمال، من الواضح أن طلبي لم يكن موضع اهتمام لديه مع تصاعد الأزمة في البلد، بدا أنه من المستبعد أن يوافق رحيم على سفري، كنت على وشك الدخول إلى مكتبي حين سمعت صوتًا يناديني باسمي: «أخ رضا!»

التفت لأجد أنه رحيم.

«من الضروري أن أراك. أنا مشغول غدًا في حضور اجتماع، لكن تعال إلى مكتبي يوم بعد غد أريد أن أتحدث معك». بدأ في السير نحو آخر القاعة، «بالمناسبة، أحضر جواز سفرك».

ذهبت إلى البيت متلهفًا لأن أخبر سمية بأنني قد حصلت في النهاية على إذن بالمغادرة، طلب رحيم لجواز سفري كان إشارة طيبة؛ لأني كنت بحاجة لأن يطبع تصريح الخروج على جواز سفري، أخبرتني سمية بأنها سعيدة لأجلي، لكن كان في وسعي سماع الحزن في صوتها.

«لم لا تذهبين إلى لندن لزيارة والديك في أثناء غيابي؟ يمكنني الترتيب لذلك الأمر. ثم نستطيع العودة معًا».

«رضا، أنت بحاجة إلى هذه الرحلة. أعلم أنك ذاهب بسبب مرض العمة جيتي، لكن أنت أيضًا بحاجة للخروج من هنا لمدة؛ بسبب كل ما حدث»، ابتسمت مضيفة، «لا تقلق علي. جدتي ستخضع لعملية جراحية في ظهرها وقد وعدت والدتي بأن أرعاها».

ضممتها بين ذراعي وأخبرتها كم أحبها، كانت أنقى روح في بلد يتملكه الجنون وشعرت بأني محظوظ لأنها زوجتي.

حين ذهبت إلى العمل، رأيت كاظمًا وأخبرته عن لقائي المرتقب مع رحيم، شكرته لترتيبه كل شيء. في تلك الليلة، عقد أية الله بهشتي اجتماعًا على مستوى عال في مقر قيادة حزب الجمهورية الإسلامية. بهشتي هو رأس النظام القضائي وثاني أقوى رجل في إيران بعد الخميني مباشرة. حضر رحيم وعدد من حرس الثورة في قاعدتنا ذلك اللقاء، وكان ذلك سبب تأجيل مقابلته لي حتى اليوم التالي.

في تلك الليلة، في أثناء جلوسي داخل مكتبي في المنزل، تناولت جواز سفري للتأكد من أنني لن أنسى أخذه معي، ثم أخرجت رسالة رويا وصورة ناصر، نظرت إلى صورة ناصر، ثم انتقلت عيناي إلى جدي، فكرت كيف أن جدي اعتاد أن يقول لي: «اكبر في السن أيها الشاب». أخيرا أدركت ماذا كان يقصد بتلك العبارة: لكل شخص الحق في أن ينمو ويكبر في السن، وأن يكون جزءًا من هذا العالم، ويجب ألا يسمح لأي شخص بسلب هذا الحق من أي شخص.

دخلت سمية الغرفة، «أنا تعبة بعض الشيء، سآوي إلى الفراش سأترك النور مضاء». «لقد انتهيت تقريبًا هنا. سآوي إلى الفراش بعد قليل».

أعدت الصورة والرسالة إلى مكانهما وتأكدت من وضعي جواز السفر في جيبي، وما إن فعلت ذلك، حتى هز انفجار قوي المنزل. خرجت راكضًا من مكتبي وأنا أصرخ باسم سمية. كانت قد خرجت من غرفة النوم، وتركض باتجاهي تستفسر عن الانفجار. هرعت هي إلى غرفة الجلوس لتشغيل التلفزيون بينما أدرت أنا الراديو.

«هل تعتقد أنه هجوم عراقي؟ سألت قلقة. «لا أعتقد ذلك، فليس هناك صفارة إنذار أو إطفاء للأضواء. دعيني أجري بعض المكالمات».

اتصلت بكاظم، لكن لم يكن هناك أي جواب، ثم اتصلت بجدي ووالدتي، لكنهم لم يسمعوا الانفجار. قضينا ما تبقى من الليل مترقبين لما قد يحدث تاليًا، غير قادرين على النوم.

عرفت في اليوم التالي في العمل أن سلسلة من الانفجارات القوية ضربت مقر قيادة حزب الجمهورية الإسلامية حيث كان بهشتي يعقد اجتماعًا. دبت الفوضى في كافة أرجاء وحدتنا، ذهبت لرؤية كاظم، لكنه لم يكن في الجوار، أسرعت إلى مكتب رحيم، لكنه لم يكن هناك أيضًا، تذكرت عندها أن رحيم كان في الاجتماع، أسرعت عائدًا إلى مكتبي وأجريت اتصالات عدة لمعرفة ما حدث.

عرفت أن ما حدث كان هجومًا دبر بعناية، زرع المهاجمون قنابل في كافة أرجاء المنطقة المجاورة لضمان أكبر قدر من التدمير، بهشتي وأكثر من سبعين شخصًا من أعضاء الحزب قتلوا في تلك الليلة، من ضمنهم وزراء ونواب وزراء، ونواب في البرلمان، وأصيب العديد من أفراد الحرس الثوري. كان رحيم واحدًا منهم.

أصابني إحباط شديد، لن يثقوا الآن بأي شخص بما يكفي للسماح له بالسفر خارج البلاد، في تلك الأثناء، أمر الخميني، الذي كان يخشى من حدوث انقلاب ضده، قوات الحرس والباسيج بتطويق القواعد العسكرية، اتهم المجاهدين بتدبير الهجوم وأمر بإعدام العديد من السجناء السياسيين انتقامًا لما حدث.

استخدم نظام الخميني تلك المأساة، كما فعل في العديد من الأحداث الفاجعة، كأداة للعلاقات العامة. ادعى على الفور أن اثنين وسبعين شخصًا قتلوا في الهجوم، وصفهم بالشهداء، وقارن الحادث باستشهاد الحسين وأصحابه، الذين كان عددهم اثنين وسبعين أيضًا، وأضاف الملالي لمسة درامية للقصة حين نشروا شائعات تقول: إن بهشتي أخبر الحشود قبل الانفجار أنه «يشم ريح الجنة».

بعد بضعة أيام، عاد رحيم إلى العمل بساق مكسورة. جاء هو وكاظم إلى مكتبي، رحيم على عكازين وكاظم يساعده على السير.

«أخ رضا، لم أنس موضوعك»، قال رحيم وهو يناول عكازيه لكاظم ويجلس على كرسي، «آمل أن يكون جواز سفرك معك، لقد أخبرني كاظم مدى ترابط أسرتك، وهو يكن احترامًا كبيرًا لجدك، لقد تحدثت مع السلطات، وبالاتفاق معي، سمحوا لك بالسفر».

غمز كاظم لي بعينه.

«لكن أخ رحيم»، قلت: «أعلم أن هذه فترة حساسة بالنسبة لثورتنا، إن كانت هناك ضرورة أكبر لبقائي هنا، فإني أفضل أن أبقى وأن أخدم بلدنا وإمامنا». قلت هذا بدهاء، عالمًا بأن رحيم قد اتخذ قراره ولن يتراجع عنه، وعالمًا أيضا بأنه سيتذكر استعدادي للبقاء، ولن يكون لديه أي شكوك حول أسباب ذهابي إلى أميركا.

كل ما بقي الآن هو الصعود إلى الطائرة، صبيحة يوم رحلتي، كان شعاع شروق الشمس يلقي بوهج ذهبي على الرخام الأبيض لبرج أزادي (أزادي تعني الحرية)، بينما كنت متجهًا إلى مطار مهراباد الدولي، شعرت بمسحة مرارة في حلقي، حين تذكرت أن ذلك النصب بني إحياء للذكرى المئوية الخامسة والعشرين للإمبراطورية الفارسية، وكان اسمه برج شهياد، نسبة إلى ملوك إيران، قبل أن يغيره آية الله الخميني بعد الثورة. كان الهدف الأول من البرج هو تذكير الفرس بتاريخهم العظيم- التاريخ الذي جعل جدي فخورًا جدًّا، سمعت صوت آغا جون يقول: «هذا بلد كورش العظيم الذي حكم واحدة من أكبر الإمبراطوريات التي شهدها العالم، لقد جلب احترام الجميع لهذه الحضارة العظيمة؛ بلد أدخل فيها أول ميثاق لحقوق الإنسان؛ بلد كانت تحترم فيه النساء، بلد ألغي فيه الرق؛ البلد الذي سمح لليهود بالعودة إلى ديارهم بعد السبي البابلي. كانت تلك بلاد فارس التي شكل فيها الشعراء، والفلاسفة، والعلماء أساس الفخر القومي؛ كان الدين يقوم على ثلاث فرضيات بسيطة، الفكر الطيب، والكلمة الطيبة، والعمل الطيب».

ما إن صعدت إلى الطائرة، حتى انتابتني لحظة من الخوف. كيف يمكنني التفكير في فعل هذا العمل الأخرق؟ ما زال هناك وقت لأغير فكري؛ لم أقترف حتى تلك اللحظة أي عمل من أعمال الخيانة. في وسعي ببساطة الذهاب إلى لوس أنجلوس، ومساعدة عمتي جيتي، كما وعدت، ثم أعود. لكني فكرت في ناصر، وسهيل، وبارفانا، وداود، ورويا، وآخرين لا يحصون سرقتهم الثورة منا، فعاد إلى تصميمي. حين حلقت طائرة البوينج 747 التابعة للخطوط الجوية الإيرانية في السماء، لاحظت أن قطع الثلوج المتجمدة والموزعة عشوائية عبر سلسلة جبال ألبورز شمالًا تشبه إلى حد ما جبال سان جابرييل التي تشرف على لوس أنجلوس، باستثناء المباني ذات الطابع الفارسي المنتشرة في المشهد. كنت أعرف أن حياتي ستتغير إلى الأبد ما إن تطأ قدمي لوس أنجلوس مثل الآلاف قبلي، كنت ذاهبًا إلى

أميـركا لطلـب المسـاعدة، للبحث عن أمـل، والأهم مـن كل ذلك، البحث عـن الحرية؛ وهي الحرية التي وعدت بها الحكومة الإسلامية ذات يوم ثم انتزعتها بكل دهاء ومكر.

وردًّا علـى ذلـك، كان علـيَّ أن أقتـرف جرم الخيانـة ضد نظام غير شـرعي، ضد حكم البلطجية. لقد اتخذت قراري بأن أقدم كل سـر أعرفه عن الحرس الثوري طلبًا للمسـاعدة من الأميركيين. لن أسمح للخوف أو أي شيء آخر أن يمنعني.

الفصل
10

الاسم الحركي (ولي)

بدأ الاقتراب الطويل من مطار لوس أنجلوس الدولي بانحدار طائرتنا التدريجي من مكان ما إلى شرق وجنوب من حوض لوس أنجلوس العظيم مترامي الأطراف، قرب سان بيرناردينو، كانت رحلة شاقة استغرقت 24 ساعة مع بضع ساعات انتظار في مطار فرانكفورت، لكن شعورًا بالدفء انتابني وأنا أمر عبر الجمارك. سألتني المرأة التي تفحصت جوار سفري لمَ لم أحضر أسرتي معي، كان هذا السؤال الودي البسيط خاليًا من أي مضمون سياسي لدرجة أنه أراحني، ربما كانت تقول هذه المجاملة للجميع، لكن ابتسامتها السخية جعلتني أشعر أنني موضع ترحيب بالفعل.

صعدت إلى حافلة نقلتني إلى فندق شيراتون القريب في شارع سينشري، وصلت خلف صف من سيارات الليموزين كانت توصل مشاركين في حفل زفاف، مشاهد من هذا النوع أصبحت نادرة في إيران؛ لأن الثورة منعت الحفلات ومتلازماتها، وإذا قبض النظام على أشخاص يرتكبون هذه الموبقات، فإنهم يعرضونهم في مكان عام، ويجردونهم من قمصانهم، ويجلدونهم بالسوط.

لم أستطع النوم في تلك الليلة، أفكار قلقة كانت تدور في رأسي، هل أنا أفعل الصواب؟ وهل سيحدث عملي أي فرق؟ هل سيهتم أحد بما سأفعله؟ هل سيقبض عليَّ الحرس الثوري؟ هل سيؤذون أسرتي؟ هل فقدت عقلي؟ كان عليَّ أن أستمد القوة من ذكرياتي عن الناس الذين عانوا وإدراك أن الكثيرين سوف يستمرون في المعاناة.

هذا ما ينبغي عليك فعله من أجل بلدك، هذه هي الطريق الوحيد لجلب الديمقراطية والعدل لشعبك. هذا هو واجبك، يا رضا!

حاولت تهدئة عدم ارتياحي بالتفكير في نوع المعلومات التي قد أمررها، أعرف أسماء ومناصب قادة الحرس الثوري، وأعرف صلاتهم بالمجموعات الإسلامية المتطرفة الأخرى وخططهم لتصدير معتقداتهم الإسلامية الخطرة لما وراء الحدود الإيرانية. سجلت في ذهني ملاحظات عن جميع الاجتماعات التي حضرتها مع كاظم، وأستطيع إيراد التفاصيل الحرفية.

انتهت الليلة الطويلة ببزوغ الفجر على المحيط الهادئ، قبل الخروج، اتصلت بعمتي لأبلغها عن وصولي، أصرت على أن أقيم عندها، لكني أخبرتها أن لدي خطط لمقابلة بعض الأصدقاء القدامى، وأن من الأفضل لي الإقامة في فندق. ووعدتها بأني سأقوم على رعايتها خلال وجودي هناك. مع أني أدين بهذا الوعد لها ولجدي.

مدركًا بوجود احتمال قوي أن أكون موضع مراقبة عميل إسلامي، حاولت أن أتصرف بشكل طبيعي قدر الإمكان، أنا لا أثق برحيم، قائدي؛ فكيف يمكنني الوثوق به أو بأي شخص له صلة بالنظام؟ العودة إلى المكان المفضل الذي كنت أتردد إليه أيام الجامعة، ومقابلة الأصدقاء القدامى، والذهاب لزيارة عمتي بانتظام ستوفر أفضل غطاء لتجوالي في أنحاء لوس أنجلوس.

اتصلت بصديقيَّ أيام الجامعة جوني وأليكس لتحديد موعد للاجتماع بهم في مقهى بيرجن هورس شو الإيرلندي في منطقة فيرفاكس في لوي أنجلوس، كنا نلتقي هناك بعد مباريات الكرة لجامعة جنوبي كاليفورنيا أيام السبت. كنا دائمًا نستهدف الجلوس في الركن الأول إلى اليمين من الباب الأمامي، وهو أفضل موقع في المطعم. حين وصلت هناك، هذه المرة، اكتشفت أن (ركننا) ما زال يتميز بأوراق ملونة على شكل ورقة نبات النفل، (ورقة من ثلاثة أطراف، كل طرف على شكل قلب، اعتمدتها إيرلندا شعارًا لها) تحمل أسماءنا.

فاجأني كريس -النادل- حين تعرف عليَّ، وأشار إلى الطاولة حيث وجدت رفيقي سكني، جوني وأليكس يجلسان إليها.

تزاحمت الذكريات الطيبة إلى رأسي على الفور، سيارة الموستانج الحمراء ودواليبها المصنوعة من المغنيسيوم الصلب، وفتيات لوس أنجلوس، وصديقتي القديمة مولي، وكيف

انغمست في تلك الحياة الخالية من الهموم لبضع سنوات، حتى وفاة أبي، وكيف أعادني ناصر وكاظم إلى الواقع فور عودتي إلى الوطن، تساءلت هل كانت حياتي ستختلف لو أن والدي بقي على قيد الحياة وبقيت أنا مع جوني وأليكس وحياتي الأميركية، هل سأكون أكثر سعادة لو بقيت الثورة في إيران مجرد مادة إخبارية بالنسبة لي؟

«رضا، أنظر إلى حالك يا رجل»، قال جوني مقاطعًا حبل أفكاري مع ابتسامة وهو يحتضنني، «وماذا بشأن هذه اللحية»؟ سؤاله عن اللحية، وفي الواقع كل هذا اللقاء، فيه نوع من السريالية. كيف يمكنني أن أوفق بين الحياة الجامعية السهلة التي شاركت فيها هذين الرجلين مع التغييرات في إيران التي جعلتني أربي لحيتي؟ هل سيفهم جوني إذا شرحت الأمر له؟ قررت ألا أفعل. وبدلًا من ذلك انهمكنا في استعادة ذكرياتنا.

«هذا هو الشيء الجديد، الجميع يربون لحاهم في إيران هذه الأيام»، قلت وأنا أحتضنه بدوري.

تحدثنا لوهلة عن حياتنا بعد الجامعة، حدثني جوني عن زوجته وتوأمه من الصبيان البالغين من العمر عامان، وكيف أن الأبوة غيرته. أليكس لا يزال مع سوزان، التي كان يواعدها منذ أيام الجامعة. أخبرتهم عن سمية وأطلعتهم على صورة لها.

«واو، إنها جميلة»، قال جوني.

«كيف هي كل الأمور في إيران»؟ سأل أليكس، «نحن نشاهد الأخبار، ويبدو أن أمورًا كثيرة تحدث».

بقدر ما كانت تلك الكلمات دعوة لي للتحدث عن مشاعري الحقيقية، فإني لم أبح بالكثير، قلت: إننا نعيش حالة تحول، وإنني أعتقد بأن الأمور سوف تتحسن.

حين انهمكنا في الحديث، عدنا إلى إيقاعاتنا المألوفة، وبدا كأن زمنا لم يمر منذ أن رأينا بعضنا آخر مرة؛ لكني كنت أعرف بأن هذا غير صحيح، لقد مررت بما يوازي عمرًا كاملا منذ أن غادرت كاليفورنيا.

لـم أفعـل أكثر مـن زيارة عمتـي والاتصــال بالأصدقاء القدامــى لبضعة أيـام، ثم حان الوقـت للاتصــال بالسـلطات الأميركيـة، أردت الوصـول إلـى وكالـة المخابـرات المركزيـة، وجـدت أن تلـك الفكـرة مخيفة، لكنــي أعلم أنهم سـيأخذون معلوماتي علـى محمل الجد، لم يكونـوا مسـجلين في دليـل الهاتف، لكن رقم مكتب التحقيقـات الفدرالية موجود فيه، أعرف عن مكاتبهم في المبنى الفدرالي في ويلشـاير، ويسـتوود، وهو مكان لا يبعد كثيرًا عن جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس المنافسـة لجامعة جنوبي كاليفورنيا، ولا يبعد كثيرًا عن الطريق السـريع رقم أي-405 حيث كنت أقيم. بعد النظر إلى نفسـي في المرآة واستجماع شجاعتي، أخذت نفسًا عميقًا والتقطت الهاتف.

كان الاتصــال بمكتـب التحقيقات الفدرالية سـهلًا، لكن الوصول إلى الشـخص المعني احتاج لبعض الجهد، «أريد التحدث إلى عميل مسؤول عن الشؤون الدولية»، قلت هذه الجملة لواحـد بعد الآخر، «لدي بعض المعلومات السـرية المهمة عن إيران»، كانت التجربة محبطة للغاية، وسرعان ما أصبحت غير مشجعة، ثم فكرت، ربما إنها فكرة غير جيدة على أي حال. في النهاية، وبعد ساعة من القفز من واحد إلى الآخر. تمكنت من تحديد موعد مع اثنين من العملاء مساء ذلك اليوم.

أعطيت نفسي الكثير من الوقت للوصول إلى غرب لوس أنجلوس. وحين حملتني سيارة التاكسي إلى هناك، نظرت خارج الشباك وتذكرت أن آخر مرة مشيت فيها في الطريق 405، كانـت للذهـاب إلى ويسـتوود لحضور حفـل الكلية، وشـعرت يومها أني على قمـة العالم، فهل سأحس بذلك الشعور مجددًا؟

أعـادت لـي الشـوارع خـارج المبنـى الفدرالي ذكريـات أقل حبـورًا، فقد كانت مسـرحًا للعديـد مـن المظاهـرات المؤيـدة والمعارضـة خـلال الثـورة الإيرانية، قلة مـن الطلاب من جمعية الطلاب المسلمين انضموا إلى المتظاهرين المؤيدين للخميني واصطدموا بالمؤيدين للشاه، كان هناك دائمًا عدد من كاميرات التلفزيون حاضرة، وبت أشك الآن بوجود كاميرات لعملاء إسلاميين أيضًا.

قررت ألا أذهب مباشرة إلى المبنى الفدرالي، وبدلًا من ذلك الحفاظ على خداعي بالاتصال بصديق لمقابلتي عند مطعم ماريو الشعبي، من المدخل إلى مطعم ماريو يمكنك أن تكشف طريق جايلاي من جهة ووايبيرن بلاس، من جهة أخرى. وإذا تبعني شخص ما، فسوف أعرف، حيث إنني واصلت المراقبة بدقة طيلة طريقي إلى ويستوود. أنهيت غدائي، وودعت صديقي، وغادرت من خلال مخرج خلفي، ودخلت موقفًا للسيارات متعدد الطبقات عبر الزقاق، وخرجت من الجانب الآخر إلى شارع فيتران. كانت مسيرة طويلة عبر شارع فيتران إلى ويلشاير، حيث يقع مبنى مكتب التحقيقات الفدرالي، كان من المستحيل على أي شخص أن يتبعني دون أن أكتشفه، ومع ذلك، لم أذهب مباشرة إلى المبنى، بل استدرت حول ويلشاير ودخلت من الخلف.

ما إن سجلت اسمي لدى مكتب الاستقبال، حتى رافقني اثنان من المسؤولين إلى قاعة الاجتماعات في الطابق الثاني عشر، أحد الرجلين قدم نفسه على أنه العميل الخاص كولي ماديجان والثاني على أنه آل مانشيني. أبلغتهم اسمي وتساءلت على الفور إن كنت أستطيع استخدام اسم مستعار. قدما لي سيجارة، اعتذرت عنها، وقدما لي ماء، قبلته. لم أكن متوترًا على الإطلاق، أعتقد أن مضيفيَّ كانا أكثر توترًا مني، ما جعلني أدرك أن قضيتي ليست مما يطالعونه كل يوم، كما أنني في نهاية الأمر إيراني، أدركت عندها أن مكتب التحقيقات الفدرالي، ليس وكالة دولية. معظم الأشخاص الذين يتعاملون معهم أميركيون أو من جنسيات أجنبية من دول الكتلة الشرقية، الناس من لوني لم يكونوا قد أصبحوا موضع اهتمام لديهم بعد، ولا يعرفون الكثير عن الطريقة التي سيتغير بها هذا الوضع.

بعد تبادل المجاملات، انتقلنا إلى مناقشة أسباب اتصالي بهم، بدا الأمر صعبًا في البداية؛ لأنهم بدوا غير مدركين لما أقوله لهم، أخبرتهم أنني أتولى منصبًا في الحرس الثوري الإيراني، ويمكنني الاطلاع على معلومات مهمة لبلدينا، لدهشتي واصلوا تسمية الحرس الثوري (الجيش الأحمر)؛ خالطين بين إيران الغامضة والاتحاد السوفيتي المألوف بالنسبة لهم.

انتابتني الشكوك مجددًا، إذا كان هؤلاء لا يدركون أي شيء مما يجري في بلدي، فكيف سيهتمون بالمعلومات التي سأقدمها لهم؟ كانوا يسجلون كل ما كنت أقوله، لكن كان من

الواضح أن هذا لم يكن مجال اختصاصهم، وحين سألوني إن كان لدي ما يثبت ادعاءاتي، أخرجت الوثائق التي جلبتها معي؛ كانت الوثائق تحمل الشعار الرسمي للحرس الثوري الإيراني، وتتضمن قائمة برواتب وأسماء كبار الضباط وأوامر داخلية من العديد من قادة القواعد. بعض تلك الأوامر كانت تحمل اسمي. فسرت كل واحد منها، وكانوا يهزون رؤوسهم في أثناء قيامي بذلك، لكن الوثائق كانت باللغة الفارسية ولم يكن أي واحد منهم يعرفها.

كان لدي أيضًا صورة لمحسن رضائي، قائد الحرس الثوري، في بزته العسكرية، يتحدث إلى حشد ضخم من الناس، وحراس مسلحون يقفون في الزوايا، وخلفه يقف كاظم، ورحيم، وأنا. ازداد اهتمام العملاء حين رأوا الصورة وأخذوا يطرحون المزيد من الأسئلة.. وسألوا إن كان في وسعهم الاحتفاظ بالوثائق للتحقق منها. أخبرتهم أني قلق على السرية، والجهة التي ستذهب إليها الوثائق، وحول ما إذا كان في وسعي استعادتها، أكد لي ماديجان بأن القضية كلها ستحظى بأكبر قدر من السرية ثم اقترح عليَّ الابتعاد عن الأضواء.

«سنعاود الاتصال بك في غضون بضعة أيام»، قال ماديجان، «نحن بحاجة لترتيب بعض الأمور، وهناك أناس علينا التحدث إليهم». «أي ناس»؟ سألت بمنتهى البراءة.

وضع ماديجان وثائقي في حقيبته، «سنتصل بك في غضون بضعة أيام، سيد كاهليلي».

رافقاني إلى الخارج، وشكراني على وقتي، وسجلا ملاحظة عن فندقي في شارع سانشري.

«الشيراتون؟ نعم، أعرف ذلك الفندق»، قال العميل مانشيني، «ما رأيك أن تنتقل من ذلك الفندق إلى آخر؟ أقترح عليك فندق شوترز في سانتا مونيكا. إنه على الشاطئ مباشرة وله عدة مخارج. استقل سيارة أجرة للوصول إلى هناك. وسوف نتصل بك قريبًا».

الأيام القليلة التالية كانت مليئة بالقلق. من جهة، كنت أعلم بوجود عملاء إسلاميين في الولايات المتحدة يراقبون الإيرانيين الذين يدخلون البلد. وكان كاظم قد أخبرني أن الحرس وعملاءهم يراقبون المعارضين خارج إيران، ويراقبون عن كثب أفراد الحرس الثوري الذين يسافرون إلى الخارج، حيث إنهم يعرفون أن المخابرات الأجنبية تسعى لتجنيد

عمـلاء لهـا، ومـن جهة أخرى، كنـت قلقًا مـن أن أتعرض لمضايقات من مكتب التحقيقات الفدرالي إن لم يصدقوا روايتي.

انعدمـت الثقـة بيـن الأميركييـن والإيرانييـن بعـد احتـلال السـفارة في طهـران، كنت حاضـرًا عنـد احتلالهـا -بالرغم مـن أنه لا علاقة لي ألبتـة بأخذ الرهائن- مـا يعني أنه قد تكـون لديهـم صور لي هناك، وربما تلقـى مكتب التحقيقات الفدرالي نبـذة عني بطريقة ما، السـيناريو الأسـوأ هـو أن ينظـروا إليَّ هم ونظراؤهم فـي وكالة الاسـتخبارات المركزية على أني جاسوس إيراني يحاول التسـلل إلى صفوفهم بالدخول عبر الباب الأمامي حاملًا عرضًا أخرق يتعلق بإعطائهم أسرار الحرس الثوري، ولم يعد في وسعي إلا أن آمل بأن تكون الوثائق التي أعطيتها لهم دليل على أن نواياي هي ما أبلغته لهم.

اقتراح مانشيني بأن أنتقل إلى فندق شوترز كان له أثر كبير في إقناعي أنهم صدقوني، إذا اعتقـدوا بأنـي أكـذب عليهـم، أو إذا اعتقدوا بأني أحاول التجسس عليهـم، لما بذلوا أي مجهود لحمايتي. الغرفة المشـرفة على الشـاطئ، أحدثت تحولًا، بقيت، خلال الأيام القليلة التاليـة، فـي هـذه الغرفة الممتعـة، لكن السـاعات كانت تمـر بطيئة. في لحظـة، كنت أصف نفسـي بالجنون، وفي اللحظة التالية بطلًا يحاول إيجاد طريقة لمسـاعدة إيران. حاولت أن ألهي نفسي بمشاهدة التلفزيون أو قضاء بعض الوقت على الشاطئ، وفي بعض الأحيان أطلب خدمة الغرف، لكن الانتظار كان محطمًا للأعصاب، وكلما بلغ قلقي حدًّا يفوق احتمالي كنت ألجأ إلى جيب سترتي الداخلي الأيسر حيث أحتفظ برسالة رويا المطوية حول صورة ناصر، ومن دون أن أفتحها، كنت أضمها إلى صدري لأذكر نفسي عن سبب وجودي هنا.

أخيرًا، بعد أربعة أيام، اتصل ماديجان وطلب مني التوجه إلى فندق الهوليداي إن الذي يبعـد بضع مبان. كان في وسـعي الذهاب سـيرًا علـى الأقدام، لكنـي اخترت الذهاب بسـيارة أجرة، وأغضبت السائق الذي اضطر إلى الانتظار مدة تزيد على الساعة مقابل أجر القيادة بضـع مئـات مـن الياردات. بـدا يتذمر؛ لذلك طلبت منه سـلوك طريق ملتـو تحوطًا لأن يكون هناك من يتبعني، ثم أعطيته بقشيشًا سخيًّا، وبدا لي أنه حتى هذا لم يرضه.

صعدت درجات السلم إلى الغرفة 303 كما طلب مني، رحب بي مانشيني وماديجان. كان هناك عميل آخر يجلس إلى طاولة محاذية للنافذة، نهض قائلًا: «سعيد بمقابلتك، رضا، أنا باتريك باري»، ذكرتني طريقة مصافحته بجدي آغا جون، الذي كان يصافح دائمًا بكلتا يديه ثم يربت مرة أو مرتين على يد المصافح. رددت في ذهني كلمات تعلمتها من جدي لتعزيز ثقتي: يا رضا، الحياة مثل نهر جار. في بعض الأحيان ينبغي علينا أن نسير مع تياره وأن نستمتع بالرحلة. لكن حين يصل إلى شلال، فإنك إن لم تقاوم تياره، فسوف تسقط أنت أيضًا. لقد منحنا الله القوة ومنحنا بركته كي نجتاز الأوقات الصعبة وأن نحافظ على إيماننا حيًّا.

لم يعرفني العميل باري على مسماه الوظيفي، لكن كان من الواضح أنه مسؤول. تحدثنا مدة نصف ساعة، استعدنا فيها كثيرًا مما قلته مع العميلين الآخرين، افترضت أنه كان يسجل المحادثة على شريط، ناقشنا الوثائق التي جلبتها معي في الاجتماع السابق وأخبرني أن ترجمة لتلك الوثائق أثبت أنها حقيقية. ذكر باري بعدها اسم نائب قائد الحرس الثوري، وهو رجل اسمه رضا موحدي.

«نحن قلقون إلى حد ما حول حداثة هذه الوثائق»، قال، «علمنا أن هناك شخصًا آخر في هذا المنصب».

«أوه كلا، أؤكد لك أن موحدي ما زال يشغل هذا المنصب»، قلت، متسائلًا عمن يمرر لهم معلومات سيئة. لن يكون مفاجئًا لي إذا أرسل الحرس عملاء إلى الولايات المتحدة لتزويد الأميركيين بتفاصيل خاطئة.

في تلك اللحظة، فتح الباب ودخل رجل من الجناح المجاور، كانت ملابسه أفضل بكثير من عميلي مكتب التحقيقات الفدرالية، وقدرت أن يكون سنه في أوائل الأربعينيات.

«هذا السيد كلارك»، قال العميل مانشيني، وهو ينهض على قدميه. نهضت أنا أيضًا، غير مدرك تمامًا لما يحدث، ومقارنا قامتي البالغة خمسة أقدام وثماني بوصات بقامته التي تقارب الستة أقدام وبوصتين، بدا أن كلارك ملأ الغرفة.

(ستيف كلارك)، قال الرجل مبتسمًا مادًّا يده نحوي، «وكالة المخابرات المركزية الأميركية، تسرني مقابلتك، سيد كاهليلي. هل لفظت اسمك بالطريقة الصحيحة»؟

قلت: «نعم» صافحني بقبضة صارمة وعينين نافذتين. «تسرني مقابلتك أنا أيضًا».

كان ذلك آخر اجتماع لي مع عميليّ مكتب التحقيقات الفدرالية ماديجان، ومانشيني، وباري. وصول كلارك أوصلني لوكالة الاستخبارات المركزية.

أعجبت بالعميل كلارك منذ البداية، كان فيه نوع من الألفة، وكان يأخذ اقتراحاتي على محمل الجد. تحدثنا في ذلك اليوم لحوالي ساعتين بعد مغادرة عملاء مكتب التحقيقات الفدرالية، لكن المحادثة كانت عمومية أكثر مما توقعت. راجعنا المعلومات التي أعطيتها لمكتب التحقيقات الفدرالية، وسأل أسئلة عدة أخرى حول تركيبة الحرس الثوري وقيادته، كان على اطلاع أفضل بكثير حول ما يجري في إيران من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالية. سأل إن كان في استطاعته الاحتفاظ بالوثائق التي جلبتها من إيران، فوافقت. ومع إحساسي بأنه قريب مني، أطلعته على صورة ناصر ورسالة رويا وأخبرته قصتها، وأخبرته كيف يعذبون ويقتلون الفتيات الصغيرات، باسم الله، وأنهم قبل الإعدام يغتصبونهن لاعتقادهم بأن الفتاة إذا ماتت عذراء فإنها تذهب إلى الجنة ويريدون حرمانهن من هذه الميزة. شرحت له كيف خلق أسد الله لاجوردي، مدير منظمة السجون الإيرانية جوًّا من الرعب لإبقاء المساجين مذعورين وخانعين. الإيرانيون يسمونه (سفاح إيفين)، ليس بسبب الآلاف الذين قتلهم، بل لقيامه بسحب دماء السجناء الذين ينوي إعدامهم لاستخدام البلازما في معالجة جرحى الحرب ضد العراق، ولا يترك للضحايا من الدم إلا ما يكفي لوقوفهم صاحين في مواجهة فصيل الإعدام.

قابلت العميل كلارك، الذي سرعان ما صرت أدعوه ستيف، مرات عدة خلال الأيام القليلة التالية، وكنا في كل مرة نتخذ أقصى التدابير لضمان أن لا أحد يتبعني. فقد أستخدم سيارتا تاكسي للوصول إلى منطقة الاجتماع المحددة التي كانت تتغير في كل مرة، ثم أقطع آخر مبنيين آخرين سيرًا على الأقدام.

كان ستيف يتعاطف معي حين كنت أتأثر عاطفيًّا، ويتقبل كلماتي دون مبالغة في رد الفعل، وكنت أشعر بالراحة لقدرتي على التحدث معه بحرية حين كنت أناقش مسائل تتعلق بالحرس وطبيعة منصبي في المنظمة، كانت آمالي تتصاعد بعد كل لقاء.

ثم قال ستيف شيئًا صدمني تمامًا: «رضا، لقد تأثرت برواياتك المؤلمة وأشعر برغبتك المخلصة في مساعدة بلدك». توقف ستيف، ونظر في عيني «لكنك تستطيع المساعدة أكثر إذا عدت وعملت لحسابنا».

تجمدت في مقعدي غير قادر على الرد، ومع أنني كنت من بدأ هذه العملية، لكن لم يخطر ببالي أن تطلب مني وكالة الاستخبارات المركزية أن أعمل جاسوسًا لحسابها.

«أعرف مدى صعوبة أن تقوم بهذه المخاطرة العظيمة بالمجيء إلى هنا والاتصال بنا، صدقني إننا ممتنون لذلك، لكننا بحاجة لمساعدتك إذا أريد لنا أن نساعد بلدك، ستكون عيننا وأذننا في إيران».

لم آت إلى هنا وفي نيتي أن أصبح جاسوسًا. اعتقدت أنني سأمرر بعض المعلومات إلى الأميركيين وهم يتولون الأمر من هنا، لكني أدركت الآن قلة ما يعرفونه عما يجري في بلدي، كانوا بحاجة إلى أكثر مما جلبته لهم بكثير، وإن لم يحصلوا على المعلومات مني، فقد يحصلوا على معلومات غير دقيقة من أي شخص.

«سأفعل» قلت بتردد.

«هذا بالضبط ما أردت سماعه»، قال ستيف، ناهضًا عن مقعده ومربتًا على كتفي، «بالمناسبة، لقد خصصنا لك اسمًا رمزيًّا. من الآن فصاعدًا، سندعوك «ولي».

الفصل 11

حيل المهنة

(ولي)

رددت الاسم في سري.

بالرغم من أنني كنت أعرف منذ ركوبي الطائرة متوجهًا إلى أميركا بأن حياتي ستتغير إلى الأبد، فإن سماع هذا الاسم الرمزي وأنا عائد إلى مكان إقامتي كان مؤشرًا على أن الأمور لن تعود كما كانت حقًّا، فكرة أنني بت الآن أحمل اسمًا رمزيًّا من وكالة الاستخبارات المركزية، جلبت كل أنواع الكلمات إلى رأسي: خائن، أسرار، خداع، شكوك، أكاذيب. وأثقلت تلك الكلمات عليَّ بشدة. والداي لم يربياني لأصبح خائنًا وكذابًا، لكنهما ربياني على الإيمان بالخير الأسمى وفهم أن تدمير الشر يتطلب في بعض الأحيان فعل أشياء لم نكن نتصورها أبدًا لأنفسنا.

نمت علاقتي بستيف لتصبح اتصالات يومية مريحة بين رجلي أعمال، وصادف أن يكون ذلك العمل هو التجسس. بدا ستيف حازمًا، ومباشرًا، وصادقًا. كان رجلًا واثقًا من نفسه، سريع في انتهاز الفرص، كنت أشعر بالراحة وأنا معه، وأشعر أن ما نفعله طبيعي، لم أكن أشعر بالقلق أو الخوف من التحول الذي سيطرأ على حياتي حين كنا نعمل معًا.

تبين أن مقابلات الفندق تشتمل على الكثير من التعقيدات اللوجستية؛ لذلك أخبرني ستيف بأن سنواصل جلساتنا في منزل آمن في الجبال فوق ماليبو، وكان يتعين عليَّ ركوب حافلة أو سيارة تاكسي إلى مكان يحدد مسبقًا، وأن أتجاوز مبنيين سيرًا على الأقدام لأقابل ستيف. ومن هناك نواصل رحلتنا إلى البيت الآمن معًا.

في الليلة التي سبقت أول لقاء لنا في هذا المكان، تفحصت جميع خطوط الحافلات التي قد يتعين عليَّ اتخاذها، راجعت بذهني المعلومات التي زودني بها ستيف بشأن مراكز

التسوق على طول الطريق، أيها لديها أبواب خلفية، وأيها لديه نوافذ عاكسة كبيرة، وأين تقع المطاعم، كل هذا قد يساعدني إذا اضطررت إلى تفادي شخص يلاحقني، وكما تبين لي، فقد وضعت هذه التعليمات قيد الاستخدام على الفور.

عند أول موقف للحافلات في الطريق إلى الاجتماع، وقفت في الصف مع مسافرين آخرين، تأكدت من رقم الحافلة من جدول مواعيد مطبوع، تلفت حولي لمطالعة إشارات الشوارع، وتفحصت خريطة وطابقتها على الجدول، بدوت وكأنني سائح، وقبل أن أصعد إلى الحافلة، سألت السائق عن عدد من خطوط الحافلات، وقد تنحيت جانبًا كي أسمح للركاب الآخرين بالصعود.

كان ثمة رجل يرتدي قبعة بيسبول يتلكأ خلفي، يحمل صحيفة ملفوفة بيد ويده الأخرى في جيبه. منظره أطلق جهازي الراداري.

«هل تنقلني هذه الحافلة إلى فوكس هيلز»؟ سألت السائق، وأنا أفكر بسرعة.

«فوكس هيلز»؟ سأل السائق وكأن سؤالي بلا معنى. «أنت على الجانب الخاطئ من الشارع، أيها الشاب. خذ الحافلة على الجانب الآخر».

«شكرًا لك».

عبرت الشارع إلى الاتجاه الآخر وركبت حافلة انطلقت في اتجاه معاكس، لكن الرجل مرتدي قبعة البيسبول تبعني، ما أطلق شحنة من الأدرينالين في أنحاء جسدي كافة، وأنا أبذل جهدي كي لا أنظر إليه. في اجتماعات سابقة مع ستيف، علمني بعض (حيل الجواسيس)، من ضمنها كيفية تضليل من يتبعك بشكل غير مكشوف، بذلت جهدي لتذكر دروسه الآن، نزلت من الحافلة عند مول فوكس هيلز وتجولت في أنحاء السوق، باحثًا في انعكاسات زجاج النوافذ عن الرجل ذي القبعة، بقلب يخفق بقوة، دخلت مكتبة، تناولت مجلة ووقفت أقرأ فيها لوهلة بينما كان لابس قبعة البيسبول يتجول ذهابًا وإيابًا وسط ممرات المكتبة، بعد وقت، أعدت المجلة إلى الرف وغادرت المكتبة.

قمت بتدابير تضليلية أخرى، لكن بعد كل مرة، كنت أجد أن لابس القبعة لا يزال هناك. أخذ عقلي يسابق التداعيات. ينبغي عليَّ الاتصال بستيف. وجدت كشك تلفون في المول وطلبت رقمه، لكن دون مجيب.

وضعت الهاتف، وتأكدت من الرقم، وطلبته مرة أخرى. كان لابس القبعة عبر المول يتحدث مع سيدة عجوز، بدا وكأنه يسألها عن الاتجاهات، بينما كانت السيدة تشير شمالا ثم غربًا، هز لابس القبعة رأسه بينما تواصل رنين الهاتف.

اللعنة ستيف، ارفع السماعة.

شعرت بالإحباط، وكنت على وشك وضع السماعة حين دخل ستيف أخيرًا على الخط.

«ستيف، أنا ولي. هناك من يتبعني». «يتبعك»؟

«هذا الشخص تبعني من موقف الحافلات إلى مول فوكس هيلز».

«حسنًا ولي، اهدأ، وعد إلى الفندق». «لكن ماذا إذا تبعني إلى هناك»؟

«افعل كما علمتك وحاول أن تضلله، وسوف أتصل بك في غضون بضعة أيام لتحديد موعد اجتماع آخر».

كنت على وشك طرح سؤال آخر، لكن ستيف كان قد أنهى المكالمة. جعلني هذا أشعر بأني وحيد وضعيف، ربما كان ينبغي أن ألغي المشروع كله والعودة إلى الوطن. إذا كان عمل الجواسيس بهذا القدر من الخطورة في أميركا، فإلى أي مدى ستصل خطورته حين أعود إلى طهران؟

حين خرجت من المول، وجدت لابس القبعة عند موقف الحافلات، ينتظر على الأغلب قيامي بالحركة التالية. اقتراح ستيف بأن أعود إلى الفندق لن ينجح؛ لذلك عدت إلى المول وانسللت داخلًا وخارجًا من متاجر عدة، محاولًا في النهاية تجربة ملابس بشكل عشوائي في غرفة ملابس (شركة ماي) مدة عشرين دقيقة، وحين خرجت، كان لابس القبعة قد اختفى، يبدو أن أساليب التملص التي علمني إياها ستيف قد نفعت.

شعرت بالراحة والرضا، وقررت، بدلًا من العودة إلى فندقي، أن أذهب إلى تارزانا، حيث تقيم عمتي جيتي، هل ثمة طريقة أفضل للتخلص من ضغوطي من التصرف بطريقة طبيعية بقدر الإمكان؟

تعيش عمتي جيتي في ضاحية معظم سكانها من المغتربين الإيرانيين، بعضهم مقيم هناك منذ مدة طويلة مثل عمتي، وكثيرون فروا من إيران عند وصول الخميني إلى السلطة. ركبت سيارة أجرة إلى وادي سان فيرناندينو وطلبت من السائق إنزالي على بعد مبنيين من منزل عمتي كي أسير باقي الطريق وأراقب إن كان هناك من يتبعني.

«أدخل يا عزيزي»، هتفت عمتي بالفارسية حين رأتني عند الباب، سماعها تتكلم الفارسية بكل هذه المودة في صوتها أثار فيَّ الشوق، وذكرني بالأيام الهانئة السابقة في كاليفورنيا يوم لم أكن مضطرًا لأن أكذب أو أتلفت خلفي، أشعرني بالحنين إلى البيت الذي كان لي ذات يوم، اصطحبت عمتي إلى مطعم فارسي قريب في شارع فينتورا، مكان شعبي يتجمع فيه الإيرانيون. لا يهمني إن تبعني أحد هناك. فأنا مجرد زائر إيراني آخر يقوم بمهمة عائلية، وكان ذلك أكثر شعور طبيعي أحسسته منذ أيام.

بعد الطعام، ناولتني عمتي جيتي نشرتين كان طبيبها قد أعطاها لها تشرحان تطور مرض باركنسون لديها، «رضا، أخشى مما سيفعله هذا المرض الخبيث بي، لكني توصلت إلى القبول به. يصعب عليَّ وداع جميع معارفي هنا، لكني سأكون سعيدة وآمنه إذا انتقلت إلى دار للمساعدة».

لم أكن مقتنعًا بقدر ما كانت مقتنعة، وبالرغم من أن أحد أسباب قدومي إلى أميركا كان نقل عمتي إلى مكان إقامة جديد، تساءلت في داخلي إن كان هذا هو الأفضل بالنسبة لها، «لكن يا عمة جيتي، جميع أفراد عائلتك موجودون في إيران. يجب أن تكوني بينهم. سنعتني بك. أنا شخصيًّا سأعتني بك...».

قاطعتني بهز رأسها: «لا تفعل يا رضا. لا تصعب الأمور عليَّ. أنت تعلم بأني لن أعود أبدًا إلى إيران. الأمور لم تعد كما كانت هناك». تمالكت نفسها قبل أن تزداد حدة النقاش، ابتسمت، وواصلت: «أتمنى لو أن والدك كان حيًّا ليرى أي رجل رائع أصبحت عليه».

عرفت عندها أن قرارها الانتقال إلى دار رعاية كان نهائيًّا، وأن مناقشة خيارات أخرى سيكون محزنًا لكلينا. فعلت كل ما في وسعي لجعل الأمر أسهل عليها، استغرق الأمر بضعة أيام لترتيب انتقالها وعرض بيتها للبيع.

حين أوصلت عمتي إلى دار الرعاية، ناولتني صورة لها ولوالدي على جسر جولدن جيت: «هذا أول صيف قضاه والدك هنا. حين جاء إلى أميركا، قال لي إنه يريد رؤية ذلك الجسر أكثر من أي شيء آخر» حاولت أن تبتسم بصعوبة. فقد كان الابتسام صعبًا بالنسبة لها بسبب مرضها، «وبعد أن رأى ذلك الجسر الرائع، قال لي إنه يريد أن يصبح مهندسًا، وهذا ما أصبح عليه، كان من ذلك النوع من الرجال؛ حلم بشيء وعمل على تحقيقه».

أغلقت عينيها للحظة طويلة قبل أن تواصل: «بعد أن عاد إلى إيران تزوج من والدتك، وطبعًا ولدت أنت. استمر في الكتابة إليَّ والتحدث عنك، رضا. قال لي إن لديه أحلامًا عظيمة لك. لقد أحبك كثيرًا». عند هذا الحد، فقدت السيطرة على نفسها وانفجرت باكية واحتضنتني بقوة. «أنا سعيدة لأنك جئت رضا. أنا فخورة جدًّا باهتمامك بحيث إنك تركت زوجتك لمساعدة عمتك المريضة. كان والدك محقًّا، أنت شاب رائع». سندتها لمدة طويلة بينما كانت تبكي. ثم ساعدتها على الاستقرار في بيتها الجديد، ووعدت بأن أزورها مجددًا قبل العودة إلى إيران. بعد أن تركتها، لم أستطع منع شعور بالخجل تملكني. صحيح، أني حضرت لمساعدتها في وقت حرج من حياتها، لكني استخدمتها كستار لأنشطتي الحقيقية في الولايات المتحدة، فهل كانت ستعتبرني ذلك (الشاب الرائع) بالنسبة لها لو أن احتياجاتها لم تكن تتماشى بسهولة مع أجندتي الأكبر؟

احتاج ستيف لجزء لا بأس به من الأسبوع لتحديد موعد اجتماع آخر، في طريقي لموعدنا لاحظت الرجل نفسه مجددًا، لكنه يرتدي ملابس مختلفة وقبعة مختلفة، تنقلت بين حافلات عدة، وتمكنت من التملص منه في آخر نقلة لي، تركني هذا بإحساس أني أنجزت شيئًا، وإحساس أقوى من التوجس. شككت أن الحرس الثوري يعرف بالفعل عن اتصالي بوكالة المخابرات المركزية؛ فإن كان هذا صحيحًا، فإن أسرتي في خطر عظيم.

لكنـي حيـن قابلت سـتيف فـي نقطة لقائنـا داخل سـيارته، كان مبتهجًـا: «أهنئك! على استخدام تكتيكاتك للتخلص من عميل ماهر».

«عفوًا»؟

«لقد وكلت أحد رجالنا بمتابعتك لمعرفة إن كنت تستطيع التنبه له والتخلص منه دون خـوف، لقـد تصرفت كمحترف. أنت تتعلم دروسـك بشـكل جيـد، ولي. ابق متنبهًـا دائمًا ولا تتخل عن حذرك. فسوف تعيش عمرًا أطول».

لم أكن في الواقع بحاجة لذلك التذكير.

بعد عشـر دقائق من قيادة السـيارة عبر منطقة باسـيفيك باليسادس، صعدنا من لاس فلورس كانيون إلى طريق بيوما ثم البيت الآمن. كانت واحدة من أجمل الرحلات التي قمت بهـا بالسـيارة، كانـت أشـجار ألكينا تصطف على جانبـي الطريق ذي الاتجـاه الواحد، الذي يرتفـع بسـرعة نحـو قمة الجبل، في نهايـة الطريق التي تصل إلى البيت مـن الجهة الخلفية، تكشف منظر رائع يطل على المحيط الهادئ المتلألئ مع جزر شانيل إلى الجنوب وصولًا إلى جزيرة كاتالينا وشـبه جزيرة بالوس فيردي إلى الجنوب، خرجنا من السـيارة واقتربنا من منزل خشبي على شكل حرف A واجهته الأمامية من الزجاج.

لم يكن في البيت سوى القليل من الأثاث، لكن المنظر الرائع كان مسليًّا، أنساني مؤقتًا سبب وجودي هناك، ثمة أماكن عدة في بلدي بهذا الجمال، التفكير بها عزز تصميمي، أريد أن تبقى إيران جميلة إلى الأبد.

أجلسني ستيف وباشرنا العمل، سرعان ما نسيت إعجابي بالمكان، سجل ستيف الكثير من الملاحظات ونحن نتحدث عن الحرس الثوري: كيف شـكَّله النظام لحماية البلد والثورة وتحييـد الجيش النظامـي -والمتعاطفيـن الكثـر معه- الـذي كان يعمل في ظل الشـاه، وعن تدريبه، وحجم قواته، وتسليحه.

«أعرف العديد من أفراد الحرس الذين كانوا يسافرون من وإلى لبنان عبر سوريا»، قلت له، «كانوا يتذمرون من جبن الشيعة المسلمين في لبنان الذين يقاتلون ضد الاحتلال الإسرائيلي. لم يكونوا راضين عن حصيلة القتلى الإسرائيليين».

«وما هي مشاركة الحرس في لبنان»؟ سأل ستيف.

«قدموا التدريب، والسلاح، والمال، والأهم من ذلك، فكرة الاستشهاد».

اعتدل ستيف في جلسته، «خبرني المزيد عن هذا الأمر».

«يقوم الملالي في الشرق الأوسط بغسل أدمغة الشبان المسلمين وغرس فكرة أن التضحية بحياتهم من أجل الإسلام هي مجد عظيم، ويعدوا الذين يختارون الاستشهاد بأعلى المناصب في الجنة إلى جانب النبي والأئمة العظام».

قال ستيف بأن وكالة المخابرات المركزية كانت قلقة من أن الخميني يمد خيوط سيطرته إلى الدول المجاورة، فأبلغته بأن الخميني أنجز بالفعل هذا الهدف، وقد أسس الحرس الثوري مراكز قيادة في كل من سوريا ولبنان، يديرون ويقودون مختلف المجموعات المتطرفة، ويشجعون المجندين الجدد على القيام بأنشطة إرهابية بهدف الفوز بالشهادة، حتى في الأماكن التي لا يسيطر فيها الخميني على الحكومات، فإنه يتحكم بقلوب وعقول المتحمسين المحبطين الذي يريدون استعادة أمجاد الإسلام الماضية بالقوة، الخميني ليس مجرد القائد العلى لدولة واحدة؛ فقد أعلن نفسه بأنه رئيس الدين الصحيح الذي اختارته العناية الإلهية لتولي الأمور وتلقي الأوامر من الله مباشرة.

«كل من يتحدى الخميني أو أي من الملالي الحاكمين يعد (محاربًا)، يشن حربًا على الله؛ لتتولاه محاكم الثورة. يعتقد هؤلاء أن تعذيب المعارضين لانتزاع الاعترافات أمر مقبول، وإذا مات سجين خلال التعذيب فإن هذا منصف وعادل، ويقع ضمن ما تنص عليه الشريعة الإسلامية؛ الفتيات العذراوات يُغتصبن قبل إعدامهن حتى لا يدخلوا الجنة، المتظاهرون المسلحون يقتلون على الفور، ليس هناك أي استثناءات، حتى للجرحى. آلاف (المحاربين) أعدموا دون اتباع الإجراءات القانونية أو إعطائهم فرصة للدفاع عن أنفسهم».

هز ستيف رأسه ثم نظر إليَّ بتعبير غريب.

خمنـت مـا طرأ على فكره. فقلت: «هؤلاء هم النـاس الذين سـوف أتعامـل معهم إذا ما قبض عليَّ». ابتسم بامتعاض.

مضيـت أشـرح كيـف وضعـت المرافـق والقنوات الدبلوماسـية السـورية تحـت تصرف الحرس الثوري، بأمر الخميني، كانت الطائرات، الواحدة تلو الأخرى، تنقل الأسلحة والأفراد إلى سوريا لتعزيز إقامة دولة إسلامية جديدة، وغالبًا ما كانت سيارات الحرس تحمل لوحات دبلوماسـية سـورية بحيث يمكنها العمل في لبنان دون تدخل، وفي أوقات أخرى كان الحرس ينقلون بسيارات دبلوماسية سورية، هذه الجهود خلقت حزب الله الذي نما بدعم مالي كامل من إيران، وسرعان ما أصبح قوة رئيسة في لبنان.

واصل ستيف إمطاري بالأسئلة، وأخذي في اتجاهات مختلفة؛ الحوار حول مكان عملي انتقـل إلى أسـئلة عن أصدقائي وأسـرتي، عن دراسـتي في الولايات المتحـدة، ثم العودة إلى إيران والحرس الثوري. وهذا قاد إلى مناقشـة حول الذين عملت معهم، وفي النهاية ذكرت موضوعًا صعبًا بالنسبة لي: كاظم. أخبرت ستيف عن طبيعة العلاقة وسبب بقائنا كأصدقاء، بالرغم من أن الأمور بيننا لم تعد كما كانت في السابق.

«هـل تعلـم، سـتيف، لـم أعد أعرف إن كان في وسـعي أن أثق به بعد الآن، أشـك في أنه مشترك في اعتقال ناصر، أردت ترك الحرس بعد ما حدث لناصر والابتعاد عن كاظم، لكني قررت البقاء لحاجتي إليه لمسـاعدتي في مهمتي، لديه الكثير من الاتصالات وهو قادر على تحقيق الكثير».

أخبرت سـتيف عن طفولتنا، كان يبتسـم حين كنت أخبره عن الأعمال الصبيانية التي كنـا نمارسـها، لكن مع اسـتمرارنا في الحديث، بدأ يفهم كيف اتخـذت الصداقة منحى آخر فـي إيـران حيـن تعارضت الإيديولوجيات. فـي أميركا يمكن لأي صديقيـن أن يحملا وجهات نظر سياسية مختلفة وقد لا يصل الأمر بينهما لأكثر من نقاش محتدم. في إيران، قد يصل الأمر حد اعتقال وقتل الصديق مع جر شقيقه وشقيقته إلى السجن كإجراء احتياطي.

إحساس ستيف بحزني لرواية هذه الأمور، جعله يقترح عليَّ التوقف لهذا اليوم، قدرت له ذلك، كنت متعبًا وبحاجة لإنعاش نفسي، خططنا لاجتماع آخر في اليوم التالي. في الفندق -تلك الليلة- شعرت بالراحة. التحدث إلى ستيف عن كاظم أزاح حملًا ثقيلًا عن كتفيَّ، الثقة بشخص آخر كان شيئًا لم أجربه منذ زمن.

المقابلات مع ستيف كانت تستمر لمدة أربع أو ست ساعات في كل مرة على مدى يقارب الشهر، لم أكن أنوي البقاء في أميركا كل هذه المدة، وكان عليَّ أن أكذب المرة تلو الأخرى عن (تعقيدات حالة عمتي جيتي) التي تبقيني هنا.

في آخر يوم لنا معًا، سألني ستيف عن أزمة الرهائن في السفارة الأميركية.

«إليك ما نعرفه»، قال وهو يسحب ملفًا وبدأ القراءة من تقرير فيه.

قاطعته بسرعة قائلًا: «كلا هذا غير صحيح».

«من أين لك هذا اليقين»؟

«كنت هناك».

«أنت كنت هناك»؟

«نعم».

«لكنك كنت عضوًا في الحرس حينها».

«طبعًا».

توقف لاستيعاب الأمر: «لم يكن الأمر إذن انتفاضة بعض الطلاب»؟

«ليس كذلك في الواقع، لم أعرف ذلك في حينه، لكن أمرًا صدر عن موسوي خوئينيها، وهو عضو متطرف من رجال الدين. طورت هيئة طلابية إسلامية خطة لاحتلال السفارة قدمها خوئينيها إلى آية الله الخميني للموافقة عليها».

فغر ستيف فاه: «كنت أعتقد أن الخميني لم يكن يعرف أي شيء عنها، كنت أعتقد أنه أيد الأمر بعد الواقعة».

هززت رأسي: «كاظم أخبرني فيما بعد أنه بمجرد أن وافق الخميني على الخطة، رتب الطلاب الذين يطلقون على أنفسهم (الطلاب الإسلاميون أتباع نهج الإمام)، المظاهرة. أفراد من الحرس والمخابرات ظهروا كطلاب اندسوا بينهم».

«لا أصدق ما أسمع!»

«كانت الخطة التظاهر ضد الولايات المتحدة لسماحها للشاه بالبقاء في أميركا، كان طلب المحتجين إعادة الشاه إلى إيران لمحاكمته، لكن في الحقيقة قام الملالي -بأمر من الخميني- بتعيين أفراد لتسهيل عملية السيطرة، حتى إنهم اختاروا اسم (وكر الجواسيس) مسبقًا، لكي يقوموا بعد السيطرة عليها بتقديم ذلك لوسائل الإعلام والادعاء بأن السفارة كانت مركزًا لأنشطة التجسس ضد نظام الملالي».

نظر ستيف في ملفه: «إذن أفضل معلوماتنا الاستخبارية كانت مخطئة».

«إنهم يضحكون عليكم ويصفونكم برعاة البقر، يشاهدون نشراتكم الإخبارية ويضحكون». «مدهش»، قال ستيف وهو يسجل بعض الملاحظات، «ما هو هدفهم النهائي من هذا العمل»؟

«الخميني يكره أميركا، وهو يريد قطع العلاقات معها، وفي الوقت نفسه جعلها تبدو ضعيفة في عين العالم، وهذا سيعزز مكانة المتطرفين داخل إيران ومعاقبة الرئيس كارتر؛ لأنه سمح للشاه بالإقامة في الولايات المتحدة، لقد احتفظوا بالرهائن مدة تكفي لضمان خسارة كارتر للانتخابات، الخميني بفعله هذا ذهب لما هو أبعد من عزل ملك إيران، أسقط رئيس قوة عظمى، هل ثمة دليل أعظم على أن الخميني هو يد الله على الأرض»؟

فهم ستيف ما أريد قوله، إإنهم يصدقون حقًا هذا الهراء، أليس كذلك»؟

«في الواقع يصدقونه».

خضنا بعد ذلك في مناقشة طويلة حول فروع القوات المسلحة الثلاث التي تشكلت بعد الثورة في إيران، الحرس الثوري، والشرطة الدينية (ألكميته)، والباسيج. قامت منظمة التحرير الفلسطينية بتدريب بعض من قادة الحرس، ونشط هؤلاء في حرب العصابات في لبنان قبل الثورة. كان ستيف يكتب بسرعة وأنا أروي تفاصيل منظمة الحرس الثوري، حتى أني وضعت تصورًا للوحة تنظيمية لمختلف الضباط ومسؤولياتهم، ثم تحدثت عن الشرطة الدينية، التي شكلها الملالي، ووظيفتها توفير الأمن وضمان الالتزام بالسلوك الإسلامي الملائم، وأخبرته عن الباسيج، أو جيش الشعب، القوة شبه العسكرية المكونة من متطوعين مراهقين فاسقين نشروا في مختلف المدن الرئيسة لمواجهة أي انتفاضة من قبل السكان. جند النظام معظم عناصر الباسيج من أسر فقيرة في المدن والقرى، وعلموهم فضائل الاستشهاد، ووفروا لهم قدرًا قليلًا من التدريب، وزودوهم بالرشاشات لإرهاب الناس في المدن. معلومات ستيف عن المنظمتين كانت ضئيلة للغاية.

أخبرته عن حادث تسبب به عناصر الباسيج وطال طبيبًا بارزًا وعائلته وهم من سكان حينا. ينتشر الباسيج في أنحاء المدينة كافة خاصة في الليل، ويقيمون الحواجز ويفتشون السيارات بحثًا عن أسلحة أو أعضاء مجاهدي خلق. وفي الوقت نفسه يطلبون من الناس الالتزام بالسلوك الإسلامي الصحيح. مثال ذلك: أي رجل وامرأة يركبان سيارة واحدة يجب أن يكونا متزوجين أو أفراد من الأسرة نفسها. قد يوقف عناصر الباسيج السيارات بشكل عشوائي لاستجواب ركابها، بينما يتخذ اثنان آخران موقعًا لهما خلف الأشجار.

اصطحب هذا الطبيب زوجته وابنتاه المراهقتان لتناول طعام العشاء حين أوقفتهم عناصر الباسيج في طريق عودتهم إلى المنزل. كان عناصر الباسيج المراهقون وقحين ومهينين لزوجة الطبيب وبناته. اعترض الرجل على الإهانات وصفع أحدهم دفاعًا عن نفسه وعائلته. في مطلق الأحوال، كان يفترض في الباسيج، وهم من الفتية صغار السن، إبداء بعض الاحترام لهذا الرجل الموقر. حين صفع الطبيب عنصر الباسيج، قام الآخرون خلف الأشجار بإطلاق النار، وقتلوا الرجل أمام أفراد أسرته.

في أثناء روايتي لهذه القصة، عاودني الغضب الذي شعرت به عند سماعها أول مرة. حين انتهيت، دلك ستيف يده التي يكتب بها وقال: «ولي، لقد غطينا الكثير، دعنا نسترح قليلًا ونتناول بعض الطعام. علينا الابتعاد عن كل هذا لوهلة».

كان ستيف محقًّا، لم أدرك مدى شعوري بالاستنزاف، وكم أبذل من طاقتي العاطفية، إلا بعد أن استرحنا بعض الوقت، جلسنا في الشرفة وتناولنا الطعام في نسيم الظهيرة الدافئ. أخيرًا، ها أنا أخذ قسطًا من الراحة، فكرت في سمية ومدى اشتياقي إليها وتطلعي إلى رؤيتها مجددًا.

«إنك تبتسم، ولي. لماذا الابتسام- هذا ليس بالأمر الجيد».

من الأمور المطمئنة أنه لم يكن علي إخفاء شيء مما أفكر فيه، «كنت أفكر في زوجتي سمية. أتمنى لو كانت هنا الآن. فهي تحب الطبيعة والطقس الدافئ».

في تلك الأمسية، تحدثنا، أنا وستيف، عن أسرتينا. وناقشنا صعوبة الكذب على أحبائنا. زوجة ستيف تعتقد أنه مشرف على العقود مكلف بشراء أنظمة القياس عن بعد لإدارة الطيران الفدرالية، ما يوفر له التغطية اللازمة للسفر والغياب عن المنزل مدة طويلة، وقد اختار مهنة معقدة تقنيًّا تصعب مناقشتها مع أي شخص يعرفه جيدًا.

أخبرت ستيف بأني أعتقد أن سمية هي أجمل امرأة على وجه الأرض، ابتسم وأنا أخبره عن مدى ذكائها واهتمامها بي، وحين وصفتها بأنها «أجمل ملاك رأيته في حياتي». «إذن أنت أيضًا تؤمن بالملائكة»؟ قال ضاحكًا.

أحدثت الفكرة غصة في قلبي؛ ففي حين إنني أومن بالملائكة، فقد توصلت إلى الإيمان بالشياطين أيضًا. فقد رأيتهم في سجن إيفين.

«دعنا نعود إلى العمل»، قلت، «ما زال لدي الكثير لأخبرك به».

عدنا إلى صالة المعيشة، سحب ستيف دفتر ملاحظاته وقال إن علينا الانتهاء من عملنا سريعًا، طلب مني التركيز على مجالات أرى أنها الأكثر أهمية بالنسبة له، سيل من القصص والحقائق تدافعت في ذهني، كان هناك الكثير مما يجب قوله، ناقشنا (مؤسسة المحرومين)

التي استولت على ممتلكات الناس الذين كانوا يعملون لنظام الشاه، وهي مسؤولة عن الآلاف ممن فروا خارج البلاد خوفًا من الانتقام، وحيث إن الملالي لا يعترفون بالبهائية كدين رسمي، فقد أعدموا وسجنوا المئات من أتباعها، ومنعوا آلافًا آخرين من الحصول على عمل، أو تعليم، أو أي فرصة أخرى. استولت مؤسسة المحرومين على المصانع، والمنازل، والأرصدة في البنوك، والممتلكات الشخصية.

«هل تعلم حكومتك ماذا يفعلون بهذه الأموال»؟ سألت ستيف.

هز كتفيه نافيًا.

«يمولون المجموعات الإرهابية من خلال المنظمات الخيرية، ويشرف الحرس الثوري على جميع المعاملات».

«يا إلهي -ولي- هذه معلومات مهمة، أرجوك واصل الحديث».

«علمت من خلال كاظم وقائدي رحيم بأن الصينيين يوفرون التدريب العسكري لأفراد الحرس في قاعدة في الصين، وأن السوفييت يقومون بإنشاء جهاز الاستخبارات والبنية التحتية الأمنية للملالي، وهم مسؤولون عن إدخال التعذيب، واختبارات كشف الكذب، والحقن بمصل الحقيقة في سجن إيفين، وهذا المكان ليس لأعداء الدولة من الرتب العالية؛ بل حيث يذهب جميع المعارضين السياسيين، ابتداء من الصحفيين وانتهاء بالفتيات المراهقات».

«حقا تقول»؟

«هم لا يعاقبون الجرائم وحسب -ستيف- بل يعاقبون الأفكار، التعذيب ومصل الحقيقة هي طرق لمعرفة ما تفكر فيه حقيقة في قلبك».

«يبدو الأمر مثل محاكم التفتيش في أوروبا باستثناء أنه أكثر تطورًا ومنهجية»

«هذا الاتصال المباشر بين السوفييت والحرس... هل شاهدت هذا أم سمعت عنه فقط»؟

«شاهدت الملحقين العسكريين ورجال الأعمال السوفييت في أثناء قيامهم باتصالات عالية المستوى مع الحكومة الإيرانية في أثناء زيارتي وزارات عدة مع كاظم».

وضع ستيف دفتر ملاحظاته على طاولة القهوة، وتناول رشفة ماء، وعدل من جلسته، ونظر إليَّ: «ولي، ليس لديك فكرة كم كانت كل هذه المعلومات مفيدة لنا، صدقني، إننا نقدر جدًّا صراحتك هذه».

كان أمرًا مجزيًا بالنسبة لي أن يكون لما أقوله كل هذا التأثير، كنت أعلم أن لدي معلومات يمكن لوكالة الاستخبارات المركزية استخدامها، لكنني لم أدرك مدى جهل الولايات المتحدة بأنشطة (آيات الله) في الشرق الأوسط، إلى أن بدأ ستيف في استخلاص المعلومات مني، جعلتني الفكرة أدرك القيمة التي ستكون عليها مساهمتي، ومدى الوحشية التي ستنالني إذا قبضوا عليَّ، ذلك الصباح، خلال توجهي إلى المنزل الآمن، اعتقدت أن شخصًا يلاحقني.

«ستيف، هل كلفت أحدا بملاحقتي اليوم»؟ صمت: «لماذا تسأل»؟ «حسنًا، سبب تأخري كان لأني اعتقدت بأن هناك من يتبعني».

لم يقل ستيف شيئًا، بل حدق وحسب؛ هذا أقلقني للغاية؛ فبدأت بالحديث بسرعة لإخفاء توتري.

«في البداية اعتقدت أني واهم، لكن بعد القيام ببضع تحويلات، لاحظت أن من يلاحقني ما زال هناك، لقد استغرقني الأمر ساعة للتخلص منه».

في تلك اللحظة تحول ستيف إلى شخص آخر مختلف، أكد لي أن أيًا كان من تبعني ذلك الصباح فهو يعمل لمنظمة غير وكالة المخابرات المركزية، وقست كلمات وأصبح صوته صارمًا: «أريدك أن تدرك تمامًا العواقب إذا اتخذت الأمور منحى خاطئًا، ولي، حكومة الولايات المتحدة ستنكر أي علاقة بك، ولن تكون هناك أساطيل بحرية تهرع لإنقاذك، يؤسفني أن أكون بهذا القدر من الفظاظة، لكنها ضرورية جدًّا، هل أنا واضح»؟

استغرقني الأمر وهلة قبل أن أجيب. ربما أن لستيف شخصان داخله أيضًا: ستيف المعجب بي، وستيف الذي قد يضحي بي وبأسرتي من أجل قضيته.

«لقد فهمت».

تحول ستيف المفاجئ صدمني، وكذلك خبر أن هذا سيكون آخر لقاء لنا من هذا النوع، أخبرني أن تدريبي سيتواصل في لندن، وأن علي الخضوع لاختبار كشف الكذب، فاجأني أنه لم يطلب مني ذلك سابقًا، لكني خمنت أن الأمر أصبح مهمًّا الآن بالنسبة لوكالة المخابرات المركزية بعد أن أصبحوا على وشك أن يشركوني معهم ببعض أسرار التجسس.

ناولني قصاصة من الورق مع معلومات عن حلقة اتصالي الجديدة، حدقت فيها وتساءلت ما إذا كان تعاطف ستيف كان مجرد مصلحة مهنية قوية؛ ففي نهاية الأمر، قد يمنحه تدريب أبله إيراني على وشك أن يسلم أسرارًا خطيرة لدائرته سيسبغ عليه التقدير من زملائه ويعزز وضعه المهني، مهنته الأميركية المضمونة، الآمنة.

ابتلعت امتعاضي المتصاعد وذكّرت نفسي بما أنجزته حتى الآن بالإبلاغ عن الجنون لشخص قد يستطيع فعل شيء ما بالمعلومات، لقد أخبرته أمورًا لم أخبرها لأي شخص، وثقت به بشكل مطلق، وفي تلك اللحظة، وعلى الرغم من تغير موقفه، كنت متأكدًا أنه يثق بي.

أيامي في كاليفورنيا قاربت الانتهاء، لكن تدريبي لم ينته؛ الخطوة التالية سأذهب إلى إنجلترا، حيث سأتعلم بالفعل كيف أصبح جاسوسًا.

الفصل
12

تدريب على التجسس

أرخى العميل الذي كان يدير جهاز اختبار الكذب في فندق هاسيندا ربطة عنقه، وبدا أنه تعب بمقدار تعبي أنا، فقد استغرقه الأمر بضع ساعات من الاستجواب قبل أن يشعر بالرضا عن إجاباتي، فك الأسلاك عن جسدي، ووضب حقيبته، ثم تركني وحيدًا مع أفكاري، الصوت الوحيد في الغرفة كان صوت مروحة مكيف الهواء، شعرت أني مستنزف، ومرهق، ووحيد، أفكر في تحذير ستيف السابق لي وكيف أني غير محمي على الإطلاق. أردت العودة إلى سمية على الفور، لكني في الوقت نفسه، خشيت من مقدار الأذى الذي قد يسببه قربي منها لها، كنت أعرضها لخطر رهيب وخطيئتي الوحيدة هي حبي لها.

لم أشعر بأني بطل، شعرت بأني خائن، والأسوأ من ذلك، أني زوج سيئ.

ثم دخل ستيف -ستيف الودود- ورسم على وجهه ابتسامة عريضة، وهو يخبرني بأني اجتزت الامتحان بسهولة وامتياز، هذه المرة لم أبدي أي قدر من الحماس على افتخاره بي، في الفترة التي انقضت منذ آخر محادثة واقعية، لم يكن في وسعي التوقف عن التفكير في النظرة التي ظهرت على وجهه حين أخبرته عن شكي بأن هناك من كان يتبعني، نظرة تقول إن كان هناك من يلاحقك، فإن وكالة الاستخبارات المركزية لا تعرف شيئًا عنه.

«دعنا نتكلم عن الراتب»، قال باشًا، وفي اتجاه مختلف عما كنت أفكر فيه.

تفاجأت بذكره للنقود؛ لم نكن قد ناقشنا هذا الموضوع قبل الآن، كنت أعرف أن الجواسيس يتلقون تعويضات، لكن هذا الأمر لم يكن دافعي ألبتة؛ لذلك لم أفكر في سؤال ستيف عنه. عرض عليَّ ستيف مبلغ 2500 دولار شهريًا، ربما كان هذا الحد الأدنى وفق المعايير الأميركية، لكنه كان مبلغًا جيدًا حسب سعر الصرف في إيران، وافقت، حتى دون أن أفكر في التفاوض.

عرض ستيف بضع خيارات تتعلق بإيصال النقود لي، كان الأول تسليمها لي نقدًا، وهو ما رفضته؛ لأنه سيكون من الصعب علي تبرير امتلاكي لكل هذا القدر من النقود إذا عثر عليه معي، كان الخيار الآخر فتح حساب في بلد آخر بحيث تقوم إحدى الشركات التابعة لوكالة المخابرات المركزية بإيداع المبلغ في حسابي كل شهر، كان هذا مناسبًا لي، عرض تقديم إثبات على الإيداع يرسل إلى في أي مكان أريد، لكني رفضت. أردت التأكيد على أن تقوم علاقتنا على الثقة. أنه تثق وكالة الاستخبارات المركزية في تقديم معلومات مهمة لهم، وأن أثق أنا بقيامه إيداع النقود لي، اتفقنا على فتح حساب لي في لندن؛ وكان عليَّ أن أحفظ التفاصيل عن ظهر قلب.

ما إن انتهينا من حديثنا حتى نهض ستيف: «حظًّا طيبًا، ولي»، قال وهو يصافحني ويشد على يدي.

«شكرًا»، قلت بحماس أقل مما كنت أرغب، ودون النطق بكلمة أخرى، غادرت إلى فندقي.

لم أسمع عن ستيف أو أشاهده بعد ذلك اليوم.

بعد أن حزمت حقائبي، اتصلت بعملاء مكتب التحقيقات الفدرالي الذين اتصلت بهم في البداية لوداعهم، بدأت رحلتي في هذه الحياة الجديدة باتصال عشوائي مع هؤلاء الرجال، سواء للخير أو للشر، كنت الآن على وشك الشروع في المسار الذي بدأته عن طريقهم، رفع العميلان صوت الهاتف وكانا في غاية اللطف، تمنى العميل مانشيني بصدق أن يراني أعود إلى الولايات المتحدة قريبًا، وتمنى أن يوفقني الله في جهودي.

قبل أن أغادر، ذهبت لمشاهدة عمتي جيتي وتوديعها، مرة أخرى، أشادت بي وكيف أصبحت رجلًا طيبًا، مرة أخرى تركني هذا أشعر وكأني مخادع، احتضنتها بقوة قبل أن أغادر، وكانت تلك آخر مرة أراها فيها، فقد توفيت بعد ذلك بعدة سنوات، ولم تتح لي الفرصة لرؤيتها مجددًا.

قضيت ساعات رحلة الخطوط الجوية البريطانية الاثنى عشر أرقًا أمارس عملي الجديد وأفكر في ذهني فيما يتوجب عليَّ عمله، منذ الآن فصاعدًا سيتوجب عليَّ أن أعيش

حياة مزدوجة، سيواصل نصفي العيش كزوج محب مخلص وعضو مخلص للحرس الثوري. والنصف الثاني سيبلغ عن أي حقيقة مهمة تتعلق بالحرس، الأمر الذي قد يضع كل شخص أحبه في دائرة خطر مميت، ولم أكن متأكدًا من قدرتي على التوفيق بين هاتين الشخصيتين، صليت من أجل الهداية وأملت أن يكون لأعمالي معنى ما.

بدت لي لندن حين كئيبة وصلت ملبدة بالغيوم، وضبابية، ورمادية، مطابقة لمزاجي حينها، ذهبت إلى فندق (بارك إن) في هايدبارك حسب تعليمات وكالة الاستخبارات المركزية، يقع الفندق على الحافة الشمالية من هايدبارك، مع مدخل سهل إلى مترو الأنفاق في لندن، وضمن مسافة قصيرة من السير على الأقدام لمعظم المواقع السياحية. وهو قريب من قوس الرخام، قرب موقع مشانق تايبرن، حيث كانت تجري عمليات إعدام مريعة -للكثيرين من مناهضي الحكومة- قبل قرون. الجانب الساخر من هذا المكان لم يغب عني.

كنت أمر بجانب القوس الرخامي كل يوم تقريبًا في كل مرة أخرج فيها، علمت أن عمليات الإعدام أشاعت بين الناس تعبيرين إنجليزيين مألوفين. عبارة: «واحد للطريق»، وتعود إلى أن منفذي عقوبة الإعدام كانوا يسمحون للمدان بالحصول على كأس أخير من الشراب من أي حانة للجعة على الطريق إلى مشانق تايبرن. التجربة نفسها قادت إلى عبارة «على العربة»؛ لأنه ينبغي على الحراس الذين يراقبون السجين ضرورة البقاء على العربة التي تقل السجين في أثناء تناوله لشرابه الأخير، ولا يسمح لهم بالشرب في أثناء وظيفتهم.

حين استقريت في فندقي اتصلت بوالدي سمية، وأخبرتهم أنه نظرًا لأن خط رحلتي يمر عبر لندن، فقد قررت البقاء مدة أسبوع لمقابلة بعض الأصدقاء القدامى وزيارتهم.

وجدت بعض الراحة في التحدث معهم عن سمية، كان التفكير في زوجتي يدفعني دائمًا إلى الابتسام، بالرغم من أني لم أعد أستطيع التفكير فيها دون التساؤل عن المستقبل الذي خلقته لنا، والأكاذيب التي سأعيشها، سألني أهلها عن الأصدقاء الذين سأراهم -كذبة أخرى لم أحضِّر لها مسبقًا- وألحوا عليَّ أن أقيم معهم، وقد انزعجوا حين اعتذرت بأدب، لكني تمسكت بموقفي، فما كان في وسعي أن أجعلهم يشكُّون في ذهابي وإيابي.

لم أكن بارعًا في إقناعهم بأعذاري، ما جعلني أشكك مجددًا في مدى استعدادي لحياة الجاسوسية، إن لم أستطع الخروج بكذبة مقنعة لوالدي زوجتي، فكيف سيكون أدائي ككذاب محترف تحت سمع وبصر الحرس الثوري الذي يبحث عن الجواسيس في كل زاوية بكل ما في الكلمة من معنى؟

بعد ذلك ذهبت إلى كشك هاتف عمومي واتصلت بحلقة الاتصال الجديدة، بعد بضعة ساعات وصلت إلى غرفتي في الفندق امرأة عذبة الصوت، قدمت نفسها على أنها كارول، أميركية ضئيلة الحجم ترتدي زيًّا بنيًّا مع حذاء عالي الرقبة يصل حتى الركبة، افترضت أنها ترتدي هذه الملابس لتنسجم مع المتسوقين الراقين في بارك أفنيو أو شارع أكسفورد، أعجبت بكارول على الفور، كانت هادئة ومحافظة، ووجدت أن وجودها يبعث على الطمأنينة، ازداد هذا الشعور قوة حين تحدثت معي بالفارسية، الأمر الذي فاجأني وأشعرني بالدفء.

«كما تعلم ولي، عشت في إيران مدة من الزمن مع والداي حين كنت أصغر سنًّا»، قالت حين شاهدت رد فعلي: «كان والدي ملحقًا عسكريًّا».

كان لهذا الأمر أهمية عظيمة بالنسبة لي، فهو يعني أن في ذهنها صورة جيدة عن الحياة في إيران قبل الثورة، وسوف تتعاطف مع ما فقدنا.

«لديَّ العديد من الذكريات في إيران»، قالت، ثم أضافت: «الإيرانيون مضيافون للغاية، كونت صداقات جيدة هناك، أنا ممتنة للوقت الذي قضيته في بلدكم»، تحدثت عن أماكن زارتها، ما جعلني أشعر وكأني أحادث صديقًا قديمًا ونستذكر ما فعلنا في أثناء افتراقنا عن بعض، بالطبع كان هذا مجرد سراب؛ فكارول لديها ملفي الكامل، وتعرف كل ما يجب عليها معرفته عني وسبب وجودي هناك.

بالرغم من معرفتها اللغة الفارسية، إلا أن معظم حديثنا دار بالإنجليزية، كان قد مضى علينا معًا ما يزيد عن الساعة حين اختفت ابتسامتها ونظرت في عيني.

«ولي، لست مجبرًا على القيام بهذا، يمكنك التراجع على الفور ولا بأس في ذلك».

قولها هذا فاجأني، كنت أشعر، منذ آخر لقاء لي مع ستيف، أن لا مجال للتراجع، لكن ما قالته كارول كان صحيحًا، إذا أردت الانسحاب، فإن في وسعي القيام بذلك من دون عواقب؛ مفترضًا بالطبع أن الحرس لم يتنبه لأنشطتي، إلا أن حقيقة أن في وسعي الانسحاب مهمة، لم تكن مهمة.

«أنا مشارك في هذا، كارول. ينبغي على القيام بذلك، قراري حازم، ونهائي».

رقت تعابير كارول: «كان لديَّ شعور أنك ستقول هذا».

استعرضنا الجدول الزمني للتدريب، وشددت كارول على أهمية اتخاذ الاحتياطات كافة للمحافظة على أمن وسرية وجهاتي، تضليل أي شخص في لندن أسهل مما في لوس أنجلوس، لكن ما زال عليَّ أن أكون حذرًا.

كان والد ووالدة سمية يقيمان في ضاحية مايفير، وهذا ملائم بالنسبة لي، حيث إن البيت الآمن يقع في المنطقة ذاتها، كما تتوافر وسائل عدة للوصول إلى هناك: سيارات الأجرة الموجودة في كل مكان، ومترو الأنفاق، أو حتى السير عبر هايدبارك أو خلال بارك أفينيو. اعتدت المشي لأنه يتيح لي التجول كسائح ومشاهدة الأماكن المحيطة المميزة لجمعها بين الهندسة المعمارية القديمة والحديثة. إذا اشتبهت بوجود من يلاحقني فسوف أغير طريقي قليلًا وأذهب لزيارة حماي وحماتي، كانوا دائمًا يسعدون برؤيتي، بالرغم من أنه يعني أيضًا تحمل مناشداتهم أن أقيم معهم وإطلاق أعذار واهية عن عدم قدرتي تلبية ذلك، الوصول إلى البيت الآمن يمر عبر ممر مليء بالدكاكين الصغيرة ملحق به شقق، كان من السهل التواري في واحدة من تلك الدكاكين لإخفاء وجهتي.

طلبت مني كارول مقابلتها في مقهى في ضاحية مايفير، أصابني هذا بالعصبية بطريقة غير متوقعة ألبتة، أكثر من خشيتي أن يراني أحد عملاء الحرس، كنت أخشى أن يراني حماي أو حماتي مع كارول، كيف لي أن أفسر وجودي مع امرأة أخرى؟ بالرغم من أنها أكبر مني بعشر سنوات على الأقل، فإنها ستجعل والدا سمية يرفعان حواجبهما استهجانًا.

ذهبنا من المقهى إلى البيت الآمن على الفور، لم أسألها عن سبب ذهابنا إلى المقهى أولًا لشعوري بضرورة أن أثق بها، حين وصلنا إلى البيت الآمن قالت: «هل أنت جاهز لأول حصة تدريب»؟

«أنا منفعل قليلًا، لكن سأكون على ما يرام»، رددت، وأنا متخوف بعض الشيء. لكن في الواقع كنت أشعر بالإثارة بقدر ما كنت قلقًا، فكرت في أفلام جيمس بوند وتوجب عليَّ أن أبتسم حين فكرت في قيامي بدور سين كونوري أو روجر مور، كانت اللحظة الأولى منذ زمن حين بدا لي أن هذه الحياة لا تشكل عبئًا بالنسبة لي.

وجدنا في البيت أميركيان في انتظارنا، دافيد، وهو شاب مهمته تعليمي كيف أكتب رسائل إلى كارول من الوطن، وجو وهو في منتصف الأربعينيات ومهمته تعليمي كيف أتلقى الرسائل المشفرة من وكالة المخابرات المركزية، عملت مدة نصف نهار مع كل واحد منهما، تبين لي أن لا شيء في تلك الحصص يشبه أفلام جيمس بوند، فلم أحصل على قلم سحري أو ساعة متعددة المهمات.

«أنت تستوعب هذا بسرعة»، قال دافيد بعد أول حصة لي معه، ووجدت أن من الأسهل عليَّ تصور كيفية إرسال الرسائل أكثر من تعلم كيفية تلقيها.

ذكرتني الحصص بأيام الذهاب إلى المدرسة، في الأيام التي تلت أعطاني المدرب درسًا ثم اختبارًا لمعرفة مدى استيعابي لدروسه، في حين بدا الاختبار في البداية صعبًا ومربكًا، إلا أني التقطته بسرعة واكتشفت أن لديَّ ميلًا طبيعيًّا لحل الشفرات، بالإجمال استغرق التدريب أقل من أسبوع، زودني بمهارات جديدة، مع قلق جديد جاء من امتلاك تلك المهارات.

في الامتحان النهائي «الذي يجب عليَّ النجاح فيه، تلقيت رسالة مشفرة»، «مرحبا بك في وكالة المخابرات المركزية ولي، ستكون كارول حلقة الاتصال من الآن فصاعدًا، وسوف تعنى بك بشكل جيد»، حين فككت رموز الرسالة، عرفت أني أتقنت هذه المهارة مع جو، تحداني بعدها دافيد أن أرد باستخدام الطريقة التي علمني إياها.

«يسرني الانضمام إلى وكالة المخابرات المركزية، أتطلع قدمًا للعمل مع الوكالة للمساعدة على تحرير بلدي من الطغاة»، رددت برسالة مشفرة. فكها دافيد ثم صافحني.

«أنت ولدت لهذه المهنة»، قال وكأنه يهنئني: «سعدت كثيرًا بالعمل معك»، ناولني رزمة تحتوي على جميع الوثائق التي قد أحتاجها للاتصال وودعت المدربين كليهما.

رافقتني كارول إلى الباب ووضعت يدها على كتفي: «كن حذرًا، ولي».

هززت رأسي: «سأفعل». «لا تفعل أي شيء قد يجلب الأذى لك أو لأسرتك».

ابتسمت لها ابتسامة حائرة: «هذا نوع من التحدي في إيران هذه الأيام».

«تذكر ولي، إذا احتجت أي شيء فأنا موجودة لأجلك، ما عليك إلا أن تخبرني برسائلك، سأفعل كل ما في وسعي لإرشادك برسائلي». عدت إلى الفندق لحزم أمتعتي. بعد غياب قارب الشهر والنصف، كنت في طريقي إلى الوطن، سأعود مختلفًا عما كنت حين غادرت، بكل ما في الكلمة من معنى، ما إن بدأت في حزم أمتعتي، حتى اجتاحتني موجة من العواطف دون سابق إنذار، بدأت أنتحب. جلست على السرير إلى جانب حقيبتي، أمسح الدموع عن وجهي. كان من السهل عليَّ نسبيًّا أن أحافظ على تصميمي خلال استنطاقي وتدريبي، أما الآن وأنا في طريق العودة إلى طهران، فقد سيطرت عليَّ قوة الأمر الذي وافقت أن أصبحه، ومن اللحظة التي تطأ فيها قدمي أرض بلدي، سيتحتم عليَّ أن أعيش خارج العالم المحيط بي، وبالرغم من أني سأشارك في حياة الناس الذين يحبونني، فسوف أكون، ومن نواح عدة، وحيدًا.

استلقيت على السرير، بالرغم من معرفتي أنني لن أكون قادرًا على النوم. وفي محاولة لاستجماع قوتي، فكرت في ناصر وكيف أنه شهد الدمار الذي نزل بشقيقته وشقيقه، فكرت في رويا والإذلال الذي تعرضت له من رجال بلا روح، فكرت في الخميني، الذي وصف نفسه بأنه ممثل لله، مع أنه متعطش جدًّا للسلطة، وجشع بحيث إنه تسبب في أكثر الأعمال وحشية اقترفها باسم الله.

لم تساعدني أي من تلك الأفكار، لم أستطع التخلص من حقيقة أنني أقنعت نفسي بأن خياري الوحيد كان أن أصبح خائنًا لوطني.

وافقت على إعطاء الأميركيين أسرارًا حساسة، وفي حين كنت أومن بأن لدى أشخاص مثل ستيف وكارول نوايا طيبة، فلم يخامرني أي وهم بخصوص سياسات أميركا الخارجية، تلك السياسات تسببت بآلام في العالم وخاصة في الشرق الأوسط، المثير للسخرية أن وكالة المخابرات الأميركية -رب عملي الجديد- كانت مسؤولة عن التخطيط لانقلاب عرف باسم العملية أجاكس في العام 1953م الممولة من الحكومتين البريطانية والأميركية، والتي أطاحت برئيس الوزراء المنتخب ديمقراطيًّا في إيران، الدكتور محمد مصدق، المسؤول عن تأميم الصناعة النفطية وإزالة احتكار بريطانيا للنفط الإيراني، كما أن وكالة المخابرات المركزية ساعدت على إنشاء جهاز السافاك، الذي عذب وأعدم المعارضين. نموذج السافاك في معاملة السجناء تواصل في سجن إيفين في ظل الخميني؛ لذلك، فإن المنظمة ذاتها التي استأمنتها على أسراري ساهمت بالفعل في الفظائع التي أحاول وضع حد لها، فهل يغيروا مسارهم هذه المرة ويساعدوني على أن أساعد بلدي؟

اعتقدت أنهم سوف يساعدونني لسببين: الأول: هو أنه في حين لم يكن تاريخ السياسة الخارجية الأميركية من دون لطخات، فإنها البلد التي حررت العالم خلال الحرب العالمية الثانية. كنت أعتقد صادقًا بأنهم يمكن أن يأتوا للإنقاذ مجددًا، وكان الثاني أنه بالرغم من كل التشويش المتعلق بدوري ومصير بلدي، كنت أعرف شيئًا واحدًا بشكل مطلق: وهو أن شعب إيران لن يتمكن من الفوز من دون مساعدة أميركا.

لم يساعدني شيء مما تقدم على النوم في تلك الليلة، لكنه مكنني أن أرفع رأسي عاليًا حين صعدت إلى الطائرة في اليوم التالي.

الفصل
13

جاسوس يعود إلى الوطن

ازدحمت ردهات مطار هيثرو بمسافري منتصف النهار الذين وقفوا في صفوف طويلة أمـام نقاط التفتيش، وبسـبب الهجمـات المتكررة من الجيش الجمهـوري الإيرلندي، كانت الإجراءات الأمنية مشددة في إنجلترا من هذه النقطة، حين عبرت الخط الطويل، انضممت إلـى مجموعـة مـن مواطنـي الإيرانييـن يتجولون فـي أنحاء الردهة فـي انتظـار الصعود إلى طائرة الخطوط الجوية الإيرانية الرحلة 710.

من الأمور المعروفة بين الإيرانيين أن عملاء الحرس الثوري يسـجلون ملاحظات عن كل شـخص يسـافر مـن وإلى إيـران، ويدققون في كل رحلـة قادمة إلى البلـد أو مغادرة وكأن مسـتقبل حكومـة الملالـي تتوقف على عملهم هـذا، أعرف بأن عليَّ مضاعفـة حذري بالبقاء تحـت الـرادار وتجنـب إثـارة أي شـبهة، لحسـن الحـظ، أصبح هـذا بمثابة طبيعـة ثانية لي، وصعدت الطائرة دون مشاكل.

جلست في مقعد قرب النافذة، استعرضت في ذهني كل ما خبرته خلال الستة أسابيع المنصرمـة، مـن أول لقـاء لـي بعملاء مكتـب التحقيقات الفدرالـي إلى امتحانـي الأخير في لنـدن، تلـك الأيام غيرتني بالكامل وبشـكل نهائي، وحين أتذكر زوجتي، وسـط كل هذا، فإن حقيقـة أنـي أعـدت تعريف كلمـة (طبيعي) في هذه الرحلـة صدمتني وسـببت ألمًا في قلبي، كنـت نصـف متوقع لأن أشـعر بالراحة لعودتي إلى الوطن حيـن أقلعت الطائرة، لكن بدلًا من ذلك كان القلق هو كل ما شـعرت به، فقد أصبحت رضا/ ولي الآن، لم أعد زوج سـمية الذي بعـث فـي هـذه الرحلة؛ لم أعد الابن الـذي تصورته والدتي؛ وبالتأكيد لم أعد عضو الحرس الثوري الذي يعتقده إخواني.

بقيـت أفكاري ثابتة بينمـا يتغير المنظر الطبيعـي تحتي ونحن نعبر البـر الأوروبي، ثم فـوق نهـر الدانوب والبحـر الإدرياتيكي، والجبال المبعثرة لسلسـلة جبال طوروس، ثم القمم

الوعـرة لجبال زاغروس في بلـدي. أخيرًا، أيقظني ربان الطائرة مـن أحلامي بالإعلان عن عبورنـا الأجـواء الإيرانية. تشـتت السـحب وكأنهـا تعلن عن بدايـة جديدة، وأشـرقت التلال باللونين الأخضر المخضوضر والبني الذهبي، منظر جميل هبة من الله، وتلألأ طوق عاكس من المياه كأنه زجاج ملون، ثم بدأت تظهر لمحات مألوفة عن حياة مزرعة، قرية، مدينة.

ظهرت إشـارة ربط حزام المقعد، حاولت أن أغري نفسـي بالبقاء في الحاضر، فكرت فـي أن سـمية تنتظرنـي لاصطحابي مـن المطار، هذه المـرة ملأتني الفكرة بالإثـارة، أفتقد زوجتي الجميلة بشدة، ولم أدرك مقدار افتقادي لها إلا الآن، وأنا على وشك رؤيتها مجددًا، لكني أولًا يجب أن أمر عبر الجمارك، مرة أخرى لسـعني القلق، كل شـيء يمكن أن ينهار في هذه اللحظة.

تلقى جميع ركاب الطائرة تدقيقًا مماثلًا. ومع ذلك، شـعرت وكأن عيونًا خفية تراقبني أنـا تحديـدًا، وتصاعد التوتر. تذكر، أنك عضو في الحرس الثـوري، كررت هذه الجملة دون توقف وأنا متجه نحو مقدمة الخط.

حيـن وصلـت، رأيت كيف أن جميع اسـتجوابات السـياح تبدأ بالسـؤال نفسـه: «من أين أنـت قـادم، وما غرضـك من الزيـارة»؟ والسـؤال الأول بالنسـبة للإيرانيين هـو: «أين كنت، وكم مكثت، وما الذي جلبته معك»؟ حين جاء دوري، أخيرًا، أجبت، «أميركا وإنجلترا، زيارة العائلة، لا أحمل ما أصرح عنه».

أحد موظفي الجمارك ختم جواز سـفري في حين قام آخر بفتح متاعي، بدأ قلبي يدق بعنف وأنا أشهاده يبحث بين ثنايا الملابس؛ ماذا إذا عثر على دفتر الشفرة الذي أعطته لي وكالـة المخابـرات المركزيـة؟ ماذا إذا عـرف الغرض من تلك الأوراق المخبـأة في أمتعتي؟ كـدت أختنـق حين التقط إطار الصور الذي أخفيت دفتر الشـفرة فيه، أبقى الإطار بيده وهو يواصل التفتيش، ثم وجد الكتاب العسكري الذي اشتريته خلال الرحلة.

«ما حاجتك لهذا»؟ قال بنظرة حادة وصوت اتهامي.

لـم أشـأ أن أبـدو خائفًـا، اسـتخدمت لهجتـي الرسـمية: «إنـه هديـة لقائـدي في سـباه باسداران».

تحولت تعابير موظف الجمرك إلى ابتسامة باهتة، أو ربما متكلفة، أعاد كل شيء بسرعة إلى حقيبتي قائلًا: «امض في طريقك يا أخ». أغلق حقيبتي وأشار لي بالمرور.

لم يقترب مني أحد غيره.

لم يجذبني أحد جانبًا ليقول لي: «نعرف أين كنت، سيد كاهليلي، ونعرف مع من تحدثت، جاسوس، تعال معنا».

شعرت بالتوتر يتلاشى مني وأنا عبر قاعة القادمين إلى حيث تنتظرني زوجتي، بدت سمية أجمل من الصورة التي احتفظت بها في خيالي، وقفز قلبي حين رأيتها، بالرغم من أنها غطت شعرها بوشاح أسود، فقد أشاع وجهها حياة وقوة فيَّ. هل كان السبب عيناها أم الطريقة التي نظرت بها إليَّ؟! وهل كانت شفتاها أم الطريقة التي ابتسمت بها لي؟! لا يهم؛ حين رأيتها، عرفت أني عدت إلى بيتي.

كل ما أردته في تلك اللحظة أن أركض إليها، وأضمها بشدة بحيث نصبح شخصًا واحدًا، لكن ليس من المناسب أن تحتضن أو تقبل أحدًا -ولا حتى زوجتك- في مكان عام في إيران.

بدلًا من ذلك، لففت ذراعي حول كتفها وهمست: «اشتقت إليك كثيرًا، أنا سعيد جدًّا بوجودك في حياتي»، ربتت على ظهري وابتسمت قائلة: «أنا أيضًا اشتقت إليك»، بالرغم من رغبتي الشديدة في التمسك بها، أبعدت ذراعي عنها ومشينا عبر المخرج مثل غريبين تقابلا للتو.

تمكنت من الاحتفاظ بوجهي المبتسم إلى أن وصلنا إلى البيت، لكن ما إن دخلنا الدار، حتى احتضنت سمية بين ذراعي وجاشت عواطفي وخرجت عن سيطرتي، ولم أستطع التحكم بدموعي ولا شك أن هذا أقلق سمية كثيرًا.

«أوه، رضا، هل أنت بخير»؟ قالت وهي تحتضن وجهي بكفيها الناعمتين، كانت عواطفي قد سيطرت عليَّ تمامًا بحيث لم أستطع الكلام.

مسـحت الدموع عن وجهي: «لا أريدك أن تتركني مرة أخرى»، أعلم أنه كان ينبغي عليَّ أن أتمالك نفسي، ليس في وسعي أن أجعلها تعتقد بأن أمرًا خاطئًا قد حدث يتجاوز اشتياقي إليها والرحلة الشاقة الطويلة؛ «أشعر بالضيق على العمة جيتي»، قلت بعد وهلة: «إنها مريضة للغاية، تركتها مكرهًا وحيدة في تلك الدار، أردتها أن تعود معي، لكنها أصرت على البقاء».

ابتسـمت سـمية لي بحنان، لكني اعتقدت أيضًا أني التقطت لمحة عن شيء مختلف في عينيهـا، شـيء يقول إني لم أخبرها بكل شـيء، ربما كان مجرد تخيـل مني، لكني أدركت في تلك اللحظة بأني سأظل أتخيل ردود أفعال مثل هذه طالما واصلت الكذب عليها.

تحدثنـا لفتـرة مـن الوقت عـن الوقت الـذي ابتعدنـا فيه عن بعضنـا، أبلغتهـا عن حال والديهـا فـي لنـدن، وأخبرتني سـمية عن مدى شـعورها بالوحدة مـن دوني، وكـم كان صعبًا عليها التعامل مع هذه الوحدة بالرغم من أنني لم أغب مدة طويلة.

«كنت سـعيدة تقريبًـا لنجاح عملية ظهر جدتي، بالرغم من أنهـا عملية مريعة»، قالت: «العناية بها شغلتني وجعلتني لا أفكر بمدى صعوبة افتراقنا عن بعضنا»، «لا أريدك أن تغتَّر، لكني ببساطة لا أستطيع البعد عنك»، ثم قبلتني وضمتني. وجودي معها في هذه اللحظة كان أفضل ما شعرت به منذ زمن طويل.

قضيـت مع سـمية أجمل ليلة فـي حياتي، وتفاجأت حين أعلنت أولـى خيوط النور بداية يوم جديد، ضممتها بين ذراعي متمنيًا لو أن هذا الوقت الجميل يدوم إلى الأبد.

لكـن كان مـن الضـروري أن أعـود إلى عملي، حاولت اسـتباق اليوم الـذي ينتظرني وما يمكـن أن يقولـه العاملون معي، فكرت في الأسـئلة التي قـد يطرحونها وحاولت تحضير بعض الإجابـات. سـأعمل وأنـا لـم أذق طعـم النوم فـي الليلة الماضيـة؛ لذلك لن أكون في أحسـن حالاتي تحت جميع الظروف.

ملأتنـي العـودة إلـى مكتبي في طهران بالعواطف التي تراوحت مـا بين الخوف والريبة وبين التبجح والحماس، من جهة، بصفتي (ولي) جاسوس يعمل لصالح أكبر وكالة مخابرات فـي العالـم، ومن جهة أخرى، أنا عضو في الحرس الثوري القوي أقـوم بواجباتي وكأن ولائي لآية الله الخميني ونظامه الديني أهم شيء في حياتي. الازدواجية باتت تمثلني الآن.

فـي دوري كعميـل، ينبغـي علـيَّ أن أجمـع معلومات لا يمكن إلا لشـخص مـن الداخل له صلات مثلي أن يطلع عليها، ثمة خطر كامن في هذا؛ فالنظام يبحث دائمًا عن الجواسيس، وحيـن تقـوم الولايـات المتحـدة بعمـل بناء علـى المعلومـات التي زودتهـم بها، فـإن تحذيرًا سـينطلق فـي صفوف الحرس الثـوري، فكم سيسـتمر هذا قبـل أن يتتبعوا مصدر التسـريب ليصلوا إليَّ؟

أمـا بصفتـي رضا، العضو في نخبة الحرس فقد كان دوري أن أبدو وأمثل دور المسـلم الملتزم المتمسـك بجميـع القواعد الجديدة التي يضعها الملالي؛ اللحية الكثة السـوداء من المسـتلزمات الإجباريـة لبزة الحرس، وقد أطلقـت واحدة مثل جميع أفراد الحـرس، منظر أفـراد الحـرس الملتحيـن العابسـين في زيهم الرسـمي كان يبعث الخوف ويجلـب الاحترام، لعب دور المتعصب لم يأتيني بشكل طبيعي، وكانت هناك مرات توجب عليَّ فيها القيام بأمور كنت أفزع منها: تحذير الفتيات كي يغطين أنفسـهن، نهر بعض الصبية لعدم اتباع السـلوك الإسلامي الصحيح، تقمص شخصية المتعصب.

بعـد عودتـي إلـى إيـران، بت أعرف أنـه ينبغي عليَّ إقناع نفسـي بأن القيـام بهذه الأمر سـيمكنني من الاحتفاظ بدوري، والاحتفاظ بهذا الدور سيسـمح لي بأن أشـارك في إسـقاط المنظمة التي أدَّعي الولاء لها بحرارة.

بمجرد دخولي القاعدة، ذهبت مباشرة إلى مكتب رحيم، قائدي. رحب بي، وصافحني، ثم قبلنا وجنتي بعضنا، حسب العادة لدى الإيرانيين. «كيف حال عمتك، أخ رضا، هل تمكنت من نقلها إلى منزل»؟

«أخ رحيم، مساعدتك هي ما جعلت هذا الأمر ممكنًا. أسأل الله أن يعطيك أضعاف ما فعلته من إحسـان»، ثم مضيت في شـرح حال عمتي وأنها الآن تعيش في منشـأة رعاية. «وما الذي فعلته أيضًا، أخ رضا، أين ذهبت أيضًا»

زرت بعض الأصدقاء من أيام الجامعة، وكانوا سـعداء جدًّا لرؤيتي مجددًا، كما ذهبت إلى لندن وزرت حماي وحماتي في طريق العودة».

لم أخض في أي تفاصيل، حيث إنني بدأت أشعر بالتوتر، وكي أختصر الحديث، قدمت الهدية التي جلبتها له من الولايات المتحدة لأني أعرف أنه سيحبها، كانت كتابًا بعنوان (جينز لأنظمة الأسلحة)، وهو مجلد مذهل مع صور تظهر عمليًّا جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في أي مكان في العالم في ذلك الحين، وهو الكتاب الذي حير موظف الجمارك، تسلم رحيم الهدية ممتنًا، قائلًا: بأنه كان على الدوام يبحث عن كتب ومجلات تبحث في المعدات العسكرية، وهو ما كنت أعرفه؛ لأن كاظم أخبرني عن هذا قبل أشهر عدة.

غادرت خارجًا للبحث عن كاظم، وما إن دخلت مكتبه حتى قفز مرحبًا بي، وبإيماءة مرحبة هتف قائلًا: رضا، صديقي العزيز، الرحالة عبر العالم، والرجل الغامض. عاد أخيرًا من الولايات المتحدة»، ثم صفعني على ظهري.

احتضنني وقبَّلنا وجنتينا، وأضاف مبتسمًا وهو يهم بالجلوس: «لم تعط جميع أسرارنا إلى وكالة المخابرات المركزية في أثناء وجودك هناك، أليس كذلك»؟

أذهلتني كلماته وتطلب الأمر مني أن أستجمع كل قوتي حتى لا تظهر علي الصدمة بسببها، لوهلة قصيرة شعرت بأن ركبتاي تتداعيان تحتي، كان كاظم يمزح بالطبع، فلو عرف الحرس بخيانتي لاعتقلوني لحظة هبوط الطائرة.

«بالطبع فعلت»، قلت مستعيدًا تماسكي بسرعة، «أن تصل إلى أميركا دون محادثة وكالة المخابرات المركزية سيكون أمرًا جنونيًّا، وبالمناسبة تناولت طعام الغداء في البيت الأبيض». ضحكنا كلانا، لكن هذا لم يخفف من تململي. تحدثنا لبضع دقائق -في أمور عادية عن العمل- لكن كان كل ما فكرت فيه هو، هكذا ستكون الأمور من الآن فصاعدًا. لن أستطيع إجراء محادثة بسيطة دون انتباه وانفعال، أعلم أنني أنا الذي أوجدت هذا الوضع لنفسي، وأعرف أيضًا أنني أنا من تمنى هذه الحياة بسبب ما توفره من منافع لبلدي؛ لكن الأمر سيحتاج بعض الوقت للتعود عليه.

تلك الليلة أعددت أولى رسائلي إلى كارول.

[الرسالة #:_______]

[التاريخ:_________]

مرحبا كارول:

1. عدت سليمًا معافى.
2. أسرتي بحالة جيدة.
3. اليوم هو أول يوم لي في العمل.
4. رحيم وكاظم كانا سعيدين لعودتي.
5. أتطلع لاستلام رسائلك.

تمني لي حظًا طيبًا.

ولي

الفصل
14

أخوة السلاح

مرحبا ولي:

تلقينا رسالتك الأولى.

تسعدنا عودتك بسلام.

فريقنا متحمس للغاية.

يرجى تأكيد استلام هذه الرسالة.

نرجو أن تتوخى الحذر وأن تظل سالمًا.

كارول.

تلقـي أول رسـالة مـن كارول كان مثيـرًا للغاية، مع أنها زادت توتـري، فقد ذكرتني دون قصـد بالتعذيـب والمـوت الـذي ينتظرنـي إذا اكتشـف الحرس ما كنـت أفعلـه، وبينما كنت أفكر في كيف سـيؤثر قراري على سـمية، فإن وجودي معها في البيت، وشـعوري بقربها مني، والإحسـاس بحبها أعطى صورة جلية عما أخاطر به بممارسـة نشـاطي هذا، وكما هو الحال بالنسـبة لجميـع الأزواج الشـبان، كانـت لنا خطط للمسـتقبل معًـا، أردنا تكوين أسـرة، فهل عرضت هذا للخطر؟

لا تقـم بـأي مجازفات غير ضرورية، تقول تعليمات وكالة المخابرات المركزية. لا تضع نفسـك في خطر. تنبه للمحيط حولك. أخف كل شـيء. إشعال الضوء بشكل روتيني في الليل قد يثير الشبهات؛ لذلك استخدمت مصباحًا مكتبيًّا صغيرًا مغطى في غرفة مكتبي لا يمكن رؤيـة ضوئـه مـن خارج البيت، مـا إن أدخل غرفـة مكتبي، في آخـر الصالة بعيـدًا عن غرفة نومنا، حتى أغلق الباب بهدوء وأتلمس طريقي إلى الطاولة حيث يوجد الراديو.

كنت أجلس وحيدًا في مكان شـبه معتم مع سـماعات على أذني وأعبث بمفتاح التحكم فـي التـرددات، أحرك قرص الراديو والتقط تلك الأصوات السـريعة العالية على طول نطاق

الموجات. إلى الأمام والخلف، إلى الخلف والأمام، صعودًا ونزولًا، نزولًا وصعودًا؛ مثل حياتي الحالية بالضبط. عدد هائل من الرموز تتقاطع عبر الأثير؛ تنافر دولي في الأصوات يمكن لعالم لغويات أن يحبه- ألماني، وعبري، وفرنسي، وعربي، وحتى فارسي. وبقدر ما كان يوترني كل هذا، كان عليَّ أن أبتسم. عالم التجسس كان نشطًا وها أنا في وسطه.

رسائل وكالة المخابرات الأميركية كانت تبدأ يوم الجمعة الساعة الثالثة صباحًا، لم يكن من السهل دائمًا فهم البث المشفر؛ لأنه كان في بعض الأحيان يتداخل أو يكون غير واضح بسبب التشويش، إلا أنه بعد مدة، يكون من السهل فك تشفير الأصوات المشوشة.

استخدمت الطريقة التي تعلمتها في لندن. وهي كتابة الرسائل أولًا بدقة، اختار مخمنا بين اثنتين منهما، ثم استخدم دفتر الشفرة، لفك شفرتها. سرعان ما أدركت أن ذلك البث يبدأ بعبارة «مرحبا ولي»، وهو ما وجدت أنه مثير للغاية، كان أشبه بالنجاح في طقوس دخول ناد. هذا النادي تحديدًا -وكالة المخابرات الأميركية- له عضوية حصرية متشددة، وقد بدأت للتو افهم تمامًا معنى أن يسمح لي بالدخول.

في بعض الأحيان، كانت ساعة جسدي البيولوجية تضبط نفسها مسبقًا وفق غزواتي الصباحية المبكرة في عالم العمل السري، سرعان ما أصبح في وسعي الاستيقاظ دون منبه في الساعة الثانية والنصف، وقد تقبلت سمية عذري بأني أستيقظ في ذلك الحين لأن أفضل الأفكار لمشاريع تخص الحرس تأتيني في الليل، ثم بدأت تعتاد على (أرقي) الليلي؛ حتى أنني أعددت بعضًا من المعلومات المضللة المتعلقة بالاستماع إلى الراديو وأنا أضع سماعات الأذن، وإذا صدف ونزلت ورأتني أفعل ذلك، فقد أخبرها بأن الحرس يريدون معرفة ما تقوله النسخة الإنجليزية من إذاعة أوروبا الحرة وصوت أميركا، وأنهم كلفوني بهذه المهمة.

تدمير دليل الرسائل المشفرة كان أمرًا إلزاميًا؛ لذلك استخدمت تقنية علموني إياها في لندن، وهي طي الصفحات التي كتبت عليها الرسائل على شكل أكورديون، وآخذ بوصة من هذا الجانب وبوصة من الآخر، ثم أضعها الواحدة تلو الأخرى في منفضة. ثم أشعلها

فتحترق من دون دخان. ولاستكمال التنظيف، قد ألقي بالرماد في المرحاض وأسحب السيفون.

وكي أبلغ كارول بأن الرسالة وصلت بنجاح، قد أكتب رسالة غير مرئية حسب الطريقة التي علمني إياها دافيد في لندن، كنت أراعي إتباع كل ما تعلمته بدقة. في حياة أخرى، ربما وجدت أن من المضحك الجلوس في مكان شبه مظلم وكتابة رسائل غير مرئية، أما في دوري بوصفي العميل ولي، فقد يكون ذلك أي شيء إلا أن يكون مضحكًا.

كنت أرقم جميع الرسائل كي تعرف كارول في حال فشلت في استلام إحداها.

[الرسالة #:______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول:

1. **تلقيت رسالتك بنجاح.**
2. **خلال أيام، سأسافر إلى الجبهة لمدة أسبوع.**
3. **لن أكون هنا يوم الجمعة المقبل. لا تبعثي برسالة. ابدئي يوم الجمعة الذي يلي.**
4. **هناك خطة لهجوم كبير في منطقة ديزفول- شوش.**
5. **إذا حدث لي شيء، أرجو إيجاد طريقة لمساعدة زوجتي من خلال أصهاري في لندن.**

تمني لي حظًا طيبًا.

ولي

كان من واجب كل عضو في الحرس الثوري أن يخدم كجندي أو في أي من مجالات دعم الجيش في المعركة ضد جيش صدام حسين، قام رحيم بإرسالي أنا، وكاظم، وثلاثة آخرين إلى منطقة ديزفول شوش لتلبية هذا الواجب بعد بضعة أسابيع من عودتي من رحلتي خارج البلد، تصاعدت حدة الحرب مع العراق، تمكن جيش صدام من احتلال الكثير من المناطق الحدودية مستغلًا الاضطرابات التي نشأت خلال الثورة، إلا أن المد تحول؛ أكثر من 200 ألف من الحرس الثوري، والباسيج، وجنود الجيش النظامي اخترقوا الخطوط الدفاعية العراقية وطوقوها وأسروا الآلاف من الجنود العراقيين؛ كان الباسيج يضحون بأنفسهم بالسير عبر حقول الألغام لفتح الطريق أمام الحرس، أو يربطون القنابل إلى أجسادهم والقذف بأنفسهم تحت الدبابات العراقية لتفجيرها، وفي حين يتطلب القيام بأمر كهذا الكثير من التفاني،

فقد كان كل واحد منهم يؤمن بأن الله سيجزيه خيرًا؛ لأنه شهيد، مثل الإمام الحسين. كان كل واحد مقتنع بأن السماء وكل وعودها تنتظره.

استخدم الملالي أسطورة الإمام الحسين لإعداد المراهقين الباسيج نفسيًّا لاستشهادهم قبل القيام بأي هجوم، بعد وصولنا بمدة وجيزة وفي أول ليلة لنا، شهدت هذا بعيني. جلست على أرضية الثكنة مع حراس آخرين، مع العديد من الباسيج الفتيان وقادتهم، ساد الصمت القاعة، وخفضت الأنوار، ومع صوت يقول: «يا ألله»، وقف الجميع للترحيب بالمتحدث.

روى الملا قصة الإمام الحسين، وبلغت القصة ذروتها بإعادة رواية معركة كربلاء، حيث أبدى الإمام شجاعته باستشهاده. كنت أسمع هذه القصة منذ أن كنت طفلًا، كيف حارب من أجل الإسلام؛ وكيف ضحى بحياته في سبيل دينه؛ وكيف أن الحسين وصحبه، وعددهم 72 محاربًا لا يهابون الموت حاربوا ضد جيش قوامه ثلاثون ألفًا دون أن يترددوا؛ وكيف هتف قبل مقتله: «الموت بكرامة خير من حياة الذل»، وهي العبارة التي ما زالت تستدر دمعي، وفي حين قد يكون من المستحيل على الغربيين أن يفهموا كيف تثيرنا هذه القصة، وتشحننا بشجاعة عاطفية عميقة. وحين نهتف: «يا حسين، يا حسين»، فقد نضرب صدورنا لإبداء إخلاصنا لإمام الحسين واستذكار معاناته.

بدت لي الليلة متوترة بشكل لا يصدق، كان قلبي مع كل هؤلاء الشبان والفتية الشجعان الذين يؤمنون بعمق أنهم يقاتلون من أجل بلدهم، ودينهم، ضد حرب صدام غير العادلة. آباؤهم وأسرهم كانوا فخورين بوضع أرواحهم بين يدي الله، بعد استشهادهم، فإن قائدهم، الإمام الخميني، سيهنئ أسرهم على تفانيهم في الإسلام، ويذكرهم بوعد أبواب السماء المفتوحة وترحيب الحسين –سيد الشهداء– بهم. لكن كان من الصعب عليَّ تصديق أن تلك هي أفضل طريقة لاستغلال شباب بلدي.

في اليوم التالي، قبل الفجر، وكزني كاظم في كتفي: «رضا، لقد حان الوقت. علينا أداء صلاة الصبح والمغادرة».

كان عملنـا اليـوم هـو المسـاعدة على نقل الباسـيج خلف خـط الجبهـة، وضعناهم مع معداتهم الشخصية في شاحنات كبيرة، ثم سرنا في قافلة نحو الجبهة ومصابيح الشاحنات مطفأة ولا دليل لدينا سوى ضوء القمر. كانت السماء صافية تتلألأ فيها النجوم.

كان فـي شـاحنتنا الأخويـن محسـن ومجيـد، وهما في الثالثة عشـر والرابعة عشـر من العمر، وقد لا يزيد وزن الواحد منهما عن 45 كيلوجرامًا، كنا قد قابلناهما في الليلة الماضية خـلال موعظـة المـلا، كان الصبيان هادئيـن تمامًا الآن، بخـلاف الليلة الماضيـة حين كانا ممتلئـان حيويـة ويعبثان مثل الصبية الذين هم في مثل أعمارهـم. تحدثنا أنا وكاظم معهما لوهلة بعد الموعظة، كانا من المناطق الريفية قرب مدينة مشهد، الصبيان الوحيدان ضمن أسـرة فقيـرة من خمسـة أبناء. تركا المدرسـة للذهـاب إلى جبهة الحرب، بعـد أن قال لهما معلمهما -وهو ملا- إن من واجب كل مسلم الذهاب إلى الجبهة وأن يصبح شهيدًا.

«سـأقتل أكبـر عدد ممكن من الجنود العراقيين»، قال محسـن فـي الليلة الماضية وهو يشد قامته بثقة ويرسم على وجهه ابتسامة عريضة.

مجيد، الأكبر سـنًّا لف ذراعه حول محسـن قائلًا: «سـنحتل كربلاء ونقيم الصلاة في ضريح الإمام الحسين».

لم أسـتطع رفع بصري عنهما الآن ونحن نأخذهما إلى وجهتنا، كان الصبيان مطأطئا الرأس يتلوان صلاتهما، ويضـع كل منهما عصبة حمراء حول رأسـه الحليق كتب عليها: «يا حسين»، شعرت باضطراب في معدتي وأنا أنظر إليهما.

«هل أنت بخير، رضا»؟ قال كاظم وهو ينظر إليَّ متسائلًا بطريقة فسرتها أنا على أنها شك.

«أنا بخير، أعتقد أن الطريق الوعرة تصيبني بالغثيان».

كانـت الطريـق -بالطبـع- الطريـق نحـو مصيـر مجهول، ما الـذي كان ينتظر محسـن ومجيد في نهاية الطريق؟ من سـيعود منها؟ من من بين جميع المراهقين في هذه الشـاحنة سيشهد نهارًا آخر؟

«أيها الإخوة، انزلوا»، أمر القائد حين توقفت الشاحنة، نزل الباسيج من الشاحنات واصطفوا في مجموعات، حسب التعليمات، المئات من الأطفال يستعدون للدفاع عن البلد، لم أستطع إلا أن أفكر في أسرهم، وقلة ما شاهده هؤلاء الصبية في حياتهم القصيرة.

«يا ألله، نجهم يا رب» همست قائلًا.

«أخ رضا، ادع الله أن يغفر لنا»، تمتم محسن، وهو ينظر إليَّ ورأسه مائل قليلًا إلى الأسفل، كانت مهمة مجموعته نسف جسر خلف خطوط العدو.

بعد أن أنزلنا الباسيج، عدنا إلى القاعدة خلف الجبهة وانتظرنا بقلق، على مدى عدة ساعات، ملأت الجو أصوات إطلاق النار، وقصف المدافع والهاون، والتفجيرات، وصرخات (الله أكبر)، تقارير المعركة بدت لي بطيئة في الوصول، إلى أن عمت حالة من الهياج القاعدة.

جاء كاظم إلى راكضًا: «رضا، أنباء طيبة، لقد نجح الهجوم. لقد دمرنا خمس عشرة دبابة حتى الآن، وأخذنا الكثير من الأسرى».

«هل هناك أي أخبار عن كتيبة الإمام الحسين»؟ سألت يائسًا، أردت أن أعرف ما إذا كانت مهمة محسن ومجيد ناجحة.

هز رأسه بخيبة أمل.

عرفت أنني لن أسمع الأخبار التي أردت سماعها، خرجت من التحصينات لتدخين سيجارة، ماسحًا دموعي قبل أن يراها أحد.

قبل أذان المغرب بقليل، عاد إبراهيم، وهو أحد أفراد الباسيج، من كتيبة الإمام الحسين، إلى القاعدة. هرعت إليه راكضًا.

«أخ إبراهيم، أين الباقين»؟ سألت.

نظر إليَّ ضجرًا، وقال: «يا أخ، لقد قاتلوا جميعًا بشجاعة، لكن...».

«أحسنتم العمل، أيها الأخ»، قال أحد المارة له.

استعدت انتباه إبراهيم. «ماذا عن محسن ومجيد، أين هم»؟

لم يستطع إبراهيم تحمل نظرتي، «كان في وسعنا رؤية الجسر، كان بيننا وبينه تل واحد في أثناء نزولنا، كان العراقيون في انتظارنا، كامنين أسفل التل، وقعت في الخلف، وكان في وسعي رؤية الرصاص يتطاير، وسماع الصرخات، الدماء في كل مكان، قاتل فتياننا بشجاعة بالغة، كان محسن آخر الباقين، طلب منه الجنود العراقيون إلقاء سلاحه والاستسلام. لكنه بدلًا من ذلك، فتح النار عليهم وهو يصرخ: «شهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله».

محسن الأخ الأصغر لأسرة لديها خمسة أبناء، قتل مع شقيقه مجيد ذلك المساء.

أعرف أن تضحياتهم ستعلق في ذهني مدة طويلة، وأعرف أيضًا أنها تستدعيني أن أعيد النظر فيما أفعله، كيف يمكن لتجسسي أن يتلاءم مع عالم يضحي فيه الصبية بأرواحهم للدفاع عن بلد آليت على نفسي أن أقوض حكومته؟

بسبب جهود الكثيرين من أمثالهم، هزم الجيش العراقي في النهاية وطورد إلى حدوده، وبات الآن يصد الهجمات الإيرانية، ترك العراقيون خلفهم قصصًا مروعة عن جرائم ارتكبوها؛ أبلغني رحيم عن بلدة حدودية صغيرة أمر القائد العراقي جميع السكان فيها بالتجمع في ساحة البلدة، بما في ذلك النساء والأطفال. أحاطتهم الدبابات وفتحت النار عليهم، لتقتل الجميع، وقام جيشنا بإعدام الكثيرين من أسرى الحرب العراقيين انتقامًا لتلك الجرائم.

في ذلك الوقت، أصبح علي خامنئي رئيسًا لإيران، في حزيران 1981م، نجا خامنئي من محاولة اغتيال قام بها مجاهدو خلق حين انفجرت قنبلة مخبأة في جهاز تسجيل، تسببت في شلل يده اليمنى، وقد انتخبه الإيرانيون رئيسًا في تشرين الأول من ذلك العام، بعد اغتيال الرئيس محمد علي رجائي على يد مجاهدي خلق في آب. في تاريخ لاحق، خلف خامنئي الإمام الخميني كقائد أعلى، وقد سمعت من كاظم وآخرين بأن علي خامنئي يزور الجبهة بانتظام لاستعراض القوات، وأن حماسه لا يقل عن حماس الإمام الخميني لرفع راية الإسلام في العالم أجمع.

خلال هذا النزاع علمنا بأنه يتعين علينا أن نؤمن بضرورة مواصلة شن الحرب حتى تدمير جميع الكفار، وهذا يشمل بالطبع تدمير إسرائيل، أراد علي خامنئي أيضًا القدس وعودة واحد من أقدس المساجد إلى المسلمين، المسجد الأقصى.

جعل النظام من إسقاط صدام هدفًا له؛ عرض الزعيم العراقي السلام بعد أن تمكنت قواتنا من دحر قواته خارج بلدنا، لكن الخميني رفض ذلك بشدة، احتضن الملالي آية الله محمد باقر الحكيم، المعارض الصريح لصدام، ومنحوا أتباعه ملاذًا آمنًا. لدى الملالي في إيران والعراق تاريخ طويل من التعاون من خلال الحوزات العلمية في قم، مركز النشاط الديني في إيران، والنجف في العراق. وأصدروا تعليمات للحرس الثوري لمساعدة آية الله الحكيم على إنشاء المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق. وسرعان ما أصبح واحدًا من أقوى الأحزاب في العراق، وما زال كذلك حتى يومنا هذا. أحد أدوار الحرس الثوري لتطوير المجلس الأعلى المذكور كان إعادة أتباع الحكيم إلى العراق مع تعليمات محددة لإزعاج جيش صدام، مستخدمين العمليات العسكرية السرية، والتسلل إلى عملياته، وجمع المعلومات الاستخبارية الضرورية.

معرفتي بكل هذا وفر كنزًا من المعلومات لكارول.

[الرسالة #:______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول:

1. **أصدر الخميني أمرًا إلى الحرس الثوري بمساعدة آية الله حكيم في تعزيز المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وتجنيد وتشكيل وحدات عسكرية والقيام بعمليات عبر الحدود بالتنسيق مع الحرس الثوري.**
2. **القائد الأعلى محسن رضائي عين إسماعيل داج إيجي كقائد للحرس لتنسيق تجنيد الشيعة العراقيين والمتعاطفين من أسرى الحرب.**
3. **إسماعيل داج إيجي يتكلم العربية بطلاقة، وكان يعمل مع أسرى الحرب، وتمكن بنجاح من تجنيد عراقيين آخرين دربهم الحرس الثوري، وقد شكل فيلق بدر وهو القائد المسؤول لذلك الفيلق، ويجري استخدامهم للتجسس على استخبارات الجيش العراقي وفي العمليات عبر الحدود، ويجري إرسالهم إلى العراق بشكل منتظم لحمل رسائل إلى آية**

الله حكيم، وتجنيد المتطوعين الشيعة، وتحريض الشيعة في مدن العراق الجنوبية على الثورة.

4. **الأوامر الآن هي توسيع الفيلق ليصبح فرقة. محسن رضائي رقى إسماعيل داج إيجي ليصبح قائدًا للفرقة الجديدة.**
5. **العديد من العراقيين يجري تدريبهم في قواعد الحرس الثوري في طهران.**

تمني لي الحظ!

ولي

في رأس السنة الفارسية التالية، تراجعت الحرب نحو الحدود وعم السلام أجواء طهران بعد نزاع طويل، أبلغنا طبيب سمية الأنباء الطيبة التي كنا نأمل سماعها: إنها حامل منذ ثلاثة أشهر. كنت أتمنى بشدة أن تكون هذه إشارة على أن حياتي بدأت تنسجم مع أحلامي، أخيرًا.

الفصل
15

آمال وأخطار

لسـوء الحظ، فإن أحلامي بوطن يسـوده السـلام لم تكن سوى أحلام، الأجواء القمعية في إيران انتشـرت أكثر فأكثر، ووصلت الاعتقالات والإعدامات حدًّا بدا أن كل شـخص بات يعـرف شـخصًا آخـر علق في هذا الكابوس، وبـدأت صيغة الخميني من الإسـلام التي كانت تؤثـر علـى جميـع جوانب حياة النـاس تنتشـر خارج حدود إيران. لم ينشـغل الحرس الثوري بهذه الأمور قط كما انشغل بها في تلك الأيام، وفي تلك الأيام لم يكن وقتي بالتأكيد ملكي.

مـا كان لهـذا النشـاط أن يأتي في مرحلة أسـوأ بالنسـبة لحياتي العائلية، سـمية كانت حامل وكنت أريد أن أكون إلى جانبها بأكبر قدر ممكن في هذه المرحلة الفريدة من علاقتنا. بـدلًا مـن ذلك، كنت أقضي معظم الوقت في العمل أحضـر الاجتماعات وبعدها اللقاءات مع كاظم، ما حملني شعورًا فظيعًا بالذنب.

لـم تتلفظ سـمية، طيلة مدة حملها بكلمة واحدة من الشـكوى، الواقـع أنها لم تزعجني كثيـرًا بسـبب غيابي لسـاعات طويلة، بحيث اعتقدت أنها على ما يـرام. إلى أن عدت متأخرًا ذات ليلة خلال الفصل الثالث والأخير من حملها لأجدها جالسة في صالة المعيشة وحالها بائس.

«ما الذي حدث، عزيزتي»؟ سألت وأنا أجلس إلى جانبها.

انفجرت على الفور باكية دون أن تسـتطيع السـيطرة على دموعها، لدقيقة، لم تسـتطع التفوه بكلمة، احتضنتها، فأبعدت نفسها عني غاضبة، «ما الذي حدث؟ كل هذا الحال خطأ. أنـا بالـكاد أراك. أنـا هنـا وحدي مع بطني المنتفـخ لا أجد أحدًا أتحدث إليـه. لقد تعبت من هذا الحال». مسحت أنفها بطرف كمها وكان في وسعي أن أرى أنها بذلت جهدًا عظيمًا لقول ما قالته.

تعاطفت معها على الفور، آخر ما أريده في هذا العالم أن أراها غاضبة. «آسف لأن هذا هو شعورك، حبيبتي. أتمنى لو أنني غير مضطر لقضاء الكثير من الوقت بعيدًا عنك، لكني لا أعرف ما في وسعي عمله. لم لا تجتمعين ببعض صديقاتك وتتسلين معهن»؟

هزت رأسها وشهقت: «مثل من؟ كلهن مشغولات بشؤونهم وأنا عالقة هنا وحدي».

«إذن ربما كان من الأفضل أن تذهبي إلى إنجلترا لقضاء بعض الوقت مع والديك، سيكون هذا رائعًا، أليس كذلك»؟

كنت في الواقع أعتقد بأني أطرح اقتراحًا إيجابيًّا، لكن سمية نظرت إليه بطريقة مختلفة تمامًا، شخصت ببصرها إلى أعلى ثم نظرت إليَّ نظرة لم أشاهدها من قبل: «حلك السخيف للمشكلة هو التخلص مني؟ تريد أن تعيدني إلى والديَّ لكي تقوم بعمل الحارس القذر مع كاظم وأصدقائك الفظيعين الآخرين؟ أو ربما أنه ليس عليك التفكير بي وأنت تقوم بما تقوم به خلال الليل في ذلك الوكر».

اختارت تلك الكلمات لتلدغني بها وقد نجحت في تلك المهمة، لم يكن لدي أي فكرة على الإطلاق بأنها تشعر على هذا النحو تجاه ما أفعله. لماذا لم تقل أي شيء قبل الآن؟ بدا لي وكأن امرأة أخرى تسكن جسد سمية.

نهضت للذهاب إلى السرير وأطلقت مجموعة أخرى من العبارات الغاضبة: «أو ربما أن الأمر ليس عملك، ربما وقعت في حب امرأة أخرى، واحدة من دون بطن كبير، بشع».

بقدر ما تعاطفت مع مدى انزعاجها، وجدت في ملاحظتها الأخيرة نوعًا من الراحة، شعرت أني أكاد أضحك لسخافة فكرة أني قد أبحث عن امرأة أخرى. تنفست الصعداء، سعيدًا لتفسيرها لما أفعله في الليل.

«ما كنت لأخونك أبدًا»، قلت وأنا أحتضنها، قاومت في البداية، لكنها سرعان ما استجابت لمعانقتي: «إياك أن تشكي في مقدار حبي لك. أنت أفضل ما في حياتي. وإذا كبر بطنك أكثر وبقي كذلك حتى بعد الولادة، فسوف أحبك أكثر».

تركتنـي أقبلها ثم اسـتدارت لتذهب إلى الفراش، والتعب باد عليهـا من هذه التجربة. كنـت أعلـم أن ما قلته للتولن يجعلها تشـعر أنها أفضل حـالًا كلية، لكني على الأقل هدأت من بعض مخاوفهـا. إلا أنهـا أوضحـت لي تمامًا أنها تحتقـر عملي مع الحرس، وأن لديها بعض الشـكوك حيـال مـا اعتدت فعله في منتصـف الليل. قد تصدق الآن أنـي لا أتواصل مع حبيبة أخـرى، لكنهـا ذكية بما يكفي للتفكير فـي احتمالات أخرى، وقد احتاج لإيجاد طريقة لتجاوز هذا الأمر بحرص معها.

ربما كان ينبغي عليّ أن أوي إلى الفراش مع سمية، بعد الهزة التي أحدثها هذا الحوار. إلا أنه كان من الضروري أن أكتب لكارول عن كل ما عرفته مؤخرًا.

[الرسالة #:______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول،

1. **الحرس يرسل مئات المقاتلين إلى سهل البقاع في لبنان عبر سوريا.**
2. **يقوم بتنسيق العمليات:**
   - **قائد الحرس الثوري مصطفى محمد نجار، المسؤول عن القوات في لبنان.**
   - **على أكبر محتشمي، السفير الإيراني في سوريا، و؛**
   - **أحمد وحيدي، رئيس مخابرات الحرس في إيران، والمسؤول أيضًا عن توسيع أنشطة الحرس الخارجية في لبنان.**
3. **رسول، الذي يعمل من خلال وحدتنا الاستخبارية في قاعدتنا، والذي يسافر باستمرار إلى سوريا، والذي أخبرنا بأن العملية تتوسع، وأن الحرس يرسلون السلاح والذخيرة إلى سوريا.**
4. **طائرات محملة بتلك الذخائر تطير بصورة منتظمة إلى سوريا في منتصف الليل.**
5. **الإمام الخميني أصدر أمرًا إلى محسن رضائي، القائد الأعلى للحرس، بأنه ينبغي على الحرس المشاركة أكثر في لبنان لمحاربة القوات الإسرائيلية والأميركية.**
6. **سمية بحالة جيدة. حساسة بعض الشيء، وهذا طبيعي. شكرًا مرة أخرى للسؤال. ولادة الطفل متوقعة في غضون بضعة أشهر. قيل لنا إنه صبي! أنا متأثر جدًا!**

ولي

خلال الأشهر القليلة المقبلة، بقي عملي في الحرس يستنزف معظم وقتي، بالرغم من محاولتي التملص مبكرًا لأكون مع سمية. ثم وبينما كنت أتناول طعام الغداء في مكتبي، اتصلت وحملت لي معلومات سحبتني بكل سرور من عملي.

«لدي بعض الانقباضات بعد أن غادرت صباح اليوم، إنها تأتي وتذهب، بدأت بفارق زمني عشرين دقيقة وانخفض الفارق الآن إلى خمس عشرة، أعتقد أن الوقت قد حان للذهاب إلى المستشفى».

أخبرت رحيم بما يجري، وقفزت إلى سيارة تاكسي متوجهًا إلى البيت، حين وصلت إلى هناك، كانت سمية عند الباب تحمل حقيبة من القماش، وانطلقنا مسرعين إلى المستشفى.

أردت دخول غرفة الولادة معها، لكن الممرضة أوقفتني: «سنبلغك حين يخرج الصبي. وبعدها يمكنك الدخول».

«لكن هل ثمة طريقة لتمكيني من الدخول، رجاء. أريد أن أكون إلى جانبها».

«أنا آسفة»، قالت الممرضة بحزم. «ليس في وسعي عمل شيء. إنا سياسة المستشفى»، ثم رقت تعابيرها وقالت وعلى وجهها ابتسامة خفيفة: «ستعتني بها جيدًا».

كان هناك رجل آخر يجلس في غرفة الانتظار حين جلست على أحد المقاعد، نظر إليَّ حين جلست، وسألني: «هل هذا طفلك الأول»؟

هززت رأسي بالإيجاب.

«استعد للبقاء هنا مدة طويلة. الطفل الأول يستغرق مدة أطول. زوجتي تضع طفلنا الثالث الآن وأنا أجلس هنا منذ ما يزيد عن عشر ساعات».

لا يهمني كم من الوقت عليَّ الانتظار؛ دعوت الله أن تكون سمية والطفل بصحة جيدة، التفكير في الطفل الجديد بصفته ابني غمرني بالسعادة، كنا نتحدث عن الأسماء، وبعد أن قلبنا العديد منها، استقر الرأي على أميد، والتي تعني (أمل)، بدا مثاليًّا بالنسبة لنا.

«لقد أحببته لأنه جلب الأمل لحياتنا وسنحمل آمالًا كبيرة له»، قالت سمية حين اتفقنا على الاسم.

ألقيت أول نظرة على الساعة بعد خمس عشرة دقيقة من جلوسي، بقدر ما كنت مستعدًا للانتظار كل الوقت الضروري للتأكد من سير الأمور على خير، كنت متلهفًا لرؤية أميد، أردت أن ألمس أصابعه الصغيرة والشعور بمعنى أن يكون المرء أبًا، وجدت أن حلمي به وبمستقبله يجب أن يكون تحولًا مرحبًا به بمرور الوقت.

مرت بضع ساعات، حين فتحت الممرضة الباب المزدوج الذي يقود إلى غرفة الولادة، وخلفها ممرضة أخرى تحمل طفلًا؛ نظرت إلى الرجل الجالس معي في غرفة الانتظار مفترضًا أن المولود طفله، نهض وعلى وجهه ابتسامة عريضة مقتربًا من الممرضة.

«هذا ليس لك»، قالت الممرضة الأولى. ثم التفتت إليَّ: «السيد كاهليلي، تعال وشاهد ابنك».

للمرة الأولى طيلة اليوم، توترت؛ أنا على وشك مقابلة طفلي الصبي الصغير، هنأني الرجل الآخر واكتفيت بالالتفات والابتسام، لم أستطع التفوه بكلمة، خطوت نحو الباب ورأيت الوجه الذي قد يغير حياتي إلى الأبد، كان أميد جميلًا، وساحرًا، وهو ابني.

سمحت لي الممرضات بالتحرك إلى غرفة سمية بعد نقلها من غرفة الولادة، وأخذوا أميد معهم لتحميمه ووضعه في مهده الصغير.

زوجتي كانت كلها ابتسامات: «هل رأيته، رضا؟ إنه لطيف جدًّا. صغير جدًّا».

قبلت جبهتها الرطبة، وكنت ما أزال أجد صعوبة في الكلام.

«إنه طيب للغاية، رضا. جاء بسرعة ولم أضطر للدفع بقوة لإخراجه، أنا أحبه كثيرًا».

جلبوا أميد بعد مدة وجيزة، نظرنا إليه وضحكنا مع كل صوت صغير أو حركة يقوم بها. فيما بعد، وبعد أن أخذوه إلى غرفة الحضانة، بقيت أنا إلى جانب سمية طيلة الليل،

لم يستطع أي منا النوم؛ لذلك تحدثنا عن أميد وما ستصبح عليه حياتنا الآن وهو وسطنا. غمرني شعور هائل بالإنجاز، وكنت أعلم أني بحاجة لأن أكدَّ أكثر لجعل بيتي مركز حياتي.

لكن هذا الهدف لم يكف عن التهرب مني. يوم 23 تشرين الأول، 1983م، استيقظت على صوت أميد يضحك بين ذراعي سمية، قبلتهما كليهما، وهيأت نفسي للذهاب إلى العمل. قبل أن أغادر، أدرت مفتاح الراديو لسماع ما أمكن من أخبار الصباح حين أعلن تقرير عاجل عن تفجيرين انتحاريين استهدفا ثكنات قوات المارينز والجنود الفرنسيين في بيروت، لبنان. فجر الانتحاريون 12 ألف رطل من مادة ت.ن.ت، حولت مبنى من أربعة طوابق إلى ركام لتقتل 241 جنديًّا أميركيًّا و58 مظليًّا فرنسيًّا.

بعد أربع سنوات من هذا التفجير الانتحاري، تفاخر محسن رفيق دوست، الذي كان يشغل منصب وزير الحرس الثوري، بأن «مادة ت.ن.ت، والإيديولوجيا التي أرسلت 400 ضابط، وصف ضابط، وجندي إلى الجحيم في مقر قيادة المارينز قدمتها إيران».

كنت قد كتبت إلى كارول عن قيام النظام بإرسال ذخائر وأسلحة بالطائرات إلى سوريا ولبنان، وعن إدخال الحرس الثوري مقاتلين آخرين إلى تلك البلدان، وعن تدفق الأموال إلى تلك المناطق لتمويل أنشطة الخميني التوسعية. لم تكن أخبار هذا التفجير صادمة بسبب ضخامة التفجير وحسب، بل أيضًا بسبب العواقب المدمرة التي قد تتمخض عنها، فهل ستعمد الولايات المتحدة إلى الانتقام؟ وهل سيتسبب في نشوب حرب مع الأميركيين الذين يفوقوننا بما لا يقاس عددًا وعدة؟ وإن لم تنتقم، هل سيشعر الخميني بجرأة أكبر على القيام بهجمات أخرى؟ وبينما كانت زوجتي وابني يلعبان في الغرفة المجاورة لم تكن تسليتهم البريئة سوى نقيض مؤلم للتقارير المحبطة على الراديو.

غادرت متجهًا إلى العمل يتملكني القلق. قررت في أثناء الطريق أن أبعث برسالة أخرى إلى كارول، يتملكني شعور أعظم بأهمية الاتصال معها وتناول بعض الموضوعات التي دفع بها الهجوم الأخير إلى المقدمة. ركزت تلك الرسالة الجديدة على توسع النشاط الاستخباري للحرس الثوري تحت قيادة أحمد وحيدي؛ وهو من القوات الخاصة الذي سينشئ لاحقًا قوات

القدس، ومهمته هي تنظيم، وتدريب، وتجهيز، وتمويل التنظيمات المسلحة السرية في مختلف أنحاء العالم والقيام بأنشطة سرية.

[الرسالة #: ________]

[التاريخ: __________]

عزيزتي كارول،

1. **القوات الخاصة في الحرس الثوري على اتصال بالعديد من المنظمات الإرهابية، من ضمنها:**
   - **الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين.**
   - **الإسلاميون المصريون المتشددون (الجماعة الإسلامية).**
   - **الجيش الأحمر الياباني.**
   - **مجموعة إيتا الباسكية القومية الإرهابية.**
   - **والجيش الأرمني السري.**
2. **أخبرني كاظم أن رفيق دوست، وزير الحرس الثوري، شارك شخصيًا في إنشاء علاقة مع فصيل الجيش الأحمر في ألمانيا.**
3. **يقوم الحرس الثوري بتجنيد وتدريب مرشحين من دول إسلامية للقيام بأنشطة إرهابية مع قواعد تدريب في لبنان، والسودان، وإيران. وشاهدت فلسطينيين يساعدون في عمليات تدريب هؤلاء المرشحين يعملون خارج قواعد الحرس.**
4. **علمت من خلال أكبر -وهو من رجال الحرس في وحدتنا- بأن وزارة الخارجية عينت أفرادًا من القوات الخاصة في الحرس الثوري في السفارات والقنصليات الإيرانية. وهذه ليست تعيينات سياسية؛ بل تغطية دبلوماسية لجميع العمليات الاستخبارية فيما وراء البحار، والتي تتضمن الاغتيالات، والخطف، ونقل الأسلحة والمتفجرات.**
5. **أكبر على اتصال وثيق بالعديد من هؤلاء العملاء، وهو يدخل ويخرج من وزارة الخارجية باستمرار. وبيَّن أكبر أن القوات الخاصة تبعث بأوامر إلى العملاء خارج البلاد عبر استخدام ترددات البث الإذاعي، وذهب إلى حد التحدث عن الصيغة، ربما تمكنًّا من فك شفرتهم إذا قدم تفصيلات أكثر.**
6. **علمت من مصادر عدة أنه تم زرع عملاء الحرس في أماكن عدة، ويعملون الآن في البنوك الإيرانية، والخطوط الجوية، ومكاتب خطوط النقل البحري في الخارج.**

7. **رفيق دوست يشارك شخصيًا في شراء الأسلحة من السوق السوداء. بعض تلك الأسلحة تشحن لحزب الله والجهاد الإسلامي عبر سوريا بالتعاون معهم.**
8. **سيغادر رفيق دوست إلى سوريا قريبًا مع أحمد وحيدي. سأبلغك آخر الأخبار حين أحصل عليها.**
9. **الوضع هنا متوتر بسبب الحرب والاغتيالات التي يقوم بها مجاهدو خلق. الحرس حذرون من التسلل بسبب هذا.**
10. **جواد، الذي يعمل في دائرة الاستخبارات في قاعدتنا والذي يعرف كاظم أيضًا، يزورني باستمرار في دائرتي محاولًا بدء حوار معي، وطرح أسئلة. أشعر بعدم ارتياحه لعملي هناك. على أي حال، لا يشكل هذا مصدر قلق رئيس حتى الآن.**
11. **أخبرني رسول عن وحدة القوات الخاصة التي أقامت بنجاح العديد من البيوت الآمنة في العديد من الدول، ونجحت في التسلل داخل المجتمعات الإسلامية في الأرجنتين، والبرازيل، وباراغواي، خاصة في صفوف المنحدرين من أصول لبنانية. وبيَّن أن (المثلث) سيئ الصيت هناك، حيث لا وجود للشرطة، يجعل من السهل نقل الأسلحة والمتفجرات من خلال القنصليات والسفارات الإيرانية.**

ولي

(بعد أكثر من عقد، أثمر تسلل الحرس الثوري في المجتمعات الإسلامية في الأرجنتين في تموز 1994م، وبمساعدة من حزب الله، نفذ الحرس هجومًا إرهابيا ضد مركز للجالية اليهودية في بيونس آيرس، أدى إلى مقتل 85 شخصًا وجرح المئات. بعد الهجوم، أعدت المخابرات الأرجنتينية تقريرًا شاملًا أكدت فيه تورط الحكومة الإيرانية، كما توصل التقرير إلى أن وزارة الخارجية الإيرانية وفرت غطاء دبلوماسيًّا للعملاء الإيرانيين منفذي الهجوم الذي دبر بتخطيط عميل إرهابي من حزب الله معروف باسم عماد مغنية. وفي أواخر العام 2006م، أصدر قاض فدرالي أرجنتيني مذكرة اعتقال بحق كل من هاشمي رافسنجاني، الرئيس الإيراني في ذلك الحين؛ وعلي فلاحيان رئيس وزارة المخابرات في ذلك الحين؛ وعلي ولايتي، وزير الخارجية الأسبق؛ ومحسن رضائي، قائد الحرس الثوري في ذلك الحين؛ وأحمد وحيدي؛ وثلاثة مسؤولين آخرين من السفارة الإيرانية في بيونس آيرس. كما أصدر الإنتربول مذكرة اعتقال حمراء بحق محسن رضائي، وأحمد وحيدي، وعدد آخر من المسؤولين الإيرانيين لمشاركتهم في الهجوم).

حين أسـقطت الرسـالة إلى كارول مع رسـالة أخرى لعمتي جيتي، شعرت بأن هناك من يراقبني. كنت دائمًا أسـقط بريد كارول مع رسـائل أخرى إلى أصدقاء أو أفراد من الأسـرة في أميركا أو أوروبا لتجنب إثارة الشـكوك. إذا شـاهدني أحد وأنا أسـقط الرسائل وتفحص صندوق البريد، فسوف يجد الرسائل الفعلية مرسلة من شخص حقيقي، لكني مازلت متوترًا اليوم. أخبار التفجير الانتحاري في بيروت ما زال يضعني على حافة الهاوية.

قـررت الذهـاب لرؤية كاظـم بمجرد وصولي إلـى مكتبه. كنت بحاجـة لأن أحافظ على علاقات وثيقة معه، كنت بحاجة لأن أبقي على صداقته لي.

«سـلام أخ كاظـم»، قلـت لدى دخولي إلى مكتبه، «لقد سـمعت الأخبـار من الراديو هذا الصباح. الله معنا».

«سلام، رضا»، قال وهو يلتقط سماعة التلفون ويطلب رقمًا. «أدخل، إنها أخبار رائعة»، أشـار إليَّ برأسـه أن اجلس ثم تحدث في السماعة: «سلام يا أخ. معك كاظم...»، لم أستطع سماع الحوار على الجانب الآخر.

«هذه شهادة»، قال متحدثًا على ما يبدو عن استشهاد من نفذوا التفجير الانتحاري. ثم هز رأسـه موافقًا بينما كان الشـخص في الطرف الآخر يتحدث. «...بالطبع... كلاهما كان ناجحًا... لقد دمروا».

تغيرت ملامحه وأصبح جديًّا. «... سأشرح لك التفاصيل غدًا خلال اجتماعنا. تهانينا مرة أخرى، يا أخ. حمى الله زعيمنا».

كنـت مضطـرًا للحفـاظ علـى تعبير بـراق علـى وجهي خـلال كل هذا. الله وحـده يعمل كيـف كنت أشـعر في كل دقيقة، كنـت مضطرًا فيها إلى التظاهر بأني أسـتمتع بأخبار القتل، والخيانة، والتفجيرات الانتحارية، والاستشهاد.

على مدى عدة دقائق، بعد وضعه سماعة الهاتف، تفاخر كاظم بقوة الحرس وكيف أننا قريبًا سنهزم أعداء الإسلام.

«رضا، ستندهش من حجم الجهود التي تبذلها وكالات استخبارية مثل وكالة المخابرات المركزية، و(إم أي 6) البريطانية، والبائسة الموساد لتعرف عن أنشطتنا. إنها مهووسة بنا. لا يعلم هؤلاء الأشرار بأننا نفلت من تحت أنوفهم».

ذكر المخابرات المركزية الأميركية بعث القشعريرة في عمودي الفقري. ثم تذكرت أنه تحدث عن اجتماع غدا لشخص على الهاتف.

«رضا، ينبغي عليَّ أن أسألك بعض الأشياء. إنها مهمة جدًّا. سأقابل الحاج آغا جولساري غدًا. ولديه بضعة أسئلة عنك وأريد أن أكون مستعدًا حين أقابله».

ذلك التعليق أرعبني. ماذا سيحدث إذا كانوا يعرفون؟ فكرت مجددًا في شعوري بأن أحدًا يراقبني ذلك الصباح.

يا إلهي، إن عرفوا، ما الذي سيحدث لسمية. وماذا عن أميد؟ أريد أن أراه مرة أخيرة وحسب. أريد أن أحتضن سمية وأن أقول لها أنا آسف على كل شيء.

رن جرس هاتف كاظم فتناول السماعة، مستديرًا عني في الوقت نفسه. «ألو، السلام عليكم... جيد... أشكرك... إنها أخبار طيبة... أنا مع الأخ رضا الآن».

دار بكرسيه ونظر إليَّ. ولاحظت هنا ابتسامة عريضة على وجهه. «كلا في الواقع كنت على وشك أن أخبره... سنغادر على الأغلب في غضون ثلاثة أسابيع... لقد أبلغت الحاج آغا جولساري بأني سأذهب مع رضا... أعلم أنا أحترمه بالقدر نفسه أيضًا. رضا نعمة بالنسبة لقاعدتنا، أخ رحيم».

عندها فقط عدت أتنفس بشكل طبيعي. حديث كاظم على الهاتف تلاشى وأنا أحاول جمع أفكاري. أخيرًا تنبهت إلى أنهم اختاروني لمهمة خاصة. بقدر ما عانيت من رعب قاتل قبل دقائق، كان أول ما تبادر إلى ذهني، المزيد من الأخبار لكارول ووكالة المخابرات المركزية.

أنهى كاظم مكالمته الهاتفية مع رحيم وأعاد انتباهه إليَّ. عادت نبرته لتوحي بالثقة وهو يروي الأخبار عن رحلتنا إلى دبي لشراء معدات لوحدة المخابرات. شدد على أنه ليس

في وسعي مناقشة التفاصيل مع أي شخص وابتسم وهو يخبرني عن الطلب الخاص الذي تقدم به إلى الحاج أغا جولساري، رئيس وحدة المخابرات في قاعدتنا، لاصطحابي معه بسبب معرفتي بأجهزة الحاسوب، وحقيقة أنني أتكلم الإنجليزية بطلاقة، وقبل كل شيء، لأنه يثق بي.

كان كاظم على سجيته. كشف بفخر العديد من الحوادث المحددة جدًّا في الدول الأوروبية والشرق أوسطية تتعلق بنقل متفجرات وأسلحة عبر موانئهم ومطاراتهم. سجلت تلك الملاحظات في الذاكرة محاولًا تذكر أكبر قدر ممكن من التفاصيل للرسالة التي كنت أخطط لكتابتها إلى وكالة المخابرات المركزية في تلك الليلة.

في النهاية، حين وقفت لأغادر، رمقني كاظم بنظرة تشع بالفخر في عينيه. «الذهاب في هذه المهمة شرف عظيم، رضا. آمل أن تكون متحمسا لها».

ابتسمت ودفعت ذقني إلى الأمام: «أنت تعلم، كاظم، أني مستعد لفعل أي شيء من أجل الإسلام والإمام الخميني». قلت بكل ما استجمعته من حماس.

الفصل
16

حجاب

في تلك الليلة وبعد أن عرفت عن تفجير بيروت، كتبت إلى كارول رسالة أخرى.

[الرسالة #:______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول،

1. **أخبار التفجيرات في لبنان أحدثت جلبة عظيمة بين الحرس اليوم، بقي كاظم على الهاتف يهنئ الرفاق الآخرين. تكلم بفخر عن شجاعة الشهداء المشاركين في التفجير الانتحاري. كان منتبهًا تمامًا لنجاح المهمة التفجيرية.**
2. **تحدث كاظم عن نقل أسلحة ومتفجرات في أوروبا والشرق الأوسط. في إحدى المناسبات نقلوا أسلحة ونقد بمبلغ يصل إلى مليون دولار عبر ملا عالي الرتبة ومرافقيه في أثناء سفرهم بهمة رسمية إلى ألمانيا، حيث أعطيت لعملاء إيرانيين. وفي حدث آخر، نقلت المتفجرات والأسلحة بواسطة الخطوط الجوية الإيرانية إلى إسبانيا، نقلت بعدها من مكتب الخطوط الجوية الإيرانية إلى عملاء إيرانيين لاستخدامها ضد المجاهدين. وأخبرني أن عضوًا معارضًا في دبي اسمه علي قد اختطف وأخذ إلى السفارة الإيرانية، حيث استجوب، ونقل بسيارة القنصلية إلى المطار، ثم إلى طائرة الخطوط الجوية الإيرانية فطهران ليستقر أخيرًا في سجن إيفين. ولا أعرف مصيره.**
3. **طلب مني كاظم السفر معه إلى دبي. تلقى تفويضًا من الحاج آغا جولساري، رئيس وحدة المخابرات في قاعدتنا. سنغادر بعد ثلاثة أسابيع من اليوم.**
4. **المهمة هي شراء أجهزة كمبيوتر وبرامج للتواصل ومعالجة الكلمات لوحدة المخابرات.**
5. **أرجو إفادتي إن كان في وسعك الحضور للقائي في دبي. سأكون ممتنًا لمقابلتك وجهًا لوجه.**

ولي

يوم الجمعة التالي تلقيت منها ردًا على رسالتي:

مرحبا ولي،

تلقينا رسالتك. معلومات بالغة الأهمية. جهد ممتاز.

سأكون في دبي في الفندق X. استخدم هذا الرقم للاتصال بي. أقطع الاتصال في حال أي شبهة.

يرجى تزويدنا بأحدث المعلومات عن سفر رفيق دوست إلى سوريا، التاريخ، والهدف، والمرافقين له.

نحن فخورون بك. ابق بأمان. واصل إطلاعنا على أخبار جواد.

أراك في دبي.

كارول

لم تكن سمية سعيدة بخبر رحلتي إلى دبي، فقد أصبح الوضع كله في إيران مرعبًا بالنسبة لها لدرجة أنها لم تعد تشعر بالأمان للخروج وحدها، وتزايد هذا الشعور بعد تورطها شخصيًّا في حادث مخيف.

في إحدى الأمسيات تطوعت للبقاء مع أميد كي تتمكن من زيارة إحدى صديقاتها. انتابني بعض القلق حين لم تعد إلى البيت في الوقت الذي كنت أتوقعه، لكنني تجاهلت الموضوع، متصورًا أن سمية كانت مستمتعة بالجلسة وأن الوقت سرقها. كانت سمية قليلًا ما تخرج؛ لذلك كان من السهل عليَّ تصور استمتاعها بمناسبات نادرة، لكن بالنظر إلى حال بلدنا، فإنه ينبغي عليَّ أن أكون أكثر توجسًا.

حين عادت في وقت متأخر، كانت في حالة صدمة، ترتجف، وتبكي. لم أشاهدها قط بهذه الحالة من الرعب؛ فتوقعت على الفور استنتاجات مريعة.

«كنت أنتظر سيارة تاكسي»، قالت وهي تلهث بشدة: «كانت هناك فتاتان أخريان تقفان على بعد بضعة أقدام أمامي تنتظران سيارة أجرة أيضًا، ثم فجأة ضغطت سيارة رباعية الدفع فراملها بقوة بحيث إن السيارة انزلقت بضع ياردات قبل أن تتوقف تمامًا، كان في وسعك أن ترى الدخان ورائحة الإطارات المحترقة، ثم عادت إلينا وخرج من فيها يصرخ

علينا طالبين منا الصعود إلى السيارة». انفجَرَت باكية، «كنت خائفة جدًّا، وانحصر تفكيري فيما يمكن أن يفعلوه بي».

دفعني هذا سريعًا إلى التفكير بصديقة سمية، فرح. التي اعتقلتها (أخوات زينب) وهي الشرطة الأخلاقية المسؤولة عن مراقبة التزام النساء بارتداء ملابس محتشمة، لوضعها مساحيق تجميل على وجهها؛ حيث إن النظام يمنع طلاء الأظافر، وظهور خصلة من الشعر من تحت الحجاب، ومسحة خفيفة من أحمر الشفاه، وبعض أحمر الخدود، وأي شيء من هذا القبيل، وقد يخضعون الشابات للجلد لمحاولتهن الظهور بشكل أكثر جاذبية. فرح تصدت لهن، معتقدة أنها تدافع عن حقوقها، حبسوها مدة أربعة أيام، وضربوها وحبسوها في زنزانة مع المجرمات. كانت فرح امرأة صلبة، لكنها حين أطلق سراحها، كانت مرعوبة لدرجة أنها لم تعد تخرج من دون شادور.

طوقت سمية بذراعي وضممتها إليَّ، محاولًا تهدئتها، ومحاولًا معرفة ما حدث بالضبط.

«رضا، أخذوني إلى الشرطة الدينية، كان الأمر مخيفًا، كانت هناك فتاتان داخل السيارة حين اعتقلونا. (أخوات زينب) كن في منتهى الوقاحة، والحقارة، والقذارة. في كل مرة كانت أي واحدة تسأل عن سبب اعتقالنا وإلى أين يأخذوننا. كانوا يطلبون منا أن نخرس وأنهم سيضربوننا إذا تفوهنا بكلمة أخرى. تم أخذوا أسماءنا وعناويننا».

«بعد أن أنزلونا في مركز الشرطة الدينية، شاهدت مجموعة أخرى من النساء مصطفات في ممر خلف الباب، كان في وسعي سماع الكثير من الصراخ والبكاء، في أثناء انتظارنا خرجت حارسة وقالت: إنهن سيجلدننا خمسون جلدة لعدم احترامنا وإطاعتنا للأحكام الإسلامية».

تفجر غضبي عند سماع هذه الكلمات، إذا كانت تلك المجموعة من الأوغاد يفعلن ما أعتقد أنهن يفعلونه، فعهد عليَّ أن أقتل كل واحدة منهن.

لكن قبل أن يحملني خيالي بعيدًا، أخبرتني سمية بأنهم أطلقوا سراحها مع بعض النسوة الأخريات دون التعرض لأذى بدني. يبدو أن رئيس الشرطة الدينية أطلق سراحهم لأنهن يرتدين الحجاب المناسب، ولأن (أخوات زينب) اعتقلتهن دون وجه حق.

بالرغم من كرهي الشديد لترك سمية في ذلك الوقت، كان ينبغي علي القيام بتلك الرحلة إلى دبي، حاولت أن أطمئن زوجتي بأني سأعود سريعًا، لكني ملزم بالذهاب. في الصباح الذي غادرت فيه، بكت سمية بشدة لدرجة أشعرتني بالتعاسة، لكن في الوقت نفسه، شدت دموعها من عزيمتي، كان ينبغي عليَّ فعل كل ما أستطيع لمنع الذين يتسببون بكل هذا الخوف لها من مواصلة السيطرة على بلدنا.

حجز كاظم لنا غرفتين في فندق شيراتون الشارجة، في مكان غير بعيد عن دبي، وهي منطقة أشد فقرًا من المدينة الحديثة النامية. لحسن الحظ، كانت غرفتانا متباعدتين عن بعضهما. ما سهل عليَّ مقابلة كارول. بعد مدة وجيزة من نزولنا الفندق، اتصلت بها لتعريفها بمكان إقامتي، ولأخبرها بأني سأتصل بها مجددًا لترتيب لقاء بمجرد أن أعرف جدول مواعيدي مع كاظم.

في اليوم التالي، قابلت أنا وكاظم تاجرًا يعرفه جيدًا اسمه سعيد، يمتلك شركة للاستيراد والتصدير بالشراكة مع عربي اسمه فهد. رتب لنا سعيد موعدًا مع وسيط عربي اسمه عبدالرحمن يتكلم الإنجليزية بطلاقة، خلال هذا الاجتماع كان لكل واحد منا دور محدد: كاظم الرجل الرئيس الذي سيقوم بالحديث والمفاوضات. سعيد المنسق ورجل الخدمات اللوجستية، وأنا خبير الحاسوب. وحيث إن عبدالرحمن لا يتحدث سوى العربية والإنجليزية، وحيث إن لا أحد من الآخرين يتحدث العربية، فقد عملت أيضًا كمترجم.

طاف بنا عبدالرحمن في شركات عدة متخصصة بأجهزة الحاسوب، قلنا لهم إننا نود افتتاح شركة جديدة مقرها طهران تنوي التوسع في كافة أرجاء إيران. بينا لهم أننا لا نريد أجهزة الحاسوب وحسب؛ بل أيضًا الربط الشبكي، ومعالجة البيانات، والتتبع، وبرمجيات الاتصال لدعم خطط تطوير أعمالنا. كنا بحاجة لاستخدام هذا المستوى من التحايل مع تلك الشركات لمنع المخابرات الأميركية من معرفة ما نفعله. ولو عرف أي شخص أننا بصدد شراء معدات للحرس، فثمة احتمال كبير بأن تقوم وكالة المخابرات الأميركية أو أي منظمة استخبارية أخرى بمحاولة إدخال عيوب عليها بطريقة ما أو رصد أنشطتنا أو ربما تخريبها.

رتـب كاظـم خططًا لزيـارة القنصليـة الإيرانية في الصبـاح على أن نكمـل جولتنا بعد الظهـر. بعـد عودتنا إلى الفندق، ذهـب كاظم إلى الغرفة لتأدية الصـلاة، ما منحنـي فرصة للاتصـال بـكارول. الآن وبعد أن عرفت برنامج كاظم، صار في وسـعي الترتيب لمقابلتها في اليوم التالي. ناقشنا عدة خيارات وقررنا أن من الآمن لنا أن نتقابل بعد نوم كاظم. وحيث إن مغادرتي للفندق في تلك الساعة المتأخرة يشكل خطرًا عليَّ. أخبرتني كارول بأنها ستقابلني في غرفتي في الساعة الواحدة صباحًا.

تركـت بـاب الغرفـة غيـر مغلـق حتـى يمكنهـا الدخول حيـن تشـعر أن المـكان آمن. ثم انتظرتهـا، إلـى الأبـد، كما بدا لي. لم أتوقف عن التأكد من السـاعة ومـن الباب، بينما كنت أحـاول التركيـز علـى القضايا التـي أود تناولها مع كارول. بين الحيـن والآخر كنت أحدق في صورة ابني الذي خططت لأن أريها إياه.

يبـدو أن وكالة المخابرات المركزية قد اكتسـبت قـدرًا من الثقة بي كي توافق على هذا الاجتمـاع الخطـر. طلبـت هـذا الموعد لأنـه لم تكن لـدي أي فكرة عـن التأثير الـذي تحدثه تقاريري، وكنت بحاجة لمعرفة رد الفعل. كنت أشـعر بأني معزول وضعيف، وبحاجة لمعرفة أن المخاطر التي أتعرض لها كانت تخدم غرضًا ما.

فـي النهايـة، فتح الباب ودلفت كارول داخلة، مغلقـة الباب خلفها. تنكرهـا- في معطف طويل لونه أزرق فاتح، مع حجاب فضفاض متعدد الألوان على رأسـها مع خصلة من الشـعر تظهـر تحتـه- فاجأنـي بعض الشـيء. بدت لي شـرقية للغاية ولـم أتعرف عليها فـي البداية، الواقع أنها ذكرتني بعمة سمية، بدت الدهشة على وجهها حين رأتني حليق اللحية. كان حلق لحانا فكرة كاظم لكي نبدو مثل رجال الأعمال الذين يفترض أننا منهم.

أكدت لي كارول أنها لم تجتذب انتباه أحد في أثناء قدومها إلى غرفتي، لكنها شـددت أنها لا تستطيع البقاء طويلًا بسبب تأخر الوقت. بالرغم من أن دبي أكثر انفتاحًا من معظم مدن الشرق الأوسط، لم يكن من الحكمة بالنسبة لامرأة أن تبقى خارجًا لوحدها في ساعات الصباح الباكر. أخرجت كارول رزمة من الأوراق وبدأنا العمل.

ذهبت هذا الصباح إلى القنصلية ورأيت أفرادًا من الحرس الثوري متنكرين على شكل موظفين سياسيين، كاظم كان يعرف عددًا منهم وعرفني عليهم، لكنه لم يذكر أسماءهم الأخيرة. كان هناك الأخ مهدي، والأخ جعفر، والأخ غلام. في أثناء وجودنا هناك وصلت سيارات ليموزين سوداء طويلة ترفع أعلامًا إيرانية ولوحات قنصلية. في وقت متأخر من ذلك اليوم، مال عليَّ كاظم قائلًا: «هل تذكر سيارتي الليموزين اللتين رأيناهما في القنصلية اليوم؟ تلك هي طريقتنا في العمل. كانتا تحملان متفجرات وأسلحة نارية، ثم ابتسم وأخبرني أن المسؤولين أوقفوا سيارات الليموزين، إلا أن أحدًا لم يجرؤ على تفتيش قافلة للقنصلية».

«هل أعطاك كاظم أي تفصيلات عن نوع تلك المتفجرات»؟

«كلا».

«هل سمعت أي شيء آخر عن تفجير لبنان»؟

«عقد كاظم اجتماعًا مع الحاج آغا جولساري في اليوم الذي تلا التفجير. لكنه لم يتحدث عن التفاصيل معي، لكنهم جميعًا كانوا يتصلون ويهنئون بعضهم».

«ما هي خطط كاظم هنا في دبي»؟

«كما بينت في رسالتي، نحن هنا لشراء معدات حاسوب وبرمجيات لوحدة استخبارات الحرس الثوري. وقد صرح كاظم بأن الحرس يوسعون عملياتهم، وقد أنشؤوا دوائر منفصلة لكل منطقة في العالم، تشرف كل دائرة على عمليات خاصة وأوضاع سياسية لكل منطقة، وسوف يتعاملون مع عدد كبير من معالجة البيانات وتخزينها».

«مع أي الشركات تتعاملون، وكم ستمكثون في دبي»؟

«فاوضنا عددًا من الشركات، وأعتقد أن كاظم سيبرم صفقة مع شركة (كمبيوتر دايناميك غير المحدودة) غدًا. إذا سار كل شيء كما يجب، سنطير عائدين في غضون يومين».

أطلعتها على عمل سعيد وفهد في مجال الاستيراد والتصدير في دبي، مبينًا أنهم لا يصدرون إلا إلى إيران حصريًّا، وأضفت أنني أشتبه بقوة في أنهم يعملون كواجهة للحرس بحيث يتولون التعاملات المتعلقة بالمعدات تحت غطاء ما (الصناعة، مثلًا)، في حين أن الغرض النهائي من تلك المعدات هو الاستخدام العسكري. وقد بدأ الحرس الثوري في استخدام الشركات الوهمية لمشترياته منذ تأسيسه، ثم ركزنا على الأحداث في طهران، بما في ذلك مراجعة أنشطة الحرس، ومع أنها تعرف بأن حظر الأسلحة يحقق نجاحًا، لم تكن تعلم إلى أن أبلغتها بأن الحظر يتسبب في نقص حاد في قطع الغيار للطيران الإيراني، سجلت ملاحظات وأنا أشرح لها بأن رفيق دوست أجرى عدة اتصالات في السوق السوداء لشراء قوة نارية ضرورية. وحصل على عدد من السفن الصغيرة العتيقة للحرس، واستخدمها لتهريب الذخيرة من السوق السوداء إلى موانئ إيران، وقد استبعدت تلك السفن الشكوك بسبب حجمها ومظهرها.

«سمعت من كاظم أن رفيق دوست سيسافر إلى سوريا خلال الأسابيع القليلة المقبلة مع أحمد وحيدي: شاهدت العديد من توجيهاته إلى رحيم، قائد قاعدتنا. ينشط وحيدي للغاية في تنظيم العمليات خارج إيران، وإلى جانب لبنان، حيث يدير مصطفى النجار عمليات الحرس بالتنسيق الوثيق مع وحيدي ووحدة مخابرات الحرس، فإنهم يخصصون الكثير من جهدهم لدول الخليج العربي وإفريقيا. ما زلت لا أعرف التاريخ المحدد لمغادرتهم».

واصلت كارول الكتابة واستمرت التفاصيل تتدفق مني.

«قبل أسبوع من قدومي إلى دبي، أجريت محادثة مطولة مع رسول، الذي ذكرته في تقاريري. هو أيضًا في وحدة استخبارية خارج قاعدتنا. أخبرني أنه خلال يوم القدس الدولي الأخير -الحدث السنوي الذي يعترض على احتلال إسرائيل للقدس- سلمت ملايين الدولارات نقدًا إلى حزب الله وقادة الجهاد الإسلامي المشاركين في المناسبة. وأخبرني رسول أنه شخصيًّا سلَّم بعضًا من هذه النقود في اجتماعات سرية أجراها مع الحرس. وقد أغضبه ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يفهم لماذا يتوجب علينا أن ندفع لهؤلاء الناس إذا كانوا يحاربون من أجل الإسلام. من الواضح أن النقود كانت دفعات لأنشطة إرهابية ضد الولايات المتحدة وإسرائيل».

سجلت كارول كل ما ذكرته، وحين ذكرت رسول، توقفت عن الكتابة قائلة: «يبدو رسول وكأنه شخص مهم»، دون إضافة أي تفسير آخر.

واصلنا الحديث مطولًا، وحين انتهت من استنطاقي، أعطتني كارول المزيد من الإمدادات التي تعودت استخدامها للتواصل معها وكتاب شفرة جديد.

«ولي، آمل أنك تعرف بأن المعلومات التي ترسل بها إلينا ذات قيمة عالية بالنسبة لحكومة الولايات المتحدة، وأننا ممتنون جدًّا لجهودك»، ثم أضافت: «الآن خبرني المزيد عن جواد الموجود في مكتبك. ما الذي يفعله ليسبب لك كل هذا القلق»؟

«يعمل جواد في الوحدة الاستخبارية في قاعدتنا، وهو يأتي إلى مكتبي كثيرًا، طريقته توحي بالتهديد؛ يحدق مباشرة في عيني في أثناء طرح الأسئلة؛ الأسئلة بحد ذاتها لا تنم عن ضرر: كيف حال عمتك في أميركا؟ أو، هل أحببت الإقامة هناك حين كنت طالبا؟ لكن طريقة طرحه للأسئلة تشعرني وكأنه يتقصى. في أحد الأيام سأل كيف يمكن لشخص مثلي لديه فرصة العيش في أميركا أن يعيش في إيران بهذا الراتب الضئيل، بينما يمكنه الحصول على كل شيء من (الشيطان الأكبر)؟ كان يقول ذلك مازحًا، لكن انطباعي أنه لم يكن يمزح على الإطلاق».

«وكيف كان رد فعلك على أسئلته»؟

«أتعامل مع أسئلته عادة بطريقة جيدة، لكني قلق من أنه ينوي شيئًا ما، وأنه قد كلف شخصًا بمتابعتي، إنه متعصب متشدد، ويشك في كل شخص سافر إلى أميركا. أعتقد أنه يختبرني، لكن ذلك يشعرني بعدم الارتياح».

كانت كارول داعمة لي، أخبرتني أن الوضع سيكون دائمًا على هذه الحال، وسيكون هناك أناس يسببون لي القلق وأن كل ما أحتاجه هو البقاء حذرًا. أعادت عليَّ الحديث عن مدى امتنان الجميع في وكالة المخابرات الأميركية وشددت -كما كانت تفعل في مناسبات أخرى- بأن الوكالة لن تضغط عليَّ للقيام بأي شيء لا أريد القيام به أو أشعر بعدم الراحة للقيام به. وإذا ما قررت التوقف في أي وقت فسوف يدعمونني بالكامل. كان ذلك موضع تقدير مني. الواقع، أني كنت أتطلع لهذا النوع من الكلام المشجع بالتحديد.

«لا تفعل أي شيء يعرضك أنت أو أسرتك للخطر»، قالت: «أريد أن أراك تعود أنت وزوجتك وأسرتك إلى الولايات المتحدة ذات يوم».

هذا دفعني لأن أريها صورة أميد، وتحدثنا عنه وعن سمية لبعض الوقت. بدا أن اهتمامها بأسرتي حقيقي. ثم تناولت حقيبتها وناولتني مغلفًا.

«هذه علاوة مقابل كل العمل الشاق الذي فعلته، فنحن نعتبرك أفضل حلقة اتصال لنا في إيران، ونحن نثق بجميع المعلومات التي تبعث بها إلينا».

كان في المغلف خمسون ورقة نقد من فئة المئة دولار، وكان ذلك مبلغًا كبيرًا من المال في بلدي. يمكن لأي إيراني من الطبقة الوسطى أن يعيش حياة طيبة بمبلغ خمس مئة دولار في الشهر، بالنظر لسعر الصرف في السوق السوداء. وبقدر ما كانت تلك النقود مغرية لي، وبقدر ما كانت النقود ستحدث فرقًا بالنسبة لأسرتي، لم أشعر أن من الصواب قبولها. فإنها تجعل ما أقوم به وكأنه تعامل تجاري، وهي غير ذلك تمامًا بالنسبة لي.

بدا أن كارول فهمت مشاعري المتضاربة. قالت: «أنت تستحقه، خذه».

راحت عيناي إلى صورة أميد مرة أخرى، ثم فكرت كيف يمكن لهذه النقود أن تساعده هو وسمية إذا ما حدث شيء لي. «لم لا تودعيه في الحساب نفسه الذي تودعي فيه راتبي»؟ قلت وأنا أعيد المغلف لها.

ابتسمت كارول بلطف ووافقت أن تقوم بذلك. الآن، علينا التفكير بأفضل طريقة لخروج كارول من غرفتي. كانت الساعة الثالثة فجرًا، التقطت دلو الثلج، وفتحت الباب، واتجهت ناحية ماكينة صنع الثلج، تاركًا الباب نصف مفتوح لكارول، وأخبرتها بأني سوف أسقط دلو الثلج إذا اشتبهت بشيء. انسلت خارجة بينما نزلت أنا إلى الردهة.

عدت إلى غرفتي، وقمت على الفور بإخفاء المواد التي أعطتها لي في الطبقة السفلية من حقيبتي بين دفاتر الملاحظات والمجلات التي اشتريتها في ذلك الصباح، ثم وضعت دفتر الشفرة في إطار صورة أميد. فكرة صورة وجهه البريء الذي يستخدم كغطاء لنشاطي الخطر ضايقتني. قبلت الصورة هامسًا، أنا آسف، أميد جون.

الفصل
17

تم تمرير الشعلة

داخل محطة مطار مهراباد، كانت أصداء الأصوات تتنافس بعضها مع إعلان مكبرات الصوت عن مواعيد الوصول والإقلاع، كانت سمية وأميد ينتظران عند البوابة خارج الجمارك، هرعت نحوهم، متشوقًا لعناقهم وتاركًا كاظم خلفي. زوجتي وابني أصبحا ملاذي، مكاني الآمن الوحيد حيث يمكنني أن أكون ما أريد أن أكونه.

لكن ابتسامة سمية المعهودة لم تكن موجودة ذلك اليوم، ومع اقترابي منها، كان في وسعي رؤية الدموع في عينيها، ضممتها لوهلة، ثم دفنت رأسها على كتفي وانخرطت في البكاء.

هززتها بلطف وأخذت أميد من بين ذراعيها، وضممته إلى صدري. «ماذا حدث»؟ سألتها.

نظرت سمية إلي بحزن: «رضا، نيما قتل في الجبهة، لقد تلقينا الخبر هذا الصباح». جنَّد الجيش ابن خالتها نيما، البالغ من العمر 18 عامًا، قبل أربعة أشهر، دربه لمدة وجيزة ثم أرسله إلى الجبهة، ها هي الثورة تطيح بواحد آخر منا.

منحني كاظم فسحة صغيرة للترحيب بسمية. الآن وبعد أن شهد مأساتنا، اقترب وسأل عما حدث. «أخ كاظم، لقد سمعت للتو أن ابن خالتي قتل في الجبهة»، قالت سمية.

مخاطبتها كاظم بكلمة (أخ) كان لها وقع عندي، أسعدني أنها بذلت جهدًا لتبدي احترامًا لوضعي، مع أنها تحتقر وجودي مع الحرس الثوري وتعاني من مأساة مقتل قريبها.

«أنا آسف جدا لخسارتك، أيها الأخت»، قال كاظم واصفًا سمية (بالأخت)، «لكنه الآن شهيد دفع حصته من التضحية في سبيل الإسلام».

لأسباب لا أفهمها حين أعيد التفكير في المسألة، شعرت أنه من المهم بالنسبة لي أن أدعم هذه النقطة. قلت: «أخ كاظم، أنت على حق. ينبغي علينا أن نفخر بأن عائلتنا لديها محارب في سبيل الله، شهيد».

بدت لي الكلمات مصطنعة بمجرد خروجها من فمي، والأهم من ذلك، عرفت أني تجاوزت الحدود مع سمية بمجرد قولي تلك الكلمات؛ ففي حين كانت تتقبل عملي على مضض مع الحرس، فما كانت لتتقبل قط بتسفيه موت أحد أحبائنا بهذه الطريقة؛ فشعرت بالبؤس على الفور.

كان رد فعل سمية حسبما أعرف أنها سترد - ويجب أن ترد- فما إن أدار كاظم رأسه استجابة لصوت ينادي اسمه، حتى دفعت ذراعي بعيدًا. ونظرت إليَّ بغضب ساطع، قائلة: «دعنا نذهب من هنا».

في الطائرة، كان كاظم قد أخبرني بأنه علم من رحيم بأن الجيش العراقي يستخدم الأسلحة الكيماوية ضد قواتنا في الهجوم الذي أطلق عليه عملية خيبر، والتي حدثت في جزيرة مجنون في العراق. تلك الأسلحة، وهي خليط من غازي السارين والخردل، قتلت وجرحت الآلاف؛ ولأننا نفتقر إلى مرافق للعلاج، سعى الحرس للحصول على مساعدة من مختلف مناطق أوروبا. ومن دون توافر علاج أو ترياق يخفف من آلامهم، تعرض جنودنا لتشنجات، ونزف من الأنف والفم، وفي النهاية اختناق، تصور نيما يموت ميتة بطيئة مؤلمة زاد من شعوري بالذنب لما تفوهت به.

دمرت قلة إدراكي لقاءنا، ابتعدت سمية عني وسارت مسرعة إلى المخرج، هرعت لتوديع كاظم قائلًا بأن سأراه في المكتب الأسبوع المقبل، وركضت للحاق بها.

بقيت سمية صامتة في طريق عودتنا إلى البيت، وأبقت رأسها ملتفتًا ناحية النافذة، كنت أعلم أنه كان ينبغي عليَّ أن أقول شيئًا لها، لكني لم أستطع التفكير بأي شيء. هل ينبغي عليَّ الاعتذار لأني رجل مخلص للحرس وأومن بالشهادة؟ هل أخبرها بأني لا أومن بما سبق وقلته، وأني لم أفعل ذلك إلا لنيل إعجاب كاظم؟ كلا التفسيرين بديا فارغين بالنسبة لي، وأعلم أن أيًّا منهما لن يهدئها. للمرة الألف منذ أن اتصلت بوكالة المخابرات المركزية

أردت أن أخبر سمية بما يجري بالضبط، وحقيقة أني لا أستطيع القيام بذلك أحبطتني وتركتني أشعر مثل زوج بائس.

حين وصلنا المنزل، وضعت سمية أميد في سريره بينما ذهبت أنا إلى غرفة مكتبي، بعد دقائق، وقفت في مدخل مكتبي وكسرت صمتها.

«أنت شخص عديم الإحساس بالمرة، رضا. أنت لست غبيًّا، أعلم هذا. لكنك في بعض الأحيان تفعل أشياء وتقول أشياء تجعلني لا أعرفك. كيف يمكنك قول ما قلته في المطار؟ فقدان خالتي لابنها يجعلك مسلمًا فخورا؟ لقد أصبحت أعمى، رضا. أنت لا ترى الأمور على حقيقتها. لقد تعبت من كل هذا». توقفت وضاقت عيناها. «وتعبت منك أيضًا».

صفقت الباب خارجة، وتركتني ورأسي بين كفيَّ أقاوم دموعي، كنت متحمسًا جدًّا بشأن العودة إليها، وكان هذا آخر ما أردته حين رأيتها، أرحت ذراعيَّ وجبهتي على المكتب. محاولتي أن أكون رضا و(ولي) في الوقت نفسه كان يتسبب في اقترافي الأخطاء ويقودني لأن أكون غير مراع للأشخاص المهمين في حياتي.

كنت ما زلت مطأطئ رأسي حين استيقظت في منتصف الليل وقد تصلبت رقبتي. اليوم هو الجمعة، ما يعني أنني سأتلقى رسالة من كارول، لكن ما زال لدي بعض الوقت قبل ذلك، غادرت مكتبي وسرت على أطراف أصابعي عبر القاعة لأطل على سمية وأميد، فتحت باب غرفة النوم بهدوء، كانت سمية تحتضن أميد في فراشنا، وقفت أنظر إليهما لوهلة، متمنيًا لو كنت معهما، وبي شوق لتلك المتعة البسيطة التي يتقاسمونها، ثم التقطت طرف البطانية وغطيت قدمي سمية، وأرسلت قبلة في الهواء لهما، وغادرت، مغلقًا الباب بهدوء.

قبل تشغيل الراديو، كتبت رسالة قصيرة إلى كارول.

[الرسالة #:______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول،

1. **عدت من دبي لأعلم بأن ابن خالة سمية قتل في الحرب.**
2. **استخدم الجيش العراقي الأسلحة الكيماوية ضد القوات الإيرانية في علمية خيبر. الإصابات عالية، الحرس الثوري يحاول نقل بعض الإصابات إلى دول أوروبية للحصول على العلاج.**

3. **تم استخدام غاز الخردل والسارين في الهجوم.**
4. **أرسينا الطلبية على شركة كمبيوتر داياميكس غير المحدودة.**
5. **نتوقع استلام الشحنة الأولى من معدات الحاسوب خلال أربعة أسابيع.**

ولي

في تلك الليلة لم أتلق أي رسائل من كارول، كانت تعلم أني قد وصلت للتو إلى المنزل وربما افترضت بأني متعب جدًّا ولم أتفحص جهاز الراديو. لكن ساور بعض الشك أفكاري.

كانت آخر مرة رأيتها فيها حين رتبنا معًا لمغادرتها غرفتي في دبي. ماذا لو حدث لها شيء في أثناء عودتها من الفندق؟

مر أسبوع وسمية على خصامها معي، وما زلت عاجزًا عن التفكير في شيء أقوله لها يجعل الأمور أفضل، كانت سمية تقضي الوقت مع عائلتها المنهمكة في الإعداد لترتيبات جنازة نيما؛ لحسن الحظ أبقاني العمل منشغلًا، حيث كان عليَّ زيارة قاعدتين مع كاظم ورحيم، تقوم قوات الحرس فيهما بإجراء تجارب على الصواريخ.

أخيرًا، فتحت سمية باب مكتبي، صبيحة يوم الخميس؛ كنت نائمًا على الأرض على بطانية ضئيلة الحجم، محشورًا ما بين الجدار وطاولة المكتب، التي تشغل معظم مساحة الغرفة.

«أتساءل إن كنت تستطيع المجيء معي للتسوق من أجل عيد النيروز»، قالت برقة، مشيرة إلى الاحتفال المقبل بعامنا الجديد. خلافًا للمرة الأخيرة التي تحدثت معي بها، لم يكن هناك أي أثر للعداء في صوتها الآن. أخبرتها أنه يسعدني أخذها للتسوق، هزت رأسها ولم تقل شيئًا لبضع ثوان طويلة، في النهاية، أشارت إلى المكان الذي أنا مستلق فيه.

«عليك جلب المزيد من البطانيات للنوم عليها، وضعتها كلها في المخزن في الطابق السفلي». ثم منحتني ابتسامة وجدت طريقها إلى روحي مباشرة. «لكنك تستطيع النوم في غرفة النوم معنا هذه الليلة».

وددت لو كان في وسعي إيجاد الكلمات التي تردم الفجوة بيننا قبل أن تفعل هي ذلك. مرة أخرى، وددت لو أن في وسعي شرح أسباب خلقي لتلك الفجوة في المقام الأول.

رددت عليها بابتسامة مقابلة قائلًا: «أود ذلك».

بقدر ما كنت سعيدًا بعودتي إلى فراشنا، كان اليوم التالي يوم جمعة، وأنا بحاجة إلى الاستيقاظ من أجل رسائل كارول. كان عليَّ في تلك الليلة أن أحرص أكثر على مغادرة غرفتنا دون أن تعرف سمية بأني غادرتها؛ فليس في وسعي جعل سمية تعتقد بوجود أي شيء أهم بالنسبة لي منها في هذه اللحظة؛ خاصة أن هناك شيئ غامض لم نتحدث عنه قط.

كالعادة، أيقظتني ساعتي البيولوجية وما زال لدي وقت، قررت استغلال ذلك الوقت للبدء بكتابة رسالة إلى كارول. أخبرني رسول، العضو في الحرس الثوري من وحدة الاستخبارات الذي حدثتها عنه في دبي، عن مبيعات أسلحة وتدريب للحرس الثوري من الصين وكوريا الشمالية. أصبح رسول -دون قصد منه- أحد أفضل مصادري؛ لأن سفرياته تجعله على اتصال بالتعاملات التي لا تتاح لي الفرصة للسماع عنها عادة. كان رسول يحب إثارة إعجاب أصدقائه بالحديث عن الأشخاص الذين كان معهم وعن أهمية عمله، ولا يحتاج إلا لقدر ضئيل من التشجيع حتى يبدأ في التفاخر بمدى معرفته ببواطن الأمور وجعله يسترسل في التفاصيل.

انضم رسول إلى وحدة الاستخبارات مباشرة بعد التخرج من جامعة أمير كبير للتكنولوجيا بشهادة في الهندسة الكهربائية، ينتمي والده ووالد رحيم للمسجد نفسه، وهما صديقان منذ سنوات عدة، كانت مقابلته للحصول على الوظيفة روتينية؛ لأن مؤهلاته تتفق مع المعايير المطلوبة للعمل في وحدة الاستخبارات، فهو ملتزم جدًّا بالإسلام، ولديه صلات عائلية مع الحرس. كان المسؤولون في الحرس يفضلون الأشخاص الذين يأتون بتوصية قوية ويستطيعون تفحص خلفياتهم بسهولة؛ زملاء رسول أطلقوا عليه لقب (الفتى الضخم) بسبب قامته البالغة ستة أقدام وبنيته القوية.

خلال كتابة رسالتي إلى كارول التي تضمنت معلومات جديدة من رسول، حان وقت سماع الرسائل. وضعت السماعات على أذنيَّ وأنصت بعناية.

مرحبا ولي،

مستعجل. هل سمعت أي شيء عن عميل لوكالة المخابرات المركزية في بيروت اسمه وليام باكلي؟ نعتقد أنه خطف من قبل حزب الله، نقدر أي معلومات تبعثها، دعنا نعرف إن كنت سمعت أي شيء.

كارول

كانت تلك المرة الأولى التي تطلب فيها مني وكالة المخابرات المركزية معلومات محددة عن أحد عملائها، بالنسبة لي، كان ذلك يوحي بمستوى جديد من الثقة في التفاصيل التي كنت أبعث بها بالنسبة ليَّ، كان ذلك يوحي بمستوى جديد من الثقة في التفاصيل التي كنت أبعث بها إليها. حقيقة أن كارول لم تذكر رسالتي الأخيرة تعني أنها لم تتسلمها بعد، لكني كنت سعيدًا لمعرفة أنها عادت إلى إنجلترا بسلام، بعد عدم سماعي شيئًا منها في الأسبوع الماضي.

بعد تلك الرسالة، أكملت رسالتي.

[الرسالة #:_______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول

1. **اختبر الحرس بنجاح في الأسبوع الماضي أول طائرة من دون طيار توجه عن بعد، جرى الاختبار في قاعدة خارج طهران قرب مدينة كرج.**
2. **أجرى الحرس بنجاح أيضًا اختبارًا لصاروخ يطلق من السطح إلى السطح.**
3. **الكوريون الشماليون موجودون في إيران للمساعدة في تطوير صواريخ أرض ـ أرض.**
4. **ثمة برامج لتدريب الحرس الثوري كطيارين مقاتلين في كوريا الشمالية.**
5. **أرسلت وحدة الاستخبارات أفرادًا للتدرب على الاستخبارات المضادة في كوريا الشمالية.**
6. **يجري تدريب القوات البحرية للحرس الثوري من قبل الصينيين في قاعدة بحرية في الصين.**
7. **اشترى الحرس صواريخ (سلكورم) الصينية وتلقوا الدفعة الأولى منها.**
8. **باع السويديون قوارب هجومية صغيرة مزودة بصواريخ صغيرة.**
9. **لم أسمع شيئًا عن و. ب، لكني سأتقصى للحصول على أي معلومات.**

ولي

في ذلك الحين، لم أسمع أي إشارة إلى وليام باكلي سواء في الأخبار أو مكتبي؛ لهذا السبب، عرفت أن ليس من الحكمة أن أسأل. فضولي في السؤال عن شخص يفترض ألا يعني اسمه شيئًا بالنسبة لي سيثير الشبهات دون شك؛ إلا أن تداعيات رسالة كارول أقلقتني؛ اختطاف الأميركيين والأجانب الآخرين من قبل الحرس ومواليهم لاستخدامهم كورقة مساومة كان أمرًا رائجًا في مختلف أنحاء الشرق الأوسط، لكن اختطاف عميل لوكالة المخابرات المركزية ليس كذلك، حسب جميع الاحتمالات، لن يطلق الخاطفون باكلي حيًّا، وهذا يعني بأن وكالة المخابرات المركزية سترد بشكل غير متناسب، وأن تصعيد العنف سيتواصل، فتحت أذني لسماع أي ذكر لباكلي، دون سماع أي شيء لمدة طويلة.

قبل النيروز، رأس السنة الفارسية، تلقيت رسالة من كارول تطلب مزيدًا من التفاصيل بشأن رسالتي السابقة.

[الرسالة #:______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول،

1. **يسعى الحرس لشراء تجهيزات حماية ومعدات للدفاع ضد الهجمات الكيماوية.**
2. **سمعت من رحيم أن محسن رضائي أعطى الحرس إشارة المباشرة في تطوير أسلحة كيماوية.**
3. **الصين نشطة جدًّا في بيع المعدات العسكرية إلى إيران، وقد زودوها بمدافع بعيدة المدى مع ذخائرها. أخبرني كاظم أنه نظرًا للاستخدام المفرط للمدافع في الجبهة، فإن سبطانات المدافع تنهار وتنفجر، لكن الصين تحافظ على تدفق المدافع الجديدة إلى إيران بشكل منتظم.**
4. **يتراوح طول الزوارق السويدية ما بين 30_40 قدمًا مع قاذفات صواريخ في مقدمة الزورق. يتراوح طول الصواريخ التي رأيتها ما بين 4 و6 أقدام. يحمل كل زورق قاذفا صواريخ اثنين مع رشاش ثقيل.**
5. **يخطط الحرس لاستخدام الطائرات دون طيار في عمليات الاستطلاع وكوسائل هجومية بتسليحها.**
6. **بعض قادة الحرس الثوري يسافرون بانتظام إلى كوريا الشمالية، وثمة علاقة وثيقة بين الحرس الثوري والجيش الكوري الشمالي.**

ولي

مـع اقتـراب عيد النيروز، أتيحت لي الفرصة للاسـتراحة والاهتمام بأسـرتي، وهو أمر كان موضـع ترحيـب ومتعـة لي. فقـد وصل محب خـان وزاري خانم، والدا سـمية من إنجلترا لمسـاعدتنا فـي الاحتفـال ورؤيـة حفيدهمـا الجديد، الـذي بـدأ الآن يزحف وظهر له سنَّان سـفليان. كانـت سـمية متلهفـة علـى جعـل والديهـا جزءًا مـن حياة أميد. كما شـغلت نفسـها بتحضيـر (سـفرة السـينات السـبعة) لعيد النيروز. سـفرة العـام الجديـد التقليدية، وكانت رائحة الخزامى الأبيض والأرجواني، المكون الرئيس على الطاولة، تملأ المكان.

فـي وقـت سـابق من ذلـك اليـوم، ذهبت إلى منـزل جـدي لاصطحابه وإحضـاره لحفل الغـداء، كان قـد طعن في السـن ولم يعد قادرًا على فعل أشـياء كثيرة بمفـرده، في الواقع أنه كان سـينتقل إلى منزل عمي (والد هالة ومنى) في الأسـبوع المقبل، لم يعد جدي قادرًا على استضافة حفلات النيروز بالرغم من أنه تولاها على مدى سنين طويلة، وحين قدت السيارة لإحضاره أدركت أن المشعل قد مرر من جيله إلى جيلي لإدامة تقاليد العائلة.

دخـول السـاحة الأماميـة لمنزل جدي والسـير في ذلـك الممر المألـوف الذي تحف به قوارير إبرة الراعي، أعاد إليَّ دفقًا من الذكريات الأثيرة. أغلقت عيناي لوهلة، وأخذت نفسًا عميقًا، مسـتمتعًا بحلاوة البسـاطة التي تثيرها تلك الذكريات. كان في وسـعي سـماع جدتي خانـم بوزورج تناديـني قبل زمن مضى: «رضا جون، ادخل واجلب أصدقاءك. إنه عام جديد وأريـد أن أعطيكـم العيدية». حين نذهب إليها، كانـت تناول كل واحد منا ورقة نقدية جديدة مـن فئـة الألف ريال (تعادل حوالي 15 دولارًا في ذلك الحين) تحتفظ بها داخل القرآن. كان كاظـم يقبـل القـرآن ويشـكر جدتي على كرمهـا. ويقوم نـاصر بتحيـة صورة الشـاه على ورقة النقد، ثم يضعها في جيبه مع باقي العيديات التي جمعناها، لنعود جميعًا إلى السـاحة سعداء لنناقش الطريقة التي سنصرف بها تلك النقود.

في هذه السـاحة نفسـها تجمعنا مع ناصر وداود حيث وقع ناصر في حب هالة. وفي هذه السـاحة نفسـها احتفلنا بكل يوم في حياتنا دون قلق على المستقبل.

وقفـت هنـاك وتمنيت لو أن داود هو من سـيقل جدي إلى بيتنـا، وأن ينضم إلينا ناصر، وسهيل، وبارفانا.

تعني كلمة نيروز (اليوم الجديد) ويبدأ دائمًا في أول أيام الربيع، وهو يمثل مفهومين رمزيين قديمين: النهاية والولادة من جديد، أو بدقة أكبر، نهاية الشر وولادة الخير. وتشتمل واحدة من تلك التقاليد قيام العضو الأكبر سنًّا في العائلة، وكان عادة جدي آغا جون أو جدتي خانم بوزورج، بتلاوة القصص عن النيروز ومعنى العام الجديد الذي انتظرنا قدومه.

كانت جدتي تخبرنا عن السينات السبعة. وتشرح لنا بأن سفرة السينات السبعة تشتمل على سبعة مواد تبدأ بحرف س: سبز: وتعني البراعم، وترمز لولادة جديدة؛ سامانو: حلوى مصنوعة من جنين القمح، وترمز إلى الوفرة؛ سنجد: فواكه مجففة من شجر الزيزفون، وترمز إلى الحب؛ سيب: تفاح، ويرمز إلى الجمال؛ سماق: ويرمز إلى شروق الشمس؛ سركه: الخل، ويرمز إلى طول العمر والصبر؛ سنبل الخزامى، دلالة على قدوم الربيع. حين كنا صغارًا، كنا أكثر تحمسًا لنقود العيد، من معرفة التقاليد، لكننا كنا نجلس ونستمع لشرح جدتي.

على مدى الثلاثة عشر يومًا التي تستغرقها احتفالات السنة الجديدة، كنا نجتمع ونحتفل دون توقف، وقد يأتي الأقارب لزيارة الأفراد الأكبر سنًّا من العائلة، وقد يقوم الأفراد الأكبر سنًّا برد الزيارة؛ كل هذا كان يعني مزيدًا من النقود للأطفال، وفي اليوم الأخير، كما هي العادة، كنا جميعا نخرج للنزهة في الضواحي، نرقص، ونغني، ونلعب إلى أن يجبرنا الليل على العودة إلى بيوتنا.

كانت مائدة سمية ملونة وبهيجة مثل ما أذكره عن مائدة جدتي، وحسب العادة، اشتملت على مرآة وشموع مشتعلة للنور والسعادة.

مع اقتراب السنة الجديدة، تجمعنا حول المائدة؛ سمية ووالديها، آغا جون، والدتي، وأنا حاملًا أميد. لم نكن أنا ووالدتي قد حللنا خلافاتنا، وما زلت أرى الازدراء في عينيها كلما نظرت إليَّ. لكن ولادة أميد لطفت الأجواء بيننا، وصارت تزورنا بانتظام لرؤيته. فقد أحبت حفيدها كثيرًا، وكانت مستعدة لتحمل وجودي عند الضرورة لتقضي بعض الوقت معه.

ابتدأ محب خان بقراءة آيات من القرآن الكريم، أغمضنا جميعًا عيوننا وصلينا بصمت، بعد مدة وجيزة من الصلاة، أظلمت الغرفة فجأة؛ انقطعت الكهرباء، وهو حدث عادي خلال الحرب.

«أعلم أنهم فعلوا هذا عمدا اليوم»، قالت والدتي، وهي تهز رأسها. «لا يريدون أن يكون لدينا كهرباء في العام الجديد، لا يريدوننا أن نحتفل بعيد النيروز وننعم بحياة سعيدة».

بالرغم من أن انقطاع الكهرباء يحدث كل يوم تقريبًا، إلا أنني أعلم أن والدتي أثارت نقطة هنا: كان الملالي يحاولون بقدر استطاعتهم تدمير ثقافتنا، وأعتقد أنها كانت تحاول تذكيري بمدى خيبتها لارتباطي بالنظام؛ أما فيما يتعلق بأهداف الملالي، فقد كانت محقة؛ لأنهم حاولوا بشدة انتزاع التراث الفارسي وفرض التقاليد العربية/ الإسلامية علينا ودسها في حناجرنا، وذهبوا إلى حد محاولة منع الاحتفال بالسنة الجديدة، معتبرين أنها غير إسلامية.

ساد صمت مترقب حين انطفأت الأنوار، ثم ربت جدي على ظهر والدتي قائلًا: «أنت محقة. لن تعود الأمور إلى ما كانت عليه طالما بقي أصحاب اللحى الطويلة هؤلاء الحمير اللقطاء يحكمون بلدنا، لكن يا سيدة فاتنة، هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي لنا؛ النيروز هو الجزء الوحيد من التراث الفارسي الذي أبقى هويتنا سليمة إلى جانب أسرتنا». نقل آغا جون حامل الشمعة قربه، «نحن نحتفل بالنيروز منذ ثلاثة آلاف عام ولا يستطيعون منعنا الآن ولا في أي وقت آخر».

ثم نهض بمساعدة عكازه وقبل جبهة والدتي، أخرج مغلفًا من جيبه وناوله لسمية: «سيدة سمية هذه عيدية أميد. أرجو من الله أن يكون ابن الشاهنشاه قد عاد من المنفى في أميركا. عندها سيعود النيروز كما اعتاد أن يكون وتعود معه السعادة إلى بيوتنا».

ثم دار جدي على الجميع مقبلًا الجميع كعلامة على بدء العام الجديد، كانت العادة أن ينهض الأصغر سنًّا ويقبل الأكبر سنًّا كدليل على الاحترام والحب للعائلة؛ لكن حتى هذا تغير.

نظرت إلى والدتي وقلت هامسًا: «كل عام وأنت بخير». تمنيت كثيرًا أن أعبر لها عن أسفي، لكن كما هو الحال دائمًا، تراجعت عن ذلك.

الشموع على مائدتنا، التي وضعت لترمز إلى السعادة والتنوير، خدمت الآن كمنارات من خلال الظلام الذي تفرضه الحكومة، المرآة التي كان يجب أن تعكس النور لمستقبل مشرق، عكست بدلًا من ذلك خيبة أمل والدتي مني.

الفصل
18

المتطرف

خـلال الشـهور القليلـة اللاحقـة، راقبـت كاظـم وهـو يرتقـي بسـرعة فائقة فـي وحدة الاسـتخبارات، كان يعمـل بكـد لا يصدق، ولا يأخذ إجازة قط، وحين أتاح له الحرس فرصة الحصول على أرض وسـيارة رفض، موضحًا أنه في هذا العمل للمسـاهمة بقدر ما يسـتطيع في الثورة وليس من أجل ما يسـتطيع جمعه من ثروة، وفي الوقت نفسـه، كان يدعم أحاديثه بمراجـع ومناشـدات دينيـة، متحولًا بأعمالـه وكلماته إلى متطرف إسـلامي نموذجي، وبقدر ما أزعجني وأخافني هذا السـلوك، عند مسـتوى معين، أدركت أنه يبعد عن كاظم أي شبهة؛ أصبح شخصًا فوق مستوى الشبهات.

أدركت أنني بحاجة لمثل هذا النوع من الحماية لشخصية ولي، بدأت أقلد سلوك كاظم، بدلًا من الذهاب إلى المنزل بعد العمل، كنت أتبعه إلى المسجد لحضور خطب الحداد دعمًا لجنودنا الذاهبين إلى الجبهة للاستشهاد، وقد أرافقه أيضًا لأداء صلاة الجمعة.

فـي إحـدى هـذه المـرات، تلا تلـك الموعظة هاشـمي رافسـنجاني، وكان يومها رئيـس البرلمـان، ثـم رئيسًـا فيما بعد؛ وهو شـخصية محوريـة (معتدلة) في الضجـة التي أحاطت بانتخابات العام 2009م.

«الصحافـة الغربيـة والصهيونية تتهمنا بتعذيب معتقلينا في سـجن إيفين»، قال لألوف المجتمعيـن، «يقولـون إننـا نعـذب أفـراد المعارضـة ونجبرهم علـى الاعتراف»؛ هنا ابتسـم بتكلف، اختلسـتُ النظر إلى كاظم، الذي كان يسـتمع بحماس بالغ ويتجاوب مع كل إشـارة. «الغرب لا يفهم أن حرسنا الثوري الملتزم يقوم بتعريف السجناء القرآن والقيم الإسلامية، قوة الإسلام هي التي تساعد هؤلاء الناس على فهم أخطائهم، يتوبون ويطلبون المغفرة منه، بهذه الطريقة يعترفون».

ردت الجموع بحماس بالغ، هاتفين: «الله أكبر... الخميني زعيمنا... الموت لأميركا... الموت لإسرائيل...».

واصل رافسنجاني تقديم تضليله المنافي للعقل للجماهير -التي كانت تصفق له بحماس بالغ- بينما كنت شبه ثمل مما أسمع؛ خطابات الملالي الدينية كانت تزعجني على الدوام، لكن بعدما قاله رافسنجاني عن سجن إيفين وكل ما أعرف أنه حدث لناصر، وسهيل، وبارفانا، ورويا، وآخرين كثر أجج غضبي، بالرغم من عدم قدرتي على إبداء أي إشارة على ذلك، تساءلت كيف يمكن لكاظم أن يرفع قبضته في الهواء تأييدًا لتلك الكلمات دون احترام لذكرى أناس أحبهم ذات يوم، أخجلتني مراقبة إبداء هذا الولاء الأعمى، وهذه الإدانة لوسائل الإعلام الغربية لقولها الحقيقة، مع ذلك تظاهرت بأني أشارك في هذه الهستيريا الجماعية، تلك التجربة جعلتني أبكي.

نظر إليَّ كاظم وناولني منديله كي أمسح دموعي، كان يعرفني بشكل جيد ذات يوم، لكن تعصبه سيطر عليه تمامًا بحيث أنه فسر انفعالاتي بطريقة خاطئة تمامًا: «نحن وحيدون تمامًا في هذا العالم، رضا»، قال وهو يلامس كتفي: «لكن الله معنا؛ يستطيع الغرب أن يطلق كل ما يريد من أكاذيب عن ثورتنا للعالم أجمع، لكن النصر لنا. كل شيء بيد الله».

أومأت إليه موافقًا بجدية؛ بالرغم من أنه كان من المهم جدًّا لمهمتي أن أحافظ على ثقته، لكن كانت هناك أوقات أردت فيها أن أصرخ عليه، أو أهزه، أو أضربه بالجدار وأنا أخبره كم هو غبي وأعمى.

بعد أسابيع من موعظة رافسنجاني، جاء كاظم إلى مكتبي.

«رضا، عليك أن تحزم حقائبك»، قال لي مضيفًا: «سنغادر في غضون يومين إلى بندر عباس، علينا تركيب نظام الحاسوب الجديد لمراكز القيادة والمراقبة في منطقة الخليج العربي».

بندر عباس، مدينة ميناء تقع على الشاطئ الجنوبي لإيران، في أهم المواقع الإستراتيجية على خليج هرمز الذي يتحتم على جميع السفن المرور منه. كان في وسع الحرس الثوري الذي نشر في ثغر الخليج، أن يراقب أو يعرقل تدفق النفط إلى أنحاء العالم

كافة؛ فكرة الذهاب في هذه الرحلة مع كاظم أثارتني؛ لأنها تمثل فرصة ممتازة لجمع المعلومات الاستخبارية لوكالة المخابرات المركزية.

تعمل بندر عباس أيضًا كمحور تنقل منه سرًّا المعدات والأفراد في سفن صيد كبيرة إلى قواعد الحرس البحرية في جزر مضيق هرمز، كما أنهم يستخدمون السفن القديمة لنقل الأسلحة من المياه الدولية إلى إيران.

خلال مدة إقامتي هناك، شهدنا عمليات تدريب واسعة النطاق للقوات، وتحدثنا للعديد من القادة عن التعزيزات. كان الحرس الثوري يدرب الآلاف من الوحدات الصغيرة كغواصين ومطلقين للصواريخ مع القوات النظامية، التي تتدرب على الزوارق الصغيرة المصممة للمناورة في الخليج. وخلال انتقالنا من قاعدة إلى أخرى على طول الساحل، كنا نرى وحدات المراقبة في الحرس الثوري تتابع كل سفينة لحظة دخولها الخليج عبر مضيق هرمز حتى وصولها موانئ العراق.

شهدنا أيضًا تدريب القوات البحرية للحرس الثوري؛ حيث هاجموا سفنًا وهمية للعدو بمئات القوارب الصغيرة، بدا واضحًا لي أن الهدف هو بناء قوة بحرية غير تقليدية. يعلم الحرس أن سفنهم الحالية يمكن أن تدمر خلال ساعات في أي نزاع مع الولايات المتحدة، لكن المئات من الوحدات الصغيرة المسلحة بالصواريخ يمكن أن تشكل مشكلة خطيرة على أي عدو في المياه.

بعد رحلة مضنية إلى جزيرتي قشم وأبو موسى، ارتميت أنا وكاظم متعبين في فراشنا في القاعدة. استلقى كاظم في الجزء العلوي من السرير المكون من طابقين واضطجعت أنا في الجزء السفلي، بالرغم من كل ما أحس به من إرهاق، وجدت صعوبة في النوم بسبب الحرارة والرطوبة.

هبت نسائم رطبة من خلال شقوق ستائر الثكنة الممزقة، حاملة رائحة المحيط المالحة وتلاطم الأمواج الهادئة. كان يمكن لأصوات ورائحة الطبيعة في أوقات السلم أن تهدئني في وقت آخر من حياتي، لكن هذا لم يكن شبه كاف الآن، بدلًا من ذلك ذكرني هذا الدليل على نقاء الطبيعة بمدى بعد طموحاتنا عن النقاء في بلدنا.

تساءلت ما إذا كانت تقاريري إلى وكالة المخابرات المركزية ستغير شيئًا من هذا، إلا أنني لم أكن متأكدًا، ثم أطلقت تنهيدة عميقة وأنا غارق في أفكاري.

حين فعلت ذلك، انحنى كاظم فوق فراشي: «رضا، هل أنت مستيقظ؟ هل أنت بخير»؟

كم أكره ألا أستطيع التعبير عن يأسي لنفسي حين أكون في العمل، حتى في منصف الليل: «الحر شديد، كاظم، ولا أستطيع النوم، كيف تستطيع النوم مع هذه الرطوبة!»؟

«أنا لا أشعر بالنعاس، كنت أفكر وأتساءل إلى أين تأخذنا الحياة، هل تعلم، رضا، في بعض الأحيان أتساءل كيف يمكننا أن نهزم أميركا. أنا أومن بأن إمامنا المهدي سيظهر ويجلب العدل إلى العالم ويضع حدًّا لهؤلاء الأشرار الآثمين؛ لكني أتساءل هل سأكون موجودًا حين يحدث هذا، وهل سأحظى بشرف الخدمة تحت قيادته ومشاهدة هذا النصر»؟

الإيمان بالظهور المستقبلي لإمام الشيعة الثاني عشر -الإمام المهدي- يجلب الكثير من الإثارة للشيعة. كنت على الدوام أعتقد أن القصد من تفسير الوعد بعودة المهدي للظهور ليس سوى حكاية رمزية؛ إلا أن كاظم وكثيرين ممن يفكرون مثله يعتقدون أنه في وسع مخلوق بشري، حتى وإن كان مقدسًا مثل إمام الشيعة الأخير، يستطيع الاختباء في حفرة لمئات السنين ويعود لقيادة حركة الخميني، ويجلب العدالة والسلام إلى العالم أجمع، ويعطي أملًا بإحداث تغيير إلهي.

«هل تعرف حديث النبي محمد عن الإمام المهدي؟ وكيف أن أمة المسلمين ستبتلى في آخر الزمان، بمصائب ومحن رهيبة من حكامهم، وتضيق عليهم الأرض بما رحبت، ويلف الأرض الظلم والجور، ولن يجد المؤمنون ملجأ يحميهم من العذابات والظلم».

«أتعلم يا كاظم، في بعض الحيان أتساءل، لكني أفكر بعدها كيف انتهينا أنا وأنت هنا، نتشارك في المعتقد نفسه، وفي التزامنا بالإسلام، وكيف أن قدرنا ومصيرنا أبقيانا قريبين من بعضنا. نحن نحقق الكثير تحت قيادة وإرشاد الإمام الخميني، أنا أومن بشدة بأننا كلانا سنتشرف بالخدمة تحت قيادة المهدي، إن شاء الله».

كنت ممتنًا للظلمة؛ لأنه كان من الصعب الاعتقاد بأن تعابير وجهي لم تكن لتفضح كذبي ونفاقي حين خرجت تلك الكلمات من فمي.

«رضا، أنت ذخر لهذه الأمة، ويجب أن تعرف مقدار الاحترام الذي أكنه لك، ثمة شيء أردت أن أقوله لك منذ زمن؛ أتمنى لو أن ناصرًا اختار مسارًا آخر، أتمنى لو أنه كان مثلك، أنا أدعو له دائمًا، أدعو الله أن يغفر خطاياه».

تساءلت عن سبب ذكر كاظم لاسم ناصر الآن، حيث إنه لم يتلفظ بكلمة عنه منذ أن أخبرني عن إعدام أصدقائنا، تفكير كاظم بأنه يتمنى لو أن ناصرًا كان يشبهني جعلني أنكمش؛ هي يعني ذلك أنه كان يتمنى لو أن ناصرًا كان كذابًا وشخصًا بحاجة لأن يختبئ خلف ظله؟

«نحن جميعًا نعاني من جهلنا»، واصل كاظم: «الله ربي والإسلام مرشدي. إذا تجاهلنا الحقيقة، فسوف ننتهي في جهنم، الآن يستحسن أن تنام، لدينا غدًا يوم طويل».

تلك كانت فلسفة كاظم باختصار: المؤمنون الحقيقيون مثل المسلمين المتطرفين الذين يقتلون باسم الله يدخلون الجنة، أما الذين يشككون في سلطة الملالي ويقاتلون من أجل حقوقهم فيدخلون النار، إذا اعتقد كاظم أن في وسعي النوم وهذا المفهوم في رأسي، فهو مضلَّل أكثر مما كنت أعتقد.

كانت الليلة طويلة حيث جافاني فيها النوم تمامًا، نسمات دافئة شقت طريقها عبر الستائر، ذكرتني بالستائر في غرفتي في بيت جدتي التي اعتادت أن تزيحها في الصباح، لتسألني إن كنت قد أديت صلاة الصبح، «جدتي سوف أصلي فيما بعد»، قد أقول لها، فترد علي: «عزيزي، إن لم تلتزم بصلواتك فسوف تذهب إلى جهنم، أنت لا تريد أن تنتهي في نار جهنم محاطًا بالأفاعي والعقارب؛ أد صلاتك وكن صالحًا وسوف تذهب إلى الجنة». الطريق إلى الجنة كما وصفته لي بدا وكأنه خيال مثل تصور كاظم يبقى السؤال بالنسبة لي، في كلتا الحالتين، هو نفسه: هل ثمة مكان في الجنة للخونة؟

بعد أسبوعين في الخليج، عدنا إلى البيت إلى حياة فيها شيء مما هو طبيعي حتى في زمن الحرب، شعرت أن الرحلة كانت ناجحة لسببين:

- **أولًا:** جمعت ثروة من المعلومات.
- **ثانيًا:** بالرغم من شعوري بأنني محتال أكثر من أي وقت مضى، فإن قضاء كل هذا الوقت معه خلق وهمًا بالتقارب بيننا. أنا متأكد أن في عينيه المكسوتين بغشاوة كان يرى في هذه العلاقة امتدادًا يوازي تلك الأخوة الحقيقية أيام صبانا.

في مكتبي في المنزل، وقبل الاستماع إلى رسالتي التالية من كارول، كتبت رسالة أخرى. ثم بدأت في فك رموز آخر الإشارات:

مرحبا ولي،

علينا تغيير العنوان البريدي لرسائلك.

لا تقلق؛ مجرد إجراء روتيني.

من الآن فصاعدًا أرسل الرسائل إلى:

51 شارع X، الشقة 112

لندن

ابق بأمان.

كارول

لم أفهم سبب حاجتهم تغيير هذا العنوان، هل كان هناك اختراق أمني، أم أنه روتين كما تقول كارول في رسالتها؟ هل إذا حدث اختراق أمني، هل يخفونه عني كي أستمر في العمل معهم؟ هل يحاولون مساعدتي أنا وأسرتي على الخروج إذا انكشفت؟ أصبحت أفكاري شديدة الهلع لدقائق طويلة إلى أن هدَّأت نفسي. ينبغي عليَّ أن أثق بهم أو أنني سأصاب بالجنون وأرتكب أخطاء لا يمكن إصلاحها. لا بد من وجود أسباب وجيهة لديهم لاتخاذ هذه الاحتياطات. استخدام موقع واحد مدة طويلة يجعل من السهل كشف مراسلاتنا، ينبغي عليَّ أن أصدق هذا.

في اليوم التالي استدعاني رحيم إلى مكتبه، حين وصلت أسرع وأغلق الباب خلفي، وجلس إلى مكتبه.

«أجلس أيها الأخ»، قال وهو يشير إليَّ بالجلوس.

فعلت كما أمر، فتح أحد الأدراج، وسحب ملفًّا، دفعه ناحيتي. وقبل أن أتمكن من قراءة الكلمات البارزة عليه، غطاها بيديه السمينتين وسحب الملف ثانية ناحيته بيده الشمال وامتدت يده الأخرى نحو جيب صدر بزته لتناول نظارة القراءة خاصته.

«لدي بعض الوثائق هنا أريدك أن تترجمها لي».

دفع الملف ناحيتي مجددًا. الحروف البارزة (ن- ا- ت- و) لم ألتقطها على الفور، لكن حين فتحت الملف ورأيت صور ووصف الآليات العسكرية الثقيلة، أدركت أن الملف يحوي وثائق سرية، لم أصدق أن أعضاء الناتو يعرضون مختلف أنواع المعدات العسكرية على الحرس الثوري، مديرين ظهورهم لحظر الولايات المتحدة بيع السلاح لإيران.

«هل تريدني ترجمة كل شيء لك أخ رحيم»؟

سألت.

«لا،لا. لقد قمنا بذلك. أنا مهتم بمعدات معينة».

يبدو أن الحرس قد رتب بالفعل لصفقة كبيرة. راجعنا التفاصيل مدة ساعة أو ما يقارب ذلك مع تزايد انفعال رحيم بشأن المعدات التي سنتمكن من شرائها، سجل رحيم ملاحظات، وفعلت أنا مثله، لكن في ذاكرتي.

[الرسالة #:________]

[التاريخ: __________]

عزيزتي كارول

1. **تلقيت رسالتك. يرجى تأكيد الاستلام، أرجو أن أكون قد تلقيت العنوان الجديد صحيحًا.**
2. **اليوم في مكتب رحيم، طلب من ترجمة وثائق من ملف يحتوي على صور ومواصفات لآليات ثقيلة لاستخدامها في الجبهة. مكتوب كلمة (ناتو) أعلى الملف. بعض الآليات تستخدم في إقامة الاستحكامات، وبعضها لحمل المعدات الثقيلة والدبابات.**
3. **قال رحيم: إن الحرس الثوري بصدد طلب بعض هذه المعدات، سيكون مصدرها إنجلترا وألمانيا.**

4. **أخبرني كاظم أن الحرس بدأ في البحث والتطوير لإنتاج أسلحة كيماوية، وأنه يحقق تقدمًا في تحويل غاز الخردل إلى سلاح. هذا الجهد سمحت به القيادة لمواجهة استخدام صدام الأسلحة الكيماوية.**
5. **من المقرر إعادتي إلى الجبهة في غضون بضعة أسابيع. سأبلغكم عن التاريخ.**

ولي

كنت متوترًا بخصوص احتمال قيامي برحلة أخرى إلى الجبهة، الكثيرون يموتون هناك، وشعرت بأن الخطر يزداد بالنسبة لي في كل مرة أذهب فيها. ولم أكن أعرف أنني سأواجه خطرًا أعظم قبل تلك الرحلة.

الفصل 19

شبهات

في اليوم التالي، أخذت التقرير الذي كتبته مع رسائل أخرى متنوعة إلى صندوق البريد، في طريقي لإسقاطها، انتابني شعور أكيد بأن هناك من يراقبني، أعدت تفقد البريد قبل إسقاطه من الشق، ما يتيح لي وقتًا لأستوعب البيئة المحيطة بي، ثمة رجل يرتدي الكاكي وقميص بأكمام طويلة كان ينظر إلى من الجانب الآخر من الشارع، لمحت نظرته لوهلة، ولم يبد عليه أنه أحس بوجودي بأي شكل كان؛ لسبب ما زاد هذا من توتري أكثر مما لو بدأ في مطاردتي، كان قلبي ينبض بشدة؛ لذلك أخذت نفسًا عميقًا، وسرت متجاوزًا مبنيين، كما اعتدت أن أفعل سابقًا قبل أن أستقل سيارة أجرة، راقبت بحذر لرؤية ما إذا كان الرجل سيتبعني، قطع الشارع قرب صندوق البريد وبقي هناك، أردت الابتعاد بأسرع ما أستطيع، أشرت لسيارة تاكسي مارة، ونزلت منها قبل عدة مبان من مكتبي لرؤية إن كان هناك من يتبعني.

لحسن الحظ، لم ألحظ أحدًا، قضيت دقيقة أخرى أستطلع المنطقة، ثم أسرعت داخلًا المبني حيث مكتبي، كان هناك بضعة أفراد من الباسداران ينتظرون المصعد في الرحبة، لم أشعر برغبة في التواصل مع أحد في تلك اللحظة؛ لذلك بقيت مطأطئ الرأس وأسرعت نحو نهاية الممر إلى درج السلم، قفزت درجتين في كل خطوة، صعودًا إلى مكتبي في الطابق الرابع، وحين وصلت إلى هناك، كنت ألهث متنفسًا بصعوبة، أغلقت باب المكتب وأمسكت وجهي بيدي، فاركًا عيني، التجربة حطمت أعصابي؛ حقيقة أن لابس الكاكي توقف عند صندوق البريد كانت مخيفة، إذا عثر على رسالتي إلى كارول وتمكن من فك شفرتها فسوف يعرف أني من كتبها، مستوى التفاصيل في ذلك التقرير ستؤكد أنني أنا العميل (ولي)، أدركت أنه كان من السخف أن أواصل إسقاط البريد وأنا أعرف بأن هناك من يراقبني ولمت نفسي على هذا.

إلا أن ما حدث قد حدث، حاولت تهدئة نفسي وأن أؤكد لنفسي أنني أبالغ في الشك، ليس في وسع أي شخص أن يفك شفرة رسالتي، وكالة المخابرات المركزية وحدها هي القادرة على ذلك، أخذت نفسًا عميقًا وفتحت عيناي، رؤية جواد- جالسًا على مقعدي خلف مكتبي- هزتني بقوة، «سلام، يا أخ» قال، ضاحكًا بفتور وهو ينهض عن مكتبي، «تبدو مرهقًا، هل جئت مهرولًا إلى العمل اليوم»؟

حاولت الحفاظ على رباطة جأشي والبقاء ثابتًا، «ما الذي تفعله في مكتبي»؟ لم أشأ أن أبدو مستفزًّا، لذلك خففت من لهجتي: «هل كل شيء على ما يرام، أخ جواد»؟

«نعم، كل شيء على ما يرام، لكنك تبدو منزعجًا»، قال ساخرًا.

من الواضح أن ثمة غرض من وجوده هنا، لكنه لا يريد التصريح عنه، تفحص الغرفة، واختار مقعدًا جديدًا بينما ظل يراقبني وأنا أجلس، مال إلى الأمام وحدق بي، دون أن يتحرك.

اعلم أنه يريد شيئًا؛ كما هي عادته، لغة جسده كانت عدائية ونظرته فيها تهديد، بالرغم من أنه لم يكن يفعل شيئًا ينم عن مواجهة صريحة، بالرغم من جلسته، فقد تمكن من استخدام حجمه -البدين أكثر مما هو مهاب- للتهديد.

كان أكبر -وهو صديق لجواد- وعضو في دائرتنا، وأعتبره أنا مصدرًا جيدًا للمعلومات؛ نظرًا لأن له اتصالات مع وزارة الخارجية، قد أخبرني بأن جواد يتدخل في عمل الجميع، وأنه يحتفظ بملف لكل شخص، بالرغم من أن ذلك خارج عن إطار وظيفته، وقد جربت تدخلاته عدة مرات وكتبت إلى كارول عن قلقي بشأنه، وقال لي أيضًا: إن جواد يستخدم المعلومات التي يجمعها ليتملق رؤساءه واكتساب مزيد من السلطة.

جواد هو الشقيق الأصغر وسط ثلاثة إخوان، استشهد شقيقه الأكبر في الحرب ضد العراق، وأصيب الشقيق الأصغر بالشلل نتيجة مرض في الصغر، يرعى جواد شقيقه المتبقي ويساعد والديه اللذين ما زالا يعيشان في فقر، كان يرتقي بسرعة في مراتب وحدة الاستخبارات؛ بسبب إخلاصه للحكومة الإسلامية أولًا، واستعداده لبيع أفراد عائلته وجيرانه، وقد رتب مؤخرًا لاعتقال رجل من جيرانه، جريمته الوحيدة أنه همس لجار آخر

عن افتقار بناته للحرية في أثناء الانتظار في الصف أمام متجر لتبديل بطاقات الطعام ببعض السكر والأرز.

«ما الذي جاء بك إلى هنا، أخ جواد»؟ سألت مجددًا. «أخطط لزيارة صديق قديم، عباس، في القيادة العام للمخابرات، صديقي هذا درس في الخارج، مثلك تمامًا، وأعتقد أنه عاش في كاليفورنيا لبعض الوقت، أخبرته بأني سأصطحبك معي لمقابلته، ربما كنتما تعرفان بعضكما».

«اليوم»؟

«نعم، تفحصت جدول مواعيدك مع رحيم وقال إنك غير مشغول ألبتة».

فاجأني ذلك على حين غرة وزاد إحساسي بالخوف، لا شك أن جواد يخطط لأمر ما، هل للرجل الذي رأيته هذا الصباح علاقة بهذا؟ لم أعرف ما أقول ولا كيف أتصرف.

«هل ثمة مشكلة في ذلك»؟ عادت نبرة التهديد إلى صوت جواد، وما زال يجلس دون حراك.

عجلت في إعطاء تفسير: «أميد ابني، مريض، وتريد زوجتي أن أذهب معها إلى الطبيب». شعرت بالراحة لتلفيق هذه القصة، «هل من الضروري أن نذهب اليوم»؟

«نعم، يجب أن نذهب»، قال باقتضاب: «عباس شخص مشغول للغاية، وهذا هو الوقت الوحيد الذي يستطيع استقبالنا فيه، آمل أن يتحسن ابنك قريبًا، إن شاء الله، سأكون في مكتبي، قابلني هناك خلال نصف ساعة».

نهض جواد ببطء، ينظر إليَّ وكأنه يفكر في افتراسي، شعرت وكأنني عار وضعيف، ثم غادر دون أن يضيف كلمة أخرى.

ذهبت على الفور إلى مكتب كاظم، على الرغم من كل التعقيد الذي شاب علاقتنا -من وجهة نظري على الأقل، وعلى الرغم من شعوري بأنه تحول كثيرًا عن الصبي الذي نشأت معه- فما زلت أعتبره ملاذًا آمنًا، لدينا تاريخ طويل وعميق معًا، ولا بد أن يعني ذلك شيئًا

مـا، شـعرت بحاجة ملحة لذلك المـلاذ الآن؛ لذلك كنت بحاجة للتحدث معـه، كما أردته أن يعرف في حال لم أعد، بأني غادرت مع جواد.

كان كاظـم يتحـدث علـى الهاتف -كالعادة- لم أسـمع ما كان يقوله، ولـم يكن في نيتي استراق السمع هذه المرة.

«ما الأمر، رضا»؟ سأل بمجرد أن وضع سماعة الهاتف.

«لا شيء تقريبًا، جئت لأسلم عليك وأخبرك بأني ذاهب مع جواد إلى قيادة المخابرات، يريدني أن أقابل أحدهم هناك». «حقًّا؟ ومن هو الذي يريدك أن تقابله»؟

«لا أعمل، صديق له يدعى عباس، الذي يبدو أنه درس في كاليفورنيا»؛ «آه».

ظهـر مـن تعابيـر كاظم بأن هذه معلومات جديدة بالنسـبة له، أدركت بسـرعة أنني لن أنجز شيئًا من هذا الحديث، وليس في وسع كاظم أن يوفر لي أي نوع من الأمان هذه المرة، حسب جميع المؤشرات، لم يكن يعرف شيئًا مما يجري.

«ينبغـي أن أذهـب»، قلت، «إنه في انتظاري، بالمناسـبة، قال الأخ رحيم بأنه سـيعطيك تفاصيل رحلتنا إلى الجبهة، أبلغني حين تحصل عليها».

في الردهة، صادفت رحيم، «سلام، أخ رحيم».

«سلام أخ رضا، كان جواد يبحث عنك هذا الصباح، هل تحدثت إليه»؟

«نعم»؟

«لقـد تحقق من مدى انشـغالك اليوم، قائـلًا: إنه يريد أن يصطحبـك لتناول الغداء أو شـيء ما، هل تسـتطيع المرور بمكتبي حين تعود؟ أريدك أن تسـاعدني بضبط حاسوبي، لقد عاد للعمل بشكل سيئ مجددًا».

بـدا لـي أنه مهمـا كانت خطة جواد، فهي لم تصدر عن دائرتنـا، حيث يبدو أن لا رحيم أو كاظم يعرف عنها شيئًا، لم يكن في هذا أي عزاء لي، بغض النظر عمن يعرف ما يجري، يبدو أن جواد سيقودني إلى حتفي خلال ساعة.

أردت التحـدث إلـى سـمية، إذا كانت نوايا جواد مشـؤومة بقدر ما أعتقـد، فأنا بحاجة لسماع صوتها مرة أخيرة، بمجرد عودتي إلى مكتبي، طلبت بتردد رقم هاتف منزلي لا أعلم كيـف سأفسـر لهـا مكالمة كهذه، مدركًا في الوقت نفسـه أنني سـأثير قلقها، قـررت أن أغلق الخط، لكن قبل أن أفعل، ردت سمية.

«عزيزتـي سـمية، هذا أنا»، قلت وأنا أحـاول إيجاد طريقة للكذب، «لقد صادفت قائدي الآن وقال إن هناك احتمال بإرسال عدد منا إلى الجبهة على الفور».

ردت بلهفة: «هل سـيحدث هجوم واسـع أو شـيء ما»؟ بدت خائفة وانتابني شـعور كريه بأني أتسبب بهذا لها، لم أقصد إفزاعها، لكن ينبغي عليَّ إعطاءها شيئًا تتمسك به في حال حدوث الأسوأ.

«أوه، كلا، يريـد رحيـم مني وعدد آخر من الحرس الاسـتعداد لـ... انتظري لحظة...»، شـعرت بوجـود شـخص خلف بـاب المكتب، وضعت السـماعة ببطء وفتحت البـاب، لكني لم أشـاهد أحـدًا، نظرت فـي الردهة، وحين تأكدت من عدم وجود أحـد أغلقت الباب والتقطت سماعة الهاتف.

«أحبك، سمية»، قلت، وما زلت لا أعرف ما أقول لها، اتصلت بها مندفعًا، دون التفكير فيما سأقوله.

«رضـا، أنـت تقلقني بشـدة، هل كل شـيء على ما يرام؟ تبدو غريبًا جـدًّا، لم تتصل بي أبدًا في منتصف النهار، ما الأمر»؟

مـاذا لـو كانـت هـذه آخر مرة أسـمع فيه صوتهـا؟ ماذا سـيحدث إذا كان جواد ولابس الكاكـي الذي رأيته هذا الصباح يفكون شـفرة رسـالتي في هذه اللحظة؟ مـاذا لو لم أر ابني مرة أخرى؟ سيطرت على تلك الأفكار ولم أعد أستطيع الكلام.

«وأنا أحبك أيضًا»، قالت بعد وقفة طويلة مني.

أدركت، في تلك اللحظة، أني أستمد كل قوتي من حبها، حتى مع كل ما أحس به من قلق، كان وجود مثل هذا المخلوق النقي البريء في حياتي يجلب لي الفرح، «هل تعدينني بشيء»؟ سألت، «إذا كنت تصر»، أجابت بشيء من السخرية في صوتها.

نظرت إلى الباب مجددًا وأرخيت السمع لمعرفة إن كنت أسمع أحدًا، ثم واصلت: «إذا حدث أي شيء لي، عديني بأن تذهبي إلى لندن مع أميد والبقاء مع والديك»، لم تقل شيئًا؛ لذلك واصلت: «كما أخبرتك، قد أذهب إلى الجبهة اليوم، إن لم تسمعي مني في غضون بضعة أيام، أريدك أن تحزمي حقائبك وتذهبي إلى لندن، هل تعدينني»؟

«رضا، لست بحاجة لتذكيري بمدى خطورة عملك»، قالت بصوت مضطرب، «لكني لا أفهم سبب حاجتهم لخبير كمبيوتر في الجبهة، أنا فقط...» ولم تكمل بقيت هادئة وأنا أخبرها مرة أخرى مقدار حبي لها.

ثم، بقدر ما كنت أرغب في مواصلة سماع صوتها، أدركت أن من الضروري قطع المكالمة، فربما كان الحرس يستمعون لهذه المكالمة، فيزيد اشتباههم بي.

قابلت جواد في مكتبه ومن هناك انطلقنا إلى سيارته، قررت أن أحافظ على رباطة جأشي، محاولًا إقناع نفسي بأن جواد يتصرف بتلك الطريقة لاختباري، فهو على كل حال، وحسب قول أكبر، جعل من اختبار الناس مهنة له، في تلك الأثناء تراوحت أفكاري بين التساؤل حول ما إذا كان الحرس يعرف عن العميل (ولي) وإقناع نفسي بأنه لا يمكن لهم أن يعرفوا.

لم نكد ننطلق بالسيارة حتى رفع جواد قلقي إلى مستويات جديدة، «أخ رضا، سنذهب إلى سجن إيفين بدلًا من مكتب عباس»، قال: «لأن عباس في إيفين اليوم».

مجرد ذكر إيفين جعل رأسي يترنح، برقت على الفور صور آخر مرة كنت فيها، وترددت معًا أصوات الرعب، والتعذيب، والعويل، وإطلاق الرصاص في أذنيَّ، فكرت في بارفانا، وناصر، وسهيل، راودتني فكرة أن أكون سجينًا هناك، وكدت أفقد صورة الرجل الهادئ التي تمكنت من لبسها مؤقتًا، «أتطلع قدمًا لمقابلة صديقك هذا»، قلت وأنا أعدل جلستي في مقعدي، «اسمه الأخ عباس، أليس كذلك»؟

«نعـم، عباس –باركـه الله– أخبرني هذا الصبـاح أنهم اعتقلوا اثنين من الباسـداران الذيـن يعملون كجواسيـس لبلاد أخـرى، يصعب التصديق أن هؤلاء الأوغـاد يعتقدون أن في وسعهم التسلل إلى صفوفنا، وسرقة أسرارنا، والإفلات بأعمالهم الغادرة، نحن نفقد إخواننا في الحرب، وأبناء الكلاب هؤلاء يبيعوننا من أجل المال لأميركا، وإسـرائيل، والمجاهدين، سوف يدفعون الآن، ثم يدفعون مرة أخرى».

نظـر إلـيَّ، وقد ضيَّق فتحة عينيه، كان في وسـعي الإحساس بالحقد في صوته، حاجته المجنونـة للانتقـام لشـقيقه بإسـقاط كل مـن يعارض النظـام، وبالتالي القضيـة التي مات شقيقه من أجلها.

ذكره للاعتقال الذي قام به رجال الحرس حرك بندول أفكاري إلى الخلف نحو الاعتقاد بأن جواد كان يقودني إلى سـجني، لأول مرة منذ أن أصبحت العميل ولي شـعرت بأني وصلت إلـى نهايـة الطريـق، لقد انكشـفت، أخـذ عقلي يبحث عن مخـرج، في هذا الوضـع المخيف، تذكرت فيلمًا عن الجاسوسـية شـاهدته مع ناصر أيام المراهقة، لو كان على جسدي كبسولة سـيانيد في تلك اللحظة، لفعلت الشـيء نفسـه، لكن هذا الشيء لم يأت مع (عدة التجسس) التي زودتني بها وكالة المخابرات المركزية، في تلك اللحظة، في هذه السيارة التي اعتقدت أنهـا تسـلمني إلى مسـتقبل من العذاب، شـعرت بأني وحيد تمامًا، نظرت إلـى أعلى النافذة، وكأن شيئًا هناك سيوفر لي خيارًا.

ذهبوا إلى أميركا، وبدلا من مساعدة بلدهم، خانونا، أحد هؤلاء الجواسيس سلم خطة سرية عن الحرب، فقد الكثيرون من الباسيج حياتهم على إثرها.

اسـتياء جـواد منـي كان شـخصيًّا للغايـة، فـإذا كان يعـرف حقيقـة أني جاسـوس، فهو يساويني بموت جنودنا، وبالتالي بموت شقيقه.

واصلت لعب دور عنصر الحرس المخلص: «أخ جواد نحن محظوظون بأن لدينا أناس مثل عباس؛ فمعارفه تبني تحالفًا قويًّا لحركتنا الإسـلامية، ثقافته الأميركية رصيد لنا، فهو يعرف الأميركيين أفضل مما يعرفوننا، وهو ليس خائنًا».

رمقني جواد بنظرة سريعة قبل أن يعيد بصره إلى الطريق، لم يرد، وجلست أنا بهدوء أيضًا، آملًا بفعلي هذا أن تجد كلماتي صدى لديه، لو كان لدى جواد وجماعته دليل ضدي فمعنى ذلك أنني ضعت، لكن ذلك لن يمنعني من تجربة كل ما في وسعي لإقناعهم أنهم أساؤوا الحكم عليَّ.

بعد وهلة قصيرة، دخلنا عبر البوابة الرئيسة لسجن إيفين وتوجهنا نحو جناح التنفيذ، في الجنوب الغربي من المبنى الرئيس للسجن، كان جواد يعرف بالضبط أين يتجه، ربما لأنه قضى شطرًا كبيرًا من وقته هناك، تبعته في الردهة الطويلة التي تحف بها الأبواب من الجانبين، ثم استدار يسارًا نحو ردهة أصغر، توقف عند الجانب الأيمن، وقرع على أحد الأبواب، وقبل أن يجيب أحد، فتح الباب.

جلس حارسان في مواجهة بعضهما على مكاتب تكدست فوقها الملفات وأكوام من الورق، أشار أحد الحرس للآخر بأن يغادر الغرفة، ثم نهض واقترب من جواد.

«السلام عليكم أخ جواد»، قال محتضنًا جواد ثم قبَّله على كلا الخدين، مد يده لي، «لا بد أنك رضا، أنا عباس».

هززت رأسي موافقًا وأنا أصافحه.

أعطى عباس، الطويل القامة والعريض المنكبين، صورة عن الباسدار الوسيم في بزته الأنيقة، على الرغم من لحيته الكثة وشاربه المشذب، بدا أنيقًا ونظيفًا، بخلاف الكثيرين من الإخوة الذين لا يعتنون كثيرًا بمظهرهم.

كان أسلوب عباس مختلفًا تمامًا عن سلوك جواد، سألني دون تدقيق عن حياتي في جنوب كاليفورنيا وكانت طريقته دمثة ولطيفة، افتتح الحوار بالقول إنه ذهب إلى الجامعة في لوس أنجلوس في نفس الوقت تقريبًا الذي كنت فيه هناك، ورددت عليه بإخباره عن ارتباطي بجمعية الطلاب المسلمين في لوس أنجلوس.

«أوه، هل تعرف الأخ الشهيد حسن»؟

«كلا، لكنـي أعـرف الكثيريـن فـي الجمعيـة، لكني كنت أتسـكع فـي الغالب مـع فارزين وماني، المسؤولين عن معظم اللقاءات، ربما كنت تعرفهما»؟

«نعم، كنت أعرفهما»، قال مبتسمًا، «كانا مقيمين في الجمعية في تلك الأيام، هل تعلم أن مانـي وحسـن عـادا واستشـهدا في الجبهة؟ شـهيدان عظيمان، لكني لم أسـمع شـيئًا عن فارزين، هل تعلم أين هو»؟

«كلا، لقد فقدت الاتصال به، أنا آسـف بالنسـبة لماني وحسن، نحن محظوظون لوجود أمثال هؤلاء الإخوة الملتزمين».

بدا أن عباس يفكر في الأمر لوهلة: «يقول جواد إنك قمت برحلة إلى الولايات المتحدة قبل سنوات، لم تر فارزين أو تتصل به هناك»؟

أبلغتـه عـن طبيعـة رحلتـي وأنه لـم يكن لدي سـوى القليل مـن الوقت أقضيـه مع عمتي لمساعدتها في الانتقال إلى دار الرعاية، وذكرت أني قابلت زملاء سكني، مفترضًا أنه يعرف ذلك بالفعل.

تحدثنـا عـن جمعيـة الطلاب المسـلمين مدة من الوقـت عرفت خلالها أن عباس كان رئيسًا لإحدى لجان الجمعية، وحضر بعض الاجتماعات في اليوم نفسه الذي كنت فيه هناك، سـادت تلـك المحادثـة مشـاعر غريبة، دخلـت المكتـب معتقدًا أنهم على وشـك شـحني إلى جهنم، وها نحن نتكلم بطريقة مريحة، مثل شخصين لديهما معارف مشتركة.

إلا أنـه كان لـدى جـواد نقطـة أراد التأكيـد عليهـا، «بعض هـؤلاء الطلاب انضمـوا إلى المجاهدين، والباقين يعملون لأميركا الصهيونية»، قال بحدة.

حين قال ذلك، تذكرت أن جوني -زميلي في السـكن- ذكر شـيئًا ما عن شـخص اسمه فارهاد -لا أعرف شـخصًا اسـمه فرهاد- الذي انضم هو وشقيقته إلى المجاهدين، أدركت الآن أن جونـي كان يتحـدث عـن فارزين، أخبرني جوني أن فارهـاد أو فارزين قد اعتقل وقتل في إيران.

هذه هي إذن كل الحكاية، يحاولون ربطي بفارزين بأسئلة مخادعة.

واصل جواد إصراره على أن جميع الإيرانيين الذين درسوا في الخارج مجرمون وبلا أخلاق.

بنفاد صبر، استدار عباس نحوه قائلًا: «جواد، لدينا كثيرون من الحرس الذين درسوا في مختلف أنحاء العالم وهم يخدمون بلدنا جيدًا وبإيمان صادق»، كان واضحًا أنه شعر بالإهانة.

هذا التراشق بالكلمات زاد -من وجهة نظري- التوتر في الغرفة، ما زلت لا أعرف ما يجري، هل جلبني جواد إلى هنا للغدر بي، آملًا أن أتلفظ بشيء بدافع من التوتر والعصبية، يدينني؟ إذا كان الأمر كذلك، هل قلت شيئًا عرضني للخطر؟ أم أن عباس يعرف أكثر مما تفوه به، في كلتا الحالتين يكون استقباله الودي مجرد تمثيلية قبل أن يقضوا عليَّ.

ما إن بدأ عباس في طرح سؤال آخر، حتى قطع طرق قوي على الباب حديثنا ودخل الغرفة اثنان من الباسداران طويلا القامة قويًّا البنية، تسلحا ببندقيتين رشاشتين علقت على ظهريهما، إضافة إلى مسدسين على وسطهما، قدومهما قادني فورًا إلى الاعتقاد بأن ساعة الحساب قد أزفت، شعرت بعزيمتي كلها تتخلى عني؛ فجأة كنت مستعدًا للاستسلام، للاعتراف بأي شيء يريدونه، أو تأكيد كل ما يعتقدونه.

مرت اللحظات طويلة وتحديق هذان الباسداران يبدو وكأنه يحفر فجوة داخلي، ثم اقترب عباس منهما، سلمهما ملفًّا، وهمس ببضع كلمات في أذن أحدهما، لم أشعر في حياتي أني ضعيف كما شعرت في تلك اللحظة، تأكدت ساعتها أنني فشلت في فحص عباس، حدقت في أرضية الغرفة، وقد تملكني خدر؛ فقدت الإحساس بأذنيَّ، وفمي، وعينيَّ، وجسمي كله، لم أستطع التفكير بأي شيء، ولا حتى ابني، صورة ابتسامة سمية لم تُعد لي قوتي، وفاة ناصر غير العادلة لم تعن لي شيئًا في تلك اللحظة، لم أعد قادرًا على التفكير في أي (لو) لو نجوت من هذا، لو عدت إلى المنزل، لو كان في وسعي رؤية أسرتي مرة أخرى.

«حسنًا إذن، سنذهب الآن»، قال جواد مربتًا على كتفي.

مستسلمًا لقدري، نهضت معتقدًا أني سأغادر مع الحارسين، لأشاهد عندها أنهما لم يعودا في الغرفة، فاتتني مغادرتهما وأنا غارق في أحلامي المذعورة، نهض عباس بعدها

وأعـاد ترتيـب الأوراق على مكتبه، تناول ملفًا، وضعه تحت ذراعه وصافحني. «عليَّ أن أغادر يجب أن أكون في مكتبي قريبًا»، ثم ربَّت على كتف جواد وأخبره أنه سـيكون على اتصال. ما زلت أشعر بالخدر، قلت مع السلامة لعباس، وغادرت أنا وجواد.

في السـيارة، بدأت حواسـي تعود إليَّ، «هل نحن في طريق العودة إلى القاعدة»؟ قلت، متسـائلًا إن كان جـواد يريـد اصطحابـي إلى مكان آخر! رمقني عباس رافعًـا حاجبه، «وأي مكان آخر تريد الذهاب إليه»؟

«لا أريد الذهاب إلى أي مكان»، قلت بسرعة، «وعدت رحيم بضبط حاسوبه في وقت ما اليوم، كنت أريد أن أعرف إن كنت تريد أن تذهب إلى مكان آخر أولًا».

حكَّ جواد شاربه بأسنانه السفلية، أومأ بعينيه نافيًا ومتذمرًا، وواصل قيادة السيارة، عدنا إلى القاعدة وأكملت باقي يومي. بقدر ما حاولت، لم أستطع فهم الغرض من كل هذه التجربة.

في تلك الليلة، في البيت، أخبرت سمية أنني سأبقى في مكتبي للاهتمام ببعض الأعمال غيـر المنتهيـة، ولن أوي إلى فراشـي في غرفة النوم، كان في وسـعي رؤيـة حيرتها تجاه هذا الأمـر، فقـد أقلقتها بمكالمتي الهاتفية صبيحة هذا اليوم، كما أن التفسـير الذي قدمته عند عودتـي إلـى البيت عن تأخير في إرسـالنا إلـى الجبهة لم يبد أنه هدأ مـن روعها أو طمأنها، لكنها ببساطة هزت رأسها معربة عن تفهمها، عاهدت نفسي أن أشرح لها الأمر بشكل أفضل لاحقًا؛ لأني لا أملك القوة لفعل ذلك الليلة.

جلست وحيدًا في مكتبي، متأملًا لساعات، اتخذت عددًا من القرارات المصيرية خلال السنوات القليلة الماضية وقد حان الوقت لاتخاذ قرار آخر؛ ربما الأقسى في حياتي، دخنت علبة كاملة من السجائر الواحدة تلو الأخرى، وحين أشعلت الأخيرة، أدركت ما يتوجب علي عمله.

[الرسالة #:_______]

[التاريخ:_______]

عزيزتي كارول،

قد تستغربين حين تري أن صيغة هذه الرسالة مختلفة؛ لا ترقيم ولا خطوط عامة، كنت في سجن إيفين اليوم، لست متأكدًا مما حدث أو مما يوشك أن يحدث، كنت قد

أخبرتك عن جواد، الشخص الذي لا يكف عن طرح الأسئلة عليَّ، لديه اتصالات مع وحدة المخابرات وقد اصطحبني إلى سجن إيفين اليوم، اعتقدت أني لن أخرج من هناك مرة أخرى، قدمني لشخص اسمه عباس كرماني، لا أعرف من هو أو ما منصبه بالتحديد، لكنه كان عضوًا في جمعية الطلاب المسلمين في لوس أنجلوس حين كنت أدرس هناك، وهو يعمل في قيادة المخابرات الآن، حين كنت هناك، دخل اثنان من الحرس الثوري للتحقق مني، لا أعلم إن كانا يعتقدان أني عضو في مجاهدي خلق أو أنهم يشتبهون فيَّ كجاسوس، لكني أعتقد أن الأمر كله لعبة يلعبها جواد ليهزني، يجب أن أتوخى الحذر.

أنا قلق بشكل خاص على أسرتي، سأتحدث إلى زوجتي وأحاول أن أقنعها بالانتقال إلى لندن، سأنقل دفتر الشفرة من منزلي، ولن أرسل أي بريد أو أستمع لأي رسالة، إذا ساءت الأمور، سوف أدمر الشفرة، أرجو أن تتذكري أني بحاجة لمعروف واحد، إذا حدث أي شيء لي فإني أرجوك أن تعتني بزوجتي وابني.

سأواصل حياتي اليومية هنا، حيث ليس لدي أي خيار آخر، سيتم إرسالي إلى الجبهة مرة أخرى قريبًا، ستسمعين مني حين أتأكد من أن ما جرى كان حادثًا فرديًّا وأشعر أني بأمان.

باركك الله.

ولي

الفصل
20

شهيد آخر

تركتني حادثة سجن إيفين مذهولًا، فقد أصبحت مستهدفًا من جواد وزاد شعوري بعدم الأمـان أكثـر مـن أي وقت في حياتـي، الروتين المريح الذي تعودت عليه فـي جمع المعلومات وتمريرها إلى كارول لم يعد خيارًا، كنت مدركًا للعواقب في السابق، لكنها تبدو الآن حقيقية أكثر، ينبغي عليَّ التفكير في شـيء ما لحماية أسـرتي في حالة ما إذا اعتقلني الحرس، حين يقبضون على أناس يفعلون ما أفعله فإنهم يعذبونهم بطريقة لا يمكن تخيلها، وقد يخضعون زوجتي وابني للمعاملة ذاتها، وقد يجبروني على مشاهدة تعذيبهم حتى أعترف، تلك الفكرة سببت لي مستويات من الألم العاطفي لا أعتقد أن في وسعي تحملها، كيف أمكنني إيصالهم إلى هذا الوضع؟

تذكـرت تحذير سـتيف فـي بدايـة ارتباطي بوكالـة المخابـرات المركزيـة: «أريدك أن تـدرك تمامًـا العواقـب إذا سـاءت الأمور، ولي، سـتنكر حكومـة الولايات المتحـدة أي علاقة بـك، ولـن يكون هنـاك أسـطولًا بحريًّا يأتـي لإنقـاذك»، بعبارة أخـرى، لن ينقذنـي أحد من مصير مرعب.

ثمـة أمـر واحـد يمكـن فعله ربما الشـيء الوحيـد: الانتحار، فـي بعض الأحيـان لا تكون الهزيمـة من خيار المرء، لكـن الموت بكبرياء وكرامة خيار، الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أحمي بها أسرتي في حال اعتقالي هي أن أقتل نفسي، الحرس لن يعذب سمية وأميد لانتزاع الاعترافات مني إذا كنت ميتًا؛ لذلك قدت سيارتي نحو صيدلية محلية واشتريت سم فئران، ملأت أربع كبسولات من الجيلاتين بذلك السم وحملتها معي منذ ذلك الحين.

بعدها كان عليَّ أن أخبئ دفتر الشـفرة، إذا كان الحرس ينوون شـيئًا بشـأني أو لديهم شـكوك حولي، فسـوف ينبشـون منزلي بحثًا عن دليل، ينبغي عليَّ إخراج الدفتر إلى المكان

الأقل احتمالًا لأن يبحثوا فيه، وقررت أن شقة أمي ستكون المكان الأكثر أمنًا المتاح لي، فطلبت من سمية تجهيز أميد لزيارة أمي.

قضيت مسافة الطريق وأنا أفكر في قرارات حياتي والمسار الذي وضعت فيه أحبائي، بسببي، أصبح مستقبل أميد مثل ورقة متدلية على شجرة عارية مع عاصفة سريعة تقترب، وكي أبرز الدور الذي لعبته في وضعه في هذا المسار المؤذي، استعملت حقيبة حفاضاته لنقل دفاتر الشفرة، مستندات خيانتي ذاتها.

كانت الأفكار تتلاعب برأسي، ويبدو أن ذلك قد بان على وجهي؛ لأن سمية لمست ذراعي وقالت: «هل ثمة خطب ما، رضا، لا تبدو على طبيعتك»؟

«لا شيء، أنا قلق بشأن العودة إلى الجبهة، لا أعلم متى أذهب، وهناك الكثير مما يتوجب عليَّ عمله قبل أن آغادر، أنا متوتر بعض الشيء، أحاول إيجاد طريقة لإنجاز كل شيء، ليس أمرًا تقلقي أنت بشأنه». ربتت عليَّ متفهمة وتغاضت عن الموضوع.

حين وصلت، سرعان ما بدأت والدتي وسمية تتجاذبان أميد، أخذت دفاتر الشفرة إلى الخزانة فيما كانت تعدُّ غرفتي قبل أن أتزوج، كان لدي مواد أخرى مخزنة هناك- كتب مدرسية، رسائل، صور- أشياء أردت الاحتفاظ بها لكن ليس لها مكان في بيتي، قبل أن أخفي الدفاتر، وضعت عنوانًا على الرزمة (أفكار لبرامج الحاسوب) تحسبا لأن تجده أمي، ثم عدت إلى أسرتي وحاولت الاستمتاع ببساطة اللعب مع الطفل.

في الأسابيع التالية، اتخذت احتياطات إضافية، حرصت أن يبقى روتيني اليومي بالذهاب والعودة إلى العمل كما هو، وشمل ذلك إسقاط رسائل لعمتي، بالرغم من أني لم أعد أستخدمها للتغطية على الرسائل التي أرسلها إلى كارول، في العمل بقيت مركزًا على مهماتي، ونظرًا لعدم معرفتي لما ينويه جواد، أردت أن أبدو وكأنني عنصر الحرس الثوري المثالي، لم أعد أرى جواد كثيرًا منذ عودتنا من سجن إيفين، لكني ما زلت أحس بوجوده.

خلال هذه الفترة الصامتة حدثت أمور كثيرة لم يكن في وسعي إبلاغ كارول عنها، أحدها هو تشكيل وزارة المخابرات والأمن في آب 1984م، كان النظام يوحد جميع عمله الاستخباري في الوزارة التي ستصبح مركز كل ذلك النشاط، مع بقاء الوجود الاستخباري للحرس في

كل قاعدة، بعد تشكيل وزارة المخابرات والأمن، انتقل جواد ورسول، مع قلة من الآخرين إلى الوزارة، حقيقة أن جواد بات يعمل في الوزارة أصابني بقشعريرة؛ لأنه بهذه الطريقة بات يتمتع باستقلالية وسلطة أكبر، بقي كاظم في قاعدتنا كجزء من وحدة الحرس الاستخبارية.

بالرغم من أن الأمر طال أكثر مما هو متوقع، أبلغني كاظم أن رحيم قد أصدر أخيرًا الأمر لنا للذهاب إلى الجبهة، لم يكن هناك سبب خاص لاختياره لنا لهذه المهمة سوى أنه أراد أن يكون جميع الحرس التابعين لقيادته على اتصال وثيق بالاستشهاد وبشكل منتظم، كان يشعر بأن «الاقتراب من السماء يطهر الروح، وإذا كنت تستحق ذلك، فسوف تصبح شهيدًا وتنضم إلى نبينا العظيم، والإمام علي، والإمام الحسين، وجميع الشهداء في سبيل الله في الجنة، لكن فقط إذا كنت جديرًا بذلك».

حين أخبرني كاظم بأن جواد قد تطوع للانضمام إلينا في الرحلة، لم يفاجئني الأمر، بالرغم من أنه لم يعد واحدًا من أفراد وحدتنا، وهذا يؤكد ببساطة أنه ما زال يراقبني، وأنه سيواصل ذلك إلى أن يجد شيئًا ما.

في الليلة التي سبقت مغادرتي، كنت أحزم حقيبتي، وكانت سمية قد وضعت أميد في مهده لينام، ثم جلست بهدوء على فراشنا، تراقبني، بدت حزينة للغاية، وراحت أصابعها تداعب أطراف قميصها، تلفه إلى الأعلى ثم إلى الأسفل، عرفت أنها تريد قول شيء ما، ربما شيئًا أرادت قوله منذ زمن بعيد، توقفت عن حزم أمتعتي جلست قربها، حنت رأسها ونظرت إلى يديها، لكنها بقيت هادئة، لففت ذراعي حولها وقبلت رأسها، لم أعرف ما أقول لها، فانتهيت إلى عدم قول شيء، لكني بقيت جالسًا إلى جانبها مدة لا باس بها، في النهاية، كسرت الصمت، همست قائلة: «عد إلى البيت قطعة واحدة، رضا».

تغضنت شفتها السفلى، واحمر جفناها، وتدحرجت دمعة على خدها، مسحت الدمعة، وأرحت رأسي على جبهتها، وأمسكت يديها، ثم تركتها تبكي على كتفي، اجتاحتني مجموعة من العواطف بحيث لم أعد قادرًا على فعل شيء سوى أن أحتضنها.

ذهبت إلى مكتب كاظم باكرًا صباح اليوم التالي، حين وصلت، كانت التعابير التي على وجهه خلاف كل ما رأيته منذ مدة طويلة، عيناه تلمعان، وبدا سعيدًا بطريقة مختلفة عما بدا عليه حين حقق النظام نصرًا عظيمًا.

«ماذا حصل لك»؟ سألت وأنا أضع حقيبتي، نهض كاظم عن مقعده، «ذهب والداي لعمل خواستكاري لي قبل أسبوعين، لم أخبرك قبل الآن لآني لم أكن متأكدًا أن مسعاهما سينجح».

التحدُّث مع كاظم بموضوع إنساني مثل الزواج فرصة أسعدتني، «كيف يمكن لأحد أن يرفض رجلًا عظيما مثلك»؟ قلت مع ابتسامة عريضة، «من هي العروس المحظوظة»؟

«اسمها زهرة»، قال بحماس، «تعرفت عليها والدتي في جلسة لقراءة القرآن، تعتقد والدتي أنها مسلمة ملتزمة جدًّا، وسوف تكون ربة منزل عظيمة، سنعقد قراننا بعد عودتي من الجبهة».

اقتربت منه وعانقته، كنت سعيدًا بحق من أجله، حين كنا صغارًا، تحدثنا مرات عدة عن الزواج، كان شعورًا طيبًا أن أستعيد تلك الذكريات الآن، أخبرني أشياء قليلة عن زهرة، وكنا ما نزال مبتسمين ونحن نضع حقائبنا في سيارة تويوتا رباعية الدفع خصصها لنا الحرس، تلاشى مزاجي الطيب عند حضور جواد، تنبه لوجودي بتحية جافة، ثم صعد إلى المقعد الخلفي.

طيلة الرحلة الطويلة بالسيارة إلى الأهواز -وهي مدينة جنوب غرب إيران قرب الحدود العراقية- قلقت بشأن ما قد يثيره جواد، بالرغم من أننا في طريقنا إلى الجبهة، كان وجوده مصدر ضيق عظيم لي، مع أنه بقي هادئًا بشكل غامض، كاظم، الذي كان يقود السيارة، بقي يستمع للأخبار من الراديو، وتظاهرت أنا بالنوم معظم الطريق، متحججًا بأن أميد بقي مستيقظًا طوال الليل يبكي.

توقفنا مرات قليلة على طول، في همدان، وخرم آباد، وديزفول، استغرقت الرحلة قرابة اثنتي عشرة ساعة، وكان الظلام قد حل حين وصلنا إلى حامية الأهواز، من هناك، انطلقنا إلى القاعدة خلف خط الجبهة، لم يكن لدى قواتنا خطط لهجمات في اليوم التالي؛ لذلك لم يكن هناك موعظة تلك الليلة، بعد أداء صلاة الجماعة ذهبت للنوم، ارتحت لأن جواد لم يتصد لي خلال الرحلة، لكني ما زلت حذرًا منه، ينبغي عليَّ أن أجد طريقة لأريه بأني ملتزم بمهمتي في الجبهة، ومستعد لأن أحارب من أجل بلدي مثل أي واحد من الحرس أو الباسيج، إذا استطعت اكتساب ثقته، فربما تركني وشأني.

صباح اليوم التالي، قدنا السيارة على طريق ترابي ضيق محاط بالتلال من الجانبين، مرات عدة أجبرتنا سيارات الإسعاف وهي تعود حاملة الجرحى على الاصطفاف جانبًا لإفساح الطريق، تذكير صارخ لما نحن بصدد مواجهته، كانت أصوات المدافع التي تطلق النار من خلفنا تصم الآذان، صوت انفجار قوي هز الأرض وكأن زلزالًا حدث.

ما إن اقتربنا، حتى أصبح في وسعي رؤية قذائف المدفعية المقبلة من جانب العدو تنفجر في المناطق المحيطة، شعرنا برجة تبعها صوت انفجار قوي ضرب تلًا صغيرًا إلى يميننا هز سيارتنا وأمطرنا بوابل من التراب والحجارة، قذيفة أخرى زأرت فوق سيارتنا، ومرت تصفر حين تجاوزتنا، ضغط كاظم بقوة على دواسة البنزين، بينما تكور جواد في مقعده، قذيفة أخرى بدا وكأنها تستهدف سقف سيارتنا، لكنها سقطت على بعد ستين مترًا خلفنا، ملأت أصوات الأزيز والهسهسة الجو، شعرت وكأن السماء ستسقط على الأرض.

أسرع كاظم بالتوجه نحو تل قريب من موقع القيادة وداس على الفرامل بقوة، خرجنا من السيارة خافضين رؤوسنا ونحن نتجه نحو الضابط المسؤول.

قدم له كاظم أمر التكليف الذي صدر إلينا من رحيم، قائلًا: «أيها الأخ، كيف يمكننا أن نساعد»؟ كانت مهمتنا في الرحلات السابقة نقل الذخيرة، وتوزيع الطعام، أو مساعدة الجرحى.

«في الوقت الحالي» رد القائد، «من الأفضل أن تحتموا، القوات العراقية تهاجم مواقعنا بقوة، العديد من الدبابات تقترب منا، كما أنهم يستخدمون المدفعية والدعم الجوي».

احتمينا في حفرة غير عميقة معززة بأكياس من الرمل، كان في وسعنا أن نرى ومضات من الضوء حولنا بينما الانفجارات تهز الأرض، كانت تلك أكثر مرة نقترب فيها من الحرب، كان في وسعنا سماع القائد يصدر أوامره صارخًا، وأزيز الرصاص فوق رؤوسنا، انفجرت قنبلة على بعد بضعة أمتار، صرخ أحدهم طالبًا الإسعاف، كانت فوضى عارمة، ثم اشتد القتال.

جلس ثلاثتنا القرفصاء في الحفرة، بدا على جواد وكاظم التوتر، كانا كلاهما يتمتمان بآيات من القرآن الكريم، لدهشتي، كنت الشخص الأقل اضطرابًا في المجموعة،

فبالرغم من معرفتي بأني قد لا أخرج من هذا الجنون حيًّا، فقد شعرت بهدوء غريب، فكرت أنني إذا مت هنا، فإن (ولي) والأعباء المرتبطة به ستموت معه، ربما كان ذلك أفضل مخرج.

لم يتوقف جواد عن النظر إليَّ، حاول إعطاء انطباع بأنه ليس خائفًا، لكن كان في وسعي رؤية خوفه، حين تذكرت أن شقيقه قتل في الحرب، شعرت بموجة من التعاطف معه، هل كان يفكر بذاك الأمر حين بدأنا هذه الرحلة؟

«كاظم خبرني المزيد عن عروسك الجديدة»، قلت لتغيير الأجواء، «بالمناسبة، أوافق على أن أكون شاهد زواجك، بالرغم من أنك لم تطلب ذلك مني».

ابتسم كاظم بعصبية: «أعتقد أن توقيت الخواستكاري لم يكن مناسبًا، كان يجب القيام به قبل ذلك». «لا تقلق، الزواج سيتم حسب المقرر، بك أو من دونك».

أطلق ضحكة مكتومة، وفي تلك اللحظة اقترب أحد عناصر الحرس الثوري من خندقنا، وقد بدا عليه الاضطراب: «عليكم المغادرة الآن والعودة إلى القاعدة خلف خط الجبهة، نحن نغير مواقعنا ونتراجع، اخرجوا الآن! تحركوا!».

ركضنا نحو سيارتنا، كنت في المقدمة يتبعني كاظم وجواد، اختلطت أصوات الانفجارات بصرخات الجرحى وهتاف (الله أكبر) سحب من الدخان أحاطت بنا، جعلت التنفس صعبًا، حين اقتربنا من التل، كان في وسعي سماع أزيز القذائف المقبلة نحونا، كنا نسير بأقصى سرعة، ومع ذلك شعرت بأني ثقيل وبطيء، ثم سمعت صوت صفير قصير، سقطت قذيفة في مكان قريب منا أحدثت رجة قوية تبعها صرير الشظايا المتطايرة في الهواء، تفرقنا واحتمينا، لم أستطع سماع شيء سوى الطنين في أذنيَّ، شعرت بأن شيئًا ضرب رجلي، التفت فرأيت بعض الدم على كاحلي الأيسر، ما زال في وسعي تحريك كاحلي والإحساس به، كما أنه لم يكن يؤلمني كثيرًا.

التفت حولي بحثًا عن كاظم وجواد، لكني لم أجدهما خلفي، صرخت، «كاظم، كاظم» ولا جواب. «جواد، جواد». ضاع صوتي مع صوت الانفجارات.

حارس آخر، كان يركض ليحتمي، جاء إليَّ قائلًا: «واصل التحرك - اركض!» لكني لم أستطع، ينبغي عليَّ أن أجد كاظم وجواد، عدت في الاتجاه الآخر، وسط الغبار والدخان، رأيت اثنين من الحرس ممدين وجهيهما إلى الأرض، أحدهما مغطى بالدم.

«كاظم، هل أنت بخير»؟ ناديت، دون جواب، بدأت أركض، يا إلهي، ليس كاظمًا، حين اقتربت، رأيت أن أحد المصابين كان يحاول النهوض، صار في وسعي الآن أن أرى بوضوح أنه كاظم، لمحني وخاطبني قائلًا: «أنا بخير رضا، إنه ذراعي وحسب، اذهب وتفقد جواد».

أخذت نفسًا عميقًا واتجهت نحو الشخص الآخر، كان جواد بالفعل، وهو ينزف بشدة، ضربته شظية كبيرة، مزقت ظهره عند كتفه الأيسر وانتزعت قطعة من جسده، لم يكن يتحرك أو يصدر أي صوت، خلعت سترتي ولففتها حوله، سحبت الجزء العلوي من جسده ووضعته على كتفي، وانحنيت بسبب ثقل وزنه وبدأت أركض، تبعنا كاظم حاملًا ذراعه، حين وصلنا السيارة، مددَّت جواد على المقعد الخلفي، وقدت السيارة عائدًا إلى القاعدة، لم يجب حين كنا نسأله، لكن عيناه كانتا جاحظتين وهو يئن، حين وصلنا إلى القاعدة، نزلنا وطلبنا المساعدة، حمل المسعفون جواد مسرعين إلى الداخل، كنت أنا وكاظم في حالة صدمة، لم أعرف كم بقينا جالسين في ذلك المكان قبل أن ينظر إليَّ كاظم قائلًا: «هل أنت بخير رضا، هناك دم على كاحلك»؟

كنت قد نسيته، نظرت فوجدت أن ثمة جرح مفتوح في كاحلي تسببت به شظية، سرعان ما جاء أحد المسعفين وأغلقه بسبع غرز، ضمدوا جرح ذراع كاظم، مؤكدين له أنه تلقى ضربة خفيفة، بينما كنا في انتظار معرفة حالة جواد، وضع كاظم سترته على الأرض، وأخرج حجر التربة الحسينية ومسبحة الصلاة من جيبه، وصلى، أخذت أسير جيئة وذهابًا بحذر على كاحلي المصاب، محاولًا مراجعة ما مررنا به، بقينا على هذه الحال إلى أن خرج إلينا أحد المسعفين: «جواد استشهد»، قال دون تردد، ثم مسح جبهته بظاهر يده الملطخة بالدم وعاد إلى الداخل.

نظرنـا أنـا وكاظـم إلى بعضنا غيـر مصدقين، اسـتندت إلـى الجدار، ثـم انزلقت إلى الأرض، جلسـت هنـاك محـاولًا أن أتماسـك، ناولنـي كاظم كوبًا،«خـذ، رضا، اشـرب بعض الماء، تبدو شاحبًا».

«أنا بخير كاظم، أنا بخير»، لكني لم أستطع التوقف عن التفكير في جواد، شعرت بأني مسؤول عن موته، هل اختار المجيء إلى الجبهة بسببي؟

فـي تلـك الليلـة، حين تجمع الحرس والباسـيج داخل القاعدة، شـاكرين توفـر المأوى والطعـام السـاخن، مشـيت خارجًا وجلسـت على تل صغيـر قريب، كانت النجوم في السـماء اللامتناهيـة تشـكل سـتارة خلفية لأنوار النفاثـات العراقية المحلقة فـي الأعلى، وهي تحاول العثـور علـى أهدافهـا، حدقـت في تلـك الصـورة المخيفة التـي يرسـمها مجنونـان -صدام والخمينـي- لدقائق لا أعرف عددها، ملأت أصوات قذائف المدفعية المقبلة والذاهبة الجو، فكـرت فـي الخالـق العظيم ينظر مـن عليائه ويراقب البشـر يقتلون بعضهم بعضًـا المرة تلو الأخرى من أجل الأرض، والسلطة، وأشياء أخرى بلا معنى، بقي هذا التأمل المؤلم يراودني بعضًا من الوقت، في النهاية عدت إلى الداخل.

كانـت الأنـوار خافتـة، وهنـاك أكثر من مئـة مقاتل في الغرفـة، بعضهم يـؤدي صلاته، وبعضهم الآخر مستلق على بطانيات، وآخرون يتبادلون الحديث، بالنظر حولي، رأيت كاظمًا جالسًا مع مجموعة من المقاتلين، انضممت إليهم، واستمعت لقصصهم عن الحرب.

«...كان مكلفًـا بإعـادة ثلاثة أسـرى حـرب عراقيين»، قـال أحد أفراد الحرس، «لكنه بـدلًا مـن ذلك، انتقم لشـقيقه الذي أسـر وقتـل على يد العراقييـن، قال: إن أحـد العراقيين توسـل للإبقـاء علـى حياتـه وأبـرز صورة زوجتـه وأطفالـه، لكنه ضغـط على الزنـاد بالرغم من ذلك».

أضـاف أحـد أفـراد الحرس: «نجـا أحـد رجالنـا من هجـوم تحـول ضدنـا، أخبرنا أن الجنـود العراقيين داروا على جنود الحرس والباسـيج الجرحى وراحـوا يطلقون النار عليهم في الرأس للقضاء عليهم، قال: إنه وبعض زملائه الآخرين تظاهروا بالموت، في الليل حين لـم يعـد هناك أحد، زحفوا علـى بطونهم للعودة إلى الخطوط الصديقـة، في الصباح حلقت

المروحيات العراقية بحثًا عن أي إيراني يستطيعون العثور عليه، كان محظوظًا حين تمكن من العودة بعد يومين من دون ماء أو طعام، تمكن من النجاة بمضغ الأعشاب وارتشاف ندى الصباح، قال إنه رأى ضوءً أرشده نحو الاتجاه الصحيح».

أدهشني كيف أن مصير المرء يعطيه -في بعض الأحيان- قوة غير عادية لإنجاز مهمات مستحيلة، شعرت أني مضطر للمساهمة بشيء ما؛ لذلك أخبرتهم عن مصير جواد كيف جاء إلى الجبهة للمساعدة، وبدلا من ذلك استشهد، هزوا رؤوسهم مقدرين تضحيته، لم تكن القصة شيئًا جديدًا بالنسبة لهم، مجرد حقيقة يومية عن الحرب.

تركني موت جواد مع مشاعر قوية متضاربة، أعلم أنني ارتحت لأنه لن يلاحقني بعد الآن، الحقيقة الواقعة هي أن وفاته كانت مكسبًا لأسرتي، لكن في الوقت نفسه لم أستطع التوقف عن الشعور بالذنب، ملاحقته لي كانت السبب في مقتله؛ لذلك لو لم أتخذ القرار الذي اتخذته بالمجيء إلى الجبهة، ربما بقي حيًّا.

نظرًا لإصابتي أنا وكاظم، أعادنا الحرس إلى بيوتنا صباح اليوم التالي، أمضى كاظم الكثير من الوقت متحدثًا عن جواد في طريق العودة، «كان في الرابعة والعشرين من عمره وحسب، حتى إنه لم يتزوج بعد»، قال كاظم وهو يغالب دموعه، لم يكن مسلحًا أو محاربًا للعدو؛ كان فقط يحاول المساعدة، كرس حياته للإسلام، والعناية بأسرته الفقيرة وشقيقه المعوق، أحبه الله وشرفه بالاستشهاد، سيتلقى ثوابه المناسب الآن»، حاول أن يقول الجملة الأخيرة بفخر، لكنني سمعت نوعًا من الاستسلام في صوته.

عند وصولنا، توجهنا على الفور إلى مكتب رحيم لإبلاغه عن جواد، أحزن الخبر قائدنا، كما تعهد بترتيب جنازة له والعناية بأسرته، كانت جنازة الشهيد حدثًا خاصًّا كما وعد رحيم، جواد كان يستحق الشهادة، قمنا بمراسمها يوم الجمعة التالي في منزل جواد.

عرض سكان الحي الذي يسكنه جواد صورًا له، ورفعوا لافتات سوداء وخضراء تقول: (يا حسين) و(الشهيد في سبيل الله) على جانبي الطريق، تجمع مئات من الحرس الثوري ببزاتهم في الشارع، حمل العديد من رجال الحرس، من ضمنهم كاظم وأنا، النعش على

أكتافنا مسافة بضع مبان في الحي بينما تبعنا الآخرون، بعضهم يلطمون صدورهم بكفوف أياديهم ويرددون أناشيد الاستشهاد الحزينة، ثم أقيم مأتم في منزل جواد قام خلاله أحد الملالي بالوعظ والإشادة بجواد والشهداء الآخرين.

بعد المأتم، توجهنا إلى مقبرة (بهشت زهرا) لدفنه، ثمة قطعة أرض واسعة داخل المقبرة مخصصة لدفن الشهداء، الآلاف من الشبان الذين ضحوا بحياتهم كانوا يرقدون بسلام في ذلك القسم، اختار رحيم مكانًا خاصا لجواد قرب قبر شقيقه الأكبر، على منصة فوق قبر جواد وضعت صورة كبيرة له غطيت بالزهور والأعلام، كانت والدة جواد تنوح باكية بينما، وقف والده العجوز يقرأ آيات من القرآن، بعد الدفن اقتربنا من والد جواد: «نبارك لك استشهاد ابنك»، قال رحيم وهو يعانق الرجل، «ضحى جواد بحياته في سبيل الإسلام، وهو شهيد عظيم، وهو في الجنة الآن مع النبي محمد، والإمام علي، والإمام الحسين، أنت محظوظ لأنك قدمت ولدين لله».

نظر والد جواد إلينا والدموع في عينيه وقال: «تمنيت لو أن لدي المزيد من الأبناء لأقدمهم للإسلام».

قوة هذا الدين وسيطرته على أتباعه الأكثر تطرفًا كانت تذهلني على الدوام، وبقدر ما أومن بالعديد من تعاليم الإسلام، إلا أنني لا أعتقد أن في قدرتي تقبل التهنئة بالموت بدلًا من التعزية، يتبع الإيرانيون الدين الإسلامي منذ قرون عديدة، بالنسبة للبعض منهم هو يوفر الإرشاد، النور الذي يضيء عتمة سبل الحياة، بالنسبة لآخرين هو مجموعة من الأحكام المكتوبة أنزلها الله على نبيه محمد، ولا يجوز لأحد أن يعدل عليها تحت أي ظرف من الظروف، خلال فترة حكم الشاه، امتلك الناس حرية اتباع تفسيرهم الخاص لدينهم، لكن الحال اختلف الآن، عدم الاتباع حسب الطريقة المطلوبة من الملالي يحمل عواقب خطيرة؛ لذلك -وكما هو الحال دائمًا- كنت أحتفظ بأفكاري لنفسي حين أكون في حضور كاظم والآخرين الذين يفكرون مثله.

يعتقد كاظم بأن الثورة الإسلامية ستقود إلى إنقاذ العالم، كان يتحدث عن ذلك ونحن نمضي عائدين من المقبرة، وهو يؤمن بأن الحرب مع العراق لم يكن هدفها هزيمة

صدام وحسب، بل أيضًا هزيمة الإمبريالية والصهيونية، «ألا ترى يا رضا؟ هاجم صدام إيران بتشجيع من أميركا، يريدون تدمير حركتنا؛ لأنها الأولى من نوعها التي تواجه الغرب، أميركا مهتمة فقط بنفط الشرق الأوسط وليس بتقدم شعوبه.

لم يكن كاظم ينظر إلى الجرائم التي يرتكبها الملالي على أنها غير عادلة، فهو يعتقد بأن من لا يؤمنون بالإمام الخميني ورجال الدين أعداء للإسلام، وهو يعتقد بأن النبي محمدًا وجيشه حاربوا وقتلوا الآلاف من الكافرين لرفع راية الإسلام، ويعتقد بأنه ينبغي علينا الآن رفع تلك الراية على أطراف العالم الأربعة، وأننا سوف نهزم الغرب الفاسد، الجشع مرة وإلى الأبد.

كان في وسعي رؤية أن الدين قد جرد كاظم والآخرين من أمثاله من النظرة الصائبة، والإدراك السليم، والتفكير المستقل، وهم لا يشككون فيما يفتي به الملالي؛ لأنهم يعتقدون بأنهم ينطقون بأحكام الله.

ليس كل ما يكنه كاظم من عداء تجاه الغرب بلا أساس، فقد امتلكت بريطانيا سابقًا سلطة هائلة في الشرق الأوسط، وذهبت بعيدًا في تقسيم المنطقة، ورسم حدود جديدة، وترتيب الانقلابات (في إيران، من ضمن دول أخرى)، اختارت بريطانيا سياسة فرق تسد، وكان أكثر أعمالها تسببًا بالفرقة إثارة العنف الطائفي وتشجيع الانقسامات العرقية والدينية مثل السنة والشيعة، أميركا أيضًا لها حصتها من الذنب بإرسال إشارات مختلطة والترويج لسياسة خارجية مشوشة، مثال ذلك، دعمت الدكتاتوريون على حساب مواطني تلك الدول، الجنرال سوهارتو في إندونيسيا، أوغستو بينوشيت في التشيلي، ومانويل نورييغا في بنما، وحسني مبارك في مصر، والشاه في إيران، وصدام حسين في العراق، والكثيرين غيرهم في إفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، السياسة الأميركية مسؤولة أيضًا عن مساعدة المجاهدين في أفغانستان، التي قادت إلى ظهور طالبان والقاعدة، فقد الآلاف (الأغلب مئات الآلاف) من الناس حياتهم بسبب تلك السياسات، إلا أن الكثيرين من الإيرانيين ما زالوا يعتبرون أميركا صديقًا، قوة عظمى تحترم وتدافع عن الديمقراطية، حيث يعيش الناس من مختلف العرقيات ومختلف الإيديولوجيات بسلام معًا، ويأملون أن تتمكن أميركا بطريقة ما من تخليص إيران من الملالي وتنهي كابوسنا الطويل، أنا واحد من هؤلاء الإيرانيين.

الفصل
21

قريب جدًّا من البيت

بعد مدة وجيزة من عودتي إلى البيت من الجبهة، ذهبت إلى شقة والدتي لاستعادة الوثائق المخبأة، لم يقترب أحد مني منذ حادثة سجن إيفين؛ لذلك بدأت أعتقد بأن الأمر كله أقل تهديدًا مما تصورت في البداية، الآن، وبعد أن انزاح التهديد الذي كان يشكله جواد، شعرت أنني آمن إلى حد ما، بالرغم من معرفتي أنه يتعين عليَّ أن أبقى حذرًا دائمًا ومستعدًا للتعامل مع أخطار أعظم من أي خطر مثَّله جواد، فكرت أنه من الضروري أن أعاود الكتابة إلى كارول مجددًا، وحيث إني توقفت عن الكتابة تمامًا فلا بد أنها افترضت حدوث الأسوأ لي، ومن الواجب عليَّ أن أهدئ أفكارها، والأهم من ذلك، أن لديَّ الكثير من المعلومات المهمة لإبلاغها لها، برسالة قصيرة أخبرتها عما حدث لجواد ووافقتني الرأي بأن التهديد قد انتهى، كما أخبرتها بأني سأواصل تقديم تقاريري، واعدًا إياها بألا أتخلى عن حذري.

كان مهمًّا بالنسبة لي الآن التركيز على أسرتي، التي أهملتها منذ تلك التجربة الرهيبة في سجن إيفين، فقد بت أخشى ما قد يحدث لهم لو قبض عليَّ، بحيث تدبرت أمر إبعادهم عني، كنت من الناحية البدنية موجود هناك، لكني منغلق على نفسي، ما كانوا يرونه مجرد رجل نزق لديه قدرة ضئيلة على الانخراط معهم ومشاركتهم بروحه، أنا بحاجة لأن أريهم الآن كم أنا محظوظ لبقائي حيًّا ولوجودهم في حياتي، بدت سمية سعيدة لأن تحظى مجددًا بكامل اهتمامي، كم كنا سنكون سعداء لو أنني لا أعيش حياتين ولسنا تحت تهديد مستمر بأن ينقلب عالمنا رأسًا على عقب؟

بعثت رسالة أخرى إلى كارول بعد أيام من إعادة الاتصال مبلغًا عن جميع ما حدث خلال الأسابيع القليلة الماضية، بما في ذلك تشكيل وزارة المخابرات والأمن، ونقل رسول

والعديد من أفراد الحرس إلى الوزارة، وكنت قد سمعت إشاعات بأن رسول سينتقل مرة أخرى، سمعت بأنه سيغادر البلد لمتابعة دراسته، الأمر الذي فاجأني بعض الشيء، صادفته في أحد الأيام في أثناء خروجي من مكتب رحيم، وبالكاد تعرفت عليه، كان حسن الهندام، حليق اللحية، ويرتدي بذلة رجل أعمال، لا بد أن شيئًا ما يجري.

«سلام، أخ رضا»، قال باسمًا، «أنا سعيد لرؤيتك، أردت أن أودعك»، صافحني ومد جسده يريد معانقتي، ويكاد يغمرني بسبب حجمه، حاولت ألا أبدو مستغربًا مظهره الجديد كلية، «سلام أيها الرجل الضخم، سمعت أنك ستذهب إلى بريطانيا لإكمال دراستك، متى ستغادر»؟ «هذا المساء، إن شاء الله».

أكد كاظم شكوكي حين أخبرني في اليوم نفسه بأن رسول يستعد لأن يصبح عميلًا في إنجلترا، ستكون هذه معلومات قيّمة لتمريرها إلى كارول، كما أني بحاجة إلى كشف مزيد من التفاصيل عن مهمة رسول، جعل كاظم يتكلم لن يكون صعبًا، لكنه يبدو مشغولًا في هذا الحين، كما تبين أن رحيم كان أيضًا يسافر إلى إنجلترا، ما يعني أن لدى كاظم عمل إضافي عليه أن يستعد للقيام به، وهو ما يفعله حين يكون القائد بعيدًا.

حين تمكنت في النهاية من الانفراد بكاظم في مكتبه، أخبرني أن مهمة رسول الجديدة هي التسلل إلى صفوف مجموعات المعارضة الإيرانية في إنجلترا للتجسس على أنشطتهم، قال أيضًا أن الهدف من سفر رحيم هو مقابلة عملاء الحرس الثوري في لندن، ذهب عناصر الحرس إلى هناك لمواجهة مجاهدي خلق والتحديات الأخرى التي تواجهها الحكومة الإيرانية، نشط المجاهدون في أوروبا، وشنوا حملة هدفها إسقاط النظام الإسلامي، كما انشغلوا بتنسيق عمليات اغتيال لمسؤولين إسلاميين في إيران، «رضا، حصلنا على موافقة عدة حكومات أوروبية لملاحقة المعارضة) ، قال لي كاظم. «هل تعني أن في وسعنا القضاء عليهم أيضًا؟

«طالما أن ذلك لا يعرض أمن تلك البلدان أو مواطنيها للخطر، فإنه في وسعنا فعل ذلك».

بدا لي ذلك أمر لا يصدق، تساءلت كيف يمكن للغرب أن يبرر مساعدة المتعصبين الذين يمكن أن ينقلبوا عليهم بسهولة، حين فكرت في هذا، لمع في ذهني شيء قاله ناصر في الأيام الأولى للثورة: «لماذا قد يريد الغرب- أو حتى الشرق بالنسبة لهذه المسألة- لإيران أن تتقدم بينما يستطيعون استغلال نفطنا بوجود أغبياء يحكمون البلد»؟ فإذا كانت ملاحظته صحيحة، فيبدو أن الغرب قصير النظر بشكل لا يصدق.

أكد لي كاظم أن الأوروبيين لم يعترضوا مطلقًا على قيام العملاء الإيرانيين باغتيال أشخاص من المعارضة -أعضاء مجاهدي خلق، علاوة على ضباط الجيش السابق والملكيين- داخل بلادهم، تمخض ذلك عن قيام الحرس الثوري بقتل المئات، في أوروبا ومختلف أنحاء العالم، بقنابل مزروعة في سياراتهم، ومهاجمتهم في منازلهم، وقطع رؤوسهم، أو إطلاق النار عليهم وإعدامهم، كانوا يخطفون بعضهم، ويعذبونهم، ويقتلونهم ويلقون بجثثهم في مناطق نائية، من ضمن الكثيرين الذين اغتيلوا الجنرال غلام أويسي، القائد السابق لجيش الشاه، مع شقيقه، في شوارع باريس، لكن كان هناك المزيد من هذه الأعمال، من أبرز الشخصيات التي اغتيلت بعد بضع سنوات، آخر رئيس للوزراء في عهد الشاه، شهبور بختيار، الذي فر من البلد بعد الثورة وبقي ناشطًا في باريس يشجع المعارضين للملالي، تمكن الحرس الثوري في النهاية من الوصول إليه، وطعنوه 13 مرة في الرقبة والكتفين، ثم قطعوا حنجرته بسكين مطبخ.

بينما كنا نتحدث، دخل عنصران من الحرس الغرفة، نهض كاظم منفعلًا ورحب بهما، تصافحوا ثم تعانقوا، «هذان الأوان من القيادة المركزية»، قال كاظم وهو يعرفهما عليَّ، ثم مضى يتفاخر بمساهمتي في إقامة البنية التحتية للحاسوب التي سهلت أنشطة الحرس الثوري في كافة أنحاء البلاد، في البداية، انتابني القلق بأن يكون ذلك مجرد خدعة أخرى، لكن حين واصلوا حديثهم دون تكليف، استرحت وشعرت أنهم ينظرون إليَّ كأني واحد منهم.

ذكر أحدهم أن العراق كان يتلقى مساعدات عسكرية من الغرب، خاصة فرنسا، وتضمن ذلك مقاتلات نفاثة لاستهداف القطع البحرية الإيرانية وناقلات النفط في الخليج،

كما اشترى العراق نفاثات يمكنها إسقاط قنابل من ارتفاعات عالية، ما يوفر لها حماية من المدافع المضادة للطائرات، ما قاله بعد ذلك أذهلني:

«أخ كاظم، علمت مخابراتنا من خلال تجار السلاح في السوق السوداء بأن صدام يسعى يائسًا للحصول على التكنولوجيا التي تمكنه من صناعة قنبلة نووية، وقد تأكدنا من ذلك من مصادرنا في العراق».

«قنبلة نووية في يد مجنون!» قال كاظم هازًّا رأسه، «لن ندع ذلك يتحقق دون رد»، قال رجل الحرس مضيفًا: «لقد حصلنا بالفعل على موافقة القائد الأعلى، الإمام الخميني، بتعزيز قدراتنا بمثل هذه التكنولوجيا، لا تقلق أيها الأخ، الإسلام سيهزم قوى الشر، صدام وزعيمته، أميركا، سيهزمون إن شاء الله».

في وقت متأخر من تلك الليلة، كتبت لكارول مجددًا، كانت تلك الرسالة الثالثة خلال أيام قليلة، لكنها تحمل أخبارًا مهمة لا يمكن أن تنتظر.

[الرسالة #:_______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول،

1. **بعثت وزارة المخابرات والأمن رسول إلى لندن كعميل لاختراق جماعات المعارضة.**
2. **مهماته هي التعرف على قادة الجماعة، والمتعاطفين معها، والأفراد الذين لهم صلة بهم الذين يسافرون من وإلى إيران، تستخدم هذه المعلومات من قبل وزارة المخابرات والأمن لاعتقال أفراد مجاهدي خلق والمتعاطفين معهم عند وصولهم إلى إيران، ولاغتيال قادة المعارضة في الخارج.**
3. **أخبرني كاظم بأن رحيم سافر إلى لندن لمقابلة عملاء الحرس الثوري، تزداد مشاركة رحيم في الأنشطة الخارجية.**
4. **أخبرني كاظم بأن هناك حلفًا غير مكتوب داخل الحكومات الأوروبية، وخاصة فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، يسمح لعملاء الحرس باغتيال أعضاء المعارضة دون تدخل القوى الأمنية لتلك الحكومات.**
5. **حين كنت في مكتب كاظم، دخل اثنان من الحرس الثوري من القيادة المركزية ومعهم أخبار عن أن صدام يسعى للحصول على تكنولوجيا نووية ويريد الحصول على قنابل**

نووية، أكد هذا عملاء الحرس الثوري في العراق واتصالات الحرس مع تجار السلاح في السوق السوداء، وتبعًا لذلك، بدأ الحرس سعيهم للحصول على قنبلة نووية بموافقة من الإمام الخميني.

باركك الله.

ولي

انشغالي بتدفق المعلومات المهمة التي كنت أتلقاها شغلتني عن زفاف كاظم المقبل، مع اقتراب الموعد، أدركت بأن عليَّ إعداد آغا جون للحفل، الذي كان قد طعن في السن وبات يرفض الخروج من المنزل، كما أن ظهره انحنى قليلًا ويحتاج لعكاز في مشيته، شعره الناصع البياض والتجاعيد تشهد على حياة كاملة من التغيرات والتجارب، من اجتياح الحلفاء لإيران خلال الحرب العالمية الثانية، إلى نظام الشاه الملكي، وحكم الملالي الذي لم يحترمه قط ويحكم بلده الآن.

كما كنت أفعل بانتظام، عدت بذاكرتي إلى تجمعات الصيف يوم كان جدي وداود يناقشان اختلافاتهم حول الشاه، والديمقراطية في إيران، وموضوعهم المفضل، تأثير العرب والإسلام على مجتمعنا، حين كنت صبيًّا صغيرًا، لم أقيِّم مدى هذا التأثير وكيف أنه يغير وجهة نظر أمتنا، هذا البلد العظيم -الذي كان يحكمه ذات يوم قورش الكبير ومعروف بثرائه الثقافي والأدبي- يتراجع الآن بسبب الدين.

بالرغم من أنه مسلم -مثل الكثير من الإيرانيين- لم يكن جدي يشعر بأنه ملزم بممارسة الإسلام كما كانت جدتي تفعل، فهو لا يذهب إلى المسجد ولا يصلي خمس مرات في اليوم، ولم يكن يعتقد أنه سيذهب إلى النار بسبب ذلك، لكنه كان يعيش وفق أسمى عقائد ديننا: كان دائمًا يساعد الفقراء، ولم يكذب قط، ولم يسرق أبدًا، وفوق كل شيء لم يكن خائنًا، آمن آغا جون بقوة في الفصل بين الدين والسياسة، وكان يقول: «الدين في القلب ولا يمكن فرضه على الناس، إنه علاقة خاصة بين المخلوق والخالق، أنت تجد الحب في الله، وبذلك الحب، تحب الحياة».

في البداية قال جدي بأنه لن يذهب إلى عرس كاظم، لم يكن مرتاحًا لوجوده حيث يتجمع أنصار الحكومة الإسلامية، إلا أن جدي -وخلافا لوالدتي- لم يعبر قط عن خيبة

أمله لانضمامي إلى الحرس الثوري، كان دائمًا يقابلني بابتسامة دافئة، قائلًا: «أيها الفتى، آمل أن تجد مكانًا أفضل للعمل»، لكنه لم يتردد قط في إبداء احتقاره للنظام الإسلامي القائم والجرائم التي يرتكبها، حين أخبرته بأن هذا يعني الكثير لكاظم، وأن والده أرسل دعوة خاصة له، وافق على مرافقتي.

أقيم الحفل في منزل العروس، حين وصلنا، توقفت أمامنا سيارة مرسيدس سوداء جديدة، في ذلك الوقت أوقف النظام استيراد السيارات الأجنبية للمواطنين العاديين، رجال السلطة وأصحاب المراتب العالية من رجال الدين فقط يستطيعون التقدم بطلب خاص للحصول على آخر طراز من هذه السيارات وقيادتها؛ لذلك لم أتفاجأ حين خرج ملا بدين من السيارة، مرتديًا عباءة من القطيفة ويمسك بقوة بعمامته البيضاء، ثنى مسبحته، التي لمعت كاشفة عن خيط ذهبي، خرج رجلان من الحرس الثوري كانا يرافقانه للخروج من السيارة، فتح أحدهم الباب وأمسك الآخر بيده وهو ينزل منها، حشد صغير ربما من أسرة العروس أحاط بالملا على الفور، لكزني جدي وغمز وبتكشيرة واسعة، قال: «انظر إلى هذا، يسرق أموال الناس، ويقود مرسيدس، وأراهن أنه يحمل شهادة الدكتوراه الفخرية بالقانون، أيضًا».

«آغا جون، أرجوك، اصمت»، كنت أخشى أن يسمعه شخص يعرفني.

هرع كاظم نحو الملا، «باه باه، حجة الإسلام يازدي، لقد شرفتنا اليوم بقدومك».

نظرت إلى جدي، الذي مد يده إلى جيبه باحثًا عن نظارته، همهم قائلًا: «حجة الإسلام!» لافظًا اللقب التشريفي الذي يمثل السلطة باحتقار، الذي أصبح في وسع كل من ارتقى من الملالي في الرتبة بأي وسيلة الحصول عليه، أخيرًا وجد نظارته، وحدق بإمعان ثم التفت إليَّ غير مصدق، «رضا، هذا الملا عزيز صاحبنا!»

صدمت، وأمعنت النظر، كان جدي مصيبًا، إنه الملا عزيز الذي ارتقى من راكب حمار إلى راكب مرسيدس ولقبه من ملا إلى حجة الإسلام، اكتفيت بهز رأسي تعجبًا.

خرج كاظم للترحيب بالضيوف، رحب بنا واصطحبنا إلى الملا عزيز، «باه باه، آغا جون» قال الملا بحماس كبير: «جميل أن أراك مجددًا».

«سـلام، مـلا عزيز»، قال جـدي دون اهتمام بأن مناداته بكلمـة (ملا) بدلًا من (حجة الإسـلام) واسـتخدام اسـمه الأول كان علامـة على عـدم الاحترام، احمر وجـه الملا عزيز لمخاطبته بتلك الطريقة أمام مرافقيه، فتدخلت محاولًا تجنب المزيد من الإحراج قد يلحق الضـرر بوضعـي، أبديت احترامي وقدمت نفسـي، متأكدًا من أن الملا مـا كان ليتعرف عليَّ: «بـاه، رضـا جـون!» قال المـلا عزيز وهو يلـف ذراعيه حولـي: «كاظم أبلغني كل شـيء عنك، باسدران حقيقي، ومسلم عظيم».

نظـرت إلـى آغـا جـون لرؤيـة رد فعله، كان يهز رأسـه غير سـعيد بهذا اللقاء، أمسـكت ذراع جدي حين اتجهنا جميعًا إلى داخل البيت حيث سـتجرى مراسـم الزفاف، لكني شعرت في الداخل أن الوضع أشـبه بجنازة منه بعرس، إحدى الغرف امتلأت برجال جالسـين على الأرض مـع كرسـيان فـي الزاوية، وضعـت على واحـد منهما وسـائد خصيصًا للمـلا عزيز، النساء والعروس كن في غرفة منفصلة حيث لا يمكن رؤيتهن أو سماعهن، في الأعراس عادة تعزف الموسـيقى ويرقص النـاس، لكن ليس هنـا، ليـس حين يكون المضيفون من المتدينين المتطرفين، الابتسامة المرسومة على وجه كاظم كانت المؤشر الوحيد على أن هذه مناسبة سعيدة.

كان في وسعي أن أرى أن كل هذا ليس مما يرضي آغا جون، فقد كان طيلة حياته محط الانتباه، يقول رأيه بحرية، ويتمتع باحترام جميع من يعرفونه، الآن جعلوه يجلس على الأرض إلـى جانب أناس سـرقوا كرامـة بلده الحبيـب، وعليه أن ينحنـي لملا كان يتلـو المواعظ في منزله مقابل دولار أو اثنين.

«هـل تعلـم، رضا» قال جدي ونحن فـي طريق العودة إلى المنـزل: «هنـاك الكثيرون من هـؤلاء الملالـي عديمـو الشـرف، لكن هل تعـرف ماذا فعل هـذا النذل المنحـرف حين كنت تدرس في الولايات المتحدة؟ بعث برسـول إلى منزل عمك معلنًا أنه يريد التقدم لهالة ابنة عمك، إنه لا يسـتحي، كان عمر هالة نصف عمره، وما كان لعديم الشـرف هذا أن يعلم بأن ابني ما كان ليقبل به خادمًا لها»، هز رأسه مضيفًا: «أنا سعيد أن هذا حدث قبل الثورة، وإلا، فـالله أعمـل ما كان سـيفعله لإجبارهم علـى الموافقة، والحمد لله أن هـالـة تزوجت بعد مدة قصيرة وسافرت إلى السويد مع زوجها».

كان جدي محقًّا، خلال حفل العرس، أخبرني كاظم أن منصب الملا عزيز الجديد هو قاض في المحاكم الثورية مسؤول عن محاكمة مجموعات المعارضة، وإذا كان مهتمًا بهالة، ورفض عمي تزويجه منها، فإن في وسعه اتهام عمي بالتحريض، وربما سجنه أو حتى قتله.

فـي تلـك الليلة في المنزل فكرت مجـددًا في ناصر، أخرجت صورته، ورأيت ابتسـامته تشـع لـي، وتصورت تلك الابتسـامة يوم زفافه، لو أنه عاش، في وقت سـابق مـن ذلك اليوم، وصف كاظم زواجه بأنه أنقى أشكال السعادة، الثورة سرقت تلك السعادة من ناصر وأشقائه.

في صبيحة اليوم التالي تلقيت رسالة من كارول:

عزيزي ولي،

عظيم أن نسمع منك، نحن سعداء جدا لأنك بخير ولعودتك للعمل، تلقينا رسائلك الثلاثة، المعلومات التي زودتنا بها بالغة الأهمية وقيّمة، رجاء واصل إرسال أي معلومات تتعلق بالسلاح النووي، رصدنا موقع كل من رسول ورحيم.

كن بأمان.

كارول

بحلـول ربيـع العـام 1985م، أصبحت الحرب أشـد ضراوة، كان الإمـام الخميني ورجال الدين الحاكمين يسـعون لإسـقاط صدام، واحتلال العراق وتوحيد المسلمين في حرب أكبر، وأقدس ضد إسـرائيل، قـال قادة الحرس إن الخميني يدخـل المصلى وحيـدًا ليتحدث إلى الله طالبًـا موافقتـه قبـل كل هجـوم، وبعـد حديـث من هـذا النوع مـع الله فـي آذار من ذلك العام، أصدر أمرًا لتحرك شامل نحو البصرة في العراق أطلق عليها (العملية بدر)، مرسلًا عشـرات الآلاف مـن الجنـود إلى الجبهة، كانـت العملية ناجحة، في البدايـة احتل أجزاء من طريق البصرة- بغداد السـريع، لكن سـرعان ما تحولت إلى شـيء مرعب حين لجأ الجيش العراقـي مجـددًا إلى اسـتخدام الأسـلحة الكيماوية، وذهـب صدام إلى ما هـو أبعد من ذلك بقصـف أهداف مدنية في إيران؛ لهذا السـبب، أخبرت سـمية أنه علـى الرغم من أن معظم الهجمـات تحـدث فـي الليل، فإن عليهـا اتخاذ احتياطـات إضافية حين لا أكـون معها، عليها تشـغيل الراديو طيلة الوقت، وإذا أعلنت صفارات الإنذار عن غارة جوية وشـيكة، فإن عليها

النـزول إلـى قبونا، ولم تكن تلك الفكرة تعجبهـا، لكن من أجل أميد، وافقت على أن ذلك قد يكون أكثر أمنًا.

أصبـح النـزول إلـى ذلـك الملجأ شـيئًا روتينيًّا بالنسـبة لنـا، أولًا صفـارات الإنذار، ثم المدافـع المضـادة للطائـرات، ثـم الانفجـارات، التـي تكون في بعض الأحيـان قريبة بحيث تهـز مبنـانا، أميد الذي بلغ الثالثة، قد يبكي، وسـمية قد ترتجـف، فكنت ألف ذراعيَّ حولهما محـاولًا حمايتهمـا، ثم تخيم لحظات من الهـدوء قبل أن تعلن صفارات الإنذار انتهاء الغارة، وأن فـي وسـعنا الخـروج من الملجأ، يتبع ذلـك اتصـالات مع أفراد العائلـة والأصدقاء للتأكد أنهم ما زالوا أحياء، وقد تمكنا إلى حد ما من مواصلة حياتنا في ظل تلك الظروف، كما فعل كل من نجا من الغارات.

ذاك الصيـف، دعـا أحـد الجيران من مبنى قريب في حينا أميـد لحفل عيد ميلاد، لم أشـأ إبعاد طفلي عن عيوننا، خاصة وأن الحفل كان في الليل، حافظ الإيرانيون على عادتهم إقامـة الحفـلات بالرغـم من الغـارات الجوية العراقيـة، بما في ذلك حفـلات أعياد الميلاد للصغـار، وقـت العشـاء، بقيت مترددًا بالرغم من معرفتي أن سـمية سـتكون إلـى جانبه، إلا أنه في ذلك اليوم، اسـتيقظ أميد محمومًا وقررت سـمية ألا تأخذه، كان يومًا هـادئًا، وجهزت سـمية الصغيـر للنـوم باكرًا، حيث إنه لا يزال سـاخنًا ومتوعكًا، مـا إن فعلت ذلك، حتى دوت صفـارات الإنـذار وقبل أن تتـاح لنا فرصة الوصـول إلى القبو، ملأ انفجار هـادر الجو واهتز البيت بعنف، حملت أميد وسـحبت سـمية إلى زاوية من زوايا الغرفة بعيدًا عن النوافذ، كانا يصرخان كلاهما، وفيما بدا لي أمرًا لا نهاية له، كل ما شـعرت به تحت جسـدي هو نبضات قلبيـن بريئيـن تخفق بشـدة يأملان بالنجاة، دعوت الله أن يمـر كل هذا دون أذى، كان هدير كل صاروخ مضاد للطائرات يهز ظهر سمية ويجعل أميد يصرخ فزعًا، ويجعل النوافذ وأنواع الزجاج الأخرى تتناثر، وأنا أواصل الدعاء.

لا أعلم كم بقينا في هذا الوضع قبل أن تتوقف المدافع عن إطلاق النار، تركت أسرتي، التـي مـا زالـت فـي حالة هسـتيرية، فـي الزاوية، ودسـت على أطـر الصور التي سـقطت عن الجدران، والمزهريات المكسـورة، وأشـياء أخرى في طريقي إلى الطرف البعيد من الغرفة، حيث أضع مشعل الطوارئ على المنضدة بجانب السرير، ثم أنزلتهم إلى القبو.

تكومنا نحتضن بعضنا، وبدت السماء هادئة، لكن صوت سيارات الإسعاف، والشرطة، والمطافئ ملأ الحي، بدا واضحًا أن الانفجار ضرب مكانًا قريبًا من منزلنا، حين هدأت سمية وأميد، خرجت لمشاهدة ما حدث، تناثرت الأنقاض في الحي، سحب الدخان والغبار ملأت الجو بحيث توجب عليَّ أن أغطي فمي وأن أسير في اتجاه المبني، هناك رأيت أن سقف الطابق الرابع في المبنى قد اختفى، وقد تكومت قطع الطوب والخرسانة على الأرض.

خرج العديد من الجيران لمساعدة الشرطة، ورجال الإطفاء، والحرس الذين كانوا يسحبون الجثث من بين الأنقاض، رأيت العديد من الأجساد الصغيرة الملفوفة بقماش مسجاة على الأرض، بدت الأجساد في مثل حجم أميد، اتضح لي عندها ما حدث: يا إلهي! هذا هو المكان الذي كان مدعوًّا إليه أميد، هؤلاء هم أطفال حفلة عيد الميلاد، بدأت أحفر بانفعال شديد، وأساعد في سحب المزيد من الجثث، معظمهم أطفال صغار، بعضهم بين ذراعي أمهاتهم، معظمهم ميتون، قتل جميع الأطفال والضيوف ممن حضروا تلك الحفلة في الطابق الرابع، ولم ينج سوى قلة قليلة من سكان الطوابق الأدنى، لكنهم عانوا من جروح وحروق مختلفة.

أحد جنود الحرس كان يدور على أجساد القتيلات من النساء ليغطي شعورهم ويسحبهن جانبًا، ما كانوا يسمحوا للجرحى أو القتلى أن يشاهدهن أحد دون غطاء، تفجير جيراننا وموتهم أفزع سمية وأفزعني، بعد هذه الحادثة أصبحت سمية لا تفارق أميد أبدًا، كانت تحمله بين ذراعيها وحين يغط في النوم كانت تجلس إلى جوار سريره وتبكي، في الأيام التي تلت رجوتها أن تفكر في مغادرة البلد، متأكدًا هذه المرة من أنني لا أهينها كما حدث حين اقترحت عليها ذلك خلال فترة حملها، «فقط إلى أن تنتهي هذه الحرب»، رجوتها، «أعدك بالمجيء لزيارتك كلما استطعت، افعلي ذلك من أجل أميد، فهو دائم البكاء والصراخ وسط هذا الجنون».

مسحت سمية دموعها، ثم انحنت وقبلت يد أميد وهو نائم في مهده، «أحبه كثيرًا وأشعر أني مسؤولة جدًّا عنه»، قالت، ثم انفجرت باكية: «ماذا لو كنا في ذلك الحفل وحدث له شيء؟ ماذا سأفعل من دونه»؟

احتضنت كتفيها المرتجفين، دون أن أذكر أنهما لو كانا في الحفل لفقدتها هي أيضًا، «أعلم ذلك، ويجب أن نشكر الله لأن أميد أصيب بالحمى؛ لهذا السبب أطلب إليك الذهاب إلى والديك، أعرف مقدار ما تعنيه بالنسبة لهما وأنت تعرفين مقدار ما تعنيانه بالنسبة لي، سلامتكما وسعادتكما هما كل ما أرجوه».

ضغطت عليَّ بجسدها: «دعنا نذهب جميعًا إلى هناك ولننسى هذا المكان، رضا، ما الذي تفعله هنا؟ ما هو الشيء المهم في عملك؟ كنت أريد الذهاب إلى لندن منذ زمن بعيد، لم أشعر بالأمان، منذ أن بدأت الحرب، لكني لم أشأ أن أتركك خلفي، بقيت من أجلك، يجب أن تأتي معنا الآن من أجلي».

قبلت رأسها وتمنيت لو أستطيع شرح كل شيء لها، «سأطلب الإذن من كاظم لاصطحابكما»، «لكنك ستعود بعد أن توصلنا إلى هناك»، ابتعدت عني وغطت وجهها بكفيها، «أريد أن أفعل هذا من أجل أميد الآن، لكني لا أعرف ما أفعله بك، رضا، أنا متعبة جدًّا، إذا كان هذا ما تريده، فلا يمكنني إجبارك على أن تحب أسرتك وأن تبقى معها»، ثم اتجهت نحو غرفة نومنا وفتحت خزانة الملابس، «سأبدأ بحزم أمتعتي وتولى أنت الأمور الأخرى».

كان كاظم يعرف عن التفجير في حينا ومدى قربه من منزلنا؛ لذلك تفهم الوضع حين أخبرته بأني أريد إرسال سمية وأميد إلى إنجلترا للإقامة مع والديها مدة، لحسن الحظ، كانت القيود التي تحد من السفر قد رفعت والمطارات مفتوحة لجميع الراغبين في السفر إلى الخارج، أخبرت كاظم أنني أريد التأكد من وصولهما بأمان وسألته إن كان يستطيع ترتيب منحي إجازة كي أتمكن من مرافقتهما، مرة أخرى، كان له دور رئيس في ترتيب ذلك، لكنه أخبرني بأن محسن رضائي، القائد العام للحرس الثوري، سيصدر بيانًا مهما في اليوم التالي وطلب مني مرافقته.

توجهنا إلى قاعدة الحرس جنوب شرق طهران، حيث يعقد رضائي اجتماعًا، سيل من السيارات والدراجات اجتاح الشارع وتدفق نحو القاعدة، مالئًا الجو بالغبار، المئات من أفراد الحرس الثوري تجمعوا في المكان، معظمهم أعضاء في وحدات الاستخبارات، وحضر أيضًا العديد من قادة المناطق، عدد رجال الاستخبارات في الحشد أشعرني بالقلق، بعضهم

صديق منذ أيام طويلة، لم أستطع النظر إليهم بالطريقة التي اعتدت أن أنظر بها قبل أن أتورط مع وكالة المخابرات المركزية، كل نظرة من كل واحد منهم بدت وكأنها تحمل شبهة بي، كنت مضطربًا من الداخل، لكن لا خيار أمامي سوى أن أتصرف بشكل طبيعي.

بقيت قرب كاظم بينما كان يصافح آخرين، خلال هذه العملية قابلت أحد الحرس واسمه تقي، «لا بد أنك الأخ رضا»، قال لي، «جميل أن نراك هنا، شهيدنا العظيم جواد أخبرني الكثير من الأشياء الطيبة عنك».

ذكر اسم جواد وتر أعصابي، عنصر الحرس هذا أعلى رتبة من جواد، إذا كان جواد قد حدث تقي عني، رافعًا شكوكه إلى مستويات أعلى، فثمة احتمال قوي بأن لا يكون الخطر الذي مثله جواد لي قد مات، «جميل أن أقابلك، أخ تقي»، قلت وأنا أصافحه، «نحن جميعًا نفتقد جواد، إنه بالفعل شهيد عظيم، رحمة الله على روحه».

لم يقل تقي أي شيء آخر لي، تركني متسائلًا عما يعرفه عني وما الذي يفكر فيه، لحقت بكاظم والآخرين إلى قاعة الاجتماعات، صفت الكراسي المطوية بالترتيب؛ صور الإمام الخميني زينت الجدران، اتخذت أنا وكاظم مكانًا لنا قريب من الصف الأول، بعد دقائق، دخل محسن رضائي وبطانته القاعة واتجه نحو المنصة، نهض جميع من في الغرفة وبدؤوا يهتفون: «الله أكبر، الخميني قائدنا»، بعد ذلك رفع رضائي يديه وأسكت الجميع.

ركزت على الخطاب، وأنا أعلم بأن كارول وفريقها يريدون أكبر قدر ممكن من التفاصيل وأن عليَّ الاعتماد على ذاكرتي لإعادته كله، بدأ رضائي بالثناء على الحرس لشجاعتهم في جبهة الحرب وذكرنا بأهمية واجبنا في حماية جمهورية إيران الإسلامية من أعدائها، وشدد على أن الولايات المتحدة وإسرائيل كانتا تخططان دائمًا لإيذاء إيران وإخماد الحركة الإسلامية، يقظتنا ضرورية بهذا الصدد، ما يدعو للسخرية أنني كنت على بعد خطوات منه، حريصًا على ألا تغيب كلمة واحدة من كلماته عن ذاكرتي.

انتقل رضائي إلى مسألة الأعمال وتفوه بأهم إعلان له: بترخيص شخصي من الإمام الخميني، سيتم توسيع قوات الحرس الثوري الجوية، والبرية، والبحرية بقدر كبير مع تزويدها بأسلحة متطورة، كانت الخطة تحويل قوات الحرس الثوري إلى جيش تقليدي، لكن

بعقليـة استشـهادية، تحـدث عن تشـكيل الآلاف من الوحـدات الصغيرة لتقديـم دعم جوي، وبـري، وبحـري وشـدد علـى أن هذا قد لا يضاهي القـوة الجوية والبحرية لـدول مثل أميركا، فإن هذه الوحدات المساعدة الجديدة، المزودة بالأسلحة المناسبة، يمكنها اجتياح أي عدو، وعـد بصواريـخ، ومقاتـلات نفاثة، وغواصات، والتوسـع في إنتاج السـلاح داخل البلد بهدف الوصـول إلـى الاكتفـاء الذاتي، كانت تلـك أخبارًا هـائلة، شـيء كان في وسـعي تقدير أهميته ذلـك اليـوم، حسـبما أدركت حينهـا، فقد أزفـت تلك اللحظة حين اسـتكمل الحرس الثوري السـيطرة على إيران بالفعل، وبات يتمتع بسـلطة هـائلة سواء داخل البلد أو خارجها، «سنبني قوة تقضي على أعداء الإسـلام، وتواصل مسـيرة نبينـا العظيم محمد، ورفع راية الإسلام في أرجاء الأرض كافة». قال رضائي بحماس.

هتافـات «الله أكبـر» «والخمينـي قائدنـا» مـلأت القاعة بينما الحشـد المتحمس يهدر موافقًـا، أصبـح لخطـة أخـذ سـمية وأميد إلـى إنجلتـرا الآن هدف آخـر، كنت بحاجـة لرؤية كارول، لإيصـال المعلومـات المهمـة التي عرفتها ومناقشـة مخاوفي مع تقي الذي سـيواصل مراقبة أنشـطتي، اشـتريت تذاكر السـفر إلى لندن، ولعدم رغبتي القيام بأي مجازفات غير ضرورية قبل أخذ أسرتي خارج البلد، لم أكتب لكارول لأبلغها عن خطط سفري، لكني أعلم أنني سوف أراها بمجرد وصولي لندن.

الفصل
22

بعيدًا عن الوطن

كانت لندن ضبابية وغائمة، تبرز مزاجها الحزين التقليدي، لكن لم يكن هناك أي حزن يحيط بسمية وأميد وهما ينعمان في أحضان محب خان وزاري خانم، ونحن في الطريق من مطار هيثرو إلى منزلهما، كانت الراحة بادية على والدي سمية لخروج ابنتهما وحفيدهما من البلد، كانا يتصلان كل ليلة تقريبًا للاطمئنان على سلامتنا، وما إن توقف سائق التاكسي أمام شقتهما حتى شعرت وكأن عبئًا قد انزاح عن كتفيَّ، في وسع سمية وأميد أن يناما بسلام واطمئنان كل ليلة الآن، نظرت إلى السماء وابتسمت، عالمًا بأن ليس هناك أصوات رعب تنتظر الانفجار خلف تلك الغيوم السوداء.

على مائدة العشاء في تلك الليلة، تمتع الجميع بالسلام والهدوء، تشاركنا المحبة والضحكات، ما ذكَّرني بشيء كان من السهل نسيانه في إيران ما بعد الثورة: بأن من حقنا أن نعيش حياة حرة وعادية، فكرت، هذه فرصة، في وسعي الانتقال والبقاء هنا مع أحبائي مثل الآلاف الذين سبقوني وتركوا البلد بحثًا عن السلام والطمأنينة لأسرهم، هذه فرصتك، رضا! لكني ما زلت غير متأكد، ما زلت أشعر أن لدي مهمة يجب أن أنجزها.

«رضا جون»، قالت والدة سمية، قاطعة حبل أفكاري، «نحن سعداء للغاية لأنك فكرت في النهاية أن تترك إيران».

«نعم»، قال محب خان مضيفًا، «كنا ندعو كل ليلة بأن تغادروا جميعًا ذلك البلد الذي لم يعد آمنًا، أنا سعيد جدًّا أنكم هنا بأمان، منزلي صغير، لكن ينبغي عليكم أن تعرفوا بأنكم أبنائي ونود أن تقيموا معنا».

«لكن أبي...»، قاطعته سمية.

«سمية جون، لدينا متسع لكم جميعًا»، قالت أمها وقد أساءت تفسير مداخلة ابنتها، «المنزل ليس صغيرًا إلى هذا الحد! ولا تقل لا، رضا جون، ابق معنا لأول سنة ثم ابحث عن مكان، لم أشبع منكم وخاصة أميد العزيز»، ثم طبعت قبلة أخرى على خد أميد، «لكن أمي، أبي... رضا لن يبقى، سيعود إلى إيران».

«ماذا؟ نظرت إليَّ زاري خانم غير مصدقة، ولماذا تريد العودة؟ المكان غير آمن، رضا». «أمي، نحن ما زلنا نتحدث في هذا الأمر، سيعود بعد أسبوعين، لكنه يفكر في ترك الحرس نهائيًّا»، ووجهت لي إشارة تأكيدية أسكتتني.

صبيحة اليوم التالي، لبست حذائي الرياضي وأبلغت سمية أنني خارج للتنزه سيرًا على الأقدام، ابتسمت وأخبرتني أنها ستكون سعيدة جدًّا لو أنني أبقى ولا أعود أبدًا إلى إيران، غمزت لها وأبلغتها أني سأعود من نزهتي سريعًا، بعد السير مسافة بضع مبان، تلفَّت حولي للتأكد من عدم وجود أي شبهة، ثم دلفت إلى كشك هاتف وطلبت رقم المحطة: «هالو، أنا (ولي)، أريد التحدث مع كارول»، «ولي؟ سأل الرجل على الجانب الآخر مصدومًا، «نعم، ولي، أنا في لندن»، قال الرجل شيئًا لشخص ما، ثم سمعت بضع نقرات قبل أن يأتيني صوت كارول المتفاجئ.

«ولي! هل كل شيء على ما يرام، أين أنت»؟ «أنا هنا في لندن مع أسرتي، وكل شيء على ما يرام، أريد أن أعرف إذا كان في وسعنا الالتقاء»؟

تفاجأت كارول لأني لم أخبرها بخططي للسفر، أكدت لها أنني لست هاربًا هنا، ولا أعتقد أن هناك أي مشكلة تواجهني، بل إنني أحضرت أسرتي إلى إنجلترا لحمايتها من الحرب، طلبت مني الاتصال بها في اليوم التالي في الموعد نفسه لترتيب لقاء لنا، كنت أعرف أنه يجب عليها الاتصال بالوكالة ومناقشة الوضع معهم كإجراء احتياطي.

اكتفت سمية بهز رأسها حين أخبرتها بأن عليَّ الاهتمام ببعض المسائل لكاظم في اليوم المقرر لمقابلة كارول في فندق دورشستر في هايد بارك، مرة أخرى وكما فعلت في معظم أيام حياتي كجاسوس، قللت بعناية من فرص أن يتبعني أحد، مشيت بضع مبان،

وركبت سيارة أجرة مسافة ميلين، وتسكعتُ حول مركز تسوق، ثم قفزت إلى حافلة، ومشيت بعدها إلى الفندق.

كان جميلًا أن أرى كارول مجددًا، فهي في نهاية المطاف الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنني التحدث إليه بحرية عن مشاعري الحقيقية، رحبت بي بابتسامة دافئة لدى دخولي الغرفة، لكن كان في وسعي رؤية الارتباك في عينيها حين وجهتني نحو كرسيين مريحين، «كان ينبغي عليَّ أن أخبرك في رسالتي أنني قادم إلى لندن، ونظرًا لأني أريد اصطحاب أسرتي إلى هنا، خشيت أن أفعل أي شيء قد يهدد فرصهم في الخروج من البلد».

صدمت حين أبلغتها عن الانفجار وكيف ساعدت في إخراج الجثث من حفلة عيد الميلاد المشؤومة، مفسرًا لها سبب شعوري بضرورة الاستعجال بجلب سمية وأميد إلى لندن وإبعادهم عن الرعب، «رجتني سمية البقاء هنا معهم وعدم العودة».

توقفت كارول، التي كانت تبحث في حقيبتها عن دفتر الملاحظات وقلم، توقفت ونظرت، تنحنحت كأنها تريد أن تقول شيئًا، لكنها بدلًا من ذلك وضعت يدها على شفتيها وتمهلت للحظة، ثم مضت قائلة: «أتفهَّم ذلك، وأنا متأكدة من أن الوكالة تفكر بالطريقة التي أفكر بها ولي، وكما قلت سابقًا، سلامتك وسلامة أحبائك لها الأولية بالنسبة لنا، إذا أردت التوقف الآن، فإننا ندعمك تمامًا».

لا أدري لماذا ينتابني شعور أنهم بحاجة إليَّ كلما قال لي أحد حلقات الاتصال بأنه يدعمني إذا ما قررت ترك الوكالة، هل يتلاعبون بي لأنهم يعرفون أن رد فعلي سيكون على هذا النحو؟ أم أنني ببساطة أدرك أنه ما زالت هناك أشياء كثيرة لم تكتمل؟

«تعلمين كارول، لأكون صادقًا معك، لقد فكرت في الأمر مرات عدة، بالنظر لما حدث في سجن إيفين واحتمال أن أقتل في الجبهة، ربما كان عليَّ التفكير في التوقف الآن وأنا هنا سالما مع أسرتي، وعالمًا بأنكم ستدعمونني، قد يكون هذا أنسب وقت».

«لكن»؟ سألت كارول، «هناك لكن، كما أفترض»، توقفتُ للحظة طالت قبل أن أواصل الكلام مجددًا، «كارول، أنا أحب أسرتي كثيرًا وسعيد لأنهم في أمان هنا، لكني لا أستطيع التوقف الآن، لو أنك في إيران لفهمت سبب امتعاض الناس وتعبهم من حكم هؤلاء المتطرفين

الإسلاميين، الإيرانيون بحاجة إلى المساعدة، بحاجة لمن يتحدث باسمهم، وأشعر أني ذلك الصوت، في بعض الأحيان أعتقد بأنني الوحيد لديهم».

حركت كارول كرسيها وأراحت ساقاها المتشابكين واستمعت إلى ما سأقوله، «هل تمانعين إن دخنت»؟ سألت، «كلا ولي، خذ راحتك»، أشعلت سيجارة، وسحبت نفسًا طويلًا، ثم نفثت الدخان، «الكثير من المظالم تحدث كل يوم، في الأسبوع الماضي، كانت إحدى المراهقات تتحدث من هاتف عمومي حين اقتربت منها قوات الشرطة الدينية، في البداية اعتراضًا على ملابسها، ثم أدركوا أنها تتحدث مع صديقها على الهاتف، فأردوها قتيلة في مكانها».

«كنت ذاهبًا إلى العمل خلال أحد أيام رمضان حين رأيتهم يعتقلون رجلًا مسنًّا لتناوله الطعام علنًا دون احترام للصيام، ربما كان في الثمانين من العمر، قام هؤلاء البلطجية بضربه بلا رحمة وهم في عمر أحفاده».

استمعت كارول بهدوء وعيناها مسبلتان، «جار لوالدتي، وهو يهودي اعتنق الإسلام خوفًا، صودر جواز سفره بعد عودته من رحلة عمل، بعد بضعة أيام اعتقلوه وأخذوه إلى سجن إيفين، كان يتعرض للضرب كل ليلة، ويؤخذ ليوضع أمام فصيل الإعدام، ويقولون له بأنهم سيطلقون النار عليه، وبينما هو معصوب العينين كان يسمع صوت إطلاق النار ويتوقع أن يموت، لكنهم لم يطلقوا النار عليه، كانت تلك طريقتهم في تعذيبه، وكانوا يطلبون منه وضع آخرين قتلوا بالرصاص في أكياس جثث، يريدون منه الاعتراف بالتجسس لحساب إسرائيل، لم يعترف قط، وأطلق سراحه بعد خمسة أشهر وبعد دفع ملايين الريالات ككفالة».

«وما الذي يفعله الناس»؟ سألت كارول بنبرة فيها مزيج واضح من الارتياب والإحباط، «كيف يتحمل الناس كل هذا»؟

«لم يفقد الناس الأمل بعد، بالرغم من كل الاعتقالات والإعدامات، ما زال الطلاب، والمعلمون، والعمال يتظاهرون مطالبين بحقوقهم، وما زالت النساء غير ملتزمات تمامًا بالحجاب الإسلامي بالرغم من أنه يجري اعتقالهن وجلدهن لذلك، لكن الناس بحاجة إلى مساعدة»، تنهدتُ مضيفًا: «ينبغي على الغرب فعل شيء ما».

وضعت سيجارتي في المنفضة، وغرقت كارول أكثر في مقعدها، كان في وسعي رؤية أن قصصي أثرت فيها، وقد ترقرقت الدموع في عينيها، كارول عاشت مدة في إيران وأحبت الناس والبلد؛ لذلك أعلم أن اهتمامها بما أقول أكثر من مجرد اهتمام مهني.

«ولي، آمل أن يأتي اليوم الذي تعود فيه الحرية للإيرانيين، لكن الأمر الأهم هو دفع الملالي لقبول السلام مع العراق والتوقف عن هذا الخَبَل الذي يعصف بحياة الكثيرين».

كنت أعرف أنها غير قادرة على تغيير أي شيء بنفسها، لكن ما قالته كان كافيًا لإقناعي بأن الأميركيين ينوون بذل جهد ما، الآن ينبغي علينا العودة إلى العمل، سألتني كارول عن حكاية سجن إيفين وموت جواد، كانت تريد التأكد من أن سلامتي غير معرضة للخطر، وأن وضعي لم يتزعزع.

«كنت مقتنعًا أن وفاة جواد أنهت الشكوك حولي، حتى إنني شعرت بأن عباس -رجل الحرس الثوري في السجن- لم يكن يشك في أي شيء، قابلني لأن جواد طلب منه ذلك، لكن كان هناك ذلك الشخص (تقي) الذي يعمل في وزارة المخابرات والأمن وكان موجودًا في لقاء رضائي، تقي أفهمني ضمنًا أن جواد حدثه عني، وقد أخافني ذلك، لعلمي أن جواد ربما ترك عملًا غير منته في يد شخص آخر».

قطبت كارول حاجبيها، «ما الذي تشتبه أنه يعرفه عنك»؟

«يحتمل أن جواد أخبره عن شيء يمكن أن يدينني، لا أعلم، قد أكون حساسًا جدًّا تجاه هذه القضية، أرى وحوشًا في كل زاوية، كل ما أعرفه هو أنه ينبغي عليَّ اتخاذ احتياطات إضافية، لا أعرف ما كان يجري في عقل جواد، لكنني عرفت من الحرس أن جواد كان يتدخل في عمل الجميع، وأنه يقوم بأعمال على مسؤوليته».

«ربما كان هذا هو الحال»، قالت كارول بهدوء، «على أي حال، ألا تعتقد أنه لو كان هناك أي شك حولك، لعرف كاظم، وتبعًا لذلك لما أفشى لك معلومات سرية أو اصطحبك إلى اجتماعات مهمة»؟

هـذا شـيء منطقـي لم أفكـر فيه، وهو معقـول، «هل تعلميـن كارول، في بعض الأحيان لا أعـرف بمـا يجـب أن أفكر ولا كيف أشـعر، هـذه الحياة المزدوجـة أكثر تعقيـدًا بكثير مما تصورت في حياتي، لكنني أعيشها وأدعو الله أن يساعد ما أفعله على تحرير بلدي».

لـم أرد مواصلـة مسـار الحديث هـذا معها، لدينـا الكثير من العمل، وهـذه المحادثة لا تسـاعد فـي ذلك، فقمـت بتغيير الموضوع بشـكل مفاجـئ، «لقد حصل الحرس الثوري على تفويض مـن الخمينـي لتحويـل قواتهـم إلى جيش تقليدي، وسـوف يزيـد من قوتهـم البرية وسـتكون لديهـم قوة بحرية وجوية رسـمية، وعد رضائي بصواريخ أرض- أرض بمدى أطول وتأثير أكبر، ومقاتلات نفاثة لسلاح الجو؛ وغواصات للبحرية؛ والتوسع في إنتاج السلاح في البلد».

أوضحـت أيضًـا بـأن قاعدة قوة الحرس ونفوذه سـتتعاظم كثيرًا سـواء داخـل إيران أو خارجهـا، النخبـة مـن قوات الحرس الثوري تسـللت إلى دول داخـل منطقة الخليج، وآسـيا، وإفريقيـا، وأوروبـا، وحتى أميركا اللاتينيـة، وأقامت بيوتًا آمنة، وتقـوم بتجنيد المتطوعين، وتدريب الاستشـهاديين، شـرحتُ لها بأن الحرس الثوري أتقن الآن إنتاج الأسلحة الكيماوية، ويسـعى الآن للحصـول علـى قنبلـة نوويـة لمواجهـة صـدَّام والإعداد لاعتـداءات مسـتقبلية، وأخبرتهـا عـن خطـة رضائـي لتشـكيل الآلاف من الوحـدات الصغيـرة لاجتيـاح دفاعات أي جيش، بما في ذلك الجيش الأميركي.

«كارول، مـن المهـم جـدًّا فهم هذه العقليـة الاستشـهادية والقناعـات المتطرفة، إنهم يعتقدون فعلًا بأن الإسلام سيجتاح العالم، إذا سمحنا للحرس المضي قدمًا دون كابح، فإن العواقب ستكون مدمرة للمنطقة والعالم».

واصلـت كارول الكتابـة بهمة، ثم توقفت ونظرت إلي، «ولـي، عليك أن تعلم أننا نعتبرك واحـدًا مـن أفضـل عملائنا، المعلومـات التي زودتنـا بها سـاعدتنا جدًّا على فهـم الوضع في إيران، وأعطتنا فكرة عن أفضل الطرق للتعامل معه، ومع ذلك أريدك أن تكون حريصًا جدًّا، لا تضـع نفسـك فـي دروب مؤذيـة محاولًا معرفة ما يفعله الحرس، احرص علـى بقائك عينًا وأذنًا، فهذا ينجح بشكل جيد حتى الآن».

ثـم تنـاولـت حقيبتهـا، والتقطـت مغلفًـا ناولته لـي، «هذه عـلاوة من أجل عملـك بجد»، نظرت إليها مبتسمًا وقلت: «يجب أن آتي لرؤيتك مرات أكثر!»

ضحكنـا كلانـا، وحيث إن البنك الذي كانوا يودعون فيـه راتبي موجود في لندن، وكنت أريد ترك بعض النقود مع سـمية، فقد قبلت المبلغ دون تردد، اختلسـت نظرة داخل المغلف وقـدَّرت أن فيـه قرابـة الخمسـة آلاف دولار، أعتقـد أنني بـدأت أتعلم بأني موظـف في وكالة المخابرات المركزية بغض النظر عن الطريقة التي أنظر بها لهذا الأمر.

تحدثنا لمدة أطول، ثم نهضت للمغادرة، ضمتني كارول بحرارة قبل أن نغادر وذكرتني مجـددًا أن فـي وسـعي التوقـف عـن هـذا العمل فـي أي وقـت إذا شـعرت أن مـن الخطر عليَّ الاستمرار.

«لا أريد منك سـوى أن تعديني أنك سـتعتنين بأسـرتي إذا ما حدث لي شـيء»، قلت قبل أن أغادر.

طيلـة مـدة مـا تبقى من إقامتي فـي لندن، قضيت أكثـر ما في اسـتطاعتي من وقت مع سـمية وأميد، كانا أفضل أسـبوعين نقضيهما منذ أن دخلت شخصيتي الثانية حياتنا، أميد، الذي بات يتلفظ بجمل كاملة، تعلم كيف يثير دهشتي وإعجابي، في الليلة التي سبقت سفري، تركنا والدا سـمية وحدنا في البيت، قالا إن عليهما الذهاب إلى مكان ما، لكني أعتقد أنهما تعمـدا إتاحـة بعض الحرية لنا، جلسـنا ثلاثتنا على أرض غرفة المعيشـة حيـث دفاتر تلوين أميـد وأقلامـه منتشـرة فـي كل مكان، وبينما كان يرسـم أمسـكت يد سـمية، وعدتهـا قائلًا: «سأعود للزيارة».

هزت رأسها بخيبة أمل، أعتقد أنها -حتى تلك اللحظة- لم تصدق أنني قد أقرر ترك الحرس والبقاء معها.

رفع أميد قطعة ورق ليرينا قلبًا أحمر معوجًّا رسـمه، ثم قال بالفارسـية: «أحبك كثيرًا أبي»، براءة كلماته اخترقت روحي، ثم ألقى الورقة ولف ذراعيه الصغيرين حول عنقي وقبَّل وجنتاي.

ابتلعت غصة في حلقي وقبلته، قائلًا: «أنا أيضًا أحبك كثيرًا»، التفتُ إلى سمية بعد قولي هذا وقلت: «آه عزيزتي، أحبك أنت أيضًا»، نهضت وقالت ضاحكة: «أنت تعتقد أن كل شيء نكتة».

جذبتها من ذراعها وأجلستها إلى جانبنا، «بمجرد أن تتاح لي الفرصة، سأحزم كل شيء، وأعود إلى هنا ونبدأ حياة جديدة».

في الليلة التالية، غادرت، قلت وداعًا لأسرتي في ليلة لندنية أخرى ضبابية، غائمة، كان مزاج إنجلترا الحزين، هذه المرة، وسماؤها غير المرصعة بالنجوم يعطي صورة مثالية عما يعتمل في صدري.

الفصل
23

بيت اللّه

اختفت التكشيرة عن وجه سائق التاكسي حين ناولته ورقة نقدية من فئة ألف ريال إيراني (تساوي حوالي 15 دولارًا) بعد أن طلبت منه عدم اصطحاب أي مسافر آخر، في العادة يتوقف السائقون في طهران مرات عدة لالتقاط ما يصل إلى خمسة ركاب في التاكسي الواحد، وصلت في الصباح الباكر محمر العينين بعد الطيران ست ساعات من لندن، كنت مرهقًا وبحاجة إلى النوم بضع ساعات قبل الذهاب إلى المكتب.

نظر السائق إلى النقود بعناية، ثم التفت إليَّ بابتسامة كشفت عن أسنانه قائلًا: إنه يعرف طريقًا مختصرًا قد يجنبنا زحمة السير، هززت رأسي موافقًا وأرحت جلستي في مقعدي، رؤية معالم طهران المألوفة من نافذة التاكسي ذكرتني بأن زوجتي وابني لم يعودا معي، شعرت بالراحة والحنين إليهما في الوقت نفسه، بت أفتقدهم على الفور، لكني كنت سعيدًا أنهما لم يعودا في درب الخطر، وإنني بت حرًّا في متابعة التزامي بأن أكون العميل ولي دون خوف من عواقب تطالهم.

مررنا برافعات بناء عليها جثث ثلاثة شبان أعدموا حديثًا وكأنهم طعوم علقت في نهاية قصبة لصيد السمك، كأنما جاء ذلك لتأكيد فكرة أنني اتخذت القرار الصحيح، حشد من الناس يحدق مشدوهًا إلى الأجساد التي بدت وكأنها شبح صورة مقابل التلال البعيدة، أصبح الناس مخدرين تجاه الإعدامات، أو على الأقل معظمهم، تحت أحد الرجال المعلقين، امرأة محجبة متلفعة بالسواد، هي على الأغلب والدة واحد منهم، تندب ملتاعة.

توجهت في تلك الأمسية -بعد غفوتي- إلى العمل، وذهبت مباشرة إلى مكتب كاظم مع هدية تذكارية أحضرتها من لندن له ولعروسه الجديدة، كان يجلس خلف مكتب كاظم أحد أفراد الحرس أعرفه لكن غاب عني اسمه.

«سلام أخ رضا، تفضل»، بادرني قائلًا حين رآني، «هل أنت هنا لرؤية كاظم»؟

«سلام أيها الأخ»، رددت مبديًا بعض الارتباك، «نعم أنا أبحث عن كاظم، هل سيعود»؟ «أوه لا، الأخ كاظم انتقل إلى مكتب القائد، لقد حل محل الأخ رحيم»، قال متكلفًا الابتسام»، «يبدو أنك تغيبت مدة طويلة!»

شعرت أنني أبله لعدم معرفتي ما حدث خلال الأسبوعين اللذين كنت فيهما بعيدًا، «وأين ذهب الأخ رحيم إذن»؟ «انتقل الأخ رحيم إلى قاعدة أخرى»، قال وهو يسحب أحد الأدراج ويخرج أوراقًا منها متظاهرًا بأنه مشغول.

شكرته وانطلقت عائدًا إلى مبنانا، حيث يقع مكتب كاظم الجديد، دخلت مكتبه وقفز كاظم من مقعده بمجرد دخولي الغرفة، سعيدًا برؤيتي، لم يسبق له أن رحب بي في مكتبه بهذه الطريقة، يبدو أن جلوسه في مقعد القائد رفع روحه المعنوية، «ما الذي فعلته برحيم»؟ قلت مبتهجًا، «أغيب أسبوعين فقط فتعد لانقلاب وتستولي على القاعدة من دوني»؟

انفجر كاظم ضاحكًا وعانقني بحرارة، «بعد عودته من إنجلترا، انتقل رحيم إلى وزارة المخابرات والأمن، إنه منهمك الآن بمنظمات وحركات عملائنا في أوروبا، سواء أعجبك أم لم يعجبك أنا قائدك الآن».

«أعتقد أن هذا مناسب جدًّا بالنسبة لي»، قلت مبتسمًا، «أوه، قبل أن أنسى، هذه لك ولزوجتك؛ تذكار صغير من سمية ومني».

ناولته الحقيبة، كانت سمية قد ساعدتني في انتقاء سترة لزهرة ومعطف ضد المطر لكاظم، شكرني كاظم على الهدية ودعاني للإقامة في منزله خاصة بعد أن أصبحت وحيدًا وزوجتي بعيدة، كان تبادل بسيط للحديث بين صديقين؛ من الأشياء التي تأتي بشكل طبيعي لأناس عرفوا بعضهم وكانوا قريبين من بعضهم مدة طويلة كما هو الحال بالنسبة لنا نحن الاثنين، لكنني أدرك بأن هذا التبادل ما كان ليحدث لو عرف كاظم عن ولي، ما قادني إلى التساؤل كيف لا يعرف عن ولي، وهو الذي عرفني كل تلك المدة، وكيف غابت عنه جميع أعمال الخداع التي كنت أقوم بها؟

الحقيقة هي أن كاظم لم يكن ذلك الشخص الداهية، الماكر مثل الكثيرين من الحرس ورجال الدين، كان شخصًا ذي عقلية منغلقة، تربطني به ببساطة واحدة من أكثر العلاقات تعقيدًا في حياتي، فأنا أرفض بالمطلق كل ما يؤمن به، وفي الوقت نفسه، أحس بارتباط عميق نحوه لكل ما تشاركنا به على مدى السنين، حين جلبت له الهدايا، فعلت ذلك من منطلق حب حقيقي، إلا أنني، في الوقت نفسه، لم تغب عني قط كيفية استخدام وصولي إليه لتزويد كارول بمعلومات حيوية، وهو أمر يقع بالتأكيد خارج أهداف الصداقة الحقيقية.

بعد مدة قصيرة من عودتي إلى طهران، سمعت عن وليام باكلي، عميل وكالة المخابرات المركزية الذي سألتني عنه كارول وأخذ رهينة في 1984م قبل عام ونصف تقريبًا، فقد ذكرت أخبار المساء بأن منظمة الجهاد الإسلامي أعلنت عن إعدام باكلي في بيروت، (الجهاد الإسلامي) كان اسمًا يستخدمه الحرس الثوري كواجهة له في لبنان، مثال آخر على توسع سلطتهم، فقد اختاروا إنشاء هذه الجبهة لخلق الارتباك في صفوف المخابرات الأميركية والإسرائيلية، بفعلهم هذا، لا يستطيع العدو ربط أعمالهم الإرهابية بإيران، ويعتقدوا بدلًا من ذلك أنها حركة محلية نشأت في لبنان، كنت أعرف أن أخبار إعدام باكلي قد وصلت إلى كارول، وبالتالي لا داعي لإبلاغها به.

في ذلك الحين، فاز علي خامنئي بمدة رئاسية ثانية في انتخابات شهدت مشاركة إيرانية ضئيلة بشكل مذهل؛ لاعتقاد الناس بأن العملية الديمقراطية مخزية، وكانت لديهم الأسباب كافة للشعور على هذا النحو، حيث إن (مجلس صيانة الدستور) يقرر أيًّا من المرشحين يستطيع خوض الانتخابات، والمجلس مكون من ستة أشخاص يختارهم مباشرة القائد الأعلى الإمام الخميني، وستة آخرين يرشحهم رئيس السلطة القضائية- الذي يختاره القائد الأعلى أيضًا- وانتخابهم من قبل البرلمان، ويعني هذا أنه ليس في وسع أي شخص الوصول إلى السلطة إذا كان يشكل أدنى خطر على الوضع القائم.

يتوقع النظام أن تكون الانتخابات خفيفة ويعمل جاهدًا للمحافظة على إيهام الغرب بأن الشعب لا يزال يدعم الملالي، يأمرون جميع أفراد الحرس الثوري والباسيج للخروج للانتخاب مرتدين ملابس مدنية، ويقومون بشحن الناس الذين تم ترحيلهم من مدنهم

بسبب الحرب، في حافلات إلى مراكز الانتخاب، ويقدمون لهم الطعام والمأوى، ويهددون كل من لا ينساق مع خطتهم بحجب تلك الضروريات عنه.

(كان مير حسين موسوي، رئيسًا لوزراء خامنئي في ذلك الحين، وهو الرجل الذي تسببت هزيمته في انتخابات العام 2009م الرئاسية في غضب عنيف في شوارع إيران، المعتدلون الباقون في البرلمان -الذين احتفظوا بمناصبهم من أيام ما قبل خامنئي- كان ما يزال لديهم أصوات كافية لفرض موسوي على خامنئي حين أصبح رئيسًا في العام 1981م، ما حمل نذر صدام بين هذه المجموعة واليمين المتطرف الذي تفجر على المسرح العالمي بعد ثلاثة عقود، خسر موسوي منصبه في العام 1989م حين ألغت التعديلات الدستورية منصب رئيس الوزراء).

في تلك الأثناء، واصلت النفاثات العراقية إسقاط قنابلها فوق منازل الإيرانيين ليلًا في طهران والمدن الرئيسة الأخرى، وفي الوقت نفسه واصل الحرس الثوري وفتيان الباسيج معركتهم ضد العراقيين في الجبهة، أسلحة صدام- بما فيها أسلحته الكيماوية القاتلة- قتلت أو أحدثت إصابات بالغة في الآلاف من هؤلاء الرجال الشجعان، واصل المجاهدون أيضًا مهاجمة قواتنا من قواعد لهم في العراق بعد نقل مقر قيادتهم من فرنسا، هذا الانتقال جلب مزيدًا من الامتعاض والكراهية تجاه مجاهدي خلق، ليس من جانب الحرس الثوري أو المقاتلين العسكريين بل أيضًا من معظم الإيرانيين الذين رأوا في اصطفافهم إلى جانب صدام عملًا مشينًا، ومع سير الأحداث على هذا النوع، أصبح حكم الإسلاميين في إيران أكثر تشددًا، بتُّ أشعر أنني محاصر عند كل زاوية، وأعرف أن الكثيرين من مواطنيَّ كانوا يشعرون الشعور نفسه.

كنت قد أخبرت سمية بأني سوف أزورهم خلال رأس السنة الفارسية في ربيع العام 1986م، لكن مع اشتداد قبضة النظام، أدركت أن من غير الآمن القيام بذلك وأني مضطر لتخييب أملها، القيام برحلة أخرى إلى إنجلترا في هذه المرحلة ستجلب المزيد من الانتباه إليَّ أكثر مما أنا مرتاح له، بقدر ما أفتقد زوجتي وابني، وبقدر ما كنت أرغب في أن أكون جزءًا حيويًّا من حياتهم، فإنه ينبغي عليَّ البقاء بعيدًا عنهم إلى أن يصبح في إمكاني البقاء معهم بشكل دائم.

بدا منزلي فارغًا وتملكني إحساس بوحدة رهيبة بالرغم من محاولتي فعل كل ما يمكن للتكيف مع الوضع، كنت أتحدث مرتين في الأسبوع مع سمية، لكن ذلك لم يكن بديلًا عن العيش مع أسرتي، بعد أشهر قليلة من رأس السنة الفارسية، دعاني كاظم إلى منزله لتناول طعام العشاء، وسرني أن أكون بصحبته، كانت زوجته قد ذهبت إلى مكة، في المملكة العربية السعودية، لأداء العمرة.

علاقتي الاجتماعية بكاظم بعيدًا عن إطار العمل كانت نادرة خاصة بعد أن تزوجنا، ولم أزر البيت الذي سكنه مع زوجته، قام هو وزهرة بتزيين البيت ببساطة، بضع سجادات إيرانية قديمة على الأرض، وقطع قليلة من الأثاث، وصورتين للإمام الخميني على جدار غرفة المعيشة، ولديهم وسائد من السجاد الخشن قصير الزغب على الأرض، وعدد قليل من المناضد القصيرة هنا وهناك، وفي حين ارتفع منصب كاظم في العالم، فإنه خلافًا للكثيرين ممن حكموا البلد، لم يقم بتزيين منزله بسلع مسروقة ممن جرى اعتقالهم أو قتلهم، وكان هذا تذكير آخر بأن كاظمًا رجل بسيط، ومستقيم، من المحزن أنه اختار الإيديولوجيا الخطأ.

«متى تخطط للذهاب إلى مكة للحج»؟ سألته ونحن نتمشى في أنحاء البيت، «ربما يحالفني الحظ بالمناداة على اسمي قريبًا»، أجاب، «يشرفني أداء فريضة الحج».

شعرت برغبة في قول شيء ساخر -وهو أمر أميل إلى فعله حين أواجه بمفهوم لا أستسيغه- لكني أعرف بأن هذا ليس الزمان ولا المكان المناسب؛ لذلك اكتفيت بالقول: «إنشاء الله، سيتم استدعائك».

قادني كاظم إلى المطبخ حيث الطعام الذي أعده موضوع في انتظارنا على طاولة صغيرة، ناولني طبق فيه أرز مع أسياخ كباب من لحم العجل: «هذا شيء لا يشبه كباب جدك، لكني حاولت، ذكرى أيام جميلة»، قال وعيناه تنظران إلى المدى البعيد، فاجأني أن أسمعه يشير إلى أيام طفولتنا بأنها «أوقات طيبة مضت»، وقد كانت كذلك بالفعل، كما أعتقد، لم أتحدث معه كثيرًا عن الماضي، معتقدًا أن من المؤلم جدًّا محادثته عن الأيام

المفعمـة بالحيـاة التـي عشـناها أنا وهـو وناصـر، الآن وقد ذكرهـا، وجدت أنـي أرحب حتى بتذكير قصير بتلك الأيام.

لكـن قبـل أن تحملنـي أفـكاري بعيـدًا، قال كاظـم: «هل تعلم بـأن أصدقـاءك كانوا هنا مؤخرًا»؟

اختلـط الأمـر علـيَّ ولـم أعرف مـا كان يعنيـه، ابتلعت قطعـة كبيرة من الكبـاب، لكنها علقت في حلقي، «هل تريد مزيدًا من الزبدة على الأرز»؟

شـربت بعض الماء، «لا أريد مزيدًا من الزبدة، شـكرًا»، جليت حنجرتي، وسـألت: «أي أصدقاء»؟ وضع حبتان مشـويتان من الطماطم في صحني وقال: «الأميركيون، كانوا هنا في طهران».

لم أفهم في الواقع ما كان يقوله، وكنت ما أزال متحيرًا، تظاهرت بعدم الاكتراث، هذا الطعام جيد، لم أتناول وجبة سـاخنة شـهية منذ أن غادرت سـمية، «يسعدني أنها أعجبتك»، توقـف لوضـع لقمـة فـي فمه ثم قـال: «ريغان بعـث رجاله إلى هنـا للتفاوض»، سـحقت حبات الطماطـم بمعلقتـي فـوق الأرز: «هـل فعل ذلـك»؟ «وما الذي كانـوا يتفاوضون حولـه؟ ولماذا ينبغي علينا أن نفاوضهم أصلًا»؟

«قابلوا الحاج آغا رافسنجاني ومساعديه في فندق الاستقلال، اسمع هذا: جلبوا معهم إنجيـلًا، وكعكة، ومسدسـ»، هز رأسـه، «كعلامة على الصداقة»، وضـع ملعقته، ثم أخذ قطع مـن خبـز (اللواش) الرقيـق، والتقط بهـا قطعة مـن الكباب ليأكلهـا، «رعاة البقـر الحمقى يعتقدون أننا سنساعدهم على إطلاق سراح رهائنهم في لبنان، ويحاولون تحسين علاقاتنا معهم، إنهم يعطوننا أسـلحة -الكثير من الأسـلحة- ويعتقدون أننا سـنوافق، في المقابل، أن نكـون دمى لهم»، ثم أخذ قطعة أخرى من الخبز وغمسـها في طاس اللبـن، «لكن الحاج آغا رافسـنجاني يعـرف كيـف يتلاعب بهـؤلاء السـفلة وكيف يحلبهـم»، غمز بعينـه ووضع قطعة أخرى من الكباب في صحني، وضحك قائلًا: «رعاة بقر أغبياء».

بعـد عودتـي إلـى منزلي، في تلك الليلة، كتبت رسـالة إلى كارول بشـأن مـا قاله كاظم، لـم أدرك فـي حينه أهمية المعلومات الجديدة واحتمـالات تأثيرها على حياتي، لكن حين لم

تبـد كارول أي اهتمـام بتلـك التفاصيل ولم تطرح أسـئلة لمتابعة ذلك الموضـوع، أدركت كم كنـت غبيًّـا، أنا أخاطـر بحياتي لتخليص بلدي مـن المجرمين الذين يديرونهـا والأميركيون يفاوضونهم، وكالة المخابرات المركزية تعلم بأن الحرس الثوري مسؤول عن تفجير الثكنات فـي لبنـان الـذي أزهق حيـاة 241 جنديًّـا أميركيًّـا، ويعرفـون أن مواطنيهم، من أمثـال وليام باكلـي، يخطفون، ويعذبون، ويقتلون، ومع ذلك يحاولون اسـترضاء هـؤلاء الملالي المتلونين راكبي الحمير.

فكرة التفاوض بين أميركا والنظام أفزعتني أيضًا لسبب آخر، بدأت أفكر في احتمالية أن يكون جزءًا من عملية إبرام الصفقة كشـف العملاء، فبعد مدة وجيزة من تناول العشـاء مع كاظم اعتقل ثلاثة إيرانيين يعملون في وزارة الخارجية بتهمة التجسس لحسـاب أميركا، وبينـت الصحف الحكومية اكتشـاف وثائق في منـازل هؤلاء العملاء مماثلة جدًّا للوثائق التي لـدي، بمـا في ذلك، دفاتر الشـفرة، وتسـاءلت إن كانت أميركا ستسـلمني كجـزء من صفقة كبرى.

فـي تشـرين الثانـي 1986م، سـرَّب متطرفون أخبارًا عـن صفقة مبادلة رهائن بأسـلحة لحـزب الله فـي لبنـان الـذي قام بـدوره بنشـر هـذه المعلومـات في (الشـراع)، وهـي مجلة أسبوعية لبنانية، ما أطلق فضيحة إيران - كونترا.

عرفت لاحقًا أن الاجتماعات لم تقتصر على تلك التي عقدت مع هاشـمي رافسـنجاني وحلقـات اتصالـه فـي طهران، فقد اجتمعوا مع الحرس الثوري أيضًا في جنيف، وبروكسـل، وفرانكفـورت، ومينـز، حتى إن وكالة المخابرات المركزيـة أعطت اثنين من المفاوضين عن الحرس الثوري الاسمين الرمزيين (ذا إنجن) و(ذا ريلاتف)، كما سهلت رحلة للأخير إلى واشنطون العاصمة، حصل خلالها على جولة داخل البيت الأبيض.

كنت سعيدًا لرؤية الإحراج الذي سببه كشف هذا الأمر لإدارة ريغان، فقد أزاحت جانبًا مبادئهـا بالتفاوض مع أناس ارتكبوا أفعالًا مشـينة لدوافع سياسـية، لـو أن تلك المفاوضات ذهبت لمدى أبعد، لتبخر كل أمل لديَّ بإيران حرة.

مع انتشار أخبار القضية ووضع الرئيس ريغان نهاية لمبادرات إيران، حاولت البقاء على اتصال مع كارول، آملًا أن تكون الحكومة الأميركية قد عرفت خطأ التفاوض مع حكام إيران، وأن تتخذ موقفًا أكثر تشددًا في المستقبل، كل ما حققته تلك الإدارة هو تأمين إطلاق سراح بعض الرهائن، وبالمقابل زودوا الحرس الثوري بأكداس من الأسلحة الأميركية، انتهى بعضها في يد حزب الله والجهاد الإسلامي، بينما واصل الحرس أخذ الرهائن والتقدم بطلبات أكبر.

في بداية صيف 1987م، حضر كاظم إلى مكتبي وأخبرني بظهور اسمه مع المدعوين للحج، زيارة مكة شرف بالنسبة له، لكنه كان متحمسًا جدًّا لسبب آخر، فقد أصدر الإمام الخميني أمرًا للقيام بمظاهرة خلال موسم الحج في ذلك العام، واعتقد كاظم أنه قد يؤدي دورًا في هذا العصيان، لم يكن لدي أي شك حيال ذلك، فدعوة كاظم إلى الحج لم تكن صدفة؛ كنت متأكدًا بأن الخميني يريده وحرس آخرين من وحدتنا لهذا الغرض بالتحديد، حاول النظام في السابق إحداث اضطرابات في المملكة العربية السعودية، لكنه فشل فشلًا ذريعًا، لكن هذا لم يمنعه من التخطيط لمزيد من العمليات الإجرامية في المكان الذي يعرفه الكثيرون على إنه (بيت الله الحرام).

ثم أعطاني تفاصيل محددة، حفظتها عن ظهر قلب من أجل تقريري التالي.

[الرسالة #:_______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول،

1. **كشف لي كاظم اليوم عن خطة الحرس للقيام بمظاهرة ضد المملكة السعودية خلال موسم الحج.**
2. **تم إرسال الآلاف من الحرس الثوري كحجاج، وطاروا بواسطة الخطوط الجوية الإيرانية.**
3. **السكاكين، والخناجر، وأسلحة أخرى تم نقلها إلى العربية السعودية بواسطة الحرس.**
4. **الإمام الخميني أعطى الأمر للقيام بهذه المظاهرة.**
5. **الخطة هي تحفيز المسلمين على التظاهر وإدانة سياسات أميركا وإسرائيل.**
6. **رحلات الخطوط الجوية الإيرانية تغادر يوميًا حاملة أفراد الحرس وناقلة السلاح.**

ولي

بعد أسبوع من وصول رسالتي إلى كارول، سمعت أن السعوديين يفتشون جميع رحلات الخطوط الإيرانية ويعيدون العديد من الحجاج الإيرانيين الذين يجدون في حوزتهم أسلحة، شعرت أنني لعبت دورًا مباشرًا في هذا الأمر، معتقدًا أن معلوماتي وضعت موضع الاستخدام، أخيرًا، بدأت تظهر نتائج جيدة لما كنت أفعله، ومع ذلك، وبالرغم من جهودي والإجراءات الوقائية السعودية نجح الحرس الثوري في إحداث مظاهرة عنيفة حاشدة، واشتبكوا مع الشرطة السعودية، هاتفين (الموت لأميركا) و(الموت لإسرائيل) تمكن السعوديون في النهاية من ضبطهم، لكن هذا قاد الخميني إلى إصدار أمر بشن هجمات تفجيرية على عدد من الوكالات السعودية في مختلف أنحاء العالم، واغتيال عدد من الدبلوماسيين السعوديين.

تزايد العنف في مختلف أنحاء المنطقة، ووسط كل هذا بعثت كارول برسالة تثير القشعريرة:

مرحبا ولي،

علمنا بأن العراق تلقى شحنات من الصواريخ بعيدة المدى من الاتحاد السوفيتي، وسوف يستخدمونها ضد المدنيين لإجبار النظام على القبول بوقف إطلاق النار، لا نعرف التوقيت، لكن إذا أردت المغادرة، فسوف نتفهم، ستزداد الأمور بشاعة، لكن السلام سيحل في النهاية، انتبه لنفسك رجاء.

كارول

الفصل
24

أخ، أخي

«كلا، لا تستطيع رؤيتها الآن، إنها في غرفة العناية القلبية، أنا آسفة، هزت الممرضة رأسها وغادرت وتركتني وحدي في قاعة مستشفى توس، عدت ماشيًا إلى منطقة الإدارة ووجدت ممرضة أخرى جالسة خلف مكتب.

«أنا هنا لرؤية فاتنة كاهليلي»، قلت يائسًا، «إنها أمي وقد أدخلوها للتو إلى هنا، لديها نوبة قلبية، أرجوك أخبريني أين هي وكيف حالها»، نظرت إلى الممرضة شزرًا وصرَّت عينيها، «لقد أخبرناك للتو، إنها في غرفة العناية القلبية، وليست في حالة جيدة، كم مرة يجب أن تسأل»؟

في وقت مبكر من ذلك اليوم اتصلت إحدى جارات والدتي لتخبرني بأن سيارة إسعاف قد أخذت والدتي إلى المستشفى، في اليوم الذي سبقه، رجوتها أن تأتي معي خارج المدينة؛ لتكون في أمان من جولة من الهجمات الأشد ضراوة التي يتعرض لها المدنيون خلال الحرب، لكنها رفضت البقاء معي، ومن حقها أن ترفض، ولماذا يتعين عليها حتى أن تفكر في ذلك؟ ابنها الوحيد جزء من نظام مخرب ولا تستطيع مسامحته على ذلك، ولادة حفيدها قربنا إلى بعض بدنيًّا، لكن تبين أنه تقارب مؤقت، بعد مغادرة سمية وأميد، عادت لتنظر إليَّ على أنني فرد من الحرس، حين توسلت إليها عبر الهاتف أن تسمح لي بأن أساعدها للوصول إلى مكان آمن، أخبرتني بأنها ستغادر مع أصدقائها في غضون بضعة أيام إن لم تتحسن الأمور، لكن صوتها كان مرتعشا، وعرفت أنها خائفة.

بدأ الكابوس الأخير حين كنت في المنزل، وكنت قد أنهيت محادثة هاتفية مع سمية، حين ضرب انفجار قوي المبنى، اهتزت الأرض، وتهيأ لي أن المبنى سينهار، كان الأمر أسوأ من إسقاط النفاثات العراقية قنابلها، نظرت من النافذة لرؤية أي المباني انهار ووجدت

الجيران يركضون صارخين في الخارج، لم أشاهد أي إشارة على الدمار داخل حينا؛ فقط أناس مضطربون وفزعون، أدرت الراديو، لكن قبل أن أحصل على أي معلومات، حدثت ضربة أخرى.

قبل بضعة أشهر، حذرتني كارول من حدوث هجمات بالصواريخ، في ذلك الحين لم يكن في وسعي تقدير أهمية رسالتها إلا بشكل نظري، لكن الواقع كان مرعبًا أكثر بكثير، أكدت إذاعة (بي بي سي) بأن العراق يطلق صواريخ بعيدة المدى على طهران ومدن إيرانية أخرى، وقالت الإذاعة المذكورة بأن هناك احتمالًا قويًا بأن تكون هذه الضربة الأولى من ضمن هجمات عديدة مقبلة.

في تلك اللحظة اتصلت بوالدتي، عارضًا عليها أن آخذها بعيدًا عن هذا الجنون، بعد يوم من تلك المحادثة، وسقوط كثير من الصواريخ على طهران، ترقد والدتي في وحدة العناية القلبية، أصابني حزن شديد وشعرت أني مسؤول عما حل بها، كان ينبغي عليَّ أن أصر على البقاء معها في مثل هذا الوضع، على الرغم من احتجاجها ورفضها، لكني سمحت للمسافة التي نشأت بيننا أن تمنعني من القيام بالتصرف الصحيح.

في أثناء انتظاري لمعرفة حالتها، ضرب انفجار قوي المستشفى، صاروخ آخر سقط في مكان ما قريب من هنا، ملأ الصراخ والعويل القاعة، تراكضت الممرضات من غرفة إلى أخرى، وغادر المنتظرون مسرعين، بقيت جالسًا على الأرض وقد غطيت وجهي بكفيَّ.

ما الذي يحدث لنا؟ هل هذا نوع الحياة التي نستحق؟ ما الذي سيحدث لأمي؟ سببت لها الحسرة وهي تعاني الآن من نوبة قلبية، ماذا لو لم تنج؟ يا ألله، أرجوك أنقذها سوف أفعل أي شيء! «هل هناك من ينتظر من أجل فاتنة كاهليلي»؟

أدرت رأسي ناحية الصوت العميق، الأجش، مسحت وجهي بطرف كمي ورفعت يدي، وما زلت مصدومًا وعاجزًا عن الكلام، اقترب مني رجل يرتدي معطف المستشفى الأزرق الفاتح، شعرت بيده على كتفي حين حاولت النهوض؛ «أرجوك، ابق جالسًا، هل أنت ابن السيدة كاهليلي»؟ هززت رأسي بالإيجاب.

«أنت تعلم، يا بني، منذ الليلة الأخيرة وصلنا العديد من المصابين بنوبات قلبية، تلك الصواريخ لا تدمر حيث تضرب وحسب؛ عليك أن تمتلك قلبًا قويا كي تتحمل تأثيرات سقوطها»، أزاح طاقيته عن جبهته، «يؤسفني أن أقول لك بأن والدتك لم تنج».

في رسالتها، أخبرتني كارول أيضًا بأن الأمور ستسوء لكن سيكون هناك سلام في النهاية، هل هذا هو نوع السلام الذي كانت تتحدث عنه؟ هل تعدُّ أن أمي (بسلام) الآن؟ لا أستطيع الاستمرار على هذا النحو، حين قمت بدفن والدتي في شتاء بارد من عام 1988م، وبينما طهران ما تزال تحت هجمات صدام حسين، اتخذتُ القرار الذي سيغير مجرى حياتي.

تعطلت خطوط الهاتف الدولية منذ بداية الهجمات، ونظرًا لعدم قدرتنا على الاتصال بواسطة الهاتف، بعثت سمية ببرقية لي:

> **رضا، نحن قلقون، لا نستطيع الاتصال، رجاء خبرنا عن حالك،أرجوك، رضا، اتصل في أسرع وقت ممكن.**

هرعت للرد على برقيتها، تمنيت لو كان في وسعي أن أبلغها عن القرار الذي اتخذته في برقيتي، لكن كان عليَّ أن أتأكد من قدرتي على متابعة هذا القرار قبل قول أي شيء، حتى إنني لم أذكر ما حدث لوالدتي وما أعانيه، وكيف أن الإحساس بالذنب يحطمني لموتها وعن مدى أسفي لأني لم أخبرها بأني لست من كانت تعتقد.

> **عزيزتي سمية، أنا بخير وعافية، أرجوك لا تقلقي كثيرًا، الوضع ليس سيئًا بقدر ما يبدو من الأخبار، سأبعث لك ببرقية كل يومين إلى أن تعود خطوط الهاتف، أحبك كثيرًا وأفتقدك، أرجوك قبلي أميد عني واعتني بنفسك، المحب، رضا.**

«أنت متأكد أنك تريد وضع كل هذه الكلمات»؟ سأل عامل التلغراف في شركة الهاتف، «يمكنك شطب عبارة (أنا أفتقدك) أو (أحبك كثيرًا) لخفض التكلفة».

«هكذا جيد، سأدفع مقابلها»، «ما رأيك بعبارة (قبلي أميد عني)، هل تعرف كم تكلف كل كلمة»؟ «لا تقلق لهذا، سأدفع المزيد حتى أتأكد أنهم يعرفون كم أحبهم»، نظر عامل التلغراف إلى شزرًا وأخذ الورقة.

طهـران الصـاخبـة دائمًـا تحولـت إلى مدينة أشـباح، مئـات الآلاف فروا منهـا بعد أول بضعة صواريخ، الكثيرين لجؤوا إلى مدن في الشمال قرب بحر قزوين، حيث إن تلك الأماكن أبعـد مـن أن تصلهـا الصـواريـخ العراقيـة، المسـافة التـي كانت السـيارة تقطعهـا في ثلاث سـاعات باتت تسـتغرق ما بين ثمانية عشـر إلى عشـرين سـاعة من الزحف البطيء بسـبب أعداد السـيارات النازحة من العاصمة، أما غير القادرين على تحمل نفقات السـفر فخيموا فـي ضواحـي طهـران، معتبريـن أن هـذا أكثـر أمنًـا إلى حـد ما، مـات الكثيرون مـن حوادث السـيارات أو بسـبب لـدغ الأفاعي في أثنـاء تخييمهم فـي مناطق نائية، كمـا توقفت الأعمال في طهران.

كنـت بحاجـة للتحـدث إلـى كاظم، لكـن التوقيت لـم يكن مناسـبًا لمحادثة شـخصية، القاعـدة فـي حالة من الفوضى، ولم يسـبق لي أن شـاهدت كاظمًا غاضبًـا وعصبيًّا إلى هذا الحـد، بعـد مدة وجيزة من بـدء الهجمات، قابلته في الردهة وطلب منـي أن أتبعه إلى مكتبه، صفق الباب خلفه وألقى بنفسه على كرسيه، تمتم بضع كلمات ثم تناول سماعة الهاتف، لكن بدلًا من طلب رقم أعاد السماعة بعنف إلى مكانها.

«سـنلقن هـذا اللعين، صدام، درسًـا جيدًا، هـؤلاء الأميركيون القـذرون يعتقدون أنهم يسـتطيعون إجبارنا على الاستسـلام بإعطائه صواريخ وضوء أخضر كي يهاجمنا، العراقيون يدعون أن الصواريخ من صنعهم، يعتقدون أننا حمير»، «ما هي الخطة، كاظم»؟ سـألت، «لا نستطيع الجلوس هنا وترك هذا اللص المتشرد يدمرنا على هذا النحو»، «الولايات المتحدة خططـت لهـذا، الإمام أصدر للتو أمرًا بالتوسـع في زرع الخليـج بالألغام للضغط على القوات الأميركية وعلى شـحنات النفط، وسـوف نطلق صواريخ على المدن العراقية الرئيسـة أيضًا، يمكنهم أخذ أحلامهم إلى القبر إذا اعتقدوا أن في وسعهم تدمير حركتنا الإسلامية».

مـرت دقائـق عدة قبل أن يهدأ غضب كاظم ويعبر لي عن مدى أسـفه لسـماع خبر وفاة والدتـي، كان ذلـك بابًـا فتـح لي لمناقشـة قراري، لكني تذكـرت ثورته العنيفـة قبل لحظات، فتناسيت الأمر.

في وقت متأخر من تلك الليلة كتبت رسالة إلى كارول:

[الرسالة #:______]

[التاريخ:________]

عزيزتي كارول،

1. **هجمات الصواريخ العراقية أحدثت فوضى، أناس أبرياء يذبحون.**
2. **الناس يهجرون العاصمة على مناطق أكثر أمنًا.**
3. **أخبرني كاظم أن الإمام أمر برد سريع على العراق والقوات الأميركية في الخليج.**
4. **سيتوسع الحرس الثوري في تلغيم الخليج انتقامًا لهجمات صدام.**
5. **الحرس لا يعرفون كيف حصل صدام على تلك الصواريخ القوية لكنهم يشكون في أن يكون الجيش العراقي قد صنعها، ويلومون الولايات المتحدة على إعطاء صدام الضوء الأخضر لهذا العمل.**

سأحاول البقاء على اتصال، لكن الوضع متقلب جدًا.

تمني لي التوفيق.

ولي

بعد شهرين تقريبًا من أول ضربة بالصورايخ العراقية وبعد أن أصبحت معظم مناطق طهران شبه مهجورة، توقفت ضربات الصواريخ، لكن الحرب استمرت، وبعد إصدار الخميني أمـرًا بتلغيـم الخليـج، اصطدمت الفرقاطة الأميركيـة حاملة للصواريـخ الموجهة (صامويل بـي روبرتسـون) بلغـم إيراني يوم 14 نيسـان، 1988م، أحدث اللغم ثغـرة عرضها 15 قدمًا في بـدن السـفينة وغمـر غرفة الماكينات بالمياه، وتسـبب في إصابة عشـرة بحارة، كنت أعرف بأن الأميركيين لن يمرروا هذا الأمر ببسـاطة، ودعوت أن لا يتسـبب الرد بأي أذى للمدنيين الأبريـاء، بعد أربعـة أيام هاجمت البحريـة الأميركية منصتين نفطيتين إيرانيتين، تسـببت المعركـة اللاحقـة فـي تدميـر أو إصابة ما لا يقل عن سـتة زوارق إيرانية سـريعة وسـفينتين للبحرية.

بعد ذلك، كان التوتر في الخليج مسؤولًا عن حادث مشؤوم أنهى حياة حوالي ثلاث مائة إنسـان بـريء، يـوم 3 تمـوز، 1988م، وفي أثناء وجـودي في مقصف وحدتنا مـع كاظم وأفراد مـن الحرس، جاءت الأنباء بـأن طرادًا من البحرية الأميركية أسـقط طائرة تابعة للخطوط الجويـة الإيرانيـة، يبـدو أن الطراد (فنسنس) اعتقـد أن الطائرة المدنيـة مقاتلة من طراز

(ف-14) مهاجمة، أظهرت الأنباء مرات عدة صور جثث الرجال، والنساء، والأطفال طافية فـي ميـاه الخليـج؛ الاهتياج فـي صفوف الحرسـ كان فوريًـا، (الموت لأميـركا)، هتف أفراد الحرس في المقصف، وكما هو الحال دائمًا، أنكر الغوغاء أي ذنب لهم في المأساة.

فـي وقـت متأخـر من ذلك الشـهر قبل الخميني السـلام مع العراق، لكنـه فعل بعبارات حارة كشـفت الكراهية الحقيقية التي يكنها لعدوه، «اتخاذ هذا القرار بالنسـبة لي هو بمثابة تجرع كأسـ السـم، أخضعت نفسـي لمشيئة الله وشربت كأس السـم هذه لمرضاته، بالنسبة لـي، كان المـوت والشـهادة أهـون علـيَّ، لكنـي أقدمت علـى هذا الأمـر لمصلحـة الجمهورية الإسلامية».

بعد ثماني سنوات من المعاناة، ومقتل، وإصابة، أكثر من نصف مليون شخص، وتكلفة هائلـة مـن الأضـرار الاقتصاديـة، مـا زال إمامنـا يؤمـن بأنه يضحي فـي سـبيل الجمهورية الإسلامية، لم أشعر بالخجل مما كنت أومن به كما شعرت في تلك اللحظة.

الآن وقـد انتهـت الحرب وأصبحـت الأمور في القاعدة أقل اضطرابًـا، فكرت أن الوقت بـات مناسـبًا للتحـدث إلى كاظـم، ذهبت إلى مكتبه مسـاء أحد أيـام الأربعـاء، وصادف أنه عيـد ميلاد سـمية، كنت قد اتصلت بها في ذلك اليـوم وكانت تبكي، «رضا، لقد مضت ثلاث سـنوات الآن، أميد بدأ سـنته الأولى في المدرسـة، لا يمكنني التظاهر بأن كل شـيء على ما يرام؛ لأنه ليس كذلك، هو بحاجة إليك، وأنا بحاجة إليك، أنا أتفهم حبك لـ... مهما كان ما تحبه عن ذاك البلد، لكني مللت وتعبت من هذا، أنت تنتمي لأسرتك».

لم تعطني حتى فرصة لأتمنى لها عيد ميلاد سعيد، لكني أخبرتها بأني سأتصل بها في وقـت لاحـق تلك الليلة حيـن تهدأ، كنت آمل أن أكون قد تمكنت مـن تصويب الأمور مع كاظم حينها، وأن أتمكن من إعطائها هدية عيد الميلاد التي تريدها حقيقة.

تفاجأت لوجود رحيم في مكتب كاظم؛ لأني لم أره منذ مدة، عانقني حين رآني، قائلًا: «السـلام عليكـم، أخ رضـا، جميل جدًّا أن أراك مجددًا»، «سـلام، أخ رحيـم، جميل أن أراك أيضًا».

وقفت آملًا أن يغادر رحيم كي أتمكن من التحدث مع كاظم، لكن بدا واضحًا أنهما يخوضان نقاشًا حول قبول الخميني للسلام، كاظم الذي أعلن في السابق أن الشرط الوحيد المقبول لإنهاء هذه الحرب هو تدمير صدام وحلفائه، وها هو يعترف الآن بقرار الخميني، إلا أنه ما زال غاضبًا من أميركا، «أتمنى لو أننا لقنا أميركا درسًا ورددنا على تنمرها»، قال كاظم.

«كن واثقًا، أخ كاظم، سيأتي ذلك الوقت»، قال رحيم، «لكن الأميركيين بعثوا برسالة قوية إن لم نقبل السلام مع العراق، فسوف يستخدموا كل قوتهم، بما في ذلك القنابل النووية، الحاج آغا رافسنجاني وعد بالانتقام من إسقاطهم طائرتنا المدنية وغيرها الكثير، أعرف من العديد من القادة الكبار أنه لو كانت لدينا القنبلة النووية، لاستخدمناها ضدهم، لكن هناك وقت للتراجع، وحشد القوة، ثم مواجهة قوى الشر الإمبريالية والصهيونية، إن شاء الله، سندمرهما كلاهما».

نظر كاظم إليَّ وهز رأسه موافقًا، وكان في وسعي روية رضاه عن كلام رحيم، «أعتقد أن قرار إمامنا مستوحى روحيًّا»، قلت، لاعبًا الدور الذي لعبته على الدوام في المكتب، «وكما قال الإمام نفسه، علينا أن نخضع لإرادة الله وسوف يمكننا الله من هزيمة الشر».

خلال الحديث، سأل رحيم شيئًا عن زوجتي وابني اللذين يعيشان خارج البلد بعيدين عني كل هذه المدة، تذكرت أني سبق وأخبرته أنهم مع حماي وحماتي في لندن، «إنهم بخير، حماي، محب خان، لديه شقة كبيرة في حي مايفير، وأنا سعيد لأن زوجتي ومعها ابني تعيش بأمان مع أسرتها».

«محب خان؟ أعرف هذا الاسم، هل اسمه الأخير حديدي»؟ سأل رحيم؟ هززت رأسي بالإيجاب، وقد صدمت لأنه يعر ف حماي،«محب خان مسلم عظيم ومساهماته لمسجد لندن يُنظر إليها بعين الاعتبار، لم أكن أعرف أنك قريب له»، لم أعرف ماهية شعوري حيال هذه الرابطة، هل سأحظى بمزيد من الاحترام والمصداقية أم سأخضع لمراقبة أشد؟ أعرف أن لمحب خان سمعة طيبة بين المسلمين في لندن، حيث إنه رجل مستقيم ورجل أعمال جدير

بالثقة، لكن محب خان كان يعارض علنًا الجرائم والظلم الذي ترتكبه الحكومة الإيرانية، هل سيضعنا هذا أنا وأسرتي في دائرة الشك؟

ألقى رحيم نظرة على ساعته وأخبر كاظمًا أنه يتعين عليهم الذهاب، «إن لم تكن مشغولًا -أخ رضا- ينبغي عليك المجيء معنا أيضًا»، قال رحيم، «يجب عليك مشاهدة العدالة وهي تعمل».

قبل أن أتمكن من سؤالهم أين يريدان الذهاب، طرق أحدهم باب مكتب كاظم وفتحه، «أخ رحيم، هل أستطيع أن أكلمك للحظة»؟ سأل رجل الحرس، نهض رحيم ووقف بجانب الباب نصف المفتوح، ممسكًا بمقبض الباب وقد التوت يده إلى الخلف، همس الرجلان لبعضهما بضع كلمات، كل ما استطعت سماعه كان قول رحيم: «طبعًا، طبعًا، سأكون هناك».

عاد رحيم إلى الغرفة وقال إنه ينبغي عليه الذهاب إلى مكان آخر على الفور، بسبب طارئ حدث، وقال بأنه ينبغي عليَّ أنا وكاظم الذهاب من دونه، أراحني ذلك، حيث قيامي أنا وكاظم وحدنا بهذه الرحلة قد تتيح لي المجال للتحدث إليه عن خطتي، إلا أنه حين أخبرني كاظم عن المكان الذي نحن متجهين إليه، شعرت بالغثيان، كان يصطحبني لعملية رجم، «إنها على مسافة أربعين دقيقة بالسيارة من هنا، سنصل على الأغلب في الوقت المحدد إذا غادرنا الآن».

شعرت بموجة من الغضب تجتاحني موجهة نحو كاظم، كيف يمكنه أن يكون على هذا القدر من عدم المبالاة، وبرودة الدم، كي يتحدث عن هذا الأمر وكأنه موعد آخر على أجندته؟ كيف يمكنني اتخاذ شخص مثله صديقًا؟ كنت غاضبًا إلى درجة أني لم أستطع التحدث بأي شيء في طريقنا إلى هناك، وخاصة عن خططي.

وصلنا إلى نهاية طريق غير معبد، مغبرٍّ في ناحية مهجورة في ظل التلال المحيطة، تجمع جمهور صغير في المكان، توقفت عدد من سيارات الحرس والشرطة الدينية على جانب الطريق، على بعد مسافة قصيرة من الحشد، وقف اثنان من سائقي الدراجات النارية متكئين على دراجاتهم يراقبون الحدث، وثمة عدد من النساء تلفعن بعباءات سود وسط الحشد، أمامهن كومة من الحجارة بحجم قبضة اليد.

امرأة شـابة، لفت بثوب أبيض يمسـك بها اثنان من رجال الشـرطة أمام حفرة حفرت خصيصًا لها، وخلفهم خمسة من الباسداران مسلحين برشاشات يراقبون الحضور.

أعلـن مـلا يرتدي عباءة سـوداء عن الجريمة، «آسـيا نجمالي، عمرهـا اثنتان وثلاثون سـنة، والـدة طفلين، أدينـت بارتكاب جريمة الزنا»، تنهد الحشـد، «اليوم نحـن هنا لتحقيق العدالـة، هـذا هو حكم الله، ارتكبت آسـيا نجمالـي خطيئة لا يمكن محاكمتهـا عليها إلا وفق حكم الله، لقد جلبت العار والخزي للإسلام ولعائلتها».

«دعنا نذهب إلى مكان أعلى قليلًا لنتابع المشـهد بشـكل أفضل»، همس كاظم، «اذهب أنت؛ أستطيع المشاهدة من هنا»، عبس كاظم في وجهي وشق طريقه وسط الحشد، واختبأت خلـف صـف من الرجال عنـد نهاية الدائـرة المحيطة بالمـرأة، مما عرفته، كانـت خطيئتها محاولـة إطعـام طفليهـا بالوسـيلة الوحيـدة المتاحـة لامـرأة ضربها الفقر بسـبب سياسـات الحكومـة الإسـلامية: بيع نفسـها لرجل مقابل بضـع مئات من الريـالات، الآن عليها مواجهة العقوبة التي أصدرها ملالي متعصبون باسـم الله، نظرت متلصصًا إلى كاظم وهو يشـاهد الإجراءات بحماس، وتساءلت كيف يكون إلهي مختلفًا عن إلهه.

«اقتلـوا هـذه الزانيـة!» صـرخ رجل من بين الحشـد، أطلق هـذا وابل مـن النعوت، كنت تسـتطيع سـماع النـاس يصـرخون من كل زاوية يصفون آسـيا بأنها مخزية، وفاسقة، وزانية، ويهتفون: «اقتلوها، اقتلوها».

حاولت التفكير فيما تفعله سمية بعيد ميلادها محاولًا إلهاء نفسي عما يحدث، أغلقت عينـاي، لكنـي حين فعلت رأيت سـمية في الحفرة، ما أوقد النار في أعصابي، شـققت طريقي عبر الحشـد، مدفوعًا بقوة لا أكاد أفهمها، فجأة، شـعرت أني بحاجة لمشـاهدة هذه اللحظة بعينيـن مفتوحتين، امرأة شـابة يجري ذبحها، وينبغي علـيَّ التوقف عن الاختباء خلف ظلي، يجب أن أتعرف على معاناتها.

كانـت آسـيا تقف وسـط الحفـرة، وقد غطـوا الجزء السـفلي من جسـدها بالتراب، لم أشـاهد أي علامـة على الاستسـلام في عينيهـا، يمكنني القول إنها تعـرف بأنها غير مذنبة،

سلمت نفسها لله الذي تؤمن به، الله الذي سيرعى طفليها البريئين، الله الذي سامحها بالفعل.

بدا الحرس يهيلون المزيد من التراب في الحفرة إلى أن دفنوا المرأة حتى كتفيها.

صمت الحشد، اقترب أحد قادة الحرس من كومة الحجارة، التقط حجرًا وسدد ناحية آسيا، عضضت على شفتي وقلت في نفسي يا ألله، أرجوك، أرجوك ضع حدًّا لكل هذا، كيف تترك هؤلاء المتوحشين يلوثون الحب الذي زرعته في مخلوقاتك، كيف ترى ولا تغضب، ضرب الحجر جبهة آسيا وجرى الدم على وجهها الشاحب، لم تتوسل ولم تصرخ، فقد منحها الله القوة والحب والحماية.

هجم الحشد على كومة الحجارة، وبكل ما في صدورهم من كراهية، أخذوا يقذفونها بالحجارة، سرعان ما تخضب وجهها كله بالدم ومال رأسها إلى جنب، لكن الحشد لم يتوقف عن مهاجمتها.

«موتي أيها النجسة، أيها الآثمة، موتي»، بعد ذلك، تقدم الملا قائلًا: «نُفِّذت العدالة، وقد ماتت الآن، وتحققت إرادة الله».

بدا الحشد يتفرق، كان كاظم يتحدث مع أحد الحرس، لكني لم أستطع رفع عيني عن آسيا، توقفت شاحنة صغيرة قرب الحفرة، نزل منها رجل أخذ مجرفة وبطانية من صندوق الشاحنة، ثم فتح باب السيارة الآخر لامرأة مسنة، افترضت أنها أم آسيا، جلست المرأة على الأرض بينما بدأ الرجل يحفر لإخراج جسد آسيا، لم تنح، ولم تندب، بل بقيت تحدق في الرجل الذي يعمل على إخراج جثة ابنتها من الحفرة، امرأة شاهدت رجم ابنتها حتى الموت، جزء منها تمزق إربًا، وليس في وسعها قول أي شيء، لم تكن قادرة حتى على سكب دمعة.

لف الرجل جسد آسيا بالبطانية، ووضعه في صندوق الشاحنة، وانطلق مبتعدًا، كان كاظم ورجل الحرس ما زالا يتكلمان، سرت مبتعدًا نحو السيارة، لم أشأ أن أكون جزءًا من حوارهما، لم أكترث حتى إذا اعتبرا ابتعادي عنهما بهذه الطريقة إهانة لهما، كنت مستعدًا لأن أبصق عليهما، وأخبرهما مدى خجلي منهما، ولمعرفتي أنني قد أقول أي شيء إذا ما

استفزني أحد، تحسست جيب القميص حيث أحتفظ بكبسولات سم الفئران، أردت التأكد أنها معي.

جذب انتباهي هدير الدراجتين البعيدتين وراكباها يسرِّعان محركاتها، تساءلت لماذا لا يغادران؟ فقد شاهدا كل ما أرادا مشاهدته.

التفت حولي لأجد كاظمًا مقبلًا نحو السيارة، اتجه الحرس الآخرون نحو سياراتهم أيضًا، وضع كاظم بعض الأوراق في حقيبة السيارة ولوح مودعًا لدى انطلاق آخر السيارات رباعية الدفع، مخلفة وراءها سحابة من الغبار.

رتب كاظم بعض الأشياء في المقعد الخلفي ثم قفز خلف المقود، «ماذا دهاك»؟ سأل وهو يدير المفتاح لتشغيل السيارة، وكنت مقتنعًا أن ليس لديه أي فكرة عما في صدري، «أريد أن أترك الحرس»، قلت بصوت مليء بالاحتقار.

عبس كاظم في وجهي قائلًا: «ماذا»؟

لم ينظر إليَّ قط بمثل هذا الاستهزاء، في أوقات أخرى من حياتي، ربما أجفلت أو حاولت امتصاص غضبه، لكن الأمر لم يعد يعني لي شيئًا الآن، كنت مستعدًّا لأن أقول له مدى قرفي منه، ومن طريقته في الإسلام، ومن نظرته إلى الله، وكيف أنني خلال كل تلك السنين كنت أتظاهر بأني صديقه، وكيف استغليته للانتقام لناصر وبلدي الضائع.

«هل أزعجك الرجم؟ هل تعتقد أن خاطئة مثلها لا تستحق العقاب؟ إنها عار على مجتمعنا، النساء أمثالها نجسات، ويجب أن...».

«كاظم، توقف»، صرخت قائلًا، اعتقدت في تلك اللحظة أن سمية لن تراني مجددًا، فليس ثمة طريقة يمكن أن توقف سيل مشاعري الآن، خططت لمناقشة هذا الموضوع مع كاظم بهدوء، وأن أخبره برغبتي في ترك الحرس لمدة للبقاء مع أسرتي، وكنت واثقًا أنه سيلبي طلبي هذا، لكن غضبي جردني من كل تعقل.

«كاظم، الأمر لا يتعلق فقط بالرجم»، هززت رأسي، «كلا لا يتعلق بذلك وحسب! بل بكل ما تفعلونه بهؤلاء الناس الأبرياء، كل الظلم الذي تكدسه هذه الثورة الإسلامية على هذا

البلد، أنت أعمى، كاظم، أردت أن أقول لك ذلك منذ زمن بعيد، هذا ليس الإسلام الحقيقي، وليست إرادة الله أن تقتل ثم تقتل المزيد».

ضغط كاظم على دواسة البنزين حتى النهاية، وناور بين السيارات دون أن يقول شيئًا، وواصل عض شفته السفلى والنظر في مرآة الرؤية الخلفية، تمسكت بمقعدي، كان الناس ينظرون إلينا، معتقدين، على الأغلب، أن السائق فقد عقله.

اعتقدت أن كاظم يفعل ذلك لأنه كرهني بسبب ما قلته له، لكنه عدل مرآة الرؤية الخلفية وقال: «أعتقد أن هناك من يتبعنا»، «ماذا»؟ نظرت في المرآة الجانبية وشاهدت دراجتين تقتربان منا، «رأيت هذين الراكباي عند الرجم».

«هل هما صديقاك، رضا»؟ علق ساخرًا، «هل تعلم ماذا قال لي جواد ذات يوم»؟ قال لي إنك لست أهلًا للثقة، وإنك إما أن تكون جزءًا من مجاهدي خلق أو جاسوسًا أميركيًّ»، ثم انحرف بشكل جنوني نحو مسرب آخر، «صفعته على وجهه وقلت له، (حلّ عن ظهر رضا أو سوف أرسلك إلى حيث تنتمي)».

شق الفضاء صوت بوق سيارة عال، طويل حين قطع كاظم الطريق أمام شاحنة ضخمة بثماني عشرة عجلة، «هل تعلم ماذا قلت لجواد عدا ذلك؟ قلت له إني مستعد لأن أعطيك عيوني، (إذا كان هناك من شخص، أي شخص، وسطنا مؤمن حقيقي وملتزم بهذه الحركة، فهو رضا)، وما زلت أحب أن أصدق ذلك»».

التفت لتفحص المرآة الجانبية، الدراجتان ما زالتا خلفنا، بدأ في رفع زجاج شباكه وطلب مني أن أفعل الشيء ذاته، «كاظم، ألا ترى ما يحدث هنا؟ هل هذا هو ما تؤمن به؟ هل هذا هو دين المحبة والمغفرة؟

طغى صوت انفجار عال على كلماتي، «اخفض رأسك! اخفض رأسك!» صرخ كاظم وهو يدفع برأسي إلى أسفل، وأبقاه منخفضًا بيده، كنا نتعرض لهجوم، سائقا الدراجات يطلقون النار على سيارتنا، أخذ كاظم ينحرف بالسيارة ذات اليمين وذات الشمال، محاولا المناورة بالسيارة بين المسارين، ويطلق زمّور السيارة، ضربت صلية أخرى من الرصاص النافذة الخلفية، مسقطة شظايا من الزجاج في الداخل، تحركت لأخفض نفسي قدر الإمكان تحت

التابلوه وكاظم يمد جسده لدفعي أكثر إلى أسفل، ضربت السيارة بعض المطبات لكننا واصلنا الاندفاع إلى الأمام.

ثم جاء المزيد من طلقات الرصاص وتحطم شباك آخر، ضربنا مطبًّا ثقيلًا، أغلقت عيناي، ترنحت السيارة إلى أعلى ثم سقطت بقوة على الأرض، حين هبطنا، تبين لي أني لم أعد أشعر بيد كاظم على رأسي، السيارة لا تزال تمشي دون سيطرة، فجأة، اصطدمت بعنف بشيء ما وتوقفت، ضرب رأسي بصندوق التابلوه وسقطت رشة من الزجاج عليَّ.

بعد ذلك، هدأ كل شيء، فيما عدا صوت الرياح عبر الشباك المكسور، فككت يدي عن رأسي ونفضت بحذر الزجاج عني، نهضت ورأيت رأس كاظم مائلًا إلى جنب.

«كاظم»؟ دفعته برفق، «كاظم»؟

حركت رأسه ورأيت الدم يجري من عنقه حيث أصابه المهاجمون، «يا إلهي! كاظم!»

تصاعد الدخان من تحت غطاء محرك السيارة المحطم، حاولت فتح الباب للخروج، لكنه تحطم، خلعت سترتي، ثم قميصي للفه حول رقبة كاظم، بتردد، تحسست نبضه، لم يكن هناك نبض، ضغطت على رسغه بقوة بحثًا عن نبض، وحركت إصبعي في مواضع عدة، ولا شيء، تفحصت النبض عند رقبته ولا شيء هناك أيضًا.

انهرت، كم من الفظائع يجب أن أشهد؟ دعوت الله في داخلي، كم من الأصدقاء وأفراد الأسرة يجب أن أدفن؟ يا ألله، أنا متعب من كل هذا! أنا متعب جدًّا، أسلم نفسي إليك، فلم تعد لدي القوة على الاحتمال.

لا أكاد أتذكر ما حدث في الأيام التي تلت، أعلنت قاعدتنا أن كاظمًا سقط ضحية لهجوم من مجاهدي خلق، وعاد رحيم إلى قاعدتنا، وطلب مني أن أستريح لبضعة أيام، «أخ رضا، فعلت كل ما في وسعك لإنقاذ أخيك، نحن جميعًا نعرف مدى قربك من كاظم، لا بد أن الأمر صعب جدًّا عليك، كما هو بالنسبة لنا جميعًا، فقدنا باسدران عظيم، كان مسلمًا حقيقيًّا والآن هو شهيد».

لكن ما لا يعرفه رحيم هو أن كاظمًا أنقذ حياتي وأني لم أحاول رد الجميل، في اللحظات التي سبقت الهجوم، عرفت أنه حماني كل تلك السنين، لإيمانه بي، تمكن من جعل مجموعة من المتطرفين المتشددين يؤمنون بأني مثلهم، وربما أكثر التزامًا منهم، محا الضرر الذي تسبب به جواد، أمن لي احترام رحيم، القائد الداهية في واحد من أخطر أقسام حكومة الثورة الإسلامية، أنقذ حياتي أكثر من مرة.

بقيت في المنزل بضعة أيام، غير متأكد من مشاعري، لم تعد علاقتي بكاظم سهلة منذ زمن بعيد، لكن -وكما تبين لي- لم يتوقف عن معاملتي كصديق، معالجة هذا الأمر والحزن عليه كما يجب قد يحتاج مني لزمن طويل، إلا أن ثمة أمر واحد مؤكد، بذهاب كاظم، لم أعد آمنًا، إذًا كنت سأترك العمل الآن، فأنا بحاجة إلى موافقة رحيم، وافترضت بأن الحصول عليها سيكون أصعب بمراحل مما لو كنت مع كاظم، قررت بأن النهج الوحيد الذي يتعين عليَّ إتباعه هو إجراء المحادثة الصريحة التي كنت أنوي إجراءها مع كاظم قبل أن يتملكني الغضب.

«أخ رحيم، أعلم أننا نمر بوقت عصيب مع عدم وجود كاظم بيننا، لكني آمل أن تتفهم حاجة أسرتي لي في لندن، إذا سمحت لي، زوجتي عادت إلى المدرسة ولم أشاهد ابني منذ بضع سنوات، إنهم بحاجة إليَّ...»، أوقفني رحيم عن متابعة كلامي، «أخ رضا، أعرف أنه كان من الصعب عليك خسارة كاظم، أنا أتفهم، أنت تبدو بحالة مزرية، أعتقد أنها فكرة جيدة أن تذهب إلى هناك لمدة، أن تكون مع أسرتك».

لم أصدق أن الأمور سارت بهذه السهولة، «أترك رقم هاتفك وعنوانك معي وسأكون على اتصال معك»، ثم واصل قائلًا: «أنا أعرف محب خان وأين يسكن، لكن إذا كان رقمك معي، أستطيع الاتصال بك إذا طرأ شيء، وربما خلال إقامتك هناك، سأصلك ببعض الإخوة الطيبين ويمكنك مواصلة عملك مع الحرس».

هوت بي كلمات رحيم مجددًا إلى الأرض، كيف يمكنني شق طريقي عبر هذا؟ قررت أنه لا ينبغي عليَّ القلق بشأن هذا في الوقت الحاضر، لدي هذا الإذن بالمغادرة ويجب أن أستغله قدر استطاعتي، أعددت خططًا لمغادرة البلاد خلال بضعة أسابيع، مع أنني لم

أتصل بسمية لإبلاغها بذلك، شعرت أني لا أستطيع إخبارها بما أفعله إلا بعد أن تهبط طائرتي في لندن؛ لأن الأمور قد تسوء جدًّا حتى ذلك الحين، لدي إذن رحيم، وتذكرتي، وسند حريتي، لكني أعلم أن أيًّا من هذه الأمور لم يعد يشكل ضمانة في إيران، لم يكن في وسعي تحمل الخيبة التي قد تصيبها إذا رفعت آمالها وتوقعاتها عاليًا ثم جاء شخص أعلى سلطة مني وسحق تلك الآمال.

تملكني قلق شديد خلال المدة التي سبقت مغادرتي بحيث أنني نادرًا ما استطعت النوم، وإذا نمت، تراودني أحلام تمزق الروح وتوقظني، وتتركني مذهولًا في سريري، قبل أسبوع من موعد سفري، استيقظت أسبح بعرقي في منتصف الليل، شددت ذراعيَّ على صدري لأني شعرت وكأن قلبي يكاد أن ينفجر خارجًا منه، مررت الغطاء على وجهي لمسح العرق وجلست في السرير، مستعيدًا الحلم الذي رأيته؛ أنا في صحراء، ولا شيء حولي، عالق في حفرة من خصري إلى أسفل، شعرت بشيء يضربني من الخلف وبألم شديد، ثم ضربني شيء في الجبين، رأيت دمًا، ثم ضربني شيء آخر خلف رأسي، استدرت وتنهدت، كاظم واقف خلفي بقميص لاعبي كرة القدم، عمره عشر أو إحدى عشرة سنة، يحمل كرة في يد ويقذف حجارة تجاهي باليد الأخرى، ضربني حجر آخر في جبهتي، هذا الحجر جاء من ناصر، الذي كان واقفًا أمامي، بدا هزيلًا ومسنًّا، يقف خلف القضبان ويقذفني بالحجارة من مسافة بعيدة، صرخت: «لا أريد أن أكون حارس المرمى بعد الآن!»

اقتربت مني خانم بوزورج، رضا جون، يجب عليك أداء صلاتك قبل النزول في تلك الحفرة، يتقدم آغا جون ويمسك يد خانم بوزورج، «خانم اتركيه وشأنه، إنه بالغ ويعرف الصواب من الخطأ، إنه في هذه الحفرة ليكون حارس مرمى وحسب»، ثم أتت سمية نحوي حاملة كعكة عيد ميلاد، حاولت إطفاء الشموع من الحفرة، لكن مهما كانت القوة التي أنفخ بها، لم أستطع إطفاءها، لا تزال النار تشتعل، الشموع تحترق وتحترق! «لا أريد أن أكون حارس مرمى بعد الآن»، صرخت مجددًا.

الفصل
25

مغادرة الوطن

انزعجت صاحبة المنزل حين أبلغتها عن قرب إخلائي له، لكنها عادت ورضيت حين عرضت عليها الاحتفاظ بكامل أثاثه، لم أحمل من أمتعتي إلا القليل، بالرغم من أنني خططت للبقاء بعيدًا مدة طويلة، لم أرغب في أخذ الكثير، تمنيت حتى لو كان في إمكاني ترك ذكرياتي خلفي، ودفنها مع جميع الأشخاص الذين أحببتهم ودفنتهم، كل ما أردته هو مستقبل جديد وأن يختفي الماضي في ظلمته.

حين أصبحت في الطائرة، أغلقت عيناي وفكرت في مفاجأتي لسمية وأميد حين يرياني، وكيف سنبدأ حياتنا معًا، وكم ستختلف الأمور معنا، كنت مشغولًا بهذه الأفكار السعيدة حين ضربت الطائرة اضطرابات جوية، وظهر على شاشة أمامنا صوت وضوء إشارة (اربطوا أحزمة الأمان)، وسادت ضجة حين بدأت الطائرة تهتز.

أخذت المرأة الجالسة إلى جواري تتمتم ببعض الصلوات: «ياألله، نجنا!» تمسكت بقوة بذراع مقعدها ومقعدي، وأغلق الرجل الأكبر سنًّا الجالس بمحاذاة الممر عينيه وراح يهز جسده إلى الأمام والخلف، وظهر خط من العرق على جانب وجهه الشاحب.

انخفضت الطائرة فجأة، ما جعل بعضهم يصرخ جزعًا، صوت عويل الأطفال وصراخ البالغين طلبًا للنجاة كان مألوفًا لدي، لكن بعد لحظات توقف اهتزاز الطائرة، وبتنبيه آخر اختفت إشارة ربط الأحزمة، «الحمد لله»، قالت المرأة الجالسة إلى جواري وهي تتنفس الصعداء، أدارت رأسها ناحية مقعدي لتنظر عبر النافذة، وكان في وسعي رؤية الدموع في عينيها، قالت: «حتى مغادرة هذا المكان الخرب لا تأتي بسهولة»، كل ما كان في وسعي فعله هز رأسي موافقًا ورسم ابتسامة على وجهي، هزت رأسها قائلة: «الحمد لله، أنني لن أعود إليه أبدًا!»

قبل أن أغادر، ذهبت لرؤية جدي ووداعه، في ذلك الحين كان يعاني من مرض الزهايمر، لكنه تذكرني، سأل متى أنوي العودة، قلت له سأفعل قريبًا، تمنيت لو كان في وسعي أن أقول له بأني قد لا أعود لمدة طويلة، وحين أعود فقد لا يكون موجودًا، لكني لم أستطع أن أكون صريحا إلى هذا الحد.

التفكير في جدي، وكيف ساعد في تكويني، ومقدار ما يعنيه لي، كل ذلك جعلني أدرك بأني لا أريد حقيقة دفن ماضيَّ، أنا بحاجة للتطلع قدمًا، دون التغاضي عما جعلني ما أنا عليه.

هبطت طائرة البوينغ 747 التابعة للخطوط الجوية الإيرانية بسلاسة في مطار هيثرو، بعد الاهتزازات التي تعرضت لها الطائرة في بعض الأحيان، أثنى الركاب على الطيار لملامسته الرقيقة لأرض المطار، رأيت في ذلك مؤشرًا على مستقبلي والحرية التي أنا على وشك التمتع بها.

اتصلت بسمية بمجرد خروجي من الطائرة، كنت أفكر طيلة الرحلة كيف سأفسر لها وصولي، في النهاية، قررت أن أخبرها بأبسط العبارات الممكنة، «سمية عزيزتي، سلام، أرجو أن تسامحيني، أعلم أنه كان من الواجب عليَّ أن أتصل قبل ذلك، لكني موجود في لندن»، توقفت لسماع رد فعلها، كان كل ما قالته هو، «ماذا»؟

بصوت مرتجف قلت: «ركبت سيارة أجرة وسأكون عندك خلال أقل من ساعة».

استقبلتني سمية وأميد عند الباب، حملت الصغير بين ذراعي وكان كل ما استطعت فعله هو البكاء، نظرت إليَّ سمية غير مصدقة، وكانت تعابيرها تقول: «أنت وحدك من يظهر بهذه الطريقة»، والدا سمية كانا سعيدين برؤيتي واحتفلنا جميعًا بعودتي، كنت أعرف أن الأمور ستختلف فيما بعد حين أكون وحيدًا مع زوجتي، فلها كل الحق في أن تغضب مني لبقائي بعيدًا عنها كل هذه المدة ولعدم إعلامها بقدومي إلى إنجلترا.

بطريقة ما، كنت أتوجس من تلك المناقشة، لكن سمية لم تفشل قط في مساعدتي في الظروف الصعبة، حين أخبرتها عن وفاة أمي وكاظم، ضمتني بين ذراعيها وتركتني

أبكي على كتفها حتى جف دمعي، وبالرغم من معرفتي أنه كان في وسعها انتقادي لطريقة معالجتي للأمور منذ انتقالها إلى إنجلترا، لكنها لم تفعل شيئًا من ذاك القبيل.

حين انتهيت من البكاء، قلت لها بصوت مرتجف: «أعدك، لن أبتعد عنك أبدًا بعد الآن وسأبقى إلى جانبك».

وضعت إصبعها على شفتي، «لا تفعل، رضا، أرجوك، لا أريدك أن تعد أي شيء بعد الآن، أنت هنا، وهذا يعني أن العالم هنا بالنسبة لأميد، منذ زمن، وأنا أريد لنا نحن الثلاثة أن نعيش حياة سعيدة، وأنا متأكدة أن هذا ما تريده أنت أيضًا، انتظرت السنوات الثلاث كلها، دعنا لا نجعل وعدك يفسدها، على الأقل من أجل أميد».

«أما زلت تحبينني»؟ سألتها متوجسًا.

نظرت في عينيَّ وحاولت ألا تبتسم، «هل تعلم رضا؛ في بعض الأحيان أسأل نفسي السؤال نفسه»، ثم لمعت عيناها وقالت: «نعم، ما زلت أحبك»، سماع هذا منها جعلني أشعر بقوة لا توصف، ومحظوظ بشكل لا يوصف؛ لأني تمكنت من العثور على امرأة تدعمني على النحو الذي تفعله.

خلال الأيام التي تلت، وبينما كنت أستمتع بالحياة التي افتقدتها لسنوات، تحدثت مع سمية عن المستقبل، وحين اقترحت عليها الانتقال إلى أميركا وافقت على الفور، أوه، كاليفورنيا! أحب أن أذهب إلى لوس أنجلوس، الطقس... شاطئ ماليبو... هوليود، و، آه يا إلهي، يمكننا اصطحاب أميد إلى ديزني لاند كل يوم! أغلقت عينيها وابتسمت مثل طفل صغير، ضحكت قائلًا: «لا بد أنك كنت تشاهدين الكثير من الأفلام الأميركية، أليس كذلك»؟

ربتت على ذراعي وقالت ضاحكة: «يا لك من لئيم»، ثم أضافت: «الأمر لا يتعلق بذلك فقط، أستطيع أن أنهي دراستي هناك»، كانت سمية قد بدأت الذهاب إلى الجامعة انتسابًا، لم تكن متأكدة مما تريد دراسته، كانت تفكر في عدد من التخصصات، «أستطيع أن أقرر ما أريد فعله في أميركا»، «ستفلحين في أي شيء إذا ركزت عقلك فيه».

بعد ذلك، كان عليَّ الاتصال بكارول لاستشارتها بشأن قراري ترك الوكالة، وطلب مساعدتها للترتيب لرحلتنا إلى أميركا، كانت قد أخبرتني مرات عدة في السابق بأنها ستساعدني في إعداد المعاملات الورقية للحصول على إقامة، حين أكون مستعدًّا للذهاب إلى الولايات المتحدة.

صدمت كارول حين اتصلت وأخبرتها بأني في لندن، قالت إنها تأمل في أن يكون لدي عذر أفضل هذه المرة لعدم إخبارها عن رحلتي، طلبت مني مقابلتها في الفندق نفسه حيث التقينا آخر مرة، بدا هذا غير عادي، لكنه لم يعد مهمًّا بالنسبة لي.

معنى رؤية كارول، هو أنه يتعين عليَّ أن أكذب على سمية مرة أخرى بشأن ما أفعله، وهو شيء بالكاد أستطيع تقبله، لفقت قصة حول الاتصال بمحامي هجرة وتحديد موعد لمعرفة ما هي خياراتنا، «أفضل أن نقوم بهذه الأمور معًا من الآن فصاعدًا»، قالت سمية بشكل حاسم، «سنفعل ذلك، هذه المرة مجرد استشارة، إذا كان المحامي جيدًّ، سنذهب في المرة القادمة معًا»، تفوهت بهذه الكلمات، ورجوت الله أن يمكنني من وضع حد لحياتي المزدوجة في أسرع وقت ممكن.

عانقتني كارول بحرارة بمجرد دخولي غرفة الفندق، «ما الذي جاء بك هذه المرة؟ زيارة أسرتك»؟ لم تبد قلقة بشأن سبب طلبي مقابلتها، ربما لأنه كانت تبدو عليَّ مظاهر القوة والصفاء التي زودتني بها الأيام التي قضيتها مع سمية وأميد، «نعم، زرتهم، لكن هناك المزيد»، ترددت لحظة، «أريدك أن تساعديني أنا وأسرتي على الانتقال إلى الولايات المتحدة».

بدا الاهتمام على وجهها الآن: «هل كل شيء على ما يرام»؟

«فقدت والدتي خلال الهجمات الصاروخية، وقبل بضعة أسابيع، قبل مجيئي إلى هنا، قتل كاظم...».

«يا إلهي! أنا آسفة جدًّا، ولي»، لا أريد أن أسمع اسم (ولي) الآن، خلال الأيام القليلة الماضية، لم أكن أفكر مثل ولي على الإطلاق، «ماذا حدث لكاظم»؟ سألت غير مصدقة.

رويت لها كل شـيء، وشـرحت لها أن الرجم واغتيال كاظم كانا القشة الأخيرة بالنسبة لي، أخبرتها أني مقتنع بأنه من المستحيل بالنسبة لي -عاطفيًّا وبدنيًّا- البقاء في إيران.

«أنا آسفة»، قالت وهي تفرك عينيها وتهز رأسها، لقد تحدثت إلى سمية ونحن نعتقد أن من الأفضل لنا ولابننا أن نعيش في الولايات المتحدة بدلًا من إنجلترا.

هزت كارول رأسها تفكر، «هل هذا قرارك الأخير، ولي»؟ لم أتردد في الإجابة، «أخشى أنه كذلك»، قلت، وقد فاجأني الشعور الجميل الذي أحسسته حين تفوهت بتلك الكلمات.

«إذن سأفعل كل ما في وسعي لتحضير كل شيء»، قالت كارول بابتسامة دافئة، «أعطني أسـبوعًا وسـوف تكون جميـع أوراقك جاهزة، لكـن اتصل بي في غضون بضعـة أيام لتحديد موعد لمقابلة أخرى».

حيـن سـمعتها تقول هذا، أدركـت حقيقة بأني ألزمت نفسـي بإنهاء حياتـي المزدوجة، أردت فعـل هـذا منـذ زمن بعيد، لكني لم أكن مسـتعدًّا للمشـاعر المتضاربـة التي اجتاحتني الآن، ماذا بشـأن الجنون الذي لا يزال مسـتمرًّا في بلدي؟ هل أنا مسـتعد فعلًا لترك العديد من الإيرانيين الطيبين خلفي؟

إلا أنه، في الوقت نفسه، ينبغي عليَّ أن أتساءل ما إذا كانت جهودي بصفتي (ولي) قد ساعدت حقًّا أي شخص، هل حققت تقاريري ما كنت آمل به؟ لقد أخبرت وكالة المخابرات المركزيـة عـن اسـتخدام العـراق الأسـلحة الكيماوية، لكن هذا لـم يؤدي إلى شـيء أكثر من إدانـة حكومـة الولايات المتحدة هذه الممارسـة، بينمـا واصلوا إمداد صدام بالاسـتخبارات العسـكرية والتدريب، ومليارات الدولارات من المسـاعدات الاقتصادية، وأبلغت عن التعاون العسكري الصيني مع الحرس الثوري؛ ولم يؤد ذلك سوى للإدانة، أبلغت عن التعذيب والقتل الوحشـي للرجال والنسـاء المعارضين للملالي وكيف أن بعض الدول الأوروبية سـمحت بمثل هـذه الأعمـال داخل حدودها، ومع ذلك يواصـل الغرب تجنب دعم الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان بسبب إغراء النفط الإيراني.

قلت لنفسي، فعلت كل ما في استطاعتي، فعلت كل ما في استطاعة رجل واحد أن يفعله، طيلة سنوات عدة كنت متأكدًا بأني أعمل من أجل حرية بلدي، لكني أدركت الآن أني مجرد موظف في وكالة المخابرات المركزية.

رفعت كارول مغلفًا ومدته صوبي: «هذا لك»، نظرت إلى المغلف، مستغربًا سبب إعطائي النقود بعدما قلته لها. «هذا من أجل جدك في العمل»، قالت وكأنها تقرأ أفكاري، وضعت المغلف في جيب سترتي الداخلي، قائلًا، «شكرًا».

«ولي، أنا لا أحاول حملك على تغيير رأيك، لكن إذا قررت العودة إلى إيران، حتى لمدة قصيرة، ومواصلة عملك، فإن الوكالة ستزودك بسيارة جديدة، ومنزل، وعمل مضمون براتب جيد في القيادة عند عودتك إلى الولايات المتحدة».

أن تقترح عليَّ ذلك بعدما أخبرتها عن كل ما مررت به أشعرني إلى حد ما بأنني أهنت، لكني قررت التغاضي عن الأمر، «هذا عرض سخي جدًّا كارول، لكني لا أريد أن أكون جزءًا من هذا الآن»، كان صوتي متهدجًا، «من أجل أسرتي».

في المرة التالية التي رأيت فيها كارول للمراجعة بشأن أوراقنا، أخذت أميد معي، كانت سمية في الجامعة، وأخبرت حمواي بأني ذاهب للتنزه سيرًا على الأقدام مع ابني، تفاجأت كارول حين رأت الصبي، لم يخطر ببالي حتى تلك اللحظة مدى غبائي لإحضار أميد معي، كان في السادسة من العمر وسوف يخبر سمية على الأغلب كيف قضينا نهارنا، «هذا ابني، أميد، حضرة المحامية»، قلت محاولًا الالتفاف على الموضوع فورًا، «أميد، عزيزي صافح محاميتنا، إنها تتولى قضيتنا من أجل السفر إلى أميركا».

صافح أميد كارول، ابني البالغ من العمر ست سنوات يصافح عميلة لوكالة المخابرات الأميركية في اجتماع سري، كانت اللحظة بالغة الغرابة، لحسن الحظ، كان ترتيب غرفة الفندق مختلفًا قليلًا هذه المرة، كنا في جناح، غرفة النوم مغلقة بباب مزدوج، في صالة المعيشة أريكة، وطاولة قهوة، وطاولة مكتب ضخمة تكومت عليها أوراق عمل كارول، وحقيبتها، وحاسوب محمول، ربما كان من أوائل الأجهزة التي حصل عليها عملاء وكالة

الاستخبارات الأميركية، لم يكن يشبه مكتب محام، لكني كنت آمل أن يكون مقنعًا بأنه كذلك بالنسبة لصبي في السادسة من العمر.

«مرحبا أميد، تسعدني مقابلتك»، قالت كارول وهي تمنحه ابتسامة بهيجة، نظرت إليَّ وعلقت: «ابنك وسيم للغاية».

بالرغم من أن وجود أميد هناك صعَّب الأمر بعض الشيء، إلا أننا تمكنا من مواصلة عملنا الورقي، أخبرتني كارول أنها ستباشر الإجراءات وسوف تخبرني عن أي شيء آخر يتوجب علينا القيام به.

«أعتقد أن من المهم إحضار زوجتي معي بحيث يمكنها أن تكون جزءًا من العملية دون...»، ثم نظرت إلى أميد الذي كان جالسًا على الأريكة يطالع مجلة، خفضت صوتي «دون إثارة الشكوك».

«سأخطط لشيء ما بحيث يبدو كل شيء حقيقي ورسمي»، همست قائلة، «أتصل بي غدًا وسوف نتكلم».

شعرت بالحرج لوضع كارول في هذا الموقف، من الواضح أن لديها أمورًا أهم تقوم بها بدلًا من الإعداد لخدعة مدروسة لمصلحتي -خاصة الآن وأنا على وشك التخلي عن دوري- إلا أنني ما زلت بحاجة إلى ذلك النوع من المساعدة الذي لا يمكن لأحد غيرها أن يوفره لي إذا أريد لي الاحتفاظ بالسر الذي تريدني وكالة المخابرات المركزية الاحتفاظ به.

بعد الاجتماع، أخذت أميد إلى هامليز، وهو متجر للألعاب، واشتريت له سيارة شرطة تدار عن بعد ولعبة (لوجو) من مئتي قطعة، هي عبارة عن محطة إطفاء ليبقى منشغلًا خلال الليل ما يتيح لي الفرصة لشرح مقابلة اليوم مع سمية من دون تعليقاته.

حسب الوعد، أعدت كارول لقاء أستطيع اصطحاب سمية إليه، دخلت وإياها مبنى من ثلاث طبقات في شارع ريجنت حيث يقع (مكتب هارييت جونسون القانوني)، في الطابق الثاني، كان هناك مكتبان متقابلان في ممر ضيق ولم أكن متأكدًا أيهما مكتب كارول.

«ألم تكن هنا قبل الآن»؟ سـألت سـمية، «ليس هنا، كلا»، قلت، لأخرج بسـرعة بتلفيق آخـر، «أعتقـد أنـي ذكـرت بأن هـارييت انفصلت عن شـريكها القديم، وانتقلـت هنا قبل عدة أيام فقط، أوه، ها هو».

قرعت الباب ودخلت الغرفة، جلسـت كارول خلف مكتب تكومت فوقه الملفات والكتب، والأوراق، تسـجل بعض الملاحظات على دفتر، وخلف طاولة المكتب، رف على طول الجدار الخلفـي امتـلأ بالمجلـدات، كانـت ترتـدي بـزة زرقاء، وشـعرها مرفـوع إلى أعلـى ونظارتها منخفضـة ترتكـز علـى طـرف أنفها، كانت المـرة الأولى التـي أراها تضع نظـارات وتفاجأت لأنها جعلتها تبدو أكبر سنًّا بكثير.

«اجلسـا رجاء»، قالت دون النظر إلينا، «سـأكون معكما بعد قليل»، كنت متوترًا متململًا فـي مقعدي، غير مسـتعد لهـذا، وغير متأكد إن كنت أسـتطيع أداء دوري، كنت (أمثل) طيلة معظم حياتي كعميل لوكالة المخابرات المركزية، لكن هذا سـيناريو مختلف، لم يطلب مني قط أن أخدع زوجتي أمام صاحب عملي، نظرت سـمية إليَّ عابسـة، بعد أن لاحظت تململي، ملت برأسي نحو أذنها وقلت هامسًا بالفارسية، «ماذا لو قالت أنه ليس في وسعنا الذهاب»؟

«آسفة للتأخير، سيد كاهليلي»، قالت كارول بعد بضع دقائق، مدت يدها نحو سمية»، لا بد أنه هذه هي زوجتك، اسمي هارييت جونسون، وتسرني مقابلتك سيدة كاهليلي»، «أرجوك ناديني سمية، يسعدني لقاؤك، أيضًا».

بدأت كارول وسـمية في مناقشـة الإجراءات مع بعضهما دون إشراكي في الحديث على الإطلاق، وبقدر ما في الأمر من غرابة نظرًا إلى لظروف، كان الوضع مناسبًا لي لأني لم أعد أريد المشاركة في لعبة التظاهر هذه مع زوجتي أكثر مما يجب.

«إذن أنـت تعتقديـن أن اللجوء السياسـي هو الخيـار الوحيد للحصول علـى إقامتنا في الولايات المتحدة»؟ سـألت سـمية، «إنه كذلك في الواقع، نظرا لأن السـيد كاهليلي يعمل مع الحكومـة الإيرانيـة، بهذه الطريقـة يمكنكم الحصول على عفو، وكما سـبق وأخبرت زوجك، الخيـار الآخـر هـو الحصول على تأشـيرة (أتش-1)، الخاصـة برجال الأعمـال، أو تصريح عمل، ولا ينـاسب أيًّا منهما وضعكم».

«لكن بهذه الطريقة لا نستطيع العودة إلى إيران مطلقا؟»، «هذا صحيح، على الأقل ليس في ظل الحكومة الإيرانية الحالية».

نظرت إلى سمية بحزن، «هل يناسبك هذا، رضا؟ أعلم أن لا مصلحة لي في العودة طالما بقي الملالي في السلطة، لكن ماذا بشأنك»؟

غادرت كارول الغرفة لإفساح المجال أمامنا لمناقشة ذلك، بالرغم من معرفتي بأن ليس أمامنا سوى خيار واحد، لأني سبق وناقشت ذلك مع كارول، فقد تركت لسمية اتخاذ القرار الأخير، بقليل من التردد، أذنت (للسيدة جونسون) بمباشرة تقديم التماسنا للجوء السياسين، «قد يستغرق الأمر ما بين ستة أشهر وسنة»، قالت كارول، «سأكون على اتصال».

في حين بدت مدة الانتظار طويلة، إلا أن سمية بدت مرتاحة تمامًا لها، وهي مستعدة لأن تصبر سعيدة من أجل الذهاب إلى أميركا طالما أننا أسرة واحدة ونستطيع العيش معًا بعيدًا عن كل ما فرقنا في السنين الماضية، وأعرف أنها سعيدة خاصة لأني وافقت على ترتيب يبعدني عن إيران بشكل دائم، أو على الأقل حتى ذهاب النظام الحالي.

في طريق العودة، شبكنا أيادينا وتحدثنا عن المستقبل، قررنا استئجار شقة خاصة بنا في لندن خلال مدة انتظار الأعمال الورقية النهائية، فكرنا أيضًا أنه من الأفضل عدم إخبار أحد عن الطريقة التي سنذهب بها إلى أميركا، حتى ولا والدا سمية، سنكتفي بإبلاغهم أننا نخطط للانتقال إلى هناك قريبًا.

على مائدة العشاء تلك الليلة، وبينما كانت سمية تعلن بسعادة عن خططنا، رن جرس الهاتف، ردت زاري خانم في المطبخ وأخبرتني أن المكالمة لي، رفعت السماعة فتجمد الدم في عروقي، بعد أن أنهيت المكالمة حدقت في الجدار، كان ينبغي أن أعرف، فقد أخبرني أنه سيبقى على اتصال، وإنه لن يتخلى عني، كيف خُيِّل لي أنه في وسعي التخلص منه ومن ماضيَّ الملتوي؟ رحيم في لندن، وهو يريد أن يراني.

الفصل

26

عودة إلى البرد

حقيقة أن رحيم يريد مقابلتي في السفارة الإيرانية أقلقتني، فقد استخدم الحرس الثوري هذا التكتيك بشكل منتظم لاجتذاب من يريدونهم، واختطافهم، ونقلهم إلى إيران ومن ثم إلى سجن إيفين، هل أسير أنا نحو نهايتي المحتومة؟ هل ثمة خيار أمامي؟ لا يمكنني تجنب هذه المقابلة، على الرغم مما أحس به من ريبة.

كنت بحاجة إلى الاتصال بكارول وإخبارها بأني سأقابل رحيمًا صبيحة اليوم التالي، وهذا يحتاج لبعض الحيلة؛ لأنه عليّ القيام بذلك من دون إثارة انتباه سمية وحمواي، وبعد أن ساعدت في تنظيف مائدة العشاء، أخبرت سمية عن رغبتي في الخروج للحصول على علبة سجائر، «اعتقد أنك اشتريت علبة هذا المساء»، قالت والحيرة بادية على وجهها، «عليك التوقف عن التدخين سريعًا»، قبلت جبهتها وأخبرتها بأني قد أفعل.

أكدت لي كارول، بأنها ستوفر لي أفضل حماية ممكنة، بالرغم من ضيق الوقت المتاح، «إن لم تخرج في قبل وقت إغلاق المكان، فسوف نتصرف، جماعتنا سيكونون هناك».

أنزلتني سيارة الأجرة عند زاوية إسطبلات إنسمور وحدائق برنسس، مشيت غربًا وتأكدت من عدم وجود مراقبين، عند الجانب الأيسر من طريق المعرض، كان هناك رجل يرتدي سترة من قماش الكوردروي الأسود يقرأ مجلة، افترضت أنه واحد من المراقبين، على الجانب الآخر، عند زاوية طريق برنس كونسورت، رجل يرتدي معطفًا واقيًا من المطر ويحمل خريطة، أخبرتني كارول أنه يجب عليَّ النظر إلى الرجال الذين يرتدون معاطف كبيرة ويحملون صحفًا أو مجلات؛ لأنها أعدت للأمر على عجل، ولم تستطع تزويدي بتفاصيل أكثر من ذلك.

قبل أن أصل إلى برنسيس جيت، عند المدخل الأول لمونتروز كورت، رأيت امرأة شكلها مألوف لدي ترتدي ملابس حمراء وتنتظر سيارة أجرة، أبقيت رأسي منخفضًا وحاولت أن أهدئ نفسي، لم أتصور قط أن تكون كارول بنفسها موجودة هناك، شعرت بأمان أكثر لرؤية وكالة الاستخبارات الأميركية تراقب من أجلي، لكني أعرف أيضًا بأنه ليس في وسعي أن أكون بأمان كامل طالما كنت في فلك الحرس الثوري.

عند الزاوية، رأيت رحيمً، كان يقف قرب السياج الحديدي المحيط بالسفارة، يدخن سيجارة، ويرتدي قميصًا أبيض مزرر كله تحت سترة عسكرية وسروال أسود مجعد في أماكن عدة، أدرت رأسي لرؤية ما إذا كان في وسعي رؤية أي من المراقبين لي، ندمت على تلك الحركة فورًا، حين أدركت أني بذلك أتصرف بشكل مشبوه وقد يلاحظ رحيم ذلك.

رحب بي رحيم بأن عانقني وربت على ظهري، «سلام، أخ رضا، جميل جدًّا أن أراك»، قبَّل وجنتاي قائلًا: «دعنا ندخل، الأخ أميري ينتظرنا»، قال ثم سحق سيجارته بنعل حذائه.

ذهبنا إلى الطابق الثاني، حيث من المقرر مقابلة أميري في مكتبه، نهض أميري، وهو رجل قصير، نحيل، له حاجبان متصلان، ولحية كثيفة سوداء، معانقًا رحيم بمجرد وصوله، بدا أنه في أوائل الأربعينيات من عمره، ويبدو أنه يعرف الكثير عني، حين تحدث عن خدمتي في الحرس، وعلاقتي بمحب خان، وهجوم المجاهدين الذي قتل فيه كاظم.

جلسنا وانطلق رحيم على الفور في حديث مطول عن كيف يجب على كل مسلم ملتزم دفع ما يجب عليه لثورتنا، وكيف أن لنا أعداء في زوايا العالم الأربعة، «واجبنا أن نحرص على وطننا بغض النظر عن المكان الذي نحن فيه، أخ رضا، أنت ملتزم وتدين لبلدك بأن تعود للنشاط قريبًا، أنت لا تزال عضوًا في الحرس الثوري، وأخذت الوقت الكافي للتعافي من التجربة الرهيبة التي تعرضت لها في طهران، أعتقد أنه يجب عليك البدء بالعمل فورًا، وجودك هنا سيكون موضع تساؤل من قبل حرس الثورة في الوطن، بصفتي قائدك، ينبغي عليَّ التأكد من أنك تواصل خدمة بلدك».

بقـدر مـا صدمتني وأرعبتني خطورة لهجة رحيم، فقد منحته ابتسـامة تصادق على ما يقوله، «بالطبع، أخ رحيم»، ثم جليت حنجرتي وأضفت: «أنا في خدمتك وسأظل في خدمتك، وسوف أفعل كل ما تطلبه مني».

«التفت رحيم إلى أميري»، الأخ رضا سيكون تحت إمرتك الآن، العمل الذي نريده منه سيكون مختلف تمامًا عما فعلناه في الوطن، لكنه شخص ذكي يتعلم بسرعة»، ثم ضحك، ثم عاد والتفت في اتجاهي ونظر إليَّ نظرة لا تبشـر بخير: «بالمناسـبة، ما هي المدة التي تنوي بقائها هنا»؟

«زوجتي ستبقى في الجامعة لفترة»، قلت بعصبية، «لكنها لن تطول كثيرًا»، «أنا متأكد أنك ستقوم بعمل جيد هنا كما فعلت في الوطن، ثم نرى ما هو الأفضل بالنسبة لك وما ينبغي عليك فعله».

أخبرني رحيم عن حمام الدم الوحشي الذي جرى خلال الشهرين الماضيين وأنا بعيد عن الوطن، «أخ رضا، انتقم الله للقتل الظالم للشهيد كاظم وجميع الجرائم الأخرى، الإمام الخمينـي أصـدر فتـوى»، حين أعلن الخمينـي عن الحملة، قـال: «إذا أعلن الشـخص في أي مرحلـة وأي وقـت عن دعمه [أو دعمها] للمنافقين [مجاهدي خلق]، فإن العقوبة هي الإعدام، القضاء على أعداء الإسلام على الفور».

كمـا أمـر أيضـا بقتل اليسـاريين؛ لأنهـم مرتدين، قـادت الفتوى إلى إعدام الآلاف من الرجـال والنسـاء الأبريـاء من الأعمار كافـة وخلال مدة وجيزة، من ضمنهـم فتيات في مثل سن بارفانا ورويا، اغتصبن قبل أن تتأرجح أجسادهن على المشانق، شبان أبرياء مثل ناصر وشـقيقه سـهيل وقفوا في الصف لسـاعات قبل شـنقهم، تلك المذبحة هي واحدة من أشـنع الجرائـم التـي ارتكبهـا حكـم الخميني، ومع ذلـك، لم تحـظ باهتمام يذكر من قبـل العالم، كانت تلك المرة الأولى التي أسـمع فيها عن هذه البربرية، وعرفت أن الصحافة البريطانية لم تكتب عنها شيئًا يذكر.

لإصبـاغ صفـة قانونيـة علـى هـذا العمـل، أقامت لجنـة خاصـة بالإعدامـات محاكمات صورية خلف أبواب مغلقة، اسـتجوبوا السـجناء عن ارتباطاتهم، وانتماءاتهم، وولاءاتهم مع

سلسلة من الأسئلة صممت لاستخلاص جواب يؤكد عقوبة الإعدام، هل أنت مستعد لشجب المنافقين على التلفزيون؟ هل أنت مستعد للإبلاغ عن أعضاء آخرين والتعرف عليهم؟ هل أنت مستعد لمساعدتنا في القبض على هؤلاء الناس؟ هل أنت مستعد للموت في سبيل الإسلام؟ أي إجابة بالنفي تقود إلى الإدانة على الفور، لكن الإجابة بالإيجاب تقود في النهاية إلى الشيء نفسه، حيث الأسئلة صممت لإعطاء نتيجة واحدة، لم يكن لدى السجناء أي فكرة عن سبب استجوابهم، والكثيرون منهم اعتقلوا لمخالفات بسيطة وكانت مدة محكوميتهم الأصلية على وشك الانتهاء.

هز أميري رأسه بينما كان رحيم يصف ما حدث، «نعم، انتقم الله منهم، ونأمل أن نتمكن قريبًا من اعتقال وإعدام ما تبقى منهم»، «إن شاء الله!» قال رحيم. «إن شاء الله»، رددت وأنا أشعر بالعار، والندم، والنفور.

واصل أميري ورحيم الحديث عن أهمية التعرف على من يعارضوننا خارج إيران ومعاقبتهم بالطريقة نفسها، شعرت بألم في قلبي، هؤلاء المجرمون يعيثون فسادا بينما القوى العظمى تغض الطرف عنهم، كيف يمكن للسلام أن يتحقق في هذا العالم طالما بقي الوضع على هذه الحال؟

حين انتهى هذا الحوار المجنون، نهض رحيم وصافح أميري، «اتفقنا إذن، دع الأخ رضا يعرف ما تحتاجه منه، وسوف يكون في خدمتك، سأترككما للتفاهم على التفاصيل»، ثم التفت إليَّ، «رضا، لدي رقمك وسوف أتصل بك قبل أن أغادر»، تابعت رحيم وهو يغادر، شاعرًا بأني تائه بعودتي المفاجأة وغير الطوعية إلى الخدمة، بدأ أميري العمل على الفور، مقترحًا أن أستأجر سيارة إن لم أكن أملك واحدة، «اثنان من إخواننا موجودان الآن في لندن لشراء بعض المواد، وأريد منك أن تأخذهما حيث يريدان الذهاب، يقيمان حاليًا لدى الأخ صدري»، ناولني ورقة، «هذا هو عنوانه ورقم هاتفه، قل له إن أميري طلب منك الاتصال به، وسوف ندفع لك أي نفقات تتحملها».

هززت رأسي بالموافقة وأنا أستمع لتوجيهاته، لكن بينما كان يتحدث، لم أتوقف عن التساؤل عن سبب تكليفي بهذه المهمة، ما فعلته لأجلهم في إيران لا علاقة له ألبتة بقيادة

السيارة مع ملتحين مجرمين في أرجاء المدينة، لماذا اعتقدوا أني الشخص المناسب لهذا العمل؟ افترضت أن السبب هو ثقة رحيم بي، وهذا بسبب كاظم، تمنيت لو أن كاظمًا كان هنا، فكرت بينما كان أميري يواصل سرد تعليماته، كان كاظم على الدوام مينائي الآمن مع الحرس، الآن يتعين عليَّ أن أبحر في هذه المياه وحدي، ولم أكن متأكدًا من قدرتي على ذلك.

في وقت متأخر من ذلك اليوم، اتصلت بكارول للترتيب لاجتماع آخر على الفور، شعرت حينها أنها مصدر الدعم الوحيد في ذلك الوقت، كنت بحاجة لتأكيد إضافي بأن وكالة المخابرات المركزية تدعمني، كما شعرت بأني ملزم بإخبارها عن النشاط السري الجاري في إنجلترا، رتبت كارول موعدًا في بيت آمن، حين وصلت إلى هناك كان ثمة عميل آخر ينتظر معها، بدا لي أريك دمثًا ومريحًا، وسرعان ما عرفت بأنه سيكون حلقة الوصل الجديدة لي، وفي حين كان لدي عدد من نقاط الاتصال خلال عملي في وكالة المخابرات الأميركية، فقد كنت مع كارول في جميع أيام نشاطي التجسسي، ونظرًا لما أشعر به من قلق في هذه المرحلة، لم أكن بحاجة لهذا التغيير الآن، شعرت بأني قريب جدًّا من كارول، وقلقت ألا يكون لحلقة الوصل الجديدة الالتزام نفسه تجاهي، لكن كما هو الحال بالنسبة لباقي الأحداث الجارية في حياتي في ذلك الحين، أعرف أنه ينبغي عليَّ أن أسلم أمري للقدر.

أخبرت كارول وأريك عن اجتماع السفارة وكيف فرض رحيم شروطًا على إقامتي في لندن بالإصرار على تعاوني مع الحرس، «ولي، أعتقد أن من المنطقي القيام بما يطلبونه منك»، قالت كارول، «إعداد أوراقك للانتقال إلى أميركا سيستغرق وقتًا، في الأثناء يمكنك مواصلة عملك معنا هنا».

«لا أعلم، كارول، لقد وعدت سمية أننا بدأنا حياة جديدة، وتعريض أسرتي للخطر مجددًا بالانخراط مع الحرس هنا... أنا غير متأكد كيف سيكون الوضع».

رسمت كارول على وجهها ابتسامة دافئة، «إنه قرارك، ولي، لكن تذكر أنك خارج إيران الآن وسوف نحميك أنت وأسرتك، أعتقد أنك لا تريد أن تتزايد شكوك الحرس بشأن إقامتك

في لندن»، «ولي، ليس هناك ما تخشاه»، أضاف إريك، سوف نرعاك، لقد قمت بعمل عظيم حتى الآن، والتزامك تجاه بلدك وتعاونك معنا يحظى بتقدير عظيم».

على الرغم من تأكيداتهم، شعرت وكأني طفل ضعيف يبحث عن ملاذ آمن، كنت آمل أن تكون لدى كارول أفكار أفضل حول ما يمكن عمله في حالتي، لكن حلها الوحيد كان أن أعود للغوص في العالم الذي كنت أتوق للخروج منه، شعرت مجددًا ألا خيار أمامي إلا الإذعان، كنت أعيش حياتين، لكن أيًّا منهما لم تكن ملكي.

قبل أن أغادر، احتضنتني كارول، «أتمنى لك حظًّا طيبًا، وآمل أن أراك في الولايات المتحدة»، قالت بحرارة، وكانت تلك آخر مرة أراها فيها.

تفسير قراري لسمية تلك الليلة كان مهمة أخرى، في طريقي إلى المنزل جربت قصصًا مختلفة، لكنها بدت جميعها مفتعلة ومفضوحة، كنت أكره كثيرًا الكذب على زوجتي، خاصة أن أكاذيبي قد تحمل مجددًا عواقب وخيمة لها ولأميد، في النهاية قررت ألا أحضّر أي شيء مسبقًا، بدلًا من ذلك قررت أن أرتجل، حين رأيت سمية، أخبرتها أن رحيم موجود في المدينة وبحاجة لمساعدتي، في البداية لم ترد بشيء، ثم اكفهرت تعابيرها، «لماذا لم تقل له كلا»؟ قالت وهي لا تكاد تسيطر على غضبها.

حاولت أن أمسك يديها، لكنها سحبتهما بعيدًا، «تعلمين أني لم أستقل من الحرس حين جئت إلى هنا»، وأضفت: «طلبت إجازة لبضعة أشهر؛ لأن ذلك أسلم بالنسبة لي»، «وماذا في ذلك؟ أنت هنا ولا تريد العودة، الواقع أنك لا تستطيع العودة الآن، قلت إنك أنهيت العمل معهم! حتى إنهم لم يعودوا يدفعون لك راتبًا»، أمسكت بيديها مجددًا، متوسلًا إليها أن تجلس إلى جانبي على السرير، «الأمر ليس بهذه السهولة مع الحرس، رحيم قال... أنت تعلمين أنني ما زلت رسميًّا جزءًا من المنظمة».

أشاحت بوجهها عني، «لا أستطيع أن أصدقك، رضا، لا أعلم ما الذي يدور في رأسك الفارغ، أتمنى لو أنك لم تأت إلى هنا»، «سوف أقوم بهذا العمل إلى أن تصبح أوراقنا جاهزة، قلت لرحيم إنه بمجرد أن تنهي زوجتي جامعتها، تنتهي صلتي بالحرس، وقد وافق على ذلك». ألم هذه الكذبة ضايقني للغاية.

نظرت سمية في اتجاهين وصرت عينيها الخضراوين، وهزت رأسها، ودون أن تضيف أي كلمة، وصعدت إلى الفراش، وغطت رأسها بالبطانية، وأدارت ظهرها لي، مرة أخرى اجتاحني شعور بالذنب.

في الليلة المؤرقة تلك، فكرت مرة أخرى في الرحلة المعقدة التي اخترتها، ليست هناك من طريقة أستطيع بها أن أقول لا لرحيم من دون إثارة شكوك خطيرة، وليس هناك من طريقة أستطيع بها مشاهدة أنشطة الحرس في إنجلترا دون إبلاغ وكالة المخابرات الأميركية عنها، لو كان في وسعي شرح كل شيء لسمية، أعرف أنها ستتفهم الأمر، لكن ذلك لم يكن خيارًا متاحًا، كما أن جميع التفسيرات التي ابتدعتها بدلًا عن الحقيقة لم تقنعها بأي شكل، سبب تمسكها بي هو أنها تحبني، لكني أعطيها جميع الأسباب للتساؤل بشأن استمرار ولائها لي.

في صباح اليوم التالي، وقفت أمام مبنى الشقة الصغيرة التي يسكنها المدعو صدري مقابل كوين رود المحاذي لريتشموند بارك، فتح رجل طويل القامة نحيل الجسم يرتدي بيجامة زرقاء مخططة، كنت قد اتصلت بصدري في الليلة السابقة وكان في انتظاري، رمى بعقب سيجارته، واحتضنني على عجل، وقادني إلى الداخل مرحبًا، «تفضل، رضا جون»، وهي المرة الأولى التي يخاطبني فيها واحد من الحرس بتعبير التحبب هذا بدلًا من كلمة (أخ) المعتادة، شيء ما في هذا الرجل جعلني أشعر بعدم الارتياح أكثر مما كنت، أبلغتني حواسي ألا أثق به، وكنت قد تعلمت التنبه كثيرًا لحواسي.

وجدت رجلا الحرس الثوري اللذين أوكلت إليَّ مهمة قيادتهما في المنطقة في الداخل يجلسان إلى مائدة طعام يحتسيان الشاي ويتناولان فطائر إنجليزية، على الرغم من معرفة صدري بأن أميري أرسلني، فقد بدأ يستجوبني عن سبب وجودي في بريطانيا، وعن مكان إقامتي، وتفاصيل عن أسرتي، أجبت بهدوء، مقدمًا ما يكفي من معلومات لإرضائه لا أكثر، افترضت أني أمر باختبار من نوع ما؛ لأنه بعد ذلك دلني على وجهة شركة كيماوية في بلنجهام، وهي مدينة على بعد 200 ميل شمال شرق لندن.

«تم ترتيب لقاء مع مدير مبيعات اسمه تشارلز وينستون»، قال لي صدري، «إذا أوصلتهم إلى هناك فسوف يتعاملون مع مدير المبيعات بأنفسهم».

أبلغني صدري أن الرجلين يعملان في مجال الزراعة، وقد جاءا إلى إنجلترا لشراء كيماويات لحماية وصيانة تربة مزارعهم، تظاهرت بتصديق تلك الرواية ومضيت في عملي، قدت السيارة بهم إلى بلنجهام وانتظرت عودتهم ساعات خارج المصنع عدة.

في طرق العودة، استرقت السمع لنقاشهم الذي كان يدور همسًا، ومحاولا قراءة شفاههما من خلال مرآة الرؤية الخلفية أيضًا، «كان صدري محقًّا»، قال الرجل الجالس خلفي مباشرة، «يبدو أن التعامل مع رجل ونستون هذا أسهل من رجل مانشستر»، «إنهم جميعًا أغبياء»، قال الرجل الآخر بابتسامة متكلفة، «هذه البودرة البيضاء ستحولهم جميعًا إلى سماد».

ألقيت نظرة خاطفة على الرجل الجالس خلفي مجددًا، لكن التقت عينانا هذه المرة، أجفلني ذلك، فصوبت بصري بسرعة على مرآة الرؤية الخلفية، متعمدًا استطلاع الطريق خلفنا، «تلك السيارة الحمقاء!» قلت منفعلًا، «هل رأيتم ذلك»؟ أدارا رأسيهما لتفحص الطريق، «يعتقد البريطانيون أنهم أفضل السائقين في العالم، لكن هذا كان على وشك صدم السيارة التي إلى جانبه»، هززت رأسي وأنا آمل أن تكون هذه الحيلة قد بددت شكهم.

حين التقيت أريك فيما بعد في البيت الآمن خارج لندن، أخبرته عما سمعته خلال رحلة العودة من بلنجهام عن المواد الكيماوية التي يسعون لشرائها، عرف أريك المُركّب على الفور، علاوة على استخداماته الشنيعة، «البودرة البيضاء -نترات الأمونيا- مركب كيماوي ثنائي الاستخدام، يستخدم بشكل رئيس في الزراعة كسماد، لكنه يستخدم أيضًا كعامل تفجير، وجود استخدام زراعي له يعطيه مشروعية معينة ويجعل من السهل شراءه، أناس أذكياء!»

في اجتماعنا التالي، أخبرني أريك بأن اسم صدري مزيف، وأن الشقة في كوين رود هي منزل آمن، لم أشاهد صدري مرة أخرى ولم أعرف قط اسمه الحقيقي.

غـادر رحيـم لندن بعـد بضعة أيام من قيادة السـيارة التـي صحبت فيهـا العميلين إلى بلنجهـام دون أن أراه، اتصـل بـي مودعًـا، طالبًـا منـي أن أعتنـي بأميـري، كان أميـري علـى اتصال دائم بي، وكنت أقابله كل أسبوع تقريبًا، انضممت إليه في اجتماعات تعقد في الغرف الخلفية من المساجد، وفي البيوت الآمنة، وفي السفارة، كان عملاء الحرس الثوري يتسللون إلـى جماعات المعارضة، خاصة مجاهدي خلق، ويتتبعـون آثار مؤيدي الملكية الإيرانية التي جعلـت مـن لندن محـور عملياتهـا، ويجندون مسـلمين متطرفين مـن الجاليات الباكسـتانية والأفغانية في إنجلترا لمساعدتهم في نقل الأسلحة والمتفجرات، واغتيال أعضاء المعارضة الإيرانية وتدبير القيام بأعمال إرهابية.

جئـت إلـى لندن كخطوة للبدء في الهرب من الحرس الثوري، وبـدلًا من ذلك، تورطت في تعاملاتهم على مسـتوى أعلى، في تلك الأثناء كنت أبلغ عن أنشـطتهم لوكالة المخابرات المركزية بحماس أكبر، مرة أخرى وجدت نفسي مستسلمًا بالكامل لحياتي المزدوجة.

الفصل
27

العين بالعين

في كانون الأول 1988م، وجدت سمية شقة صغيرة مؤثثة قريبة من منزل والديها في حي مايفير، كان في الشقة المكونة من غرفة نوم واحدة غرفة صغيرة بالكاد تتسع لفراش أميد، وثمة غرفة واحدة تضم المطبخ الصغير وغرفة المعيشة، ومع ذلك، كان جميلًا أن نحظى بمكان خاص لنا مجددًا بالرغم من أنه يتيح لسمية فرصة التذمر بحرية لاستمراري في العمل مع الحرس، «أنا أكره ذلك، رضا! لست بحاجة للعمل معهم بعد الآن، انظر إلى نفسك ما زلت تبدو مثل واحد من الباسداران بوجهك غير الحليق، أوه! لقد وعدت بأن تخرجهم من حياتنا».

شرحت لها أنهم بدؤوا يدفعون لي راتبًا جيدًا مجددًا مقابل القليل من العمل الذي أقدمه في إنجلترا، وأن هذه النقود ستفيدنا في بدايتنا الجديدة في أميركا، بدأت تأليف العديد من القصص عن النقود لتبرير سبب امتلاكنا أكثر مما ينبغي، دخلي من العمل في الوكالة مع العلاوات التي تلقيتها لا تزال في البنك لم تمس تقريبًا منذ سنوات، كما أن الوكالة تدفع نفقاتي الآن في لندن، أخبرت سمية أن والدتي تركت لي إرثًا حين توفيت، أخبرت أميري هذه الكذبة نفسها، ثم حين عرض عليَّ بضع مئات من الجنيهات الإنجليزية إضافة إلى تغطية نفقات استئجار السيارة، رفضت أخذها، لإبداء تواضعي والتزامي بالثورة.

خلال تلك المدة تقريبًا، عرَّفني محب خان على رجل اسمه فلاح، ربطتني به على الفور صداقة طيبة، كان فلاح صديقًا لأسرة سمية، وقد أحب ولدي أميد، ما قربني إليه بسرعة، كان رجل أعمال نافذًا في لندن، ووسيطًا تجاريًّا للإمدادات الصناعية المنتجة في إنجلترا ومعظم أوروبا.

أميري الذي عرف عن هذه الصداقة حثني على ترتيب موعد مع فلاح وبضعة عملاء قدموا حديثًا إلى المدينة بحثًا عن قطع صناعية، القادمون الثلاثة الجدد كانوا مختلفين عن

العملاء الآخرين الذين قابلتهم في لندن، كانوا يرتدون ملابس أنيقة غالية، ويتصرفون مثل رجال الأعمال، حتى إنهم يشربون الكحول في المطاعم ويطلبون لحم الخنزير.

استأجرت سيارة وأخذتهم إلى مستودع فلاح في منطقة ستراتفورد شرق لندن، رحب بنا فلاح وصحبنا إلى مكتبه، الواقع في نهاية منطقة تخزين مظلمة وباردة تصطف على جوانبها صناديق مكدسة وعلب كرتونية ضخمة، كتب على بعض الصناديق علامات بخط اليد وعلى الأخرى رسومًا بيانية لمواد ومنتجات صناعية، وبالنسبة لحجم المستودع، كان عدد الموجودين قليلًا، «تفضلوا بالجلوس»، قال فلاح وهو يسحب مقعدًا إضافيًّا من زاوية الغرفة، «آسف على الفوضى، أنا أتلقى طلبات على أساس يومي وأنا هنا بنفسي»، قال ضاحكًا، «زميلاي كلاهما يقومان بتسليم طلبات».

قام هوشنك، وهو أحد العملاء، بتسليم فلاح قائمة بالأدوات التي يحتاجونها لآلات عالية الدقة، لم يتحدث عن المجالات التي ينوي استخدام تلك الآلات فيها، لكنه شدد على أنها ضرورية لشركته الجديدة التي يديرها هو وآخرون في أصفهان، وهي مدينة وسط إيران، أشار فلاح إلى الحجم الكبير للطلبية ووعد بإجراء الاتصالات الضرورية لتنفيذها، «فلاح خان، لا تنسى منحنا خصمًا خاصًّا»، قال هوشنك ونحن نغادر المستودع، «رضا صديق جيد لنا».

دعاني هوشنك لتناول طعام العشاء في فندقه حين أوصلتهم، اعتذر الآخران وذهبا إلى غرفهما، وافقت أنا، بالرغم من أنني وجدت هوشنك مخيفًا بعض الشيء، كان مهذبًا وراق في سلوكه، لكن في عينيه حدة لا تبعث على الراحة، في الوقت نفسه، لو لم يقدمني أميري له لما راودني أي شك بأنه يعمل لصالح الحكومة الإسلامية، أخبرني أميري أن لهوشنك علاقات قوية بمكتب الإمام الخميني، وحيث إن الخدمات السرية الإنجليزية تراقب جميع القادمين، خاصة من إيران، كان من الضروري أن يضيع بين الناس.

بإنجليزية ركيكة، حيا هوشنك البواب، والكتبة، والفراشين لدى دخولنا الفندق، التقط إحدى الصحف وقادني إلى المطعم خارج الردهة، «البرغر لديهم طيب هنا والبطاطس لذيذة»، قال هوشنك وهو يفتح صحيفة الغارديان، راجعت قائمة الطعام وقررت

طلب البرغر بناء على نصيحته، مدركًا أن البطاطس التي أشار إليها هي بطاطس مقلية أو (الشيبس) كما يسميها البريطانيون، بعد أن أخذ النادل طلباتنا، مرر إليَّ الصفحات الأولى من الصحيفة، استعرضت العناوين الرئيسة، «هل كنت هنا حين حدث هذا»؟ طوى الجزء الأسفل من الصحيفة، ووضعها على الطاولة من جهتي، وأشار إلى مقال، كان عن تفجير طائرة بان أميركان الرحلة 103- كارثة لوكربي الجوية، علمت عن الحادثة وأنا في منزل محب خان حين كنا نحزم متاعنا للانتقال إلى منزلنا الجديد، طائرة بوينغ 747 انفجرت فوق اسكتلندا، وقتل جميع من فيها إضافة إلى عدد من الأشخاص على الأرض.

«هل تعرف ماذا يقولون في كتابهم المقدس»؟ قال هوشنك وقد صرَّ عينيه، «وإذا حدث أي ضرر، عندها عليك أن تعطي الحياة بالحياة، والعين بالعين، والسن بالسن، واليد باليد، والرجل بالرجل، والحرق بالحرق، والجرح بالجرح، والرض بالرض».

اجتاحت عمودي الفقري رعشة حين نطق هذه الفقرة بلغة إنجليزية سليمة، مع أن نطقه كان مشوهًا في السابق، من هو؟ تساءلت، وأخذت رشفة من شرابي، «ماذا تقصد»؟ قلت، وأنا أعرف أنه سؤال غبي.

وصل النادل بطعامنا، وكنت ممنونًا لذلك، فأنا بحاجة لشيء من تشتيت الانتباه لأستجمع نفسي، تناول هوشنك شطيرة البرغر وقضم لقمة كبيرة، «أبلغني رحيم أنك كنت فتى ذكيًّا، رضا»، مسح الكاتشب عن ذقنه بإصبعه ومال ناحيتي، «هل تعتقد أننا سنترك هؤلاء السفلة يفلتون من هجومهم المجرم على طائرتنا المدنية؟ وهل تعتقد أن ذلك الحادث كان حادثًا عرضيًّا»؟

تذكرت مشاهدة الأخبار مع كاظم قبل عام مضى في مقصف قاعدتنا عن طائرة مدنية إيرانية أسقطتها البحرية الأميركية، قتل فيها 300 مدني، وكان رحيم قد أخبرنا أنا وكاظم بأن رافسنجاني وعد بالانتقام، «كاظم أيضًا قال بأنه لم يكن حادثًا، وأن الأميركيين فعلوا ذلك في مسعى لتدمير حركتنا»، رشفت جرعة من شرابي، وأضفت: «رحمه الله».

«نعم، كاظم كان باسداران عظيم»، قال هوشنك ورنة من الحزن في صوته، ثم اشتدت نبـرة صوته، «حسـنًا، لقد نالـوا عقابهم، رضا، العين بالعين»، «إنهم يسـتحقون ذلك»، قلت، وأنا أشعر بلوم الذات الذي بات مألوفًا لديَّ وأنا ألعب هذه اللعبة.

نظـر هوشـنك حولـه، وحيث إننا كنـا في المطعـم متأخرين عن وقت العشـاء، فقد كنا الزبائـن الوحيديـن فـي المطعـم، «علينا أن نشـكر الحاج آغا رافسـنجاني، فقـد وفى بوعده فـي الانتقـام، وعلينـا أيضًا أن نشـكر إخواننا الفلسـطينيين الذين سـاعدونا فـي ذلك، حتى إن الشـرطة الألمانيـة تحقـق مع حلقات اتصال أحد الفلسـطينيين حول جهاز لاسـلكي حمل القنبلة».

لـم أصـدق أنـه يخبرنـي كل هـذا، «الحـاج آغـا رافسـنجاني ركـن أساسـي فـي ثورتنـا الإسـلامية، إنـه رجل ذكي»، قلـت وأنا أقضم لقمة من وجبتي وأبتلعهـا بصعوبة، «أنت محق؛ البرغر جيد هنا».

«أنا متفاجئ، أرى أنك تأكل لحمًا محرمًا».

تجمـدت فـي مكاني، لم أصدق أني ارتكبت هذا الخطأ أمامه، فلا يفترض بالمسـلمين أكل لحوم محرمة، فقط لحوم الحيوانات التي تذبح وفق الشـريعة الإسـلامية، «من الصعب العيش في الخارج والقيام بجميع واجباتك، أليس كذلك»؟ قال هوشـنك وهو يطوي منديله الورقي ويضعه في صحنه.

«أنـا عادة لا آكل إلا لحمًا حلالًا»، قلت بسـرعة، «لكن اليـوم ولأنك اقترحت الطعام...» ثم تركت صوتي يخفت، أعلم أني ارتكبت خطأ فادحًا ولمت نفسي على ذلك، وظيفتي هي أن أعمل وأتصرف كمسلم ملتزم بحيث يثق بي كل من له صلة بالحرس الثوري، تردد في رأسي صوت سـتيف، أول حلقة اتصال لي مع وكالة المخابرات المركزية، وهو يقول: «لا تتخلى عن حذرك أبدًا، لتعيش مدة أطول».

«هوشـنك! هوشـنك!»، التفتنا ناحيـة الصوت، كان واحد من الرجليـن الآخرين، «تعال اصعـد»، قـال الرجل، لقـد ضاعت عليك بعض المكالمات الهاتفية وسـوف يعاودون الاتصال بعد قليل».

نظر إليَّ هوشنك، فأخبرته أني سأتولى دفع الفاتورة، «في المرة القادمة سأدفعها أنا»، قال ضاغطًا على كتفي بيده قبل أن يغادر مع الرجل الآخر.

جلست في المطعم مدة وجيزة بعد مغادرتهم، محاولًا تصفية ذهني، كنت خائفًا، خائفًا من هوشنك وما قاله عن طائرة بان أميركان- وتعليقه عن (العين بالعين)؛ وكيف شدد على عبارة (حرق بحرق)، وبنيرة تهديد في صوته، خائف من طريقة تحديقه في عيني والمفاجأة التي عبر عنها لتناولي لحمًا حرامًا، مرة أخرى، شعرت أنه مهما بلغت تغطية وكالة الاستخبارات الأميركية لي في أثناء وجودي في لندن، ينبغي عليَّ أن أكون أشد حذرًا، فأنا لست وسط مسلمين متعصبين وحسب؛ بل وسط مجرمين قساة أيضًا.

تركت بقشيشًا سخيًّا للنادل وقررت الاتصال بأريك لإطلاع الوكالة على ما عرفته عن حادثة بان أميركان، وبينما كنت على وشك فتح الباب الزجاجي المزدوج للفندق، رأيت ظل رجل قوي البنية خلف الباب، تنحيت جانبًا لأفسح له طريق الخروج قبلي، «رضا»؟ رفعت رأسي ورأيت رسول، «رسول؟ سلام، أيها الضخم! ماذا تفعل هنا»؟ احتضنني رسول ورفعني عن الأرض، «جميل أن أراك، رضا»، لم أسمع منه منذ آخر مرة التقينا فيها في القاعدة يوم كان جاهزًا للسفر إلى إنجلترا (لمتابعة دراسته)، كان لا يزال حسن الهندام يرتدي بذلة رمادية جميلة مع معطف صوفي أسود فوقها.

خرجنا من الفندق وتجاذبنا أطراف الحديث، كان رسول يعرف عن وفاة كاظم وتحدث عنه بحزن، أخبرني أنه هنا لمقابلة هوشنك والآخرين، وقال لي أنه سيتصل واقترح أن نلتقي، «يجب أن أذهب الآن، لكن لا تخبئ نفسك»، قال وهو يناولني بطاقة عمل، «اتصل بي». جاء في البطاقة (روسل للخدمات الاستشارية)، لم يكن فيها أي عنوان، رقم هاتف فقط واسم روسل بدلًا من رسول.

رتبت للقاء مع أريك لليوم التالي، وبسبب تخوفي من الذهاب للبيت الآمن، تنقلت عدة مرات في مترو الأنفاق، وسرت بمحاذاة عدة مبان، وصعدت في سيارة تاكسي، وذهبت إلى مكتبه حيث اشتريت بضعة كتب.

حين وصلت إلى البيت الآمن، لم يكن أريك وحده، بعد سنوات عدة وفرصة ضئيلة من التفاعل مع وكالة المخابرات المركزية وبناء روابط مع كارول، بدأت الوكالة في تغير حلقات اتصالي، كنت قد بنيت بسرعة علاقة عمل طيبة مع أريك، لكنه يقدمني الآن لحلقة اتصال جديدة، أندرو، بخلاف كارول وأريك، الشخص الذي أعجبت به على الفور، بدا لي أندرو باردًا وعنيدًا، لم أكن سعيدًا بهذا التغيير، خاصة الآن، بغض النظر عن ذلك، لدي عمل يجب أن أنجزه، مررت المعلومات المتعلقة بطائرة بان أميركان، إضافة إلى اسم وأوصاف هوشنك والعميلين الآخرين، عبَّر أريك وأندرو عن صدمتهما لاحتمال تورط إيران في التفجير، وما إن فعلت ذلك، حتى تملكني الضيق من طريقة تكشف الأمور بالنسبة لي في إنجلترا، الأوضاع تزداد توترًا مع الحرس، والآن حلقة اتصالي مع الوكالة تزيد من قلقي، أردت الخروج من كل هذا.

الفصل

28

عميل مزدوج

جلبت وفاة الخميني في حزيران 1989م جميع أفراد الحرس الثوري والموالين للخميني في لندن إلى السفارة الإيرانية معًا، عدم التصديق، والإحساس بالفراغ، والحزن لخسارة ذلك الأيقونة، جعلت البكاء ينتشر كالعدوى بين الحشد، أقيمت مراسم تأبين له في المسجد المركزي في لندن حضره مسلمون من جنسيات عدة اجتمعوا للتعبير عن حزنهم، حضرت الحدث لأني مجبر، لكني جلست في ركن مع نفسي، أغلقت عيناي وفكرت في كل الضرر الذي أحدثه لإيران، كيف دمر أمة وقتل ذلك العدد الهائل من الأبرياء، تمنيت أن يدفن إرثه معه، تمنيت أن يساعدنا الغرب على استعادة إيران التي أحب، فإذا كان ثمة وقت للقيام بذلك، فهو الآن.

خلال اجتماع ضمنا بعد شهرين من وفاة الخميني، قال لي أندرو في معرض حديثنا، «اعتبر رافسنجاني ملك إيران الجديد»، وكما هو الحال بالنسبة للكثير مما قاله لي، فقد أزعجني قوله، كنت قد انتهيت من إخباره أنه ينبغي على أميركا فعل المزيد لتحرير الشعب الإيراني من حكم الملالي الاستبدادي، لكن أندرو كان يعتقد أن خطة جورج بوش الأب هي تشجيع إقامة اتصالات أفضل مع رافسنجاني، وأن ذلك هو النهج الأفضل نحو تحسين العلاقات بين البلدين.

أصبح رافسنجاني رئيسًا لإيران بعد وفاة الخميني، وأصبح علي خامنئي الذي كان رئيسًا، مرشدًا أعلى خلفًا للخميني، لم يصل خامنئي لرتبة آية الله، إلا لأنه متطرف بما يكفي لضمان أن يحتفظ النظام بالسلطة التي يشتهيها، قبل الثورة كان علي خامنئي مجرد ملا يدير احتفالات (روضة خوني) لرثاء الحسين في مدينة مشهد، مثله في ذلك مثل الملا

عزيـز يتقاضـى بضـع دولارات مقابـل كل احتفال يقيمه ويمتلـك حمارًا، أصبـح الآن الزعيم الروحي لما كان يومًا بلدًا عظيمًا.

زاد أنـدرو مـن سـخطي حيـن قـال إن رافسـنجاني إصلاحـي يمكـن أن يجعـل الحيـاة أفضل بالنسـبة للإيرانيين، «المفاوضات هي السياسـة الأفضل بالنسـبة لنا»، حسـب قوله، «رافسـنجاني لا يختلـف عن الباقيـن»، رددت عليه غاضبًا، «لا يمكنكم الوثوق به، هل نسـيت مشاركته في الهجوم على ثكنات المارينز في لبنان مع المتطرفين الذين يحكمون إيران؟ أو مشاركته في تفجير لوكربي؟ إنه يشجع الإرهاب».

أنـدرو لـم يرد، سـوى أنه نظر إليَّ بازدراء، موضحًا لي بـأن آرائي غير مرحب بها، دون أن يقول ذلك صراحة.

الرئيس بوش الأب، الذي كان يشغل منصب نائب الرئيس خلال فضيحة إيران- كونترا، كان مـدركًا للمفاوضـات التي كانت تجري في ذلـك الحين، الآن هو قائد العالم الحر، ويأمل أن يفـي رافسـنجاني بوعـده الذي سـبق وقطعه لروبـرت ماكفارلين، مستشـار الأمن القومي للرئيـس ريجـان، بتطبيـع العلاقات بين البلدين بعـد وفاة الخميني، أذهلني هـذا كثيرًا، ألم يتعلـم الأميركيـون درسـهم من وعد رافسـنجاني المخادع بالمسـاعدة على إطـلاق الرهائن الأميركيين المحتجزين في لبنان؟ بعد تلقي الإيرانيين كل تلك الشـحنات من الأسـلحة التي قدمت كبادرة حسن نية، دون أن يطور الإيرانيون علاقات صحية مع أميركا، بل على العكس من ذلك، ساعدوا حزب الله على أخذ المزيد من الرهائن.

الاعتقاد بأن رافسنجاني سيحدث تغييرًا إيجابيًّا في إيران ليس خطيرًا بالنسبة لبلدي وحسـب بـل لأميـركا أيضًا، فقد مـات مئة وثمانـون أميركيًّا فـي طائرة بان أميـركان الرحلة 103، بدا لي ذلك صيغة من المناورات السياسية المتهورة، مع ذلك، كانت وكالة المخابرات الأميركية تدرك أن المعلومات التي زودني بها هوشنك خلال الغداء لم تكن متاحة علنًا، ولم يؤكدهـا الذيـن حققوا في تحطم طائرة بان أميركان فـي ذلك الحين، (المثير في الأمر، أن هذه المناورة لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا، في آب 2009م، أطلقت السلطات الاسكتلندية

سراح عبد الباسط المقراحي، الليبي الذي أدين بإسقاط الطائرة، حين أعلن الفريق المدافع عنه أنه مستعد لتقديم وثائق وكالة استخبارات الدفاع الأميركية التي تدين إيران).

ازدادت علاقتي بأندرو برودة، ثم في أحد الأيام، وخلال توجهي إلى السفارة لمقابلة أميري، اتصلت بأندرو لتحديد موعد للاجتماع، «جيد أنك اتصلت، ولي»، قال أندرو، «علينا الاجتماع في أسرع وقت ممكن، ويجب أن يتم ذلك الليلة».

تلك اللهجة أقلقتني، وأردت مقابلته في بيت آمن على الفور لمعرفة ما هو الشيء الملحُّ، لكني لا أستطيع التأخر عن اجتماعي مع أميري، اتخذت طريقي نحو السفارة متوجسًا، كان لدى أميري شخص آخر في مكتبه حين وصلت إلى هناك، واضطررت للانتظار خمس عشرة دقيقة قبل أن يستدعيني.

«رضا، لدي تكليف مهم للغاية لك»، قال حين دعاني للدخول، ناولني قطعة ورق، «هناك شخص معين نشتبه في تورطه بأنشطة معادية للثورة، ستجد التفاصيل في هذه الورقة، نريد أن نعرف المتورطين معه وما الذي ينوونه، سيكون رسول شريكك؛ لذلك اتصل به وابدأ العمل على الفور».

أطلق هذا جرس الإنذار لدي، لماذا يريد أميري ربطي برسول؟

حين غادرت السفارة، كانت دقات الساعة من الكاتدرائية البطريركية القريبة تعلن أن الساعة هي الرابعة بعد الظهر، موعد اجتماعي مع أندرو لن يتم قبل السابعة، وهذا يمنحني الكثير من الوقت للتجول في المدينة والتأكد أن لا أحد يراقبني أو يتبعني، لكن بدلًا من اتباع الروتين المعتاد، قررت السير بمحاذاة نهر التايمز لتجميع أفكاري حول آخر التعقيدات في حياتي الثنائية.

«ادخل، ولي»، قال أندرو بطريقة شبه رسمية لدى دخولي البيت الآمن، نفوري منه تزايد لدرجة أن سماع صوته يثير أعصابي. لم يكن أندرو وحده، كان يجلس في غرفة المعيشة رجل قوي البنية في أواسط الثلاثينيات من عمره، لفت انتباهي قصة شعره القصيرة، كان ينظر إليَّ مترقبًا، نهض وقدم نفسه، غاري، عرفت على الفور أنه سيكون حلقة اتصالي الجديدة؛ لأن أندرو سيغادر بسبب وفاة والده في الولايات المتحدة، «أنا آسف لخسارتك»، قلت لأندرو،

مخفيًا حقيقة أني كنت سعيدًا لانتهاء ارتباطنا، بالرغم من أسفي لوفاة والده، في حين أني لم أكن قط على وفاق مع أندرو، فقد انتابني إحساس فوري أني سأكون على علاقة جيدة مع غاري، شجعتني مصافحته المتينة وحماسه الواضح لما أقوم به.

أخبرت غاري عن التكليف الذي عهد به أميري إليَّ وعن تنامي علاقتي برسول، بالرغم من أنها مشوشة بعض الشيء، ومع تزايد معرفتي برسول، أدركت أنه ليس مثل باقي الحرس، فهو يهتم بإيران ويعبر عن غضبه لعمليات قتل المعارضة داخل وخارج البلاد، وفي حين أنه مسلم ملتزم، لم يبد سعيدًا بأنشطة الحرس الثوري في إنجلترا، رويت لغاري المناقشات التي عبر فيها رسول عن هذا، وأخبرته عن اعتقادي بأن رسول يبدو مخلصًا، لكن كما هو الحال دائمًا مع كل شخص مرتبط بالحرس، ربما كان يحاول إيقاعي في الفخ.

سجل غاري ملاحظة ووعد بمعرفة ما يخطط له رسول، لم أعرف كيف يمكن لغاري أن يكتشف ما إذا كان الرجل الضخم مسلمًا ملتزمًا أو إن كانت إيران تهمه، لكني موقن بأنه يعرف ما يفعله، نهضت لأغادر فربت على ظهري، ووصفني بالرجل العظيم، «قليلون هم الرجال الذين يستطيعون إحداث فرق، ولي، وأنت واحد منهم». بعد ارتباطي الصعب مع أندرو، وجدت أن تلك الكلمات ملهمة وموضع ترحيب.

نصت تعليمات أميري على أن أحلق لحيتي من أجل المهمة، وأن أرتدي بذلة أنيقة، كان في التجربة نوع من السريالية، أنا أحلق ذقني الآن للمشاركة في نشاط سري لحساب الحرس الثوري، وكانت هذه اللحية ذاتها، طيلة مدة طويلة مصدر حماية لي كعميل لوكالة المخابرات الأميركية، مرة أخرى، شعرت أن هويتي تتبدل بطرق تحرمني من الإحساس بالاستقرار.

التقطني رسول بسياراته على بعد بضعة مبان عن منزلي، كانت تعليماتنا تقضي بالمراقبة في ضاحية إسلامية في منطقة برج هاملتس القريب من برج لندن، كان الهدف بروفيسور إيراني بارز يعلِّم منذ مدة في لندن، كان رسول يعرف أين يذهب وماذا يفعل، قاد السيارة بضعة أميال ثم أوقفها في زقاق قريب من (أرتيلاري لين)؛ وتعيَّن علينا أن نقطع باقي الطريق سيرًا على الأقدام، العملية كلها جعلتني متوترًا للغاية، لكن رسول كان هادئًا

جدًّا، يتحدث بشكل عرضي عن ارستقراطيين قطعت رؤوسهم في سجن البرج، ويشير إلى مختلف الأبنية والمطاعم.

قطعنا مباني روسل، حاولت طيلة الطريق مواكبة خطوات رسول الواسعة، وحين اقتربنا من منطقة برج هاملتس، انتقلنا من منطقة أعمال مزدهرة إلى حي للطبقة العاملة، «من هنا!» قال رسول وهو يشير إلى مبنى تجاري من ثلاث طبقات يشغل الطابق الأول منه مطعم بنغالي، تبعته إلى المطعم، دون أن أدري ما الذي نفعله هناك، دخل المطبخ وكأنه سبق له أن كان هناك، ملوحًا لرجل قرب الموقد، ثم إلى باب في نهاية المطبخ، فتحه رسول بالرغم من وجود لافتة تقول: (للموظفين فقط)، قادنا الباب إلى درجات سلم صعدنا صفين منهما، ثم هبطنا من قاعة ضيقة إلى مستودع فارغ.

خيل إليَّ أن كل هذا يمكن أن يكون مكيدة لتصفيتي، إذا عرف الحرس الثوري بطريقة ما عن ولي وأرادوا اغتيالي، فهذا هو الموقع الأمثل، بحسب ما أعرفه، فإن (خدمات روسل الاستشارية) تقدم بانتظام هذا النوع من (الاستشارات) للنظام.

«تقدم ناحية النافذة»، قال رسول وهو يقف في الغرفة الخالية، أشار إلى اليسار وهو ينحني نحو حذائه، قلت في نفسي، إنه يريد سحب مسدسه، لكنه انحنى لشد رباط حذائه، فسمحت لنفسي أن أتنفس الصعداء، «انظر عبر النافذة»، قال لي.

تحركت للقيام بذلك حين رأيت رسول يخرج شيئًا أسود من داخل سترته، كان غباء مني أن أعتقد أنه يخفي مسدسًا في جواربه بينما يستطيع حمله في جيبه، حينها فكرت أنه يريد إطلاق النار عليَّ من الخلف بينما أنا أنظر من النافذة، شعرت بضيق في الصدر، انتزع ذراعه العالقة، مخفيًا بكفه ذلك الشيء الأسود، تراجعت وتعثرت، وسقطت على الأرض بقوة، «ما هذا، رضا؟ ما الذي دهاك»؟

كان يوجه نحوي منظارًا أسود ذا عينتين، لم أقل شيئًا للحظات، ثم قلت دون تفكير، «اعتقدت أن لديك مسدسًا»، عبس وهز رأسه، «ماذا؟ أردتك أن تلقي نظرة على الشقة في المبنى على الجانب الآخر من الشارع».

حاولت التفكير بسرعة، «أوه، اعتقدت أنك تريدني أن أطلق النار على شخص ما»، جلس على الأرض إلى جانبي، مسقطًا المنظار على الأرض وماسحًا وجهه بكفه، «إذا حان وقت وطلب مني أن أقيِّمك، من المؤكد أن لا أوصي بك أبدًا»، ابتسم ابتسامة مشوبة بالألم، «لكن عليك أن تدعو الله ألا يحين ذلك الوقت أبدًا»، انزلق راجعًا على الأرضية ليستند إلى الجدار، وفعلت مثله.

«رضا، أنا لا أفهم سبب رغبتك في أن تكون جزءًا من هذا كله، تبدو شخصًا لطيفًا، حتى إنك لا تبدو مثل أي واحد منهم، عليك أن تحزم حقائبك وتغادر، عد إلى أميركا، أنا أعرف أنك كنت هناك ذات مرة، أتمنى أن أنفذ بحياتي أنا أيضًا، لكني متورط بعمق».

هذا الاعتراف أخرسني، هل يحاول دفعي إلى قول شيء يدينني؟

أغلق عينيه وأطلق نفسًا عميقًا، «أتمنى لو أن في وسعي الذهاب بعيدًا، بعيدًا جدًّا، ربما إلى أميركا، رضا، أنت لا تريد أن تكون جزءًا من هذا، أن تقوم باغتيال الأبرياء...» أرخى ربطة عنقه، «قتلوا أبًا وابنه هنا في لندن، كانا من الملكيين المؤيدين للشاه، هل تعلم أن حكومتنا جعلت عملاءنا يتصلون بقاسملو، زعيم الحزب الديمقراطي الكردي، في فيينا لحضور اجتماع لعرض السلام؟ ثم قتله عملاؤنا مع مساعديه، هل تعلم أن أحمد طالبي، وهو طيار مقاتل حصل على اللجوء في سويسرا، قتل بالرصاص في شوارع جنيف؟ كان متزوجًا ولديه أطفال».

قبل بضعة أسابيع، تحدث رسول عن امتعاضه من القتل ومدى ظلم الحكومة الإسلامية الحاكمة، شعرت في ذلك الحين أنه يختبرني، أما الآن، وهو يجلس إلى جانبي وكفاه يحتضنان رأسه، عرفت أنه يثق بي، فهل أجرؤ على مقابلة ثقته بثقة؟

مال رسول لالتقاط المنظار ونهض ببطء للنظر عبر النافذة، «ها هو البروفسور في مكتبه»، قال وهو يضبط عدسات المنظار: «هل ترى في نفسك القدرة على قتل هذا الرجل؟ وبعده رجل آخر، ثم رجل آخر»؟ «ما كنت لأقتل أي شخص»، تمتمت قائلًا لنفسي بصوت خفيض.

عـاد للجلوس علـى الأرض، «سـيجعلونك تقتـل، رضـا»، ارتجفـت، أرخيت كتفـيَّ على الجدار ووقفت مستقيمًا، هل سبق له وقتل شخصًا ما؟ أو قتل العديد من الناس؟ أخرج علبة سـجائر من سـترته وعرض عليَّ واحدة، لم أكن قد قلت شـيئًا، وما زلت محتارًا حول ما إذا كان في وسـعي التعبير عن مشـاعري لرسـول دون أن يلحقني أذى، قررت أن ليس في وسعي المخاطرة، «سـنخبر أميري بأن هذا الشـخص غير متورط في أي شـيء»، قال رسول ليكسر الصمـت، «إلا أننـا سـننتظر أسـبوعًا قبـل أن نخبره ذلك»، «سـنفعل كل ما تقترحـه، أميري أخبرني بأن أتبعك».

حيـن نظـر رسـول إلـيَّ، رأيت الاضطـراب على وجهـه، هـل كان يتوقع مني أن أشـاركه الحديث؟

لم أستطع المجازفة ومحاولة معرف ذلك، غادرنا المستودع واقترح عليَّ أن نذهب في اتجاهين مختلفين، اتجه هو نحو سيارته وركبت أنا مترو الأنفاق عائدًا إلى البيت، في طريقي إلى المترو، توقفت عند كشك هاتف للاتصال بغاري، وإبلاغه بما حدث في المستودع، لا بد أنـي بـدوت منزعجًا؛ لأنه بـذل جهدا لتهدئتي وقال إن لديه بعض الأخبار عن رسـول، حددنا موعدًا للاجتماع في اليوم التالي.

حيـن وصلـت إلـى البيت، وجدت سـمية جالسـة على الأريكـة تبكي، رفعت رأسـها حين دخلت، مسحت دموعها، ونظرت إليَّ وهي تبدو في حالة صدمة، «حلقت لحيتك»، قالت وهي تغالـب دموعهـا، لمسـت وجهي، «نعـم، حلقتها»، جلسـت إلى جانبهـا، «هل كل شـيء على ما يرام؟ هل أميد بخير؟».

«أوه.. نعم.. لكن... لكني تلقيت للتو اتصالًا من عمك»، اهتز كتفاها، «إنه آغا جون... لقـد توفـي»، أجهشـت بالبـكاء، «أنا آسـفة، رضا»، تمسـكت بيـدي حين نهضت أريـد مغادرة الغرفة، في حين كنت أعرف أن سمية تريد طمأنتي وتعزيتي، فقد كنت بحاجة للبقاء وحدي، لا أسـتطيع التحدث عن جدي مع أحد الآن، بدلًا من ذلك سـمحت للشـعور بالذنب أن يسيطر عليَّ، اتضح لي الآن كم كنت غبيًّا لأني لم أحاول البقاء على اتصال معه منذ أن تركت إيران، المضحك، أني تركت هذا الأمر لسـمية، كنت مشـغولًا جدًّا، مشـغولًا بأشـياء ما كان يجب أن

أسمح لها بأن تقف بيني بين الرجل الذي كان بمثابة أب لي أو أكثر من أب، كيف أمكنني ألا أجد وقتًا للحفاظ على صلتي بالرجل الذي صقلني، الرجل الذي قضيت معه معظم طفولتي، الرجل الذي علمني حب الحياة؟

عدت إلى الخارج، وجلست على درجة أمام المبنى، ونظرت إلى السماء محاولًا الرؤية عبر الغيوم، كانت سماء لندن تخوض صراعًا مثل حياتي، لم تكن في السماء نجوم ساطعة، ولا أمطار تنقي الأجواء، ومنذ مدة طويلة، لا شمس تشرق معها الحياة، فقط رياح تنذر بخطر تهب في اتجاهات غامضة.

ذهب جدي، كان كل ما تبقى لي من ماضيَّ، في كل مرة أفكر في ناصر، أجد آغا جون حاضرًا، في كل مرة أفكر في كاظم، أجد آغا جون حاضرًا، في كل مرة أفكر في الفوضى التي أعيشها، أفكر في جدي وإيمانه بي، في حين كنت أخشى ألا ألقاه مرة أخرى حين غادرت إيران، إلا أن حقيقة موته ضربتي بشكل أشد مما توقعت، شعرت بحنين قوي للعودة إلى إيران، حضور جنازته كان أقل ما يمكنني فعله، لكن ذلك لم يكن ممكنًا على الإطلاق، وضعت كفاي على رأسي وكتمت صرخة داخلي وأنا أرجو الله أن يحررني من القيود التي تحرمني من الحزن مثل أي شخص عادي، وتركت الغضب والإحباط يتنامى داخلي.

بعد ذلك، لم يعد أمامي من خيار سوى أن أتناسى الأمر، آغا جون ذهب، ومفروض على رضا أن يتقاسم حياته مع ولي، ولدى ولي عمل يقوم به، عليَّ أن أواصل طريقي من خلال الألم، عليَّ ممارسة الدور الذي فرضه القدر عليَّ.

لقائي التالي مع غاري كان في فندق صغير وسط المدينة بدلًا من البيت الآمن، كان على بعد بضعة أميال من شقتي، كنت متعبًا، فقد قضيت الليل كله أرقًا متفجعًا على جدي، لكني قررت الذهاب على أي حال، تفحصت الخريطة، وحفظت الطريق، وبقيت أفكر في آغا جون والماضي، أنا و ناصر نخوض في ماء الجدول خلف منزل جدي والذي يجري على طول الطريق إلى حارة كاظم.

رأيت الانعطافة التي سأتبعها، إلى يسار شارع فيكتوريا...، ناصر يصفِّر ويلعب بضفدعه الصغير في جيبه، «أطلق هذا الشيء المسكين، ناصر...».

أيقظنـي بوق سـيارة -وهو أمر غير معتاد في إنجلتـرا- من أحلامي، أدركت أنني قمت بقطـع الشـارع بينما الإشـارة حمراء، عجلت خطوتـي محرجًا، وملاحظًا وجـود رجل يرتدي سـترة خضـراء أكبـر مـن حجمه يسـير علـى الجانب الآخـر من الطريق ويسـير فـي الاتجاه المعاكس.

انضم إلينا كاظم، وعدنا ثلاثتنا إلى آغا جون، تحدثنا عن مباراة الكرة التي خضناها، لقد فزنا للمرة الثالثة على التوالي...

اعتقدت أني رأيت الرجل ذا السترة الخضراء مجددًا عند زاوية شارع مارشمان، كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ كان يسـير في الشـارع المعاكس، «ما الذي تريد أن تكونه، رضا، حين تكبر»؟ سأل كاظم، «بالتأكيد ليس ملا!» قال ناصر وهو يقهقه ضاحكًا، ضحكت معه، وعبس كاظم في وجوهنا.

كنـت متأكـدًا أننـي رأيـت الرجل مجددًا حيـن اتجهت إلى كينسـنجتون، نعـم! تذكرت سترته، لكنه الآن ينتظر في محطة للحافلات، لم أكن قد خططت لتحويل مساري؛ لأني كنت أتبـع طريقًـا حفظتـه من الخريطة، لمت نفسـي على تكاسـلي، لكني حين نظـرت إلى محطة الحافـلات مجـددًا، لـم يكن الرجـل موجودًا، وجـدت إلى يميني ممـرًا يقود إلى شـارع آخر، سـرت عبر الممر وأنا أخطط للذهاب إلى شـارع رئيس آخر، قطعت بضعة مباني، ثم عدت إلى حيث كنت، ألقيت نظرة حذرة حولي، لم أر ما يثير الشبهة، ربما كنت قلقًا دون داع.

البـاب المـزدوج إلـى منـزل جـدي كان مفتوحًا مـن جهة واحـدة، وكانت خانـم بوزورج تتحدث إلى ضيوفها، طلب منا ناصر فك رسن الحمار.

بعد أن قطعت مبان عدة، عدت أدراجي قبل أن أضل الطريق، في النهاية وجدت الممر ذاته ودخلت فيه، تلفت حولي قبل أن أواصل السير.

صوت خانم بوزورج المرتعش ينادي اسـمي... «رضا... رضا...»، كانت تعض شفتيها، نظـرت إلى آغا جون، ألتمس حمايته والاختباء خلف جلبابـه، بضربة قوية، اصطدمت بأحد المشاة، انتبهت، كنت وجهًا لوجه مع الرجل ذي السترة الخضراء، توقف قلبي عن الخفقان

وتصبب جسمي عرقًا، رنت لهجة إنجليزية قوية في أذناي: «أوه، عزيزي، أنا ىسف جدًّا، لم أرك».

بدا مصدومًا بقدري أنا، كنت أعرف أنه ينوي شيئًا ما، لكنه واصل السير في الاتجاه المعاكس، عاد قلبي إلى الخفقان الآن، كيف سمحت لنفسي أن أتخلى عن حذري؟ من يكون هذا الرجل؟

طيلة نصف الساعة التالية، سرت جيئة وذهابًا في الشارع نفسه، متظاهرًا بالنظر إلى واجهات المتاجر ومستخدمًا الانعكاس على زجاجها لتفحص الأماكن المحيطة بي، جلست في مقهى في الهواء الطلق، متظاهرًا بأني أراقب الناس بشكل عرضي بينما كنت في الحقيقة أبحث عن شخص واحد، لم أشاهد الرجل صاحب السترة الخضراء مجددًا.

(مخابرات بريطانية - أم أي 6)، قال غاري حين قابلته، «لا بد أنهم يتابعونك»، ما الذي يتحدث عنه؟! ثم أضاف: «ربما حان الوقت لإخبارهم».

بقدر ما كنت متوترًا، حاول غاري تهدئتي، مبينًا لي أن المخابرات البريطانية ربما كانت تعرف عن أنشطتي مع الحرس، وأخبرني أنه قد يطلعهم على أنني أعمل مع وكالة المخابرات الأميركية، وأنه قد يرتب لقاء لنا معهم، أكد لي أن المخابرات البريطاني لن تتسبب بأي مشاكل لي من الآن فصاعدًا.

لم أكن متأكدًا من قدرتي على تحمل مقابلة أخرى مع وكالة مخابرات أخرى، لكن ما كان يسبب لي ضغطًا شديدًا في تلك اللحظة هو قول رسول بأن الحرس قد يطلبون مني قتل أحدهم، أخبرني غاري بأن الوكالة وضعت رسول تحت المراقبة -بناء على تقريري إلى كارول- منذ انتقاله إلى إنجلترا في العام 1984م، قال غاري بأن ثمة احتمال قوي ألا يكون رسول ملتزمًا بالكامل بالحكومة الإسلامية، فقد كان يواعد سرًّا امرأة إنجليزية طيلة سنوات، حتى إنهم رصدوه معها على أحد شواطئ إسطنبول، «ابلغني رسول أنه متورط معهم لدرجة لا يستطيع الفكاك منهم»، قلت، «ماذا إذا ورطوني أكثر؟ قد لا أتمكن قط من المغادرة»، «نحن معك، ولي!» قال مبتسمًا، بمجرد أن تكون أوراقك جاهزة، ستكون في طريقك نحو الحرية».

أبلغت غاري أن رسول أخبرني أنه يتمنى لو يستطيع الذهاب إلى أميركا، أثارت العبارة اهتمام غاري، وصمت عن الكلام لبضع لحظات، تململ في مقعده واضعًا رجلًا فوق أخرى ثم أعادها إلى مكانها، ثم قال: «ما رأيك أن تعرفه علينا، ولي»؟

شعرت بعيني تكادان تخرجان من محجريهما وأنا أحاول فهم مضمون ما يعنيه، «ليس كما تعتقد، ولي! تستطيع إثارة فكرة الذهاب إلى أميركا وتخبره بأنك تعرف محامي هجرة أو شيئًا من هذا القبيل، ما إن تعرفه بنا حتى أتولى أنا الأمر».

كنت أعرف بماذا كان غاري يفكر، لم يكن يقول إنه يستطيع مساعدة رسول في الحصول على تأشيرة، يريد تجنيده كعميل، أخبرته أني بحاجة لبعض الوقت لأفكر في الأمر.

حضر ضابط من المخابرات البريطانية اجتماعنا التالي، رجل حازم، رسمي للغاية اسمه تيد سميث، كان تواقًا لأن يحصل مني على أكبر قدر من المعلومات يمكنه الحصول عليها، أحضر قائمة بأسماء وصور لمن يشتبه في أنهم عملاء إيرانيين، صدمت حين وجدت من ضمنهم محب خان، والد سمية، وصديقه، فلاح، صاحب مستودع الآلات الصناعية حيث اصطحبت هوشنك والعميلين الآخرين، تعرفت على أكبر عدد ممكن من الوجوه والأسماء، محددًا من يعملون لحساب الحرس الثوري وشاعرًا بالتزام أقوى لإخراج الأبرياء، أمثال محب خان، يبدو أن فلاح كان متورطًا أكثر مما اعتقدت، فقد أخبرني سميث أن شركته كانت مجرد واجهة.

كان ربط رسول بوكالة المخابرات المركزية مجازفة عظيمة، فقد أعرِّض فرصتي في إرسال أسرتي إلى أميركا - وربما حياتي أيضًا- للخطر، لكن المجازفة باتت نمط حياة بالنسبة لي، في أحد الأيام وكانت سمية وأميد خارج المنزل، دعوت رسول إلى شقتي، كان مفاجئًا بالنسبة لي أن يثار الموضوع بشكل طبيعي، علق رسول على صورة لسمية وهي تحتضن أميد وأخبرته أن زوجتي تحلم بإنهاء دراستها في أميركا، «تريد أن تصبح طبيبة أطفال، وتفكر في الالتحاق بجامعة هارفارد أو ستانفورد»، قلت مرتجلًا هذه العبارة في لحظتها، «في الواقع، لم تكن سمية متأكدة بعد من التخصص الذي تريد دراسته، لكنها إذا

حصلت على قبول في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس،'فسوف يكون ذلك ممتازًا، لقد سبق وعشت في لوس أنجلوس وفي هذه الجامعة واحد من أفضل برامج دراسة الطب في البلد».

نظر رسول إلى الأفق البعيد، «أحب الذهاب إلى أميركا»، ثم نظر في عينيَّ، «سبق أن قلت لك، إنه حلمي، رضا»، «لم لا تذهب إذن»؟ «هل تمزح، رضا! أحتاج إلى تأشيرة»، هززت كتفي مستهجنًا، «لم لا تتقدم بطلب تأشيرة»؟ «لو كان الحصول على تأشيرة بهذه السهولة، رضا، لوجدت أن نصف سكان الأرض قد ذهبوا إلى هناك الآن»، «إذا كنت جادًّا بهذا الشأن، أنا متأكد أنك ستجد طريقًا، الناس يسافرون إلى الولايات المتحدة كل يوم، لا بد أن تتمكن من الحصول على تأشيرة من نوع ما... انتظر!» مشيت صوب طاولة الطعام حيث تكومت صحف ومجلات، رحت أبحث بينها، «أرتني سمية شيئًا منذ يومين، دعني أرى إن كنت أستطيع العثور على ذلك الإعلان، كان في واحدة من هذه الصحف»، بدأت يدي ترتجف وأنا أواصل البحث، فقد كنت أعرف بالضبط مكان ذلك الإعلان، «ها هو»، قلت في النهاية، وأنا أسحب صحيفة إيرانية، كان غاري قد عالج إحدى الصفحات بشكل متقن كي أريها لرسول، «محامي هجرة للإيرانيين»، قرأت، «إن كنت بحاجة إلى تأشيرة هجرة إلى أميركا، يمكننا المساعدة، اتصل بغاري سوليفان...»».

اقترب رسول لمشاهدة الإعلان، «بيني وبينك، لا أمانع في تجربته»، «ربما تمكن من الحصول على تأشيرة لك»، قلت بلا مبالاة.

«ماذا بشأنك؟ هل تفكر في الذهاب إلى هذا الرجل للحصول على واحدة أيضًا»؟

سبق أن أعددت نفسي لمثل هذا السؤال، «سوف نفعل إذا تم قبول سمية في جامعة في الولايات المتحدة، المؤكد أنها تريد إنهاء دراستها، أما أنا فيتعين عليَّ سؤال رحيم، فهو ما زال قائدي، ويتوقع مني العودة بعد أن أنهي عملي هنا، إذا طلب مني العودة، فسوف أرتب لسمية مسألة الذهاب إلى أميركا وحدها».

هز رسول رأسه، «لن تكون بحاجة إلى سؤال رحيم»، «ماذا تعني»؟ «لم يعد رحيم في قاعدتنا، أصيب بأزمة قلبية، استقال وانتقل إلى كرمان مع أسرته».

تنهدت، لم يكن رحيم كبيرًا في السن، لكنه كان بدينًا ويدخن بشراهة، أخبرني رسول بأن رحيمًا كان يعاني من مشاكل في القلب منذ زمن بعيد، «يجب أن تأتي إلى هذا المحامي معي»، قال رسول، «اتصل به ورتب موعدًا، سنذهب سوية».

لم أستعد لذلك، ومع أني وافقت أن أفعل كما اقترح رسول، كنت متوجسًا من أنه يتلاعب بي، بالرغم من أن محادثتي مع رسول سارت على أكمل وجه، لكن جمعه بغاري يمكن أن يتحول إلى خطأ فادح.

الفصل
29

أخيرًا تحررت؟

حددنا موعدًا مع (غاري سوليفان) في الأسبوع المقبل، حدد غاري خريطة الطريق واستعرض التفاصيل المتعلقة بالمراقبين والإشارات، إذا كان هناك أي دليل على وجود من يتبعنا، تلغى العملية ولن يظهر غاري، معتذرًا بأن مبنى المكتب القانوني تعاد صيانته، أبلغت رسولًا بأن السيد سوليفان رتب لمقابلتنا في (نزل الأسد الأحمر)، وهو مطعم يوحي بالألفة، إضاءته خافتة قرب قصر سانت جيمس.

ازداد قلقي مع اقتراب موعد اللقاء، اتصلت بغاري لمعرفة إمكانية مقابلته مرة أخرى قبل الاجتماع برسول، لم يكن الأمر أنني أريد التدرب على الأشياء أو مراجعة الخطة؛ فذلك الأمر كان واضحًا للغاية، أردت استيضاح وضعي مع الوكالة، حقيقة أن هذه المهمة الأخيرة يمكن أن تكون الأخطر جعلتني قلقًا بغض النظر عن عدد المرات التي راجعتها في رأسي، كان في وسعي أن أقول لغاري بأني لا أستطيع مساعدته في تجنيد رسول؛ ففي حياتي ما يكفيني من التوتر، لكن الشيء نفسه الذي دفعني لاتخاذ هذا المسار الخطر -في المقام الأول- ما زال يجبرني على تعريض كل شيء للخطر، اعتقدت أن رسول سيخدم كبديل لي، يراقب أنشطة الحرس الثوري من الآن فصاعدًا، ويقدم معلومات لوكالة المخابرات المركزية قد تقود في النهاية لتحرير إيران، وتكون جائزته في النهاية تأشيرة إلى أرض الأحلام.

تفهم غاري أسباب قلقي ووافق أن يقابلني مساء ذلك اليوم في المنزل الآمن، «أعلم أن أوراقنا قد لا تكون جاهزة بعد»، قلت حين جلسنا، «لكن من المهم جدًّا بالنسبة لنا أن نتفق على أنه إذا توصلت إلى تفاهم مع رسول، لا يمكنني مواصلة العمل مع الوكالة بعد ذلك، لسببين...»، توقفت لحظة، «أولًا، من الممكن أن ينقلب عليكم رسول ويخبر أميري والحرس

بأن اتصالي معكم كان من خلالي، ثانيًا، لا أريد- لا أستطيع تحت أي ظرف- مواصلة معرفتي أو اتصالي به إذا انضم إلى الوكالة، سيكون الأمر مرهقًا ومنذرًا بالخطر لكلينا، نظرًا لأننا في الحرس الثوري، فهل ثمة طريقة للتعجيل بإنهاء أوراقنا»؟

«في الواقع»، قال غاري، «قبل أن أغادر المكتب اليوم، تلقيت مكالمة من القنصلية الأميركية، أوراقكم جاهزة ولي، وأنت حر في أن تذهب، أليس هذا مذهلًا»؟

كان يمكن أن تكون كذلك، لكني لم أستطع التخلص من الشعور بأن هذه (المصادفة) هي نوع من الخيانة من جانب الوكالة، ألا يمكن أن تكون تلك الأوراق جاهزة منذ زمن ولم يخبروني لأنهم أرادوا مني اجتذاب رسول؟

«لا تبدو سعيدًا بشأنها، ولي، هل كل شيء على ما يرام»؟ «آه، بالطبع، أنا فقط قلق بشأن المستقبل».

ربت غاري على كتفي، «لقد احتطنا لكل التفاصيل، افعل فقط ما كنت تفعله كل تلك السنين، لقد قمت بعمل عظيم ولي، وإذا ساءت الأمور فسوف نغطيك».

بعد مغادرتي البيت الآمن، وقبل الوصول إلى مترو الأنفاق، مشيت بمحاذاة نهر التايمز، كانت الأضواء الملونة من المراكب، والسفن، والعبارات التي يعج بها النهر تتلألأ راقصة على الماء، وتعكس صورة لا تنسى ليلة مفعمة بالحيوية في لندن، اتكأت إلى جدار، أشعلت سيجارة، ونظرت إلى النهر، فكرت كم كنت قريبًا من الحرية، قريب بحيث أستطيع الشعور بها، مثلها مثل نسيم نهر التايمز الذي يرطب وجهي، فكرت، ستكون سمية في غاية السعادة حين أخبرها بأن كل شيء قد انتهى، تملكني شعور جميل لم أشعر مثله منذ زمن بعيد، «وانتهى كل شيء»، قلت للمياه، «انتهى كل شيء».

صبيحة اليوم التالي، نهضت باكرًا، قبل أن تغادر سمية وأميد إلى المدرسة، أخبرت زوجتي أني سأراجع هارييت جونسون، محامية الهجرة، لمعرفة ما إن كان لديها أي أخبار لنا، «وقد أذهب إلى مكتبها اليوم»، قلت.

«يجب أن تذهب، لماذا استغرق الأمر كل هذا الوقت؟ قالت لنا من ستة أشهر إلى سنة، لقد مضى أكثر من سنة الآن، قل لها إننا بحاجة إلى جواب»، «قلت لها هذا في المرة السابقة، وقالت إنها مسألة وقت الآن، آمل أن يكون لديها شيء لنا اليوم».

حين غادرت سمية مع ابننا، تهيأت لما قد يكون أخطر يوم في حياتي إذا انتهى بخير، بالرغم من أن وكالة المخابرات المركزية تغطيني، فما زال هناك الكثير من الخطر، فقد يكون فخًا خطط له رسول لاغتيالنا أنا وغاري في المطعم، كل شيء ممكنًا.

حين لبست بذلتي، شعرت بألم حاد في ظهري، كنت في الرابعة والثلاثين، لكن أعباء حياتي حنت ظهري مثل رجل عجوز، «ما الذي فعلته، رضا»؟ سألت صورتي في المرآة، مفكرًا بأن الحرية والحياة نفسها قد تنتزع مني في الساعة الأخيرة، شعرت كأن كرة حشرت في حلقي وانهمرت الدموع من عينيَّ، لماذا لا تكون الأمور أبسط؟ لماذا يتعين عليَّ أن أعاني في كل خطوة من هذه التجربة؟

بحثت عن شيء يدعمني، اتجهت صوب الخزانة حيث أحتفظ ببعض كتبي وأوراقي القديمة، وبحثت وسط صفحات كتاب عن صورة ناصر مخبأة داخل رسالة رويا، الصورة بهت لونها، والرسالة تمزقت عند موضع طيها ولا يمكن قراءتها، لكني أحفظ كل حرف فيها، أستطيع رؤية ناصر، تحت طبقات الصورة التي بدأت تتقشر، ما زال ينظر إليَّ.

على مدى سنوات طويلة، حفزتني هاتان القطعتان الورقيتان على المضي قدمًا، لم أكن متأكدًا من أن تلك القوة مازالت هناك، كانت قناعاتي تتلاشى، مثل حروف رسالة رويا الممزقة وصورة ناصر الباهتة، ومع ذلك، تناولت معطفي وغادرت المنزل، جميع الإشارات وضحت، المراقبون في أماكنهم، يبدو أن أحدًا لم يتبعنا أنا ورسول، دخلنا المطعم، ورأيت غاري جالسًا إلى طاولة، «اللعنة! كان يجب أن أسأله عن شكله، أو ماذا يرتدي»، هززت رأسي، مدركًا أنني لم أناقش مع غاري كيف سنتعرف عليه في المطعم- وهو أمر يخلو من الذكاء بالنسبة لموظف في وكالة مخابرات وجاسوس.

ألقى غاري نظرة نحونا ثم عاد للنظر في ورقة على الطاولة، أشحت بوجهي بعيدًا، «هل يمكن أن يكون هو ذلك الشخص»؟ قال رسول، مشيرًا نحو غاري، «لديه مجموعة من

الأوراق»، «أين»؟ سألت، أشار رسول مجددًا، كان مطعمًا صغيرًا، لكن الحركة فيه ناشطة بما يسمح لي بأن أتظاهر، «أوه، ذلك الرجل؟ ربما، هل نذهب ونسأله»؟

أوقف رسول نادلا، «اعذرني، نحن هنا لمقابلة شخص ما، أعتقد أنه ذلك الرجل، هل يمكنك أن تسال الرجل الجالس هناك إذا كان ينتظر أحدًا ما»؟

ذهب النادل لتنفيذ ما طلبه رسول، في الأثناء، واصل رسول دراسة غاري، «يبدو الرجل كجندي أكثر مما هو محام، إذا كان هو ذلك الرجل».

الواقع أن غاري جندي سابق، وكتفاه العريضان، وبنيته البدنية، وبالطبع قصة شعره القصيرة تشهد على ذلك، «لكن أيها الرجل الضخم، تستطيع طرحه أرضًا خلال ثانية واحدة إذا حاول العبث معنا»، قلت ضاحكًا.

في تلك اللحظة نهض غاري وجاء ناحيتنا، «أشكركم جزيل الشكر لموافقتكم على مقابلتي هنا»، قال مادًّا يده، «أنا غارس سوليفان، وأنت...؟»، مددت يدي أولًا، «أنا رضا كاهليلي».

«سعيد بمقابلتك، رضا، وأنت يجب أن تكون...؟ آسف، لا أعرف اسمك»، «أنا رسول، يمكنك أن تناديني روسل».

بعد أن جلسنا حول الطاولة، أحس غاري بتوتري ودفع كوب ماء حين انحنى لالتقاط حقيبته، الوقت الذي استغرقه تنظيف الماء المسكوب أتاح لي تمالك نفسي.

انتقل غاري بعدها لبحث الغرض من هذا الاجتماع، «التأشيرة السياحية ممكنة إذا كان هناك من تعرفه في الولايات المتحدة وقدم لك دعوة وشهادة دعم مادي، يمكن محاولة هذه الطريقة إذا أردت الإقامة مدة قصيرة، إذا كان ثمة شركة تكفلك في الولايات المتحدة، قد تكون التأشيرة (أتش1) خيارًا آخر، تأشيرة طالب، إذا تقدمت بطلب انتساب لإحدى الجامعات، هي طريقة أيضًا... أو تأشيرة رجل أعمال...» واصل غاري الحديث عن الإمكانيات الأخرى.

خشـيت أن يذكـر اللجوء السياسـي، فهـذا بمثابة خط أحمر بالنسـبة لنـا جميعًا، لكنه كان أذكى من ذلك، «لماذا قد أحتاج لمحام لو بعث أحد أفراد أسرتي دعوة لي»؟ قال رسول بشكل عرضي، «لو حصلت على قبول في جامعة، أو كفلتني إحدى الشركات، أستطيع التقدم بطلب التأشـيرة بنفسـي»، «أنت محق، لكن لو كان الأمر بهذه السـهولة، لما كان هنـاك صف طويل أمام باب القنصلية وحشـد ممن رفض طلبهم وهم يغادرونها وقد خابت آمالهم، حتى بالنسبة لمن يتلقون دعوة أو كفالة، فقد لا يحصلون على إذن لدخول الولايات المتحدة، كما أن الجميع ليسـوا محظوظين بوجود أقارب لهم هناك يهيئون السـبل لهم للمجيء، هنا يأتي دوري»، «لكـن مـا هـي فرص الحصول على تأشـيرة بالنسـبة لشـخص مثلي ليس له أحد في الولايات المتحدة»؟ سـأل رسـول، «فعلت هذا كثيرًا، روسـل، عشرة من أصل عشرة يحصلون على تأشيرة»، تمهل غاري ثم أضـاف، «بالطبع، للمسألة علاقة بالنقود»، «ما هو المبلغ الذي نتحدث عنه»؟

«مـا أود فعلـه هو...»، نظر غاري إلى سـاعته، «لدي موعد آخر قريبًا في الجهة الأخرى من لندن، لكن ما أود فعله هو تحديد موعد آخر معكما لمراجعة كل شيء، أنا بحاجة لبعض المعلومات منكما ودراسة خياراتكما»، ثم نظر إليَّ، «رضا، هل أنت مهتم أيضًا بالانتقال إلى أميركا»؟

«زوجتي مهتمة، هي في المدرسة الآن، لكنها ترى أن إكمال دراستها في أميركا سيكون مثاليًّا، لسـوء الحظ، فإن جميع أفراد أسـرتها يعيشـون في أوروبا، سيكون من الصعب عليها الابتعاد عنهم، لقد ناقشنا هذا الموضوع على عجل، لكني سأتحدث إليها مرة أخرى لمعرفة ما إذا كانت تريد حقًّا العيش في أميركا، وسوف أرجع إليك».

اسـتأذن غـاري منا لإجـراء مكالمة هاتفية، مبلغًا (زبونه المقبـل) أنه قد يتأخر قليلًا، كان ذلك جزء من الخطة، كي أعرفه على رد فعل رسول، إذا بقي مترددًا، فإن عليَّ أن أقنعه بطلب موعد آخر مع غاري، أما إذا كان مسـتعدًّا للقيام بذلك، فتكون مهمتي أسـهل، لكن في الحالتين كان غاري بحاجة لإشارة مني للقيام بدوره.

«أعجبني هذا الرجل، أنا أثق به، سأمضي في هذا الأمر معه»، قال رسول، «أيًّا كان ما تفعله -أيها الضخم- لا تدفع له مقدمًا، يبدو أهلًا للثقة، لكن يجب عليك أن تتأكد أنه قادر على استخراج تأشيرة لك»، ضحك قائلًا: «ا تقلق، رضا، أنا رجل أعمال وأعرف القواعد».

عاد غاري، مددت يدي إلى جيبي لإخراج قلم، لاحظ غاري الإشارة التي كنا قد اتفقنا عليها.

«حسنًا، أين كنا»؟ أخذ غاري رشفة من قهوته، «بالنسبة للرسوم، نعم، لن أتقاضى منكم أي أتعاب مقابل هذا الاجتماع، وكذلك بالنسبة للاجتماع التالي، إذا قررتم المضي قدمًا، فإن رسوم استشارتي هي مئة وخمسون جنيهًا، لكن نظرًا لأن المكتب قد لا يكون جاهزًا حتى ذلك الحين، وأعلم أنه من غير المناسب الاجتماع بكم في مطعم، فلن أتقاضى أي أتعاب أيضًا، بعد ذلك، إذا طلبتم مني مواصلة الطلب فسوف أضيف هذا الرسم للتكلفة الكلية».

«هذا عدل»، صرحت قائلًا، «نعم، أعتقد أن هذا جيد»، قال رسول، «أريد أن استمر ومعرفة ما إذا كان في استطاعتي الحصول على تأشيرة».

ناولنا غاري بطاقة عمله، وسلمه رسول بطاقته، «سأتصل بك لتحديد شيء ما في غضون أسبوع وأخبرك عن الوثائق اللازمة لتجلبها معك»، قال غاري مخاطبًا رسول، ثم التفت إليَّ، «ينبغي أن تكلم زوجتك وتتصل بي، رضا».

بدا رسول راضيًا، مع ذلك، شيء ما في الأمر ضايقني، إذا كان يؤيد حقيقة أن يهاجر إلى أميركا، فقد كان بوسعه العثور على محامي هجرة في لندن في أي وقت خلال السنوات التي عاشها في إنجلترا، حين أصبحنا وحدنا، استبد بي الفضول فسألته لماذا لم يحاول القيام بذلك قبل الآن.

أصبحت تعابير وجهه كئيبة، «لقد فعلت، كان لي صديقة...» توقف قليلًا، «كانت ليز فتاة بريطانية- أميركية ولا تحتاج إلى تأشيرة، غادرت إلى الولايات المتحدة وطلبت مني الذهاب معها»، توقف باحثًا عن علبة سجائره، أشعل واحدة قبل أن يواصل حديثه، «استشرت محاميًا قال لي إن الأمر سهل للغاية، إذا تزوجت صديقتي أو خطبتها، فلن أحتاج حتى

لمحام، وأستطيع الذهاب إلى أميركا في غضون بضعة أشهر، ما عليك إلا أن تتقدم بطلب عبر القنصلية الأميركية بصفتك زوجًا لمواطنة أو بموجب تأشيرة خطبة»، «ماذا حدث»؟

«اتصلت بليز وأبلغتها الأخبار السارة»، سحب نفسًا من سيجارته، ونظر إلى الأرض، «قالت إنها آسفة وتعتقد أننا يجب ألا نشاهد بعضنا بعد الآن»، ثم سحق سيجارته بحذائه، شعرت بفيض من التعاطف معه، «أنا آسف أيها الضخم، آسف حقًّا».

افترقنا ووجدت نفسي أرجو له أن ينجح في مسعاه، وأن يقبل عرض وكالة المخابرات المركزية، وأن يقوم بعمل جيد معهم لبضع سنين، وأن يجد مكانًا آمنًا على الشواطئ الأميركية.

في تلك الأثناء، كان جواز انتقالي من مرحلة إلى أخرى قد اكتمل تقريبًا، كانت سمية في غاية السعادة حين أخبرتها أننا في طريقنا للخروج، «رضا، لا أستطيع أن أصدق هذا، أنا سعيدة للغاية!» قالت وهي تعانقني بقوة، إلا أنني قبل أن أسلم نفسي لذراعيها، انسحبت مبتعدة، «ما الخطب»؟ قلت متفاجئًا، جلست على الأريكة ورفعت ساقيها مقابل صدرها، التغير المفاجئ في مزاجها خلق لدي مشاعر مضطربة.

«أنا غير متأكدة من هذا الأمر»، قضمت أظفارها وصمتت برهة قبل أن تواصل، «أنت تعلم كم انتظرتك أن تأتي إلى هنا، بعيدًا عن حياتك الصغيرة الغامضة»، نظرت إليَّ نظرة كأنها تقول بأني لم أخبرها كل شيء، «لكن ها قد مر أكثر من عام منذ أن عدت إلى هنا، ولا تزال الشخص نفسه الذي كنته في إيران، أنت ملتصق بهذه الثورة، لا أدري يا رضا، ما الذي تراه فيها ولا أستطيع أنا أن أراه».

كان واضحًا أنها تحارب انفعالاتها وهي تتكلم، أردت مساعدتها بهذا أيضًا، لكني أعرف أني بحاجة لتركها تقول ما هي بحاجة لأن تقوله، «لا أستطيع أن آمل في الكثير لمجرد أننا سننتقل إلى مكان آخر»، واصلت قائلة: «ماذا إذا كان لديك المزيد من الالتزامات ومزيد من العمل تنجزه لحساب الحرس حين نصل إلى هناك؟ لم أعد أعرف ما إذا كان الذهاب إلى أميركا فكرة جيدة»، قالت وخفضت رأسها.

جلست قربها ولففت ذراعي حولها، «أعلم، أعلم أنني لم أكن الزوج الذي تستحقينه، أعلم أني أهملتك وأهملت ابننا، أريدك أن تعطيني فرصة أخرى، سنبدأ حلم حياتنا، سأعوضك عن كل السنين التي لم أكن فيها موجودًا لك ولأميد، عملي مع الحرس انتهى، تمامًا، أعدك».

نظرت سمية إليَّ ومسحت دموعها بنهاية كمها، «وكيف أعرف أن هذا ليس مجرد كلام، رضا، لقد انتظرتك طويلًا حتى تتغير، أنا محبطة للغاية»، «أعرف، وأعرف أنني لا أستطيع قول أي شيء لإقناعك بأني أعني كل كلمة قلتها هذه المرة، لكني أعدك من كل قلبي».

لا أعلم إن كانت سمية صدقتني أم أنها قررت أن تسايرني بسبب طبيعتها المحبة لدرجة لا توصف، لكنها بدأت التخطيط لرحلتنا وإعداد أميد للحياة الجديدة الرائعة التي نحن على وشك أن نعيشها.

بارتياب عظيم اتصلت بأميري لإبلاغه تركي الحرس الثوري، حتى في أثناء انتظاري له للرد على الهاتف، كنت أتساءل إن كان سيحاول إقناعي بالبقاء أو القيام بشيء أكثر إقناعًا، إلا أنه كما تبين لي، لم تكن مخاوفي في محلها، على الأقل في هذه الحالة، قال أميري، إنه طالما أن رحيم لم يعد قائدي وليس لدي ارتباطات ملزمة في لندن، فإن ترك الحرس أمر منوط بي، «حينما تعود، اتصل بي» وأضاف: «إن كان ثمة أمر يمكنك القيام به، فسوف أعلمك».

السهولة التي سمح لي فيها بالمغادرة أذهلتني، لم أقل له، بالطبع أني ذاهب إلى الولايات المتحدة، ولم أخبر أي شخص آخر، حتى إني طلبت من سمية أن تخبر والديها أننا ذاهبون في رحلة إلى أوروبا، اتفقنا أن نخبر والديها عن خطتنا الحقيقية بعد أن نستقر في الولايات المتحدة.

قابلنا غاري في القنصلية الأميركية، قدمته لسمية على أنه مساعد هارييت جونسون، لم نقف في صف الانتظار بل دخلنا من باب القنصلية الخاص وقابلنا القنصل العام نفسه، «لماذا يعاملوننا هذه المعاملة الخاصة جدًّا»؟ سألت سمية بنغمة غير مصدقة في صوتها،

«لقد دفعت لهارييت جونسون الكثير من النقود»، همست بالفارسية، «ويستحسن بهم أن يعاملوننا بطريقة جيدة»، وقعنا الأوراق، وتمنى لنا غاري والقنصل العام حظًّا طيبًا، كنا تقريبًا في طريقنا إلى الولايات المتحدة.

أردت أن أودع رسول، فقد أصبح صديقًا حقيقيًّا ولا أستطيع مغادرة إنجلترا من دون الاتصال به وإخباره بأني مسافر، لم يتحدث لا هو ولا غاري عن الاتجاه الذي اتخذته محادثاتهما، وقررت أنه من الأفضل ألا أسأل، لم أخبره بالطبع أني ذاهب للعيش في أميركا، وقد تفاجأ حين سمع بأني سأصطحب أسرتي في رحلة حول أوروبا، «لن تأخذ زوجتي أي دروس هذا الفصل؛ لذلك قررنا السفر في أرجاء القارة طيلة ما تبقى من الصيف قبل أن تبدأ دراسة أميد في الخريف»، كذبت، «هذه خطة جيدة»، قال، «إنها كذلك، لم يتسن لي قضاء وقت كاف معهم منذ مجيئي إلى إنجلترا، خاصة ابني أميد، كنت أخشى ألا يوافق الأخ أميري على مغادرتي، لكنه لم يمانع».

لم يقل رسول أي شيء لوهلة، حين تكلم مجددًا، كان في صوته نغمة تآمرية، «رضا، لقد فعلت ما قلت أني سأفعله من أجلك، أعرف أنك رجل عائلة؛ لذلك تحدثت إلى أميري وأخبرته أنك لست الشخص المناسب لفعل ما نحاول أن نفعله هنا، آمل أن يكون هذا هو ما تريده، يجب ألا تتورط، رضا»، «أعرف ذلك، أنت مصيب، بالمناسبة كيف قلت هذا بالضبط لأميري»؟

«قلت له فقط إنك جبان!» ثم قهقه ضاحكًا، وضحكت معه، «بالمناسبة، مقابلتي مع ذلك المحامي غاري سوليفان، لم تكن سيئة، أشكرك لأنك عثرت على ذلك العنوان لأجلي، قد تكون هناك فرصة بالنسبة لي للحصول على تأشيرة، لكني أريد منك معروفًا آخر، رجاء لا تخبر أحدًا عن الأمر، فقد لا ينجح، ولا أريد أن أفقد عملي هنا».

هنأته، ووعدته بأن أحفظ سره، وهو سر ينبغي عليَّ أخذه معي إلى القبر من أجل سلامتي وسلامة أسرتي.

كان آخر اجتماع لي مع غاري في لندن قبل ليلتين من موعد طائرتنا، لدهشتي كان مع غاري قائمة، «حسنا، دعنا نراجع هذه!» أراني ورقة مع تفصيلات الرواتب السنوية، «إذا

قررت العمل في الولايات المتحدة في الوكالة، هذه هي الأرقام، في السنة الأولى ستحصل على هذا المبلغ...، في السنة الثانية هذا المبلغ...، هذه هي العلاوات للسنة الأولى، هذا الرقم...، زائد نفقات الإسكان... هذا الرقم...».

لم نناقش في السابق أيًّا من هذه الأمور، ولم أكن مستعدًّا لمناقشتها الآن، كفى، رجاء! لم أعد قادرًا على فعل هذا لسمية وأميد؛ فهما يستحقان حياة من دون أكاذيب!

حمدًا لله، أنهى غاري محاولة إقناعي، ناولني بطاقة، «هذا رقمي في الولايات المتحدة، بغض النظر عما قد تقرره، أحب أن أسمع منك، لا تتوقف عن تزويدي بأخبارك»، «سأفعل»، قلت، بالرغم من أنني في الواقع لا أريد التفكير في هذا الأمر.

وبينما كنا نستعد للمغادرة إلى الولايات المتحدة، بدأت أشعر بنسيم الحرية المنعش ينبعث عبر أعمق طبقات وجودي؛ نسيم سيزيح كل أثر لولي وللحياة التي أعرف أني لم أعد قادرًا على عيشها، كنت مستعدًا لترك ذلك النسيم يحملني طيلة الطريق إلى وطني الجديد.

الفصل 30

وطن

2001م

أخفت سمية وجهها على كتفي وهي تنفجر باكية، «أو عزيزتي، كل شيء سيكون على ما يرام»، قلت وأنا ألف ذراعي حولها، «أعلم، رضا، أنا فقط فخورة بأميد، هذه دموع الفرح»، أعلم ما كانت تتحدث عنه؛ أنا أيضًا كنت أداري دموع فرحي، كنا قد أوصلنا للتو ابننا للالتحاق بالسنة الأولى في (جامعة كاليفورنيا، بيركلي)، وأنا أعلم أنه سيتفوق هناك، فقد كانت المعايير الصارمة في الجامعة وتنوع الثقافات فيها مثالية بالنسبة له، وهو يستحق ذلك، فقد أصبح طالبًا مجدًّا وشابًا مثيرًا للإعجاب.

في تلك الأمسية الدافئة من أواسط آب، كنت أنا وسمية نتجول في أرجاء الحرم الجامعي بعد أن ودعنا ابننا، تخطيط الجامعة، والأشجار الباسقة على جانبي الطريق، والإحساس المنعش بالحياة في الأجواء ذكرتني كيف كان حي جداي حين كنت طفلًا، الذكرى التي أثارتها في داخلي كانت مزيجًا من الحلاوة والمرارة والغريب أنها طابت لي.

تذكرت اليوم الذي ودعت فيه كاظمًا وناصرًا قبل أن أغادر للالتحاق بجامعة جنوبي كاليفورنيا، تذكرت عهودنا بأن نبقى أصدقاء إلى الأبد، وأن نحمل هذا القسم إلى قبورنا، كاظم وناصر حافظا على الجزء الخاص بهما من هذا القسم، بالرغم منى أن أيًّا منا لم يكن يتصور أنهما سيرقدان في قبرهما بهذه السرعة بعد أداء هذا الوعد، من جهة أخرى، فقد خنتهما كلاهما، كم كانت ستختلف حياتي لو لم يصر والدي على ذهابي إلى الجامعة في أميركا؟

اقتحمت سمية أفكاري المتشابكة، «بيركلي مكان بهيج للغاية، ألا تعتقد أنه ينبغي علينا الانتقال إلى هنا»؟ استنشقت نفسًا عميقًا من الهواء العليل، «إنها مختلفة جدًّا عن لوس أنجلوس، إنها تذكرني بشمالي طهران حيث كان يعيش آغا جون، ألا تذكرك بذلك، أيضًا»؟

نظرت إليها بحب وأزحت بلطف خصلة من شعرها عن جبينها، هذا الشعر الذي بدأ يخطه الشيب الآن، ويزيدها جمالًا حسبما أعتقد، بالطبع، أنا خنت سمية أيضًا، نحن متزوجان منذ ما يزيد عن عشرين سنة الآن، وهي لا تعلم شيئًا عن مقدار خداعي، تمنيت أن يمنحني الله القوة كي أعترف لها وأطلب منها السماح.

«نعم، إنها تذكرني بالحي الذي كان فيه آغا جون، يقول الناس إن لوس أنجلوس تشبه طهران، لكن ينتابني هذا الإحساس أكثر هنا»، وضعت ذراعي على كتفها ونحن نواصل المشي، «لكني لست متأكدًا بالنسبة لانتقالنا إلى هنا»، أدركت أن سمية كانت تقول ذلك لأنها تريد أن تكون قريبة من أميد، لكن لوس أنجلوس أصبحت وطننا بالفعل، هناك نحن وسط مئات الآلاف من أبناء شعبنا الذين فروا من الثورة الإسلامية بحثًا عن الحرية، وهذا يمنحنا شعورًا من التقارب مع وطننا ما كنا لنحصل عليه في شمالي كاليفورنيا، بالنسبة لي، فإنه يخدم كتذكير ضروري بجميع الذين لم تسنح لهم فرصة الهرب.

بعد ذلك بمدة وجيزة، كنا في طريق العودة، وهي مسافة تستغرق خمس ساعات بالسيارة على الطريق (أي-5) من منطقة الخليج إلى لوس أنجلوس، معظمها طريق منبسط وممل.

«الطريق السريع 101 أجمل بكثير»، قالت سمية متذمرة، كنا قد تتبعنا المناظر الطبيعية الخلابة على الطريق 101 من لوس أنجلوس، وكانت سمية في كل مرة تصادف منظرًا جميلًا تجعلني أوقف السيارة -والمناظر الجميلة كثيرة هناك- لالتقاط الصور مع أميد على جانب الطريق، «لكن هذا الطريق أسرع»، قلت مبتسمًا، «نحن نوفر ثلاث ساعات على الأقل زائد خمس ساعات من أجل صورك»، عبست في وجهي وقررت أن تأخذ غفوة طويلة؛ لأنها لا تريد الاستماع لنكاتي غير المضحكة، وحيث إنها نائمة، كنت بحاجة لشيء يبقيني مستيقظًا، قررت تشغيل قرص أغنية فارسية:

وطن الطائر الجريح الملوث جناحه بالدم

وطن الزهرة المتفتحة المغطاة بالدم

وطن سهول الشهداء والنور

وطن الدم من الرأس حتى إصبع القدم

وطن الأغنية الحبيسة

وطن القصيدة المخربة

كلمات داريوش فعلت أكثر من إبقائي متنبهًا، بل أرسلتني في رحلة نحو ماضٍ، ذكريات لم تفعل إحدى عشرة سنة في أميركا شيئًا لمحوها، وطني، كان حاضرًا على الدوام في عقلي، وبقي كما ذكرت كلمات هذه الأغنية.

سماع تلك الكلمات والتفكير بداريوش آخر أوجع قلبي، قبل حوالي عامين ونصف، اغتالت الحكومة الإسلامية الإيرانية مؤسس وزعيم حزب الأمة الإيراني، داريوش فروهر وزوجته بارفانا، دخل المعتدون بيته، وربطوا الرجل وزوجته إلى كرسيين، ووجهوهما ناحية مكة، وطعنوهما حتى الموت، ضمن ما صار يعرف (بسلسلة اغتيال المنشقين)، حيث صعَّد عملاء وزارة المخابرات والأمن الإيرانية من موجة القتل، فاغتالوا العشرات من المثقفين، والصحفيين، والشعراء، والكتاب، والناشطين السياسيين.

في ذلك الحين كان محمد خاتمي رئيسًا لإيران، خاض الانتخابات معتمدًا على برنامج إصلاحي، وحصل على 70 بالمئة من الأصوات في إقبال كبير على الانتخابات، تمكن من زيادة آمال الشباب والكبار في قدرته على إحداث تغيير في السياسات المحلية والدولية بعد ثماني سنوات من حكم رافسنجاني، الذي لم يف بالوعد الذي قطعه لإدارة بوش بتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة؛ بل عمل مع متطرفين آخرين لزيادة قمع المواطنين الإيرانيين، وزاد من عمليات الاغتيال والأنشطة الإرهابية في الخارج، كان خاتمي يحاول إنجاز الإصلاحات التي وعد بها، لكن معارضته كانت كاسحة، قادها المرشد العام، علي خامنئي، وآية الله أحمد جنتي، رئيس مجلس صيانة الدستور، وآية الله مصباح يازدي، مدير مدرسة حقاني، المعهد الديني الشيعي المتطرف في قم، استخدموا الحرس الثوري لفرض إرادتهم، وخنقوا أي محاولة للإصلاح.

حين أغلق النظام صحيفة (سلام)، المؤيدة للإصلاح، نظم الطلاب تظاهرة سلمية، لكن في تلك الليلة اجتاحت الوحدات شبه العسكرية التابعة للنظام جامعة طهران وهاجمت الطلاب في مهاجعهم، مخلفة قتلى وجرحي، في اليوم التالي تظاهر الآلاف من الطلاب في

شـوارع طهران مطالبين بالإصلاح، انتشـرت الاعتراضات في أنحاء إيران كافة، وكانت من الشـدة بحيـث بـدأ المقيمـون منا خارج البلاد يعتقدون أننا قد نشـهد نهايـة عقودًا من حكم الملالـي الـذي تميـز بالبلطجة وحمامات الدم بـلا رحمة، من المؤكد أنه حين تشـاهد باقي دول العالم ما يجري، فسوف تهرع إلى دعم أمة سرقت منها هويتها قبل عقدين من الزمن، لكـن الحرس الثـوري والباسـيج سـحقوا المظاهـرات بمنتهى الوحشـية، مرة أخـرى ضحى الكثيرون بحياتهم دفاعًا عما يؤمنون به، ومرة أخرى أدار العالم وجهه الناحية الأخرى، كل مـا بقـي هـو الأمل في أن تتحرر إيـران مجددًا ذات يوم، وهو أمل تـم التعبير عنه في الأبيات التالية من (وطن) أبيات أغنيها الآن بصوت عال:

اليوم هو يوم الهتاف للعدالة

غدًا هو اليوم الموعود

خبرهم أني سأغني مجددًا

خبرهم أني سأغني مع رفاقي كلهم

لحن الحرية

خبرهم؛ خبرهم أني أغني في الدم

سأغني مجددًا من كل قلبي

سأغني آخر أغنيات الخلاص

خبر ذلك لإيران، خبر ذلك لإيران...

تململت سمية في مقعدها، فتحت عينيها، وألقت نظرة على الطريق، وعادت إلى النوم، مسـحت وجهي وخفضت صوت الموسـيقى، يبدو أنها غير مرتاحة في جلسـتها فوضعت يدي تحت رقبتها لتعديلها، تنهدت واستقرت في وضع جديد.

أبعدت عينـاي عن الطريق للحظة لتأملها، حياتنـا الآن أبسط بكثير مما كانت خلال معظم حياتي بصفتي العميل (ولي) أو كعضو في الحرس الثوري، فقد انتهت خيبات الأمل والخصام التي طبعت حياتي في ذلك الحين، لم نعد نتجادل أنا وسـمية الآن، ولا أشـعر وكأنني أتخلى عنها في كل مرة أذهب إلى العمل، كانت سعيدة لأن العمل الذي أقوم به مع شركة برمجيات محلية صغيرة لا علاقة له ألبتة بالحرس الثوري أو (الباسداران الملتحين القذرين).

الأهم من كل ذلك لم أعد بحاجة للكذب عليها، كذبتي الأخيرة جاءت بعد مدة قصيرة من استقرارنا في لوس أنجلوس، في أيلول 1990م، طرت إلى واشنطن لرؤية غاري، كان شعوري مختلفًا حين رأيته في الولايات المتحدة، في حين كان يخيم على مقابلاتي معه في لندن الخطر، كان هذا أشبه بلم الشمل مع صديق قديم، تحدثنا عن حياتنا الجديدة وما يحدث في العالم، كان العراق قد غزا للتو الكويت، ووصف غاري صدامًا بأنه شخص جسور ذو عقلية تدميرية، «لقد تتبعنا خطوات قواته مدة طويلة»، قال غاري، «كان واضحًا أنه ينوى شيئًا ما، بعد أن حشد أعدادًا ضخمة من قواته على الحدود الكويتية»، «هذا الرجل مخبول»، قلت بطريقة تمتلئ حقدًا، «لقد دمر حياة أناس كثيرين حين هاجم إيران، إذا كانت الولايات المتحدة تعرف أنه يحشد القوات لماذا لم تبعث بإنذار له»؟ هز غاري كتفيه مستهجنًا، «ربما فسر صمتنا على أنه ضوء أخضر».

مضامين هذا القول أحرقتني، إلا أنني أمسكت لساني، هل كان من المناسب سياسيًّا بالنسبة للولايات المتحدة أن تترك ذلك الرجل ليغزو دولة مجاورة؟ هل فعلوا ذلك للحصول على ذريعة للقيام بعمل عسكري؟ لقد أصبح صدام وجيشه أقوياء جدًّا بمساعدة الغرب، ربما شعرت أميركا الآن بأن الوقت قد حان لتقويض تلك القوة العسكرية وإعطاء رسالة لجميع الأنظمة العربية أنهم سيسقطون من دون دعم الولايات المتحدة، عانى الملايين من الناس خلال الحرب الإيرانية - العراقية، فهل كانت تلك أيضًا مناورة سياسية من جانب الولايات المتحدة؟

«ما رأيك أن نخرج للعشاء معًا غدًا»؟ قال غاري مغيرًا الموضوع، مع بقاء الأفكار تتفاعل في عقلي، «يمكنني اصطحابك في جولة بعدها».

في اليوم التالي، تجولنا بالسيارة عبر واشنطن وصولًا إلى فرجينيا، أراني غاري خلالها العديد من الضواحي، ثم سألني، «ما رأيك»؟

الواقع أنه كان من الصعب عدم التفكير في شيء آخر عدا العرض الذي قدمه غاري خلال العشاء، من دون مقدمات، طلب مني غاري الانضمام إلى الوكالة للمساعدة في عمليات سرية حول العالم، وإجراء اتصالات مع إيرانيين ذوي أهمية يعملون لصالح

الحكومة الإسلامية، وكان يريني تلك المنازل الضخمة في تلك الضواحي المتميزة من واشنطن وفرجينيا كجزء من الصفقة، أخبرني أن كل ما عليَّ فعله هو جلب أسرتي إلى الشرق حيث يمكننا العيش في واحد من هذه المنازل الرائعة، وتسجيل أميد في واحدة من أفضل المدارس الخاصة في أميركا.

من المؤكد أن هذا سيكون بمثابة ترقية لنا، لدى وصولنا، استأجرنا أنا وسمية منزلًا ريفيًّا صغيرًا وضعنا فيه الضروري من الأثاث، خططت سمية للعودة إلى الجامعة، لكنها بدأت تتطوع في مدرسة أميد، وأصبحت من المعالم الثابتة هناك، أخبرتني أن البقاء وسط الأطفال يجلب لها مستويات من الفرح والصفاء لم تعرفها من قبل، أحببت هذا، لكن التطوع لا يوفر أي دخل، وكنت ما أزال بحاجة إلى الحصول على وظيفة، كنا نستنزف مدخراتنا (النقود التي اعتقدت سمية أني ورثتها عن والدتي)، وكان من المستحيل ألا أجد عرض غاري مغريًا.

أوقف غاري السيارة في موقف قريب، «دعنا نتجول في المكان»، نزلنا من السيارة وتمشينا، «فكر في الأمر، ولي، لا أريد جوابًا منك على الفور»، ركل كرة لإعادتها إلى مجموعة من الصبيان في مثل عمر أميد، «شكرًا سيدي»، هتف أحد الصبيان، لوح غاري للصبي ثم عاد إليَّ، «سيكون هناك تدريبًا مكثفًا، وسنكون خلفك أينما سافرت، وستكون أسرتك في أمان، وعليك أن تعترف بأن الراتب مذهل».

تزايد الإغراء بقوة، منزل فسيح في هذه الضاحية؟ وأميد يلعب مع هؤلاء الصبية المهذبين؟

«سأفكر في الأمر غاري»، كيف يمكن لأي شخص ألا يفكر في عرض كهذا؟ لكني كنت قد اتخذت قراري بالفعل وما من شيء يمكن أن يجبرني على إعادة التفكير، الحياة التي يعرضها غاري -وبقدر ما تبدو جذابة وتشكل تحسنًا في وضعنا المالي- لم تكن ما أريده، لقد وجدت السلام والطمأنينة اللذين طالما سعيت إليهما بين ذراعي زوجتي وفي ابتسامة ولدي، لا أستطيع ترك ذلك خلفي مجددًا.

تمنيت لو كان في استطاعتي فعل شيء ذا قيمة لوطني، تلك الرغبة لم تفارقني أبدًا، لكن ينبغي عليَّ أن أعترف بشيء لنفسي: كل سنواتي في التجسس لم تغير إيران نحو

الأفضل، قد تكون المعلومات التي قدمتها لأميركا مفيدة، لكنها لم تنجز ما كنت آمل به، ولم أعد قادرًا على المجازفة بحياتي أو بحياة أسرتي لهذا الهدف.

خلال إقامتي القصيرة في واشنطن العاصمة، تقابلت أنا وغاري مرتين، كان ما يزال يجند العملاء، وكنت ما أزال غير قادر على إخباره بشكل لا لبس فيه أني انتهيت من العمل مع وكالة المخابرات المركزية، لا أعلم ما الذي كان يمنعني، ربما شعوري بأن فقدان اتصالي بالوكالة يعني خسارة جزء مهم من ذاتي، ربما شعور بأني أصبحت أعتمد على كوني رضا وولي في الوقت ذاته، أو ربما شعور بأن إدارة ظهري لوكالة المخابرات المركزية ستكون الخيانة الأخيرة لوطني.

لم أخبر غاري قط أني انتهيت من العمل مع الوكالة، إلا أنه بعد مدة وجيزة من عودتي إلى لوس أنجلوس، اتصل بي وأخبرني أنه مضطر لسحب العرض، قال إن الأمور تغيرت في الوكالة، وإنهم لا يستطيعون منحي منصبًا، أعطاني حلقة اتصال في لوس أنجلوس لاستخدامها عند الحاجة، أو إذا كانت لدي أي معلومات لتمريرها لهم.

قرأت بين السطور، أن غاري كان يعرف ما يدور في خلدي، وكان يسهل الأمر عليَّ، أعطاني ما أنا بحاجة إليه من الوكالة في ذلك الحين -حلقة اتصال محلية في حال حدث شيء- وبين لي أنه لن يطلب مني أي شيء بعدها.

استمرت اتصالاتي مع وكالة المخابرات الأميركية على المستوى المحلي سنوات عدة، قابلت خلالها عددًا من العملاء المختلفين، وفي بعض الأحيان أفرادًا من مكتب التحقيقات الفدرالي لتقديم المساعدة حول أنشطة إيرانية مشبوهة داخل الولايات المتحدة، في إحدى تلك الاجتماعات طلب مني حلقة اتصالي مع الوكالة العثور على إيراني قد يشهد أن إيران طورت قنبلة نووية، بالنسبة لي، كان ذلك مؤشرًا واضح على أن إدارة الرئيس بوش الأب لم تنجح في تحقيق التقدم الذي اعتقدت أنها ستحققه مع النظام، وكان من غير المجدي بالنسبة لي أن أقول، «لقد أخبرتكم»، في النهاية، وبعد العمل بتثاقل مع عدد من حلقات الاتصال، ماتت صلتي بالوكالة وذوت بشكل طبيعي.

هـذا جعلنا أنا وسـمية وأميد نعيش حياتنـا الجديدة في أميركا، لحمايـة هويتنا غيرنا أسماءنا عند وصولنا، تقدمنا بطلب الجنسية بعد مدة وجيزة من إكمال متطلب الإقامة مدة خمس سنوات، أتذكر بكائي يوم أدينا (قسم الولاء)، للنعمة التي أسبغتها علينا أميركا ولوجع القلب الذي أرسلنا إلى هنا، من خلال ذلك القسـم، تعهدنا أن ندعم وأن ندافع عن دسـتور وقوانين الولايات المتحدة الأميركية، مرة أخرى تمنيت على البلد التي احتضنتني أن تزيد من جهودها لنشر الديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان في العالم، وخاصة في وطني الأصلي.

حين عدنا من رحلتنا إلى بيركلي، قضت سمية الكثير من الوقت في غرفة أميد تحاول تقبل حقيقـة أن ولدهـا الوحيـد بات يتولـى أموره بنفسـه، توفيـت والدتها قبل بضع سـنوات بعـد صـراع مـع سـرطان الثدي، وحاولـت إقنـاع والدها ترك لنـدن والإقامة معنـا، ظل يقول إنـه سـيفعل، لكنه كان دائمًا يجـد عذرًا كي لا يحضر، في النهاية، قررت سـمية الذهاب إلى إنجلترا لإحضاره، إلا أن هذه الرحلة لم تحدث قط.

فـي اليـوم السـابق لرحلة سـمية إلى لندن، كنـا نقوم بأعمالنـا اليومية المعتـادة، كنت أرتـدي ملابسـي للذهـاب إلى العمل، وأدارت سـمية جهاز التلفزيون، فجأة سـمعتها تصرخ، سـمعتها تصرخ باسـمي بشـكل جنوني، ركضت نحو صالة المعيشة حيث وجدتها جالسة على الأرض وجهاز التحكم في يد وقد غطت فمها بيدها الأخرى.

«ما الأمر»؟ سألتها، قلقًا مما قد يكون أزعجها إلى هذا الحد، لكن قبل أن تنطق حرفًا واحـدًا، وجدت الجواب على الشاشـة، كانت تعرض صـورة طائرة مدنية تصطدم بواحد من البرجين، «يا إلهي»، صرخت سمية، «هذا هو المبنى الثاني!»

جلسـنا مصدومين ومضطربين أمام التلفزيون لسـاعات لا نعلمها، في النهاية، تناولت سمية الهاتف لتقول لوالدها إنها لن تتمكن من زيارته في وقت قريب.

أعلم بماذا كان بن لادن يفكر حين أمر بتلك الأعمال الإرهابية على التراب الأميركي، أعتقد أنه يستطيع شل البلد بالخوف، لقد أساء تقدير التصميم الأميركي -أي شخص لديه ذرة مـن فهـم الولايـات المتحدة يعرف بأنها سـتتعافى من هذه الهجمـات- لكنه وجه ضربة

مدمـرة، أعتقـد أن هـذا حدث لأن الحكومة لم تكـن حازمة في التعامل مع هجماته السـابقة ضد المصالح والهيئات الأميركية، عدم الرد شجعه.

النمط واضح بالنسبة لي، لين الحكومة الأميركية مع بن لادن شجعه على اقتراف ذلك العمل الشـنيع، ترك حركة طالبان دون كبح مكنها من اسـتعباد شـعبها، محاولة اسـترضاء الملالي سمح لحكم البلطجة بالانتشار على نطاق أوسع، فهل وصلت الرسالة في النهاية من خلال سـقوط البرجين؟ الإسـلاميون المتطرفون لا يحترمون قيمنا الخاصة بحقوق الإنسان والديمقراطيـة، حيـن تغاضـى الغـرب، المدافـع عن تلك القيـم، عن تلك المبـادئ لأغراض سياسية غامضة، فقد ترك مواطنيه عرضة لتلك الأعمال.

لمدة وجيزة، بدا أن الجميع يفهمون ذلك، تضامن العالم كله بقوة مع أميركا، تحررت أفغانستان من مجانين طالبان، وابن لادن، والقاعدة باتوا مطاردين، اعتقدت أن قيام تلك القوى بتشكيل جبهة ضد الملالي -سادة الإرهاب في العالم- وتمكين شعب إيران، هي مسألة وقت.

لكن بدلًا من ذلك كان هناك غزو العراق وعالم منقسم مرة أخرى، بالرغم من سعادتي لسـقوط صدام حسـين، لم أشـأ رؤية عراقيين أبرياء يعانون، قلقت من ألا تقوم أميركا بكل ما ينبغي عليها القيام به لمساعدة العراق على أن يصبح بلدًا ديمقراطيًّا بالكامل، قلقت من أنها لا تفهم تمامًا خطط الملالي المعدة للعراق، على مدى عقود كان هناك تعاون وثيق بين المركزيـن الشـيعيين، قـم في إيران والنجف فـي العراق، خلال الحـرب العراقية- الإيرانية شـكلوا منظمة بدر من المتطوعين العراقيين، وسـاعدوا على تشـكيل المجلس الأعلى للثورة الإسـلامية في العراق، الذي أصبح الآن واحدًا من أقوى الأحزاب السياسـية في ذلك البلد، رجال الدين في إيران يعملون بشـكل منهجي على تهيئة المسـرح لقيام حكومة إسـلامية في العراق تكون صورة عن الحكومة القائمة في إيران.

ذهبـت أميـركا إلـى العـراق لجلـب الديمقراطية لذلـك الشـعب، لكن الطريـق الوحيد لتحقيق سـلام دائم في الشـرق الأوسط هو المسـاعدة على إقامة دولة حرة وديمقراطية في إيران، هل سأعيش لأرى ذلك اليوم؟

الفصل
31

أميد، الأمل

2005م

في النهاية منحني الله القوة لفعل ما كان يجب عليَّ فعله منذ سنوات طويلة، بالكاد بدا الأمر وكأنه نعمة في ذلك الحين، وكنت مستعدًّا لفعل أي شيء لتغيير الظروف، لكني كنت مقتنعًا أنه يبعث برسالة لي بأنه ينبغي عليَّ في النهاية أن أكون صادقًا تمامًا مع سمية.

تم تشخيص حالة زوجتي بأنها مصابة بسرطان الثدي، زوجتي منذ خمسة وعشرين عامًا، الشابة، الجميلة، كانت تصارع من أجل البقاء، خضعت لعملية لاستئصال خلايا سرطانية لا تزال قابلة للانتشار ولأربع جلسات منهكة من العلاج الكيماوي مع احتمال تعريضها للإشعاع مدة ثلاث وثلاثين يومًا، وكانت تكافح بقوة جبارة لاستعادة قوتها، مع أن الأطباء لم يكونوا واثقين في ذلك الحين إن كانوا قد استأصلوا كل شيء.

طار أميد عائدًا إلى البيت بمجرد أن سمع بما أصاب والدته، وقرر أن يؤجل الفصل الثاني من سنته الأخيرة في الجامعة للبقاء إلى جانب والدته، لم ترده سمية أن يؤجله، لكنه أصر، حتى إنه حلق شعر رأسه تضامنًا معها بعد أن أفقدها العلاج الكيماوي شعرها.

كنت أجلس بجانب سريرها كل ليلة قبل أن تستغرق في النوم، كانت ضعيفة وفي حالة رثة، وفقدت الكثير من وزنها.

«أين أميد»؟ سألت في إحدى الليالي، «إنه في غرفته عزيزتي، هل تريدين أن أناديه»؟ قبلت يدها، «هل تعلم ماذا أخبرني أميد في الليلة السابقة؟ قال بأنه فخور جدًّا لأن أمه قوية إلى هذا الحد، وقال أيضًا إن لديه خططًا للعودة إلى لوس أنجلوس بعد التخرج، كيلي ستنتقل

معه إلى هنا، يريد التقدم لها بعد أن ينهي دراسته»، ضغطت بلطف على يدها، «أليس ذلك رائعًا»؟

لم يخبرني أميد شيئًا من هذا القبيل، لكني فكرت أن من الضروري كسر التزامي بعدم الكذب على زوجتي لجلب بعض الراحة لها الآن، كانت سمية تحدق بالسقف، لكني رأيت ظل ابتسامة باهتة، «إذا تزوجا ورزقا بطفل»، قلت، «سنصبح جدين قريبًا، هل فكرت في هذا»؟ أدارت وجهها نحوي ببطء، «ستصبحين جدة؛ جدة رائعة، وشابة، وجميلة، سيكون في حياتنا أميد صغير مجددًا».

رأيت التماعة ضئيلة في عينيها نصف المغمضتين حين تمتمت باسم أميد، وتعني بالفارسية (أمل)، ثم مسحت عينيها المبتلتين، «أنا سعيدة لأننا أطلقنا عليه هذا الاسم، إنه أملي، أميدي الوحيد»، وتنهدت.

قبل أن أرسل ابني إلى والدته، قلت له أن يرفع من معنوياتها قليلًا، فقد كذبت عليها بشأن خطبته المرتقبة على صديقته المرتبط بها منذ عامين، نظر إليَّ أميد غير مصدق، «هذه ليست كذبة، أبي! كنت أريد أن أخبرك وأمي تعرف أني أخطط للتقدم لها، لكني لا أعلم إن كان الوقت مناسبًا لقول أي شيء»، ابتسمت له، «أعتقد أن الوقت مناسب تمامًا، بني، ادخل وحدثها في الأمر».

خرج أميد من غرفة سمية بعد مدة قصيرة، وتجاوزني بسرعة على أمل ألا ألحظ دموعه، لقد رأى الآن ما كنا نشاهده منذ أشهر بأن أمه تبدو وكأنها تختفي أمام ناظرينا، كان الأطباء متفائلون، لكن ماذا لو كانوا على خطأ؟ ماذا لو نفد الوقت مني سريعًا دون أن أقول لها ما تستحق أن تعرفه»؟

قررت أن أخبرها في تلك اللحظة، سأفعلها الآن، بتردد، فتحت الباب، «لم لا تدخل»؟ قالت سمية بصوت واهن حين رأتني مترددًا في الدخول إلى الغرفة، «ما زلت مستيقظة، هل يمكنك إحضار كوب من الحليب لي؟ أنا جائعة قليلًا».

فعلت ذلك بسرور، لم تكن قد لمست أي طعام ذلك اليوم، كوب من الحليب قد يزودها ببعض القوة، رتبت وسائدها، وجلست هي في سريرها ترتشف طعامها، «فجأة أُحس أنني

أفضل بكثير، أنا سعيدة لأن أميد هنا»،حركت شرابها بمصاصة وضعتها فيه، «أخبرني أنه يريد، بعد الانتهاء من جلسات الإشعاع، تقديمنا لوالدي كيلي»، ابتسمت وعكست عيناها الأمل الذي يجلبه ابنها الذي يمثل اسمه خير تمثيل لها.

«سمية عزيزتي، أنت ملاك»، قلت بصوت منكسر، ترددت في اللحظة الأخيرة، ثم أضفت، «و... وأنا شرير للغاية».

تركت المصاصة من بين شفتيها واتسعت عيناها، ما الذي تعتقد أني على وشك أن أخبرها به؟

«أعلم أنه كان يجب عليَّ الاعتراف بهذا منذ زمن بعيد، لكني بحاجة لأن تسامحيني، سمية، أرجوك قولي لي إنك تسامحينني»، بدا أن سمية تزداد شحوبًا على شحوبها، لمت نفسي لأني أضيف معاناة إلى معاناتها، كان يجب أن أخفف عنها، لا أن أضيف من معاناتها.

«رضا، ما الذي تتحدث عنه»؟ قالت بصوت ضعيف، اقتربت منها وأمسكت يدها بكلتا يدي، «كنت جاسوسًا...»».

هزت رأسها ونظرت إليَّ بحيرة، عيناها نصف المغمضتين فقدتا البريق الذي جلبه أميد لها قبل دقائق، «أنت ماذا؟ جاسوس؟»، ناولتني كأس الحليب الذي لم تكمله، والذي بدأ يهتز في يدها، «لقد خنتك؛ خنت ابني، ووالداي، وجداي، خنت أصدقائي وخنت بلدي، أنا خجل مما فعلته لكم».

بقيت سمية هادئة وأنا أروي لها قصة حياتي، أخبرتها كيف فجر موت ناصر بركانًا في أعماقي، أخبرتها كيف دفعتني رسالة رويا لأن أصبح خائنًا والقتال من أجل جميع من هم مثلها، أخبرتها كيف اتصلت بوكالة المخابرات المركزية، وعن القصص التي لفقتها حول ما كنت أفعله في لندن، وكيف مارست العديد من الألاعيب المخجلة والخطرة معها، بدلًا من تحدي النظام مباشرة، اتبعت طريقًا جبانًا.

بهذا الاعتراف الأخير، أجهشت بالدموع، لم تقل سمية كلمة واحدة طيلة حديثي، الآن شدت رأسي إلى صدرها وراحت تملس شعري، «كفى، رضا، كفى»، لم أصدق أني وضعتها

فـي وضـع دفعها لأن تواسـيني بينما كانت بحاجة ماسـة لمن يواسـيها، زاد هـذا من خجلي، «لقد خنتك»، قلت من خلال دموعي، «كذبت عليك وخدعتك»، «رضا، لا تفعل هذا بنفسـك، أنت تمزق روحك، لم تقترف شيئًا خاطئًا»، نهضت لأواجهها، «لكن سمية جون، أنا جاسوس، خائن! كيف يمكنك أن تسامحيني»؟

سحبت البطانية إلى رقبتها وغطت جسدها بها، «كل ما أعرفه، رضا...» كانت ضعيفة لدرجـة أنهـا تجد صعوبة في الكلام، تطلبها الأمـر بضع ثوان قبل أن تواصل الحديث، «يجب ألا تخجل مما فعلته لبلدك».

أخـرج هـذا عبرة أخرى من أعماق قلبي، «سـمية عزيزتي، أحبك كثيـرًا، لكني أريد أن أعرف إن كنت تسامحينني على كل ما فعلته لك»؟

كان الوقـت قـد تجـاوز منتصف الليل، وبدت تعبة بشـكل لا يصـدَّق، لكنها مازالت تجد في نفسها القوة للتواصل معي، «رضا، أفهم سبب كذبك عليَّ، جميل أن أعرف بأني لم أضيع حياتي مع رجل مؤيد لنظام متوحش، الآن أعرف سبب تصرفك بتلك الطريقة»، كان صوتها يخفت، لكنها بقيت تكافح للبقاء مستيقظة، «كنت أرجو خلال كل تلك السنين ألا تكون واحدًا منهم، والآن أنا أعرف، أعرف أنك أردت حمايتي أنا وابننا، بالطبع أنا أسامحك، لكن عدني بشيء، ألا تستسلم، قل لكل العالم ما شهدته وما فعله هؤلاء المجرمون بنا».

جـرت دمعـة على وجهها، «أنت لسـت جبانًا، رضا، لسـت جبانًا»، همسـت قبـل أن تغلق عينيها.

****

كان أميد مقربًا من جده حين عاش في إنجلترا، لسـوء الحظ، حين انتقلنا إلى أميركا أصبحت وسيلة الاتصال الوحيدة هي الهاتف أو الزيارات النادرة إلى لندن خلال العطلات، تمكنا في النهاية من إقناع محب خان بالانتقال إلى لوس أنجلوس، وكان أميد يقضي أطول مـدة ممكنـة معـه حيـن يعود إلـى المنزل مـن الجامعـة، وأصبحا أقـرب إلـى بعضهما خلال انتخابـات 2008م الرئاسـية، التـي تميـزت بالإثـارة؛ لأن كل واحـد منهمـا كان يؤيـد مرشـحًا

مختلفًا، أميد أحب باراك أوباما في حين وجد محب خان أن سياسات الحزب الجمهوري أقرب لما يحب لذلك دعم جون ماكين.

«أميد عزيزي، السيناتور ماكين هو ما نحتاجه الآن»، قال محب خان حاسمًا الجدل خلال واحدة من المناقشات العديدة حول الموضوع، «يمكنه التخلص من الملالي في إيران، وإذا حل تلك المشكلة يمكنه تحقيق السلام في كامل الشرق الأوسط»، كان يرى لبنان، وطنه، الذي دمر في حرب 2006م بين حزب الله وإسرائيل، وكان يعتقد أن ما حدث كان نتيجة تسليح ملالي إيران لحزب الله والترويج لتدمير إسرائيل.

«جدي، أوباما نسمة من الهواء العليل، نحن بحاجة، بعد سنوات من الحرب والسياسة الخارجية المتطرفة، لأن نظهر للعالم أننا شعب عطوف، وتلك هي الطريقة الوحيدة لاستعادة الاحترام والسلطة، نحن بحاجة لتوحيد العالم لمحاربة التطرف الديني، يمكن أن يوفر أوباما الأمل في تحقيق ذلك».

عندها، قد يهز حماي رأسه، قائلًا: «هذه ليست سوى كلمات منمقة، التغيير، الأمل، نحن بحاجة إلى زعيم قوي ذي خبرة، هذا المدعو أحمدي نجاد ليس من نوع البشر الذي يمكن التفاوض معه، إنه معتوه».

قد يصبح أميد أكثر حدة في رده، «الأمل ليست مجرد كلمة منمقة، الأمل يمكن أن يجمع العالم كله مع بعضه، الإيرانيون داخل البلد بحاجة إلى الأمل، ومن المؤكد أنهم بحاجة إلى التغيير».

كنت أقف على الحياد في جميع تلك الحوارات، لدي آرائي، لكني لا أريد أن أفرضها على ابني أو على جده، أجد أن حوارهم حماسي ولا أريد حرف النقاش في أي من الاتجاهين، ما زلت أجد متعة في رؤية كيف أن أناسًا يحبون بعضهم في أميركا ويختلفون بشكل صاخب دون خوف من العواقب، يعيدني هذا إلى أيام الجُمع في طفولتي إلى آغا جون وداود، أجد أن التبادلات من هذا النوع ملهمة، وحين أسمعها أدعو الله أن يتحرر الإيرانيون وأن يعودوا قريبًا للانخراط في مثل هذه النقاشات.

«الأمل كلمة قوية، عزيزي محب خان»، قلت سامحًا لنفسي أن بأن أساهم بهذا القدر فقط، «من المؤكد، أننا جميعًا نستطيع أن نشهد على ذلك».

تعرف سمية أكثر من أي شخص آخر في هذه الغرفة مدى قوة هذه الكلمة، بما لديها من أمل تغلبت على معركة الحفاظ على حياتها ومضى على تحررها من السرطان ثلاث سنوات، ومع استمرار هذا النقاش، جلست إلى جوار كيلي ووضعت يدها على بطن كنتها لترى إن كانت تستطيع تحسس حركة حفيدها، مع شفائها وقرب أسرتها منها الآن، حيث استأجر أميد وكيلي مكانًا قريبًا من بيتنا، ومع طفل ابنها القادم على الطريق، كانت سمية أبلغ تعبير عن الأمل.

واصل محب خان وأميد تبادل الآراء طيلة موسم الانتخابات، وفي ذلك الحين، شاركت باقي العالم آرائي بكتابة مقالات في مختلف وسائل الإعلام تحدثت فيها عن العلاقة ما بين الانتخابات الأميركية وتطلع الملالي لغزو إسلامي للعالم، بالطبع، استخدمت اسمًا مستعارًا -اسمًا مختلفًا عن الأسماء التي اتخذناها حين جئنا إلى أميركا- لإخفاء هويتي، بعد اعترافي لسمية، اتفقنا على أنه من الأسلم إبقاء هذا السر ما بيننا إلى الأبد، لكن، وكما وعدتها، قررت أن أطلع العالم على ما شهدته، الحقيقة البسيطة هي أن للغرب نفوذًا هائلًا على سياسيات إيران -بغض النظر عما قد يقوله الملالي- وأعلم أنه ثمة فرصة أمام الرئيس الأميركي المقبل لإعطاء شبان وطني أول لمحة حقيقية من الحرية، وبغض النظر عن أي المرشحين سيفوز فقد دعوت ألا يكرر الأخطاء التي ارتكبها أسلافه في محاولتهم استرضاء النظام، حين فاز باراك أوباما في اليوم ذاته الذي ولد في حفيدنا آريا، رأيت في ذلك إشارة إيجابية.

مع ذلك، وبقدر ما كانت أسرتنا تشع بالأمل، ظلت إيران تواجه أوقاتًا عصيبة، محمود أحمدي نجاد، الرئيس الحالي لإيران، وهو إسلامي متطرف ضيق الأفق، وصل إلى السلطة عن طريق رجال الدين أنفسهم الذين قوضوا تمامًا جهود الرئيس السابق خاتمي في الإصلاح، وهم: المرشد الأعلى علي خامنئي، وآية الله مصباح يزدي، وآية الله جنتي المؤمنون الحقيقيون بالمهدوية الذين ينتظرون ظهور المهدي، الإمام الثاني عشر للشيعة، الذي سيحكم العالم قبل نهاية الزمان.

أصـدر أحمـدي نجـاد يوم كان رئيسًـا لبلدية طهران، وقبـل أن يصبح رئيسًـا، تعليمات سرية لمجلس المدينة بشق طريق للمهدي خصيصًا يقود إلى مسجد جمكاران، وحين أصبح رئيسًـا، خصص الملاييـن من الدولارات لتحسـين المسـجد لعودة المهـدي للظهور من بئر قريب يعتقد الرئيس وآخرون أن الإمام الثاني عشر سيخرج منه.

مثـل كثيريـن يفكـرون كمـا يفكـر، يعتقـد أحمدي نجـاد بـأن الكثير من علامـات عودة المهـدي قـد ظهـرت، تلك العلامـات التي وردت -حسـب اعتقادهـم- في الأحاديـث النبوية تتمثل في غزو أفغانسـتان، وحمام الدم في العراق، وانهيار الاقتصـاد العالمـي، وفقًا للنبوءة، سـتزداد الأوضـاع اضطرابًـا مـع قرب عـودة المهدي، سـيعم (الاضطهاد والظلـم) الأرض، و(الفوضـى والمجاعـات)، و(الكثير من الحروب)، تتنبأ الأحاديث بأن (الكثيرين سـيقتلون وسـيعاني الباقـون من الجوع وانعدام القانون)، أمثال أحمدي نجـاد مقتنعون تمامًا بأن تلك الشـروط سـتعجل فـي عودة الإمام الثاني عشـر بحيث إنهم مسـتعدون لإثارة حـرب عالمية، وفوضى، ومجاعات لتحقيقها.

بعـد هجمـات 11 أيلـول وسـقوط حركـة طالبـان، رأيـت أننـي بحاجـة لتفعيـل حفنة من المصـادر فـي إيران، يبدو أن العالم يميل إلى تبرئة الحكومة الإسـلامية من تلك الهجمات، لكنـي أعـرف بـأن للملالي -على الأغلب- يد في أي عمل إرهابـي موجه ضد أميركا، أبلغتنـي مصـادري أن الحرس الثوري كان يؤوي أفرادًا مـن القاعدة، وأن لأحمد وحيدي صلات قوية بمنظمة ابن لادن، في الماضي حين كنت أعمل مع وكالة المخابرات الأميركية، بعثت بتقرير عـن وحيـدي، وكان يشـغل يومهـا منصب ضابـط مخابرات كبير في الحرس الثـوري، وكان متورطًـا فـي تفجير ثكنات قوات المارينز في بيروت، إضافـة إلى عدد من الأعمال الإرهابية الأخرى، من ضمنها تفجير المركز اليهودي في بوينس آيرس عام 1994م، وجهت له على أثرها مذكـرة اعتقـال مـن قاض أرجنتينـي وأصـدر الإنتربول بحقه إنذارًا أحمـر، في العام 2008م، أصبـح وزيـرًا للدفـاع بالوكالة (وهو اليوم وزير للدفاع)، يشـرف على برنامـج إيران المتعلق بالصواريخ الباليسـتية والبرنامج النووي الذي له هدف وحيد: الحصول على القنبلة، علمت من مصادري أيضًا بأن الحرس الثوري يدير عمليات سرية متعددة من أجل مشروع قنبلتهم النوويـة، وأن ذلك المشـروع مقام في مكان سـري تحـت الأرض غرب مقاطعـة مازانداران،

وهي منطقة جبلية شمال إيران، هذا الكشف الأخير كان بمثابة تحول بالنسبة لي حين يقترن مع ما عرفته بنفسي- لقد أصبحت أكثر حذرًا لما يحيط بي وأكثر تنبهًا لأنشطة الإسلاميين المتطرفين في الولايات المتحدة، وأدركت أني بحاجة لإشراك الناس بما أعرفه، وحيث إنه لم يعد لي حلقة اتصال، فقد اتصلت بقيادة وكالة المخابرات المركزية في فيرجينيا لترتيب اجتماع مع العميل المحلي.

كانت لدي آمال بأن تكون إدارة أوباما أشد حزمًا مع حكومة إيران الإسلامية، خاصة بالنظر إلى ما يعرفونه عن أنشطة النظام النووية، إلا أن باكورة أعماله تجاه الملالي كانت مخيبة بالنسبة لي، بعث بتهنئة بمناسبة السنة الفارسية الجديدة دعا فيها إلى علاقات أفضل بين أميركا وإيران، وكرر هذا الأمر في رسائل إلى آية الله خامنئي، بالنسبة لي، كانت تلك حالة محزنة عن عدم التعلم من التاريخ، مرة أخرى يرفض السياسيون الأميركيون رؤية أن الملالي ليسوا رجالًا منطقيين، وأن عداءهم لأميركا متجذر في تفسير نبوءة تدعو للقضاء على الغرب وعلى غير المسلمين، أعلم أن النظام سيرى في مناشدات أوباما علامة ضعف، وأن هذا سيشجعهم على اتخاذ خطوات أكثر تطرفًا.

في حين واصلت تلقي المعلومات من حلقات اتصالي داخل إيران، بذلت كل ما في وسعي للاهتمام بأسرتي، صيف العام 2009م كانت فترة مثالية عامرة بالفرح في أسرتنا، فقد وقعت أنا وسمية في حب حفيدنا، «أوه! إنه يشبه أميد تمامًا»، قد تقول سمية كلما حملت آريا، تلألأ منزلنا بحضور هذا الطفل الجديد، وبالرغم من أننا لم نناقش قط اعترافي عند فراش مرض زوجتي، أعتقد أن الطفل ساعد على تعافي ما بقي من جروح تسبب بها ذلك الاعتراف.

في بداية الصيف، أخبرتني سمية أنها لن تعود إلى العمل في الخريف المقبل، أرادت البقاء في البيت حيث يمكنها قضاء المزيد من الوقت مع حفيدها حين يكون أميد وكيلي في العمل، ولن تفتقد أطفال المدرسة الابتدائية بوجود آريا معها.

تمنيت لو أن إيران نالت شيئًا من الفرح الذي نلناها ذلك الصيف، بدلًا من ذلك، بقيت مصدر ألم ووجع قلب لنا جميعًا، عناوين الأخبار العالمية أبرزت خروج شعب وطني إلى

شوارع طهران للاحتجاج سلميًّا على الحريات التي شعروا أن النظام سرقها منهم، جرت انتخابات رئاسية، تختلف تمامًا عن انتخابات أوباما- ماكين، بين أحمدي نجاد والإصلاحي مير- حسين موسوي، عشية الانتخابات، كانت جميع المؤشرات تشير إلى فوز كاسح لموسوي، أبلغه مسؤولو وزارة الداخلية بأنه سيفوز، وهنأه علي لاريجاني، رئيس البرلمان، على الفوز، ثم دخل رئيس الحرس الثوري إلى مقره ليبلغه بأنه سيتم الإعلان عن فوز أحمدي نجاد في اليوم التالي، أخبروا موسوي بأن عليه ألا يعترض؛ لأن هذا في مصلحة الجمهورية الإسلامية، وأن هذه النتيجة حصلت على موافقة المرشد الأعلى.

نتيجة (لفوز) أحمدي نجاد بفترة رئاسية ثانية، وعدم قدرة الشعب الإيراني على تقبل هذا الأمر أكثر من ذلك، وجدت أن من الملهم رؤية شبان بلادي يعلنون بصوت عال عن رغبتهم بالتغيير، في مشاهد الجماهير التي بثت في أميركا، رأيت ناصرًا، ورويا، وسهيلًا، وبارفانا، رأيت المحتجين مثل رعاة حديقة آغا جون المليئة بالزهور، جيل جديد ينثر بذوره في تربته، ويغذي الحرية في بلده الضائع، ويساعدها كي تزهر من جديد، أقوياء ومتحدون ومستعدون لتخليص أنفسهم من الآلام التي جلبها عليهم أبناء جيلي، حتى من دون دعم الغرب، سيحدثون تغيير، إنهم يصعدون حركة بدأت بعد لحظات من خيانة الخميني لإيران حين كذب علينا بشأن نواياه، كان مسؤولًا عن مقتل مئات الآلاف واستمر القتل خلال العقدين التاليين لوفاته، لا يمكن لأي شخص أن يقتل روح هذه الحركة.

استقطبت الاحتجاجات انتباه العالم بصورة غير مسبوقة، كانت إيران محور عناوين الأخبار على مدى أسابيع، وشجب قادة العالم نتيجة الانتخابات والطريقة التي رد بها النظام الموحش على الاحتجاجات، مع بقاء أنظار العالم مسلطة عليهم، يقاتل الملالي والبلطجية اللذين يتلقون الأوامر منهم بشراسة للاحتفاظ بالسلطة التي لم تكن من حقهم أبدًا، مستخدمين القوة المفرطة لإنكار أن زمنهم قد ولى، حين قتل الباسيج الشابة ندا آغا سلطان بالرصاص في أثناء وقوفها في مكان قريب من مظاهرة احتجاج، أصبحت ندا رمزًا دوليًّا على الكفاح من أجل الحرية، وعلى استخفاف النظام الكامل بالحياة الإنسانية، طردت الحكومة جميع الصحفيين الأجانب خارج البلد لقمع وسائل الإعلام، لكنهم لم يستطيعوا منع فيديو مقتل ندا من الوصول إلى جميع أنحاء العالم.

بينما كنت أضع اللمسات الأخيرة على هذا الكتاب، أفشل النظام، على ما يبدو محاولة أخرى للإصلاح، في أواخر أيلول 2009م، تحدث أحمدي نجاد في الأمم المتحدة بلهجة متحدية، وبعدها بأيام اختبرت إيران صاروخًا بعيد المدى، إضافة إلى ذلك، تم الكشف عن منشأة نووية أخرى، لم تكن المنشأة التي كان لدي معلومات عنها، ما يعني أن هناك منشآت أخرى لم يتم الكشف عنها، اقتصر الرد الأميركي حتى الآن على السعي لإقامة تحالف دولي لتفعيل أقسى العقوبات في مسعى لإجبار الحكومة الإسلامية على المشاركة بشكل منصف في المجتمع الدولي، قد تستهدف العقوبات دخل إيران من النفط إضافة إلى أشياء أخرى، وقد تكون مدمرة إذا كان هناك تحالف حقيقي، لسوء الحظ، لم يتحد العالم لتأييد العقوبات ضد إيران في السابق؛ لذلك، ثمة أمل ضئيل للاعتقاد في أنهم قد يفعلوا هذه المرة.

في حين يبدو أن النظام يقف بقوة، إلا أنني أعتقد بأن حكم إيران بقبضة حديدية مقبل على نهايته، فقد أعلن الشعب الإيراني للعالم أجمع أنه يريد الحريات التي هي من حقه منذ الولادة، ولن يقبلوا بأقل من ذلك.

قبل ثمانية وعشرين عامًا، بدأت مسعى لتحرير شعبي، ولم توصلنا جهودي إلا لهذا الحد، أما الآن فتتشكل حركة لا يمكن مقاومتها، ستتحرر إيران مجددًا، وحين يحل هذا الوقت، سوف أفرح، على الرغم من وجع القلب الذي تحملته والعار الذي شعرت به حين لجأت إلى الخيانة.

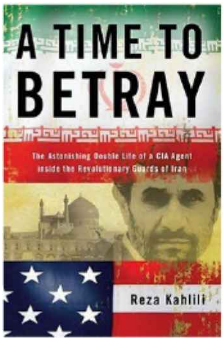

في دوري بصفتي العميل (ولي)، قد أجمع حقائق ومعلومات لا يمكن الوصول إليها إلا لشخص لديه الصلات التي لدي، ثمة خطر كامن في هذا العمل؛ لأن النظام يبحث دائمًا عن الجواسيس، وحين تبادر الولايات المتحدة للقيام بعمل بموجب تلك المعلومات، فسوف يطلق ذلك صفارة إنذار في صفوف الحرس الثوري، فكم ستستغرق عملية تتبع مصدر التسريب ليصلوا إليّ؟

بصفتي (رضا)، العضو في الحرس الثوري، كان دوري يفرض عليّ أن أبدوا وأتصرف كمسلم ملتزم يطبق جميع القواعد التي وضعها الملالي، اللحية السوداء الكاملة من الإضافات الإلزامية للبزة العسكرية التي يرتديها الحرس، وقد أطلقت لحية مثل أي شخص آخر في الحرس، صورة رجال الحرس العابسين بلحاهم السوداء وملابسهم الرسمية كانت تثير الخوف وتستقطب الاحترام، لعبي لدور المتعصب لم يأت بشكل طبيعي، فقد كانت هناك أوقات توجب عليّ فيها القيام بأفعال تفزعني: تحذير الفتيات الشابات والطلب إليهن أن يغطين أنفسهن؛ نهر الصبية لعدم اتباعهم السلوك الإسلامي المناسب؛ تقمص شخصية المتعصب، حين أعود بذاكرتي إلى إيران الآن، أعلم أنه يتعين عليّ محاولة إقناع نفسي بأن القيام بتلك الأفعال مكنني من تنفيذ دوري؛ وتنفيذ دوري مكنني من المساهمة في فضح المنظمة التي مثلت بحماس بالغ دور الانتماء إليها.

موضوع الكتاب: الجاسوسية
ISBN 978-6-0350910-6-0
9 786035 091060

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing
نلهم المعرفة
Inspiring Knowledge

Obeikan Reader
@ObeikanPub